وردة

صنع الله إبراهيم

وردة

تأليف
صنع الله إبراهيم

هنـــداوي

وردة

صنع الله إبراهيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٧ ٣٦٥٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ صنع الله إبراهيم.

المحتويات

قبل أن تقرأ	٩
١- القاهرة	١٣
٢- مسقط	١٥
٣- القاهرة	٥١
٤- مسقط	٦٥
٥- بيروت	٧٥
٦- مسقط	١٠٥
٧- جبال ظفار	١١٣
٨- مسقط	١٦٧
٩- جبال ظفار	١٧٥
١٠- مسقط	٢١١
١١- صلالة	٢١٧
١٢- جبال ظفار	٢٤٧
١٣- صلالة	٢٧٥
١٤- جبال ظفار	٢٧٩
١٥- صلالة	٣٠٧
١٦- الربع الخالي	٣٢١
١٧- صلالة	٣٥٩
١٨- مسقط	٣٦٧

تذييل ٣٩٧
شكر واجب ٣٩٩
أهم المصادر ٤٠١

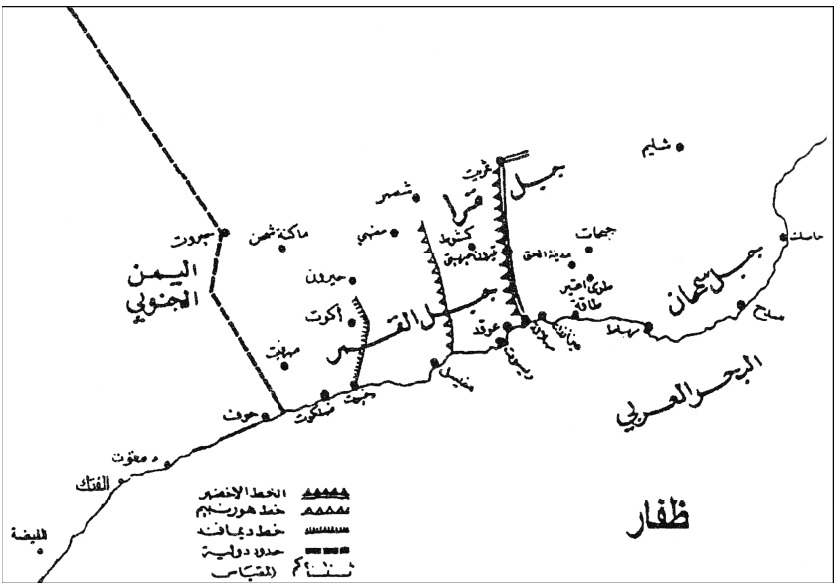
اليمن الجنوبي
جبل القمر
جبل قرا
جبل عمان
البحر العربي
ظفار
شليم
حصك
صلالة
طاقة
مرباط
رخيوت
جبروت
ماكنة شحن
منهي
شحر
حيدن
أكوت
مهيت
حوف
صكوت
مغيوت
الفتك
البيضة
الخط الانضم
خط هوريم
خط دبافت
حدود دولية
المقياس

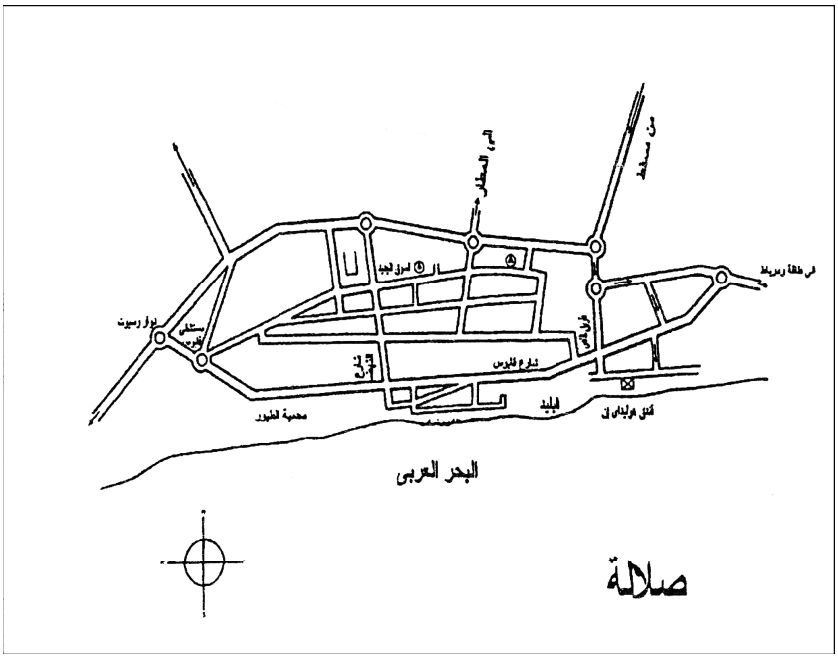
البحر العربى
صلالة

قبل أن تقرأ

واكبَت سنواتُ مُراهَقتي نهايةَ العهد الملكي في مصر. كانت البلاد تَموج بدعوات التحرُّر الوطني من الوجود الإنجليزي العسكري، والتحرُّر الاجتماعي من سيطرة الإقطاع، ومن الأُمية والمرض والحَفاء! ... وشكَّلت هذه البيئة وجداني، وخاصةً الحديثَ عن أن المعرفة هي كالماء والهواء يجب أن تكون للجميع وبالمجَّان.

وفي مغربِ يومٍ من سنة ١٩٥١م، كنا أنا وأبي عائِدَين من زيارةٍ لأحد أقاربنا في شرق القاهرة. توقفنا في ميدان العتبة لنأخذ «الباص» إلى غربها حيث نقطن. اتخذنا أماكننا في مقاعد الدرجة الثانية. نعم! كانت مقاعد «الباص» آنذاك — والترام أيضًا — مُقسَّمة إلى درجتَين بثمنَين مُتفاوتَين للتذاكر التي يُوزِّعها «كمساري» بِرداءٍ أصفر مميز أثناء مروره على الرُّكاب.

جلسنا أنا وأبي خلف الحاجز الزجاجي الذي يَفصل الدرجتَين، وتابَعتُ في حسدٍ رُكابَ الدرجة الأولى، بينما كان أبي غارقًا في أفكاره التي تُثيرها دائمًا أمثال هذه الزيارات.

قلتُ بحماسٍ طفولي: «سيأتي اليوم الذي يزول فيه هذا الحاجز، بل ويصبح الركوب بالمجَّان.»

تَذكرتُ الروايات التي أعشق قراءتَها فأضفتُ: «والكتب أيضًا!»

تَطلَّع إليَّ باستياءٍ من سذاجتي: نعَم! الكتب بالمجَّان؟ يا لها من سذاجة!

ولم أتصوَّر وقتَها أن يأتي اليومُ الذي تُصبح فيه كتبي أنا متاحةً للقراءة بالمجَّان! وذلك بفضلِ مُبادَرةٍ جريئة من مؤسسةٍ مصريةٍ طَموحة، فشكرًا لها!

صنع الله إبراهيم

بعض الأشخاص والوقائع في الصفحات التالية من صميم الواقع والبعض الآخر من نسج الخيال ... لهذا من الأفضل أن تقرأ على أنها ... رواية؟

ص. إ.

الفصل الأول

القاهرة

سبتمبر ١٩٩٢

عندما أزمعت السفر، كفت عن المجيء إلى أحلامي. وكانت تتردد عليَّ بصفة مستمرة في الآونة الأخيرة. ودومًا ألقاها وسط حشد من الناس، مضطجعين فوق الأرائك، كما في الصور الرومانية، أو الجنة. أحيانًا في قاعة ممتدة وأحيانًا أخرى فوق ظهر سفينة. وفي كل مرة تلتفت نحوي وفي عينيها نظرة غامضة، تجمع بين التساؤل والتواطؤ، والإغواء. أقترب منها مندهشًا من استجابتها حتى أُصبح إلى جوارها. وتُشجعني بابتسامة خفيفة من شفتيها، فأزداد اقترابًا حتى ألمسها، ويصبح ساقي لصق ساقها، عندئذٍ تواجهني بكل جسمها، ودون أن تعبأ بمن حولنا تجذبني إليها، حتى أشعر فوق جسمي المتوتر بالتفاصيل الدقيقة لثنايا جسدها وطياته الدفينة. وبينا أتلصص النظر للآخرين خشية أن يتبين أحدُهم ما يجرى، تتصاعد نشوتي حتى تبدأ في الفوران. وقبل أن تصل إلى مداها، يتغير المشهد على نحو مفاجئ. مرات معدودة فحسب، كانت فيها عاطفتي من الحدة بحيث اجتاحت كل السدود وخلفتني عند اليقظة، بعدها مباشرة، مبللًا، متوهجًا راضيًا.

كان تجليها دائمًا قويًّا، فائق الوضوح، بالغ التأثير، يلاحقني بعد اليقظة، فأظل تحت تأثير حضورها الفعَّال، وأفقد كل حس بالواقع، فلا أعود قادرًا على التمييز بينهما، وأظل لبعض الوقت تحت وهم أني كنت أسترجع ذكرى وقعت بالفعل في الماضي. وأعجب للملابسات التي جعلتها هي بالذات، تطفو فوق سطح ما مر بي من أحداث ونساء منذ آخر مرة رأيتها فيها، فعلًا، قبل أكثر من ثلاثين سنة، على الرغم من أن معرفتي بها لم

تكن وثيقة بل عابرة، لم تتوطد أبدًا بالصورة التي تراءت لي في الحلم، ولماذا اختارت، أو اخترت أنا في حقيقة الأمر أن تتجلى فجأة وبقوة في هذا الوقت بالذات، الذي أخطو فيه حثيثًا إلى العقد السادس من عمري، الذي رُبَّما سيكون الأخير؟

الفصل الثاني

مسقط

ديسمبر ١٩٩٢

١

قال فتحي وهو يشدُّ حزام الأمان حول صدره: ضع الحزام يا بني وإلا ضعنا. المرور هنا صارم وليس كما في بلدكم.

أردت أن أقول بأنه لم يعد بلدنا، لكني لم أشأ أن أكون البادئ بنقاش عقيم. انصعت لطلبه بينما كان ينطلق من ساحة المطار. وتعثرت في محاولة تثبيت الحزام، فأعطيته فرصة للسخرية مني.

كان أكبر مني في السن قليلًا، وأكثر بدانة، وأكثر مرحًا بالتأكيد، لا يتوقف عن الدندنة بجمل موسيقية متنوعة من الموسيقى العربية أو الكلاسيكية الغربية والأوبرات وبعضها من تأليفه، فقد كانت هذه صناعته. وكان يرتدي قميصًا بأكمام قصيرة، فبدوتُ غريبًا إلى جواره بملابسي الكاملة. هممت بخلع سترتي فاستوقفني قائلًا: خليها السيارة مكيفة.

قلت: إني لم أتوقع هذا الطقس ولهذا فكل ملابسي شتوية.

قال: ليست مشكلة. غدًا نشتري لك كل ما تحتاج إليه.

قاد السيارة اليابانية فوق طريق ممهدة مرصوفة جيدًا مثل الحرير تضيئها المصابيح العالية، تخلو من أي أثر للحياة وتعترضها مطبات بارزة واضحة كان يتمهل عندها ثم يلوي السيارة قليلًا ليعبرها بزاوية كما تنص القواعد تمامًا. وبعد عدة ميادين بدأت المنازل الحديثة تظهر على الجانبين وأغلبها لا يتجاوز ارتفاعه طابقًا واحدًا.

قال: تذكَّر هذا الطريق دائمًا، فهو الرئيسي. اسمه شارع قابوس، وهو أطول شارع هنا وينتهي بالميناء. ميناء قابوس.

أضاف بعد برهة: ستمر حالًا بمدينة قابوس الجديدة على اليمين.

قلت: كل حاجة باسمه؟

قال: زيِّنا بالضبط. على أي حال حقه، فهذا البلد لم يكن شيئًا قبل أن يتولى الحكم.

لحظت أنه يقود السيارة بحرص رغم أن السيارات المارة كانت معدودة. وكنت أعرفه في القاهرة سائقًا متهورًا. توقف أمام إشارة حمراء، رغم أن سيارتنا كانت الوحيدة عند جانبي التقاطع، ولم يكن هناك أثر لعابرٍ، ثم أدركت السِّر عندما ظهرت سيارة شرطة إلى جوارنا.

قال وهو يستأنف السير: إذا أردت القيادة هنا لا بُدَّ أن تستخرج رخصة جديدة بامتحانٍ جِدِّي. هم لا يعترفون بالرخصة المصرية.

قلت: معي رخصة دولية.

قال: ولو، لا بُدَّ من رخصة عمانيَّة. إنهم يعرفون طريقة استخراج الرخص عندنا.

وبدأ يدندن أحدث أغاني المطرب الفرنسي الجزائري الشاب خالد وتوقف لحظة ليقول: لم أستغرب أن يستغرق إعطاؤك التأشيرة عدة شهور. فهذا عادي هنا، لكن الغريب أنهم أعطوها لك في النهاية.

لم يكن الأمر غريبًا لهذه الدرجة. فقد جرت مياه كثيرة في الأنهار منذ وقت طويل.

تأملت كُتَلَ الطلاء المحيطة بِنا ولم نلبث أن أشرفنا على منطقة سكنية حديثة، مضاءة ومنظمة، يرتفع في مدخلها فندق شيراتون عتيد.

– وصلنا.

كانت الشوارع هادئة تصطفُّ على جانبيها السيارات المركونة، وتطلُّ عليها الواجهات الزجاجية المضاءة لحوانيت عامرة بالأجهزة الكهربية والملابس والنظارات ولعب الأطفال. تنقلنا بينها طويلًا إلى أن وجدنا مكانًا لسيارتنا.

تحررت من حزام المقعد وعاونني في إخراج حقيبتي من الشنطة الخلفية، ثم استمهلني حتى قام بتشغيل جهاز الإنذار المثبت داخلها.

سألته: الحرامية كتير؟

قال: نادرًا ما يجرؤ أحدٌ على السرقة فالشرطة حازمة. مجرد شبهة السرقة تؤدي إلى ترحيل السارق فورًا.

استغربت: ترحيله إلى أين؟

أجاب: إلى بلده. السارق لا يُمكن أن يكون عمانيًّا لأنهم لا يحتاجون، هو إذن لا بدَّ أن يكون من العمالة الأجنبية، هندي أو باكستاني أو فليبيني. فهم الذين يتولون الأعمال ذات الأجر المنخفض.

كانت حقيبتي من النوع المزود بمقبضين على الجانبين، فأمسك كل منا بمقبضٍ وحملناها بيننا عبر عدة شوارع. ولجنا عمارة حديثة من أربعة طوابق، يحتل الطابق الأرضي منها مكتب للسفريات والشحن. وأقلَّنا المصعد إلى الطابق الثالث.

أخرج مفتاحًا من جيبه وهو يقول: شفيقة نامت من ساعتين.

فتح الباب في هدوء وولجنا صالة صغيرة تتوسطها مائدة طعام. اتجهنا يمينًا إلى قاعة مضاءة تتصدرها خزانة تضم بعض الكتب والأواني الخزفية وجهاز تليفزيون ضخم.

ارتميت في مقعد بينما أدار جهاز التليفزيون بواسطة المفتاح المتنقل. وطالعتنا صورة السلطان المعلقة خلف ظهر مُذيع يقرأ نشرة الأخبار الأخيرة. كان يتحدث عن معرض للزهور في مكان ما من أوروبا، عُرضت فيه واحدة حمراء تحمل اسمه. أراد فتحي أن يُحول القناة فاستمهلته.

تحدث المذيع عن تاريخ الزهرة وكيف أن جمعية الزهور الهولنديَّة هي استنبتتها بعد سنتين من الجهد والتجارب، وأنها تتميز ببهاء لونها وزكاء رائحتها وطول ساقها. وقد أطلقت اسم قابوس عليها تقديرًا لإسهامه الشخصي في تنمية العلاقات الدولية. وتسلم السلطان المعظَّم الزهرة التي ستحمل اسمه إلى الأبد في احتفالات العيد العشرين للسلطنة.

انتقل المذيع إلى أخبار الرياضة، فأغلق فتحي الجهاز وهو يدندن أحد الألحان الأمريكية محركًا جسمه البدين مع الإيقاع في رشاقة حسدته عليها: تعالَ أريك حجرتك.

حملت حقيبتي وتبعته إلى غرفة في نهاية طرقة طويلة، تضم كنبة تكوَّمت الأغطية والوسائد فوقها، ومكتبًا صغيرًا يحمل كومبيوتر وجهاز ستريو ضخمًا. وفي الصدر، أسفل نافذة عريضة، استقر بيانو إلى جوار مقعد بمسندين.

قال: للأسف ليست هناك خزانة للملابس.

قلت: لا يهم. سأترك كل شيء في الحقيبة.

قال: تصبح على خير.

قلت: وأنت من أهله.

وضعت حقيبة يدي فوق المكتب. واستخرجت من حقيبة السفر بيجامة وخُفًّا ومنشفة وأدوات التواليت. اكتشفت أني أضعت شالًا من الصوف أحضرته معي تحرزًا

من تيارات الهواء وخوفًا من تقلبات الجو. وتذكرت أني كنت أضعه حول رقبتي في الطائرة. ولم أخلعه عندما توقفنا في مطار الدوحة الكوزموبيليتاني لنستبدل الطائرة. وكنت أحمله في يدي عندما دخلت صالة الترانزيت واستخدمت حمامها الفخم، لكني لا أتذكره بعد ذلك. فهل نسيته في الحمام؟

استعرضت شريط الرحلة من لحظة صعودي إلى الطائرة في مطار القاهرة. كررت ذلك عدة مرات. وفي كل مرة كان الشريط يتمهل عند حمام مطار الدوحة عندما وقفت أغسل يدي إلى جوار شاب ممتلئ القامة ذي ملامح بدوية سمراء ورأس حليقة، في قميص حريري وبنطلون واسع على المودة. كان منهمكًا في حلاقة ذقنه وقد تناثرت أمامه فوق حافة الحوض العريضة في فوضى تامة مجموعة من أنابيب المعاجين والقناني والرشاشات المختلفة الأحجام والألوان فبدا الحوض كمائدة زينة لإحدى الغواني، وكان لا يفتأ ينحني فوق حقيبة يد مفتوحة بجوار قدميه ليستخرج منها دهانًا أو رشاشًا معطرًا أو مرطبًا أو مزيلًا للرائحة.

أدركت فجأة لماذا التصقت صورة الشاب في ذاكرتي. فقد ذكرتني حركاته الهوجاء بـ «يعرب» الذي كان في نفس السن عندما تعرفت عليه منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وكان يشغل دائمًا مساحة كبيرة من حوله تتناثر فيها، لا المعاجين وأدوات الزينة، وإنما الكتب والسجائر والفواكه، بينما لا يكف عن التلويح بيديه وهو يردد بانفعال: تصوروا!

استبدلت ملابسي وحملت حافظة أدوات التواليت الصغيرة إلى الحمام فاغتسلت ودعكت أسناني، ثم عدت إلى الغرفة وارتميت في المقعد المجاور للبيانو وأنا أتثاءب. تناولت الصحف الخليجية التي جمعتها خلال الرحلة ولم أقرأ منها غير العناوين. قرأت افتتاحية تشكو من أن الكويت خرجت من كارثة الاحتلال العراقي إلى براثن حرب استنزاف أشق وأدهى، تمتص دماءها قطرة قطرة. فهي تدفع مليارات الدولارات باسم الأمن والتنسيق والتسليح والتدريب، ونقلت الصحيفة عن الإيكونوميست البريطانية مساعي بريطانيا لأن تبيع للسعودية ٤٨ قاذفة مقاتلة من طراز تورنادو قيمتها حوالي ٧ مليارات دولار وهي ثاني أكبر صفقة للأسلحة من نوعها. وبلغت قيمة الصفقة الأولى ١٥ مليار دولار أي ٣٣ ألف وظيفة للبريطانيين في البلدين. أما الصفقة الجديدة فتتيح الحفاظ على وظائف ١٩ ألف بريطاني في المصانع التي تخلصت من آلاف العمال في بداية العام.

تثاءبتُ مرة أخرى، فوضعت الصحيفة جانبًا. وقمت إلى النافذة ففتحت مصراعها الزجاجي، شعرت على الفور بسخونة الهواء في الخارج. تأملت الشوارع الهادئة الخالية

من كل حركة أو صوت فيما عدا طنين أجهزة التكييف. وكانت أضواء المصابيح تتلاشى بعد مسافة قريبة وتبدو خلفها كتلة من الظلام الكثيف. وعندما أَلِفَت عيناي الظلام تبينت فيها سلسلة من الجبال السامقة الموحشة.

٢

بدت المدينة في ضوء النهار مجموعة من الطرق السريعة والكباري العلوية والمنازل الحديثة التي تشترك في طراز موحد، تتخللها الخضرة وتحيط بها الجبال الجرداء.

قال فتحي وهو يقود السيارة في اتجاه الميناء: هذا المشوار الذي نقطعه في دقائق كان يستغرق نصف يوم في الماضي، كانت الجبال تفصل بين مناطق العاصمة فصلًا تامًّا، ثم شَقَّ قابوس هذا الطريق الذي ربط بينها.

ما إن اقتربنا من البحر حتى ضاقت الطرقات وظهر البشر، اتجهنا يسارًا على الكورنيش فتزايد الزحام الذي طغى عليه العنصر الهندي. أتتنا رائحة السمك قوية نفَّاذة، ومررنا من أمام مبنى صغير على البحر تجمَّع أمامه الناس.

– سآتي بك مرة إلى هنا لترى أنواع الأسماك العجيبة وتسمع الأهازيج التي يرددها الباعة أثناء تنظيفها، ستجد بينهم من عاصَرَ الاستعمار الإنجليزي في أفريقيا، وربما من شهد حملة جوردون باشا في السودان.

أومأ إلى بوابة ضخمة بجوار سوبر ماركت على الناحية المقابلة تبدو من خلالها أزقة ضيقة مظلمة، وقال: هذا حي اللواتية.

علق عندما رأى التعبير الذي ظهر على وجهي: لا تتسرع. هؤلاء من الشيعة الذين جاءوا من حيدر أباد في قديم الزمان. أغلقوا عليهم الحي زمنًا طويلًا، ولم يكونوا يسمحون لأحد غيرهم بدخوله.

أراد أن يريني يخت السلطان الفاخر الرابض في الميناء، لكن بصري تعلق بمشهد أكثر سحرًا. ففيما يشبه الميدان الصغير، وقفت امرأة في جوبة داكنة طويلة تبلغ القدمين تعلوها بلوزة سماوية اللون بنصف كم تزين الأشرطة السوداء كتفيها. كانت تضع على رأسها، الملفوف بطرحة بيضاء، قبعة صغيرة زرقاء، وتحمل في خاصرتها مسدسًا، بينما تنظم المرور بحركات رياضية من ساعديها.

دخلنا باحة مخصصة للانتظار، وانطلقنا سيرًا على الأقدام فوق رصيف أُعدت حوافه بدقة متناهية كما هو الأمر في أرقى العواصم الأوروبية.

كنا في شبه خليج تشرف عليه قمم الجبال، وأسفلها دائرة من المنازل الصغيرة ذات الطابع القديم رغم حداثة طلائها، لم يكن أغلبها يزيد عن طابقين، تتألف واجهاتها البيضاء من عدة نوافذ طويلة متجاورة، زرقاء اللون، يعلو كل منها قوس مزخرف تتجه فتحته إلى أسفل.

اجتزنا فُرجة ضيقة بين منزلين فأصبحنا كأننا في سوق الحميدية بدمشق أو خان الخليلي في القاهرة.

قال: أنت طبعًا لن تشتري قميصًا بمائة جنيه أو مائتين! لهذا لم آخذك إلى حوانيت بنيتون ولاكوست وجوفيال. هنا سنجد لك قميصًا بريال أو ريالين.

ضاعفت الريال ثماني مرات لأتبين الثمن بالجنيه المصري وهززت رأسي موافقًا.

مضينا في حوارٍ نظيفة مسقوفة على جانبيها دكاكين متلاصقة مرتفعة عن الأرض بدرجة أو اثنتين. كانت لبعضها واجهات زجاجية، بينما احتفظ البعض الآخر بطابعه القديم فاقتعد أصحابه حشيات وثيرة فوق مصاطب ملتصقة بالجدران إلى جوار السلع المرصوصة.

تصاعدت أرواح العطور والتوابل ونحن ننتقل من حارة إلى أخرى متجنبين المنعطفات الدائمة التي يمكن أن تعود بنا إلى نقطة البداية. مررنا بدكاكين للعصي والخيزران والخناجر وأواني القهوة ومشغولات الذهب والفضة ومجامر البخور والآنية الخزفية والنحاسية والملابس المستوردة والأجهزة الكهربائية والحلوى العمانيَّة. ولاحظت انتشار حوانيت الحياكة الهندية.

قال فتحي ونحن نتأمل البدلات الرجالية الأوروبية المعروضة في واجهة إحداها: لا تظن أنها للبيع. إنها مجرد كتالوج. تختار منها النموذج الذي يعجبك بعد أن تشتري القماش. ويفصلها لك الهندي في أيام قليلة تفصيلًا متقنًا.

أبدلت بضعة دولارات بسعر البنك من صرَّاف يُمارس عمله في الطريق أمام مائدة صغيرة واشتريت عدة قمصان صيفية بأكمام قصيرة، بينما ولج ابن عمي حانوتًا للمشغولات الفضية.

وقفتُ في الخارج أتأمل أصحاب الحوانيت الذين تكاد وجوههم تختفي وراء لحاهم بينما تبرق عيونهم دهاءً. سهمت متخيلًا حالهم في الماضي السحيق: الواحد منهم يقضي اليوم كله في ركنه المعهود بالدكان جالسًا فوق وسادة مريحة، رافعًا ساقه اليمنى ومستندًا إليها بساعده، متأملًا الزبائن والمارة وجيرانه من أصحاب الدكاكين وباعتها، مسجلًا ملاحظاته في أرشيف رأسه لتسعفه عند الحاجة في منازلات المهنة وصراعاتها،

متوقفًا ببصره عند إحدى المارات، مطلقًا العنان لمخيلته كي يتصور جسمها تحت العباءة التي تسربلت بها، جاذبًا أنفاس النرجيلة، محتسيًا أكواب الشاي والقهوة التي يعدها أحد الصبية، مشتريًا بعض الفواكه أو الأسماك أو ما شاء من أغراض يأتيه بها باعتها خصيصى، لا يغادر مكانه إلا للصلاة في المسجد القريب أو لقضاء بعض الأمور، عائدًا إلى منزله في نهاية اليوم والصبي يحمل له مشترياته، ينتظره عشاء ساخن وحريمه (من زوجات وجوارٍ) وأولاده. صورة توحي بالاستقرار والطمأنينة أم هي لا تعدو أن تكون طمأنينة القلةٍ من الشبعانين، بينما يعشش حولهم الوسخ والذباب والكلاب الجوعى والمرض والفقر؟

اشترى فتحي إبريقًا صغيرًا من الفضة في حجم الإصبع، اشتغله صانعه بمهارة ودقة. وعدنا أدراجنا فأخذنا السيارة وانطلقنا في الطريق الذي جئنا منه. وبدلًا من أن ننحني في طريق قابوس المؤدي إلى المنزل واصلنا السير بحذاء الكورنيش ثم تركناه إلى طريق شُقَّ بين الجبال. وسرعان ما صرنا وسط شوارع صغيرة ضيقة تطل عليها مبانٍ حديثة. أشار إلى صف من البيوت القديمة، المؤلفة من طابق واحد، ويبدو كأنها بُنيت من اللبِن أو الحجارة وقال: هكذا كانوا يسكنون زمان.

ليس كلهم. ففيما يمكن اعتباره مركز المدينة القديمة كانت البيوت الباقية تنطق بالثراء والفخامة.

تركنا السيارة ومضينا على أقدامنا ونحن نتأمل البيوت التي بدت أشبه بالقلاع: واجهات لا تكشف عن شيء، فليست بها شرفات وإنما نوافذ ضيقة طويلة، يشرف عليها القوس العربي التقليدي، تعلوه كوات دائرية صغيرة مثل فتحات المدافع. أما الباب الخارجي فثقيل يعلوه برواز مزخرف على شكل قوس متدرج وتغطي سطحه الخشبي نقوش دقيقة بعضها يوحي بالطابع الهندي تتخلله كتلٌ حديدية مدببة الرءوس.

قال وهو يشير إلى عمودين من الحجر يعترضان الشارع: هذا الحي الصغير كان يمثل العاصمة قبل عشرين عامًا فقط ويغلق من هنا عند الغروب فتنقطع صلته بالعالم حتى الصباح التالي، ولا تُفتح البوابة لأي سبب من الأسباب. وكثيرًا ما مات المرضى القادمون من أقصى الشمال لزيارة المستشفى الوحيد بالمنطقة؛ لأنهم وصلوا بعد الغروب.

تذكرت يعرب وقصصه التي كانت تبدأ دائمًا بهذه الكلمة: تصوروا! تصوروا أن ارتداء النظارات الطبية ممنوع عندنا! والتدخين أيضًا! تصوروا أن من يدخل مسقط عليه أن يخلع حذاءه ويتركه عند البوابة. تصوروا أنه في الوقت الذي يتعلم فيه أبناء الشعوب الأخرى في المدارس يعمل أبناؤنا في الخليج خدمًا في المنازل.

عقبت على النظافة الشديدة حولنا: حتى الآن لم أرَ ورقة صغيرة أو كوم وزبالة كما هو الحال لدينا.

قال: لاحظ أولًا أن عدد السكان ليس كبيرًا. عُمان بمساحتها التي تبلغ ٣٠٠ ألف كيلومتر لا يتجاوز عدد سكانها المليونين. أي أقل من نصف حي من أحياء القاهرة. ثانيًا الهنود هم الذين يتولون النظافة.

– ماذا تعني؟

ضحك ساخرًا ونحن نقترب من مبنى حديث من طابقين: إياك أن تكون ظننت أن العماني ينظف بنفسه. الهنود متوفرون على قفا من يشيل وهم الذين يقومون بكل الأعمال الوضيعة.

لمحت هنديًّا في أوفرول أصفر يجر عربة صغيرة لجمع القمامة فتساءلت: ولماذا لا يجلبون عمالًا من العرب؟ العاطلون عندنا بالكوم.

– الهنود ينامون في العراء. وإذا فُصل الهندي لا يشكو وإنما يبحث في هدوء عن عمل آخر، أما العربي فإنه يُحب الشكوى ويُثير المشاكل.

– أي نوع من المشاكل؟

– كأن يطالب مثلًا بحقوقه!

ولجنا فيلا صغيرة وتقدمني وهو يدندن أحد التواشيح الدينية. التقينا شابًّا في الملابس التقليدية يرتدي نظارة طبية ويغطي رأسه بالعمة التي يدعونها بـ «المصرة» فحيَّانا في تحفظ. قدمه فتحي لي على أنه من أبناء أول دفعة من خريجي الجامعة التي تأسست منذ ست سنوات.

قلت: الظاهر أن الزي موحد.

قال: الخنجر هو الذي يُميز الناس فالجميع يرتدون الجلباب والعمامة أو الطاقية، ويضيف أصحاب المناصب الهامة الخنجر. وبالمناسبة هناك قرار من قابوس يحظر على الموظفين خلع العمامة أثناء ساعات العمل. والظاهر أنه فعل ذلك لإنقاذ فئة واسعة من التجار والحرفيين الذين يعيشون على صُنع الطاقية أو الكِمَّة.

قلت: قرار ديموقراطي. فلا يمكن بذلك التمييز بين الغني والفقير.

قال: الخبير يتبين على الفور مكانة الشخص من ملابسه. نوع القماش مثلًا. فالعمامة تصنع من الأقطان الرخيصة أو الصوف أو الحرير الثمين، وقد يصل ثمن الواحدة إلى عدة آلاف من الجنيهات، ثم هناك العباءة التي لا يرتديها غير كبار الشخصيات، وهي

تُصنع من أرقى أنواع وبر الجمال، فينسج حتى يصير شفافًا ثم تطرز حوافه بخيوط الفضة أو الذهب.

أطل على غرفة ضمت رفوفًا من الأشرطة الموسيقية والتليفزيونية ووجَّه التحية إلى شاب بالملابس التقليديَّة أمام جهاز كمبيوتر، وفي الغرفة المجاورة انهمك شاب آخر في الكتابة وقد وضع فوق أذنيه سماعات كبيرة متصلة بجهاز تسجيل ضخم. نزع السماعات وانضم إلينا مع زميل له يرتدي نظارة طبية ذات عدستين داكنتين. وقفا يتطلعان إليَّ في فضول، فقال فتحي وهو يشير إلى صورة السلطان المعلقة: نحن الآن أربعة. وقعتنا سوداء.

وأوضح لي ونحن نصعد الدرج إلى الطابق الثاني أن هناك قانونًا من أيام الثورة الشيوعية في الجنوب يحرم أي تجمع يزيد عن ثلاثة أشخاص.

– ألم تنتهِ هذه الثورة من زمان؟

– لكن القانون بقي.

لمحت عمانيًّا بلحية سوداء كَثَّة تكاد تغطي وجهه فقلت: يبدو أن عندكم نصيبكم من الأخوة.

قال: لكنهم قلة.

ولجنا غرفة امتلأت بالآلات الموسيقية. فبالإضافة إلى بيانو عادي، كان ثمة عدة طبول مختلفة الأحجام، بعضها من خشب والبعض الآخر من صفيح أو بلاستيك، بالإضافة إلى أبواق من قرون الحيوانات والأصداف البحرية الضخمة وآلات أخرى صغيرة من نحاس وفضة أو صفيح مثل الصنوج.

جلست في مقعد بجوار المكتب. ومضى هو يجمع عددًا من شرائط الفيديو من خزانة تكدست الأشرطة فوق رفوفها.

أحضر لي شاب هندي طبقًا من مادة بيضاء أشبه بالمهلبية وملعقة صغيرة. ولحظت أن شفتيه مصبوغتان باللون الأحمر.

علق فتحي على تعجبي فقال: إنه لبان أحمر يمضغه الهنود طول الوقت فيلون شفاههم وأسنانهم وهم يبصقون لعابهم الملون في أي مكان.

انصرف الهندي ثم عاد بفناجين القهوة. استفسر منه فتحي عن المدير وإذا كان موجودًا، فبدرت منه حركة غريبة لم أدرك مغزاها على الفور. فقد هبط برأسه قليلًا إلى أسفل ثم حركها إلى اليسار ثم أعلى. كانت حركة تعطي معنى الإيجاب، ثم لا تلبث أن تشفعه بالنفي.

ضحكت وقلت: هل لحظت هذه الحركة؟

قال: معناها أن المدير لم يحضر بعد.

– عندنا في مصر شيء مماثل. عندما يجيب أحد على سؤال لك بكلمة تقريبًا.

تناولت جانبًا من الحلوى بالملعقة فتبينت طعم الهيل والسمن. جذبت صحيفة محلية من فوق مكتبه. كان إطار الصحيفة يحمل اسم وزير الإعلام بصفته رئيسًا لها. وتصدرتها صورة ملونة للسلطان وهو يستعرض القوات العمانيَّة التي اشتركت في تحرير الكويت: مدرعات السلطان وكتيبة مظلات السلطان وسلاح الجو السلطاني، وظهر إلى جواره يوسف بن علوي وزير الخارجية، ثم صورة أخرى للسلطان وهو يستقبل وفود القبائل. وأسفلها أفردت الصفحة الأولى مكانًا بارزًا لأنباء العنف الطائفي في الهند، وبجواره نبأ الفلسطينيين الذين صادرت السلطات الإسرائيلية بيوتهم وأراضيهم ثم طردتهم إلى الحدود اللبنانية ولم تسمح لهم السلطات اللبنانية بالدخول، فأقاموا في مخيمات على الحدود.

كانت أغلب الصفحات ملونة وتزدحم بإعلانات عن السيارات وعن عطور أرماني وباكو رابان وفهرنهيت للرجال. ولفت نظري عدة إعلانات بصيغة واحدة: نوفر الشغالات الفليبينيات بسعر ٢٥٠ ريالًا والسيرلانكيات بسعر ١٢٥ ريالًا.

هممت بوضع الصحيفة جانبًا عندما لمحت بصفحتها الأخيرة إعلانًا عن عرض مسرحي في الجامعة باسم «باغي أتزوج». وأبرز الإعلان أن جل ممثلي المسرحية من الرجال، وأنها ستقدم في عرضين يقتصر الأول على الطلبة، ويخصص الثاني للطالبات.

ظهر في فرجة الباب شاب نحيف ذو عينين دامعتين. حيَّاني فدعاه فتحي للدخول. احتل المقعد الذي يواجهني ونظر إليَّ باسمًا.

خاطبني فتحي وهو يكوم الأشرطة على مكتبه: قابوس مهووس بالموسيقى الكلاسيكية. كون فرقة للأوركستر السيمفوني من الشباب العماني ليعزفوا له السيمفونيات التي يعشقها، وبعد أن انتهينا تقريبًا في هذا المركز من جمع آلاف الشرائط الصوتية والتليفزيونية للأغاني والرقصات الشعبية، طلب أن نضع له سيمفونية.

تساءلت وأنا أرتشف القهوة المرة: له؟

ضحك: هل تظن أن أحدًا غيره هنا يعبأ بهذا النوع من الموسيقى؟

– وهل أنجزت السيمفونيَّة؟

تجهم وجهه: ليس بعد. تظن المسألة سهلة؟

هززت كتفي: لا أعرف.

– الموسيقى العربية موسيقى لحنية تعتمد على الصوت الواحد الذي يؤديه المطرب بمصاحبة الآلات. أما الموسيقى السيمفونيَّة فتقوم على تضارب النغمات وتنافرها. كيف نحقق هذا بالألحان والإيقاعات التقليديَّة؟ هذه كانت الصعوبة. خصوصًا في بلد كهذا غني بالتراث الموسيقي من رقصات وأغانٍ، لحسن الحظ أن قابوس فكر في جمع وتسجيل هذا التراث قبل أن يندثر أمام زحف الفيديو والتليفزيون. وهي عملية ليست سهلة بسبب اختلاف لهجات القبائل. إنها الشيء الوحيد الذي أخذه من الدول الشيوعية.

نهض الشاب ذو العينين الدامعتين فجأة واقفًا واستأذن منصرفًا وهو يبتسم ابتسامة ملتوية. تطلعت إلى فتحي وأشرت بيدي متسائلًا.

قال باقتضاب: سأشرح لك فيما بعد.

حمل الأشرطة التي انتقاها إلى سطح المكتب وجلس خلفه.

سألته: هل وجدت الألحان المناسبة؟

قال وهو يعبث بالأشرطة: ما زلت أبحث، أنا أريد ألحانًا جميلة وبسيطة وفي نفس الوقت قادرة على توليد ألحان أخرى يمكن تطويعها للتأليف الموسيقي. سأعطيك مثلًا؛ آلات النقر مثل الطبل والدف أساسية في الموسيقى الشعبية العمانيَّة؛ ولهذا تجد أنواعًا وأحجامًا مختلفة من الطبول. لا بد إذن أن أعطيها فرصة تسيد الآلات الأخرى في الأوركستر. ومن ناحية أخرى الإسراف فيها قد يحجب شاعرية بعض الجمل اللحنية الجميلة.

نهض واقفًا وحمل الأشرطة تحت ساعده.

قال: سنقوم بعملية تسجيل قريبًا في قرية بالداخل. تأتي معنا؟

قلت: طبعًا. فليس لديَّ ما أعمله. غادرنا المبنى فصرنا فورًا أسفل الشمس الحارقة. قال ونحن نركب السيارة: زكريا الذي دخل علينا يريد الزواج من هبة. رآها عندما كانت هنا في الصيف، لم يعجبها بالطبع.

قلت: بسبب عينيه الدامعتين؟

– لا. بسبب أفكاره العتيقة. وهو يظن أني قادر على إرغامها فلا يكف عن ملاحقتي.

ضحكتُ، فلم يخلق بعد من يستطيع إرغام هبة — ابنته — على شيء.

تردد لحظة ثم أضاف: أنا لا أستريح له. فهو يجاهر بعدائه لكل مظاهر التحديث التي حققها قابوس. وهذا يجعلنا نخاف منه، فربما يفعل هذا عن قصد.

– تقصد أنه ...

أومأ برأسه ونحن ننطلق في الطريق المؤدي إلى الميناء. انحرفنا في شارع قابوس حتى دوَّار الفلج واتجهنا يسارًا وسط المنازل الحديثة لحي روي.

سألني: ألم تلحظ شيئًا على هذه المنازل؟

أدرتُ البصر بينها دون أن أتبين ما يقصده.

قال: هناك محافظة على الطابع العربي التقليدي من ناحية المبدأ مع مراعاة الخطوط الحديثة. والمزيج لا يُحدث التنافر ولا يُثير الغربة. درسٌ للشعوب العربية في حل مشكلة الأصالة والمعاصرة، هو نفس ما أحاول عمله في الموسيقى. لحسن الحظ أن قابوس يدرك هذه المسألة جيدًا. مرة أقام أحد الناس عمارة عالية من ذلك النوع الذي تراه في أبوظبي أو الكويت أو حتى مصر: الزجاج الفيميه والألوميتال. وعندما شاهدها أمر بهدمها وبألَّا يبني أحد منزلًا إلا في إطار القواعد التي حددتها البلدية. والنتيجة ذلك التناسق الذي يريح العين ولا يصدم الوجدان ... نفس ما كان أصحابك يدعون إليه.

٣

استقبلتنا روائح المطبخ. ومدت شفيقة يدها إليَّ بالطريقة المتحفظة التي انتشرت بين نساء الطبقات المتوسطة في مصر؛ إذ تضع الواحدة منهن في يدك أطراف أصابعها مضمومة متخشبة وعلى أهبة سحبها في الحال كأنما تخشى أن تقبض على كفها وتقودها منه إلى الفراش.

قبضت على يدها براحتي وضغطت عليها محتفظًا بها رغم محاولتها الفكاك، وبابتسامة متكلفة فاهت بالكلمات التي توقعتها منها بالضبط: حمدًا لله على السلامة. تذكرتنا أخيرًا.

قلت بنفس لهجتها المفعمة باللوم: أنتم بخلتم طويلًا ببطاقة الطائرة.

كانت بدينة مثل زوجها، وأصغر منه بعدة أعوام. وكان وجهها يخلو من كل أثر للزينة وتحيط به لفاعة بيضاء غطت رأسها، تطل منه عينان كعيون الصقور.

هناك في العلاقات العائلية عداوات غير مفهومة السبب، أو ربما بلا أسباب كافية. وعلاقتي بشفيقة من هذا النوع. فطالما أجهدت نفسي في محاولة تبين السبب بلا جدوى. ظننت فترة أنه إحساس بالتفوق مبعثه بشرتها البيضاء في حين أننا ننتمي إلى الجنس الأسمر، ثم أرجعت الأمر إلى إحساس بالنقص لأنها فشلت في إنجاب الولد بينما لديَّ منه اثنان. وأخيرًا اعتبرت عداوتنا من حقائق الوجود التي يستحيل تفسيرها.

كانت قد أعدت مائدة عامرة بالمأكولات المصرية التقليدية: البامية والمسقَّعة ومحشي ورق العنب وكباب الحلَّة.

قلت لها مشاكسًا: كنت أتوقع أكلة عمانيَّة.

قالت: ليس عندهم غير البرياني بالدجاج أو السمك أو اللحم.

كنت أشعر بالعطش فتطلعت إلى إبريق من المياه المثلجة ثم تجاوزته ببصري.

سألتني: عاوز حاجة؟ أجيب لك عصير؟

نظرت إلى فتحي فابتسم بخبث وظل صامتًا.

قلت أخيرًا: لا أظن عندكم ...

سارعت ترد بحسم: لا، مطلقًا.

تبرع ابن عمي بإضافة: بعدين تحل المشكلة.

قالت بنفس الحسم: لا بعدين ولا قبلين.

أردت المهادنة فأطريت طعامها قائلًا إنها صارت تجيد الأكلات الصعبة.

قالت في تواضع مصطنع: أعمل أيه؟ ليس هنا من تسلية غير الطهي والأكل.

سألتها: كيف؟ ألا توجد سينما مثلًا؟

– توجد عدة دور لا تعرض غير الأفلام الهنديَّة.

تذكرت أنني أطريت طهيها فأرادت أن تتخلص من الدين في الحال. قالت: كيف حيال الكتابة؟

قلت مغلقًا باب الحديث في هذا الموضوع: متفكرنيش. أنا هنا في عطلة. أنتِ عاملة إيه في الإذاعة؟

– ماشي الحال.

انهمكت في الأكل وأنا أرد على أسئلتها عن الأحوال في مصر وأعيد عليها ما تعرفه جيدًا من أخبار ابنتها التي تدرس في الولايات المتحدة. وتجنبت الإشارة إلى الموضوع الذي يهمها إلى أن اضطرت أن تسألني مباشرة: أليس هناك جديد بالنسبة للشركات؟

غالبت الابتسام. كانت قد وقعت في براثن شركة لتوظيف الأموال أسَّسها أحد القادة السابقين لجماعة الإخوان المسلمين، وأودعت لديه كل مدخراتها، ثم وقع ما وقع وطارت المدخرات.

قلت: لا جديد سوى أنه زوَّج ابنته في ليلة من ليالي ألف ليلة بالهيلتون.

تنهدت ثم غيَّرت الموضوع: وما قصة استقالة رئيس الوزراء أم هو أُقيل؟

قلت: الإشاعات كثيرة. إحدى الروايات تقول إن الأمر مدبر لإبعاده لأنه تحدث في أحد مجالسه عن اقتسامه عمولات السلاح مع شخصية هامة، وتقول رواية أخرى إن له صلة وثيقة بكبار ضباط الشرطة الذين افتضحت علاقتهم بتجارة المخدرات.

تركز الحديث على رئيس الوزراء والنُّكت الرائجة عنه. ورويت لهما نكتة الميزانية التي تبدأ بكيفية توزيعها في السعودية وسوريا، ثم يأتي دور رئيس الوزراء المصري فيقف في ميدان التحرير ويقذف بها إلى أعلى، فما يقع منها على الأرض يأخذه لنفسه والباقي يذهب إلى الشعب. ثم رويت لهما حادثة واقعية سمعتها من بطلها، وهو مترجم فوري في الأمم المتحدة. فقد التقى به رئيس الوزراء في نيويورك وسأله عما إذا كان مستريحًا، فقال الشاب إنه يشتاق للعودة إلى مصر، فصاح فيه رئيس الوزراء: إوعى! أنتَ تجوع لو رجعت. ده أنا أتمنى ألاقي عقد هنا.

عبس وجه شفيقة فظننت أن مشاعرها الوطنية جُرحت، لكنها وضعت يدها على رأسها متألمة.

قال فتحي: الصداع لا يفارقها أبدًا.

تأملتها في صمت وقارنت بين ملابس الحجاب التي تتلفع بها وبين صورتها منذ سنوات قليلة أو في بداية السبعينيات عندما كانت هي وغيرها يزهون بالجوبة القصيرة التي تكشف عن الركبتين دون أن يثير ذلك امتعاض أحد. ولم تلبث عدوى الصداع أن انتقلت إليَّ أنا الآخر.

ساعدتها في إخلاء المائدة وفي وضع الآنية في غسالة الأطباق. سألتها عما إذا كانت تستعين بشغالة. أبدت استهجانها: أدفع نصف راتبي لواحدة في فليبينية أو هنديَّة؟ أبدًا، ثم إننا اثنان فقط. أنا كما تعرف لا أحب إشراك يد غريبة.

أضافت وهي تضع إبريق المياه على النار: لا تتصور الثراء هنا. الأسرة قد يكون لديها خادمة لكل واحد من ثمانية أطفال. الفليبينيات بالذات يتفانين في الخدمة. واحدة أمريكية أعرفها تُصر خادمتها على أن تخلع لها حذاءها. الجوع كافر.

شربنا الشاي أمام التليفزيون. ورأتني مهتمًّا بمتابعة إحدى الأغاني العربية المصورة التي تتمايل فيها فتيات على إيقاع جيتار فسألتني: ألم تفكر في الزواج بعد؟

قلت: مرة واحدة تكفي.

قالت: لكن حياتك هكذا غير مريحة.

– وهل اشتكيتُ لكِ؟

اكتشفت أن الفتيات المتمايلات روسيات وعلقت شفيقة على الفور: إنهن يملأن الأسواق والأرصفة في دبي ويتاجرن في أي شيء حتى أجسامهن.

تدخل فتحي: الروس يشترون أي شيء، وخصوصًا الأجهزة الكهربائية ليبيعوها بعد عودتهم.

قالت في شماتة: بلدهم في مجاعة ... هذه هي نتيجة الشيوعية.

تظاهرت بأني لم أسمع. وخف فتحي إلى نجدتي قائلًا: ألا تريد أن تتمشى قليلًا؟ هيا بنا أفرجك على البلد.

رافقتنا زوجته حتى الباب وظلت واقفة إلى أن دخلنا المصعد واستدرنا ناحيتها فهتفت: لا إله إلا الله.

سارع فتحي بالرد قبل أن ينغلق الباب تمامًا: محمد رسول الله.

نظرت إليه مدهوشًا، فلم يكن هذا الإشهار من عادة أسرتنا.

قال: الغربة لها أفعالها.

تأملته بإمعان: وأنت؟

شرع في الدندنة مترنمًا بأغنية فايزة أحمد: أنا زي ما أنا ...

قلت: الظاهر أنك مبسوط هنا.

تجاهل أن يجيب بالإيجاب أو النفي أو حتى بـ «تقريبًا». قال ونحن نخطو إلى الطريق: الحياة هنا لا تطاق ابتداءً من مايو حتى منتصف سبتمبر. وقتها تصبح الرطوبة خانقة.

أخذنا السيارة ووضعنا الأحزمة وقادها في الطريق إلى الكورنيش.

– المصرية هنا تعاني الأمَرين. فهي بسبب تعليمها وتحررها موضع إعجاب الرجال وغيرة وحسد النساء، لهذا لا بد أن تبالغ في إظهار تدينها. شفيقة تتعرض لمكائد يومية من جانب زملائها العمانيين. تكفي كلمة واحدة من رئيسها كي تجد نفسها في القاهرة.

– هكذا ببساطة.

– لي صديق مصري يعمل في أحد البنوك. شاء سوء حظه أن يكتشف خطأً لرئيسة فأبلغه لمدير البنك دون أن يعلم بصلة القرابة التي تربط الاثنين، وفي اليوم التالي أبلغوه أن مقعده محجوز على طائرة الغد. هكذا دون إنذار ... كانت له بالطبع شقة وعفش ومعاملات ومصالح، وقمنا نحن بإنجازها له بعد ذلك بصعوبة شديدة.

وجه السيارة إلى ساحة انتظار ملاصقة لفندق يطل على الميناء، وتناهى إلى سمعي صوت عواء مألوف. والتفت خلفي لأرى مرسيدس سوداء تقترب منا ويحيط

بها موتوسيكلان. تمهل الموكب عندما مرَّ أمامنا فتطلعت إلى ركاب السيارة متوقعًا أن أجد الستائر مسدلة على نوافذها كما هي عادة هذه المواكب في مصر. لكن هذا الراكب كان حريصا على الشفافية. اتجهت عيناي إلى المقعد الخلفي فلمحت شخصًا كأنما خرج من ألف ليلة وليلة. كانت رقبة دشداشته موشاة بالقصب وفوق رأسه لفافة بيضاء معقدة التكوين وحول وسطه حزام عريض يتدلى منه خنجر ذو مقبض فضي في غمد موشى بالزخارف.

انطلقنا على أقدامنا فوق الكورنيش وسط مارة من الآسيويين في القمصان والبنطلونات، يسهل التعرف على الهنود بينهم من رائحتهم النفاذة المميزة. مرت بنا شاحنات محملة بالأسمنت تبعتها سيارة لاندروفر وبيك أب تويوتا ثم باص مكدس بركاب آسيويين. سألته عن المصريين فقال: إن هناك كثيرًا منهم؛ أطباء ومدرسون ومهندسون، وإنه على علاقة طيبة بعدد منهم.

أضاف: كثيرًا ما أستقل السيارة مع أحدهم وننطلق إلى المطار ثم نعود أو نذهب إلى منطقة جديدة اسمها القِرْم لنجلس في كافيتريا أو في محل واحد سوري على الشاطئ.

– والنساء؟

– زي ما أنت شايف.

– هو أنا شفت حاجة؟

– خذها قاعدة. الحلاق الفليبيني هنا قواد ويستخدم فليبينيات ممن يعملن في الحوانيت أو من العاطلات. الواحدة تتقاضى بين عشرين وخمسين ريالًا.

كان الظلام قد حلَّ فقفلنا عائدين. أخذنا السيارة وعدنا إلى روي حيث تركها بالقرب من منزله قائلًا: إن الشرطة حازمة مع السائق الذي تفوح منه رائحة الخمر.

استوقف سيارة أجرة يغلب عليها اللون البرتقالي، فذكرتني بالإسكندرية، كان السائق عمانيًّا ولم يفُهْ بكلمة إلى أن أنزلنا أمام فندق الفلج. وأعطاه فتحي ورقتين ماليتين بقيمة مائتي بيسة.

تقدمني إلى بار فسيح تألف من أركان وزوايا متجاورة على مستويات متعددة وتقوم بالخدمة فيه فتيات فليبينيات عاديات الملامح. أحضرت لنا إحداهن كوبين من البيرة وطبقًا صغيرًا من الزيتون الأخضر، ولمست أن أغلب الجالسين من العمانيين، فيما عدا اثنين من الأوروبيين بادلهما فتحي التحية.

قال وهو يرتشف بيرته: الجالس ناحية اليمين من الـ «بي دي أوه»، شركة النفط. والثاني هو المستشار الإنجليزي لوزارة البيئة وهو يجيد الحديث بالعربية وباللهجات المحلية أيضًا.

كان الشاربون يرتشفون كئوسهم في هدوء وعيونهم تسقط بين الحين والآخر على ظهور الفتيات الفليبينيات وسيقانهن ثم تنداح بعيدًا. بينما الفتيات يتحركن في توتر مكتوم. وخالجني شعور بأنه هدوء مضلل، وأن هناك انفعالات صاخبة يموج بها المكان دون أن تظهر على السطح.

سألته: هل تعرف أحدًا من أعضاء الجبهة؟

تغيرت ملامحه وبدت عليه الصرامة: اسمع. كل ما له علاقة بالسياسة له حساسية شديدة هنا. السلطان وأعوانه يحتكرون العمل السياسي والتفكير والتجارة والنفط وكل شيء. والمخابرات قوية وبها خبراء إنجليز وأمريكان.

قلت: أنا سألتك سؤالًا بسيطًا.

مضى يرتشف بيرته ثم أضاف بصوت فقَدَ حدته وبلهجة من يسوس طفلًا عنيدًا: لم تعد هناك جبهة أو يحزنون. الاشتراكية ليست غير حلم لأن المال هو كل شيء في الحياة. المال والبنون زينة الحياة الدنيا.

قلت: موافق معك. ولهذا السبب بالتحديد. يتعين توزيعهما بالعدل كي يتمتع الجميع بزينة الحياة.

أَنقذنا من نقاش مرير ومألوف شاب في دشداشة بيضاء حريرية تخلو من الشرشابة العمانيَّة، يغطي رأسه بالغترة السعودية، اقترب منا وخاطبنا قائلًا: الأخوان من مصر؟

أومأنا بالإيجاب. قدم نفسه على أساس أنه صحفي من الرياض، فدعاه فتحي للجلوس معنا.

سألته: تقيم في عمان؟

قال: لا. جئت منذ أسبوع لتغطية الاكتشافات الأثرية الأخيرة.

شرح لي فتحي أن البعثات الأجنبية اكتشفت مائة هيكل عظمي بشري على بعد كيلومترين من الفندق يعود زمنها إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد.

أضاف السعودي: وجدوا أيضًا في ولاية هيما شجرة صنوبر متحجرة من ستة وعشرين مليون سنة.

طلب كأسًا من الويسكي واستطرد: أنا الآن مهتم بالسياسة الخارجية للسلطنة.

تساءلت: وما علاقة السياسة الخارجية بالاكتشافات الأثرية؟

قال: لي أصدقاء كثيرون هنا واقترح عليَّ رئيس التحرير هذا الموضوع. المطلوب معرفة رأي الناس.

تدخل فتحي: وما هو رأيهم؟

قال: لم أتبينه بعد. إنهم فريقان: واحد لا ينبس بشيء، والثاني يؤيد سياسة السلطان على طول الخط.

ضحكت: مثلما هو الأمر عندكم.

شاركني الضحك: بالضبط.

قلت: هل تنوي البقاء طويلًا؟

قال: أنا في الانتظار. طلبت مقابلة وزير الإعلام ووزير الخارجية، لم يرد عليَّ أحد حتى الآن. العلاقات متوترة قليلًا.

تساءلت: بين السعودية وعمان؟

قال: السلطنة تحاول انتهاج خط سياسي محايد بين كل الأطراف.

قال فتحي: وجهة نظرهم أن لكل بلد عربي الحق في اتخاذ السياسة التي يراها، وبالتالي فهم لا يتدخلون في اختيارات الآخرين، كما يفضلون عدم التورط في المغامرات والتشنجات.

قال السعودي: أو قل إنها سياسة اللعب على الحبال، في حرب الخليج رفضوا اتخاذ سياسة متشنجة ضد العراق، واكتفوا بإرسال قوات رمزية إلى حفر الباطن.

قاطعته: رمزية؟ القاذفات الأمريكية كانت تقوم من قواعدها هنا.

قال فتحي: هذه سياسة تاريخية في عمان. من أيام الخلاف بين سيدنا علي ومعاوية. فهم يدينون بالمذهب الإباضي. وهو مذهب المعتدلين الذين رفضوا الانضمام إلى أي جانب.

قلت: ربما هو الموقع الجغرافي ... إيران من ناحية وأنتم واليمن في الناحية الأخرى، ثم مضيق هرمز الذي يتحكم في مرور النفط.

وجه حديثه إليَّ: هل رأيت الخرائط العمانيَّة؟ لن تجد أي إشارة للحدود مع الإمارات.

هزَّ فتحي كتفيه وقال: كل هذه الإمارات كانت جزءًا من عمان.

قال السعودي: المشكلة أن أحدًا لا يعرف ماذا يريد قابوس بالضبط.

قال فتحي: ربما لا أكثر من أن يُترَك في سلام لإنجاز مشروعات التحديث.

رفعت عيني إلى صورة السلطان المعلقة فوق البار وإلى عينيه السوداوين اللامعتين ولحيته المشذبة البيضاء. في هذه المرة كان يضع على رأسه غطاءً أزرق اللون.

جاءتنا النادلة الفليبينية تسأل إذا كنا نريد شيئًا آخر لأن موعد الإغلاق يقترب. طلبنا كوبين من البيرة وطلب السعودي كأسًا مزدوجة من الويسكي.

٤

قررت في الصباح استكشاف المنطقة المحيطة بالمنزل على قدمي، فغادرت المبنى ومشيت حتى الطريق الرئيسي الذي يمتد حتى مطرح، سرت في الاتجاه العكسي المؤدي إلى الشيراتون، وبلغت الناصية التي تحتلها وزارة الدفاع فدرت إلى اليسار وقطعت شارع سعيد بن سلطان حتى ناصية الشارع المؤدي إلى المنزل.

مررت من أمام مطعم هندي رخيص وآخر لبناني يبيع ساندوتش الفلافل بمائتي بيسة. أشرفت على سوبر ماركت كبير فاتجهت إلى مدخله. كدت أصطدم بفتاتين حدست من لهجة حديثهما أنهما عمانيتان. وكانت إحداهما سوداء البشرة، سافرة الوجه عارية الرأس وترتدي بلوزة وبنطلون من الجينز.

وجدت السوق السوبر عامرة بالسلع المستوردة من كافة الأنحاء. اشتريت علبة من الفول المدمس وأخرى من الجبن الأبيض الذي صُنع في هولندا على الطريقة المصرية وبضع معلبات أخرى، ثم عدت من حيث جئت.

التقيت بالبواب الباكستاني في مدخل المنزل. سألته عن ابن عمي وزوجته فعرفت أن أحدًا منهما لم يعد بعد. ووقفت أثرثر معه بلغة هي خليط من العربية والأردية وإيماءات الأيدي.

كان فتحي قد ذكر لي أن هناك حوانيت خاصة في منطقة القرم تبيع الخمور للأجانب المزودين بتصاريح، وهم في العادة من الأوروبيين أو الهنود والفليبينيين ذوي الأجور المعقولة مثل سائقي البلدوزرات. وأن هؤلاء كثيرًا ما يبيعونها بعد ذلك في السوق السوداء لمن يرغب من العمانيين ويكسبون جيدًا من وراء ذلك. فزجاجة الجن مثلًا يشترونها بثلاثة ريالات ثم يبيعونها بخمسة.

كان عم جوهر ضخم الجثة بلحية كَثة وملامح طيبة. وسرعان ما كنت أشاركه دكته الخشبية وأقود الحديث في الاتجاه الذي أسعى وراءه، علمت منه أن الشقة المغلقة المجاورة لشقة ابن عمي مؤجرة لعماني يعيش في المنطقة الداخلية ويتردد عليها بين الحين والآخر، وبعبارة أخرى كما نقول في مصر: يستخدمها لمزاجه.

لم يكن من الصعب وقد وصل حديثنا إلى المزاج أن أطلب منه حلًّا لمشكلتي. وأبدى الرجل تفهمًا وتعاطفًا فوعد بأن يأتيني بعلب البيرة. كان ثمنها لا يزيد عن سبعمائة بيسة، لكني قبلت عن طيب خاطر أن أدفع في الواحدة ريالًا كاملًا مقابل خدمة إضافية؛ أن يضعها في براده ويزودني بها عندما أطلب ويخفي الأمر عن زوجة ابن عمي.

تركته سعيدًا بدهائي وصعدت إلى المسكن، فتحت الباب وذهبت إلى المطبخ فوضعت مشترياتي في مكان ظاهر لتكتشفها شفيقة بسهولة عند عودتها من المدرسة وتطمئن على أن وجودي لن يؤثر في عدد الريالات التي تجمعها واحدًا فوق الآخر في حرص شديد.

لم أكد أعود إلى الصالة وأهم بتشغيل التليفزيون حتى دقَّ جرس الباب ففتحت لأجد جوهر أمامي. ظننت للوهلة الأولى أنه أحضر لي طلبي، لكنه مدَّ يده إليَّ بمظروف سميك يحمل اسمي قائلًا إن شخصًا أحضره في التو.

تناولت المظروف ومزقت طرفه بعد أن أغلقت الباب خلفه، استخرجت كراسة محفوظة بين دفتي غلاف سميك من الورق المصقول الملون، جذبت الغلاف فاستجاب لي وانفصل عن الكراسة. بسطت جانبيه فطالعني طبق محاط بالشوكة والسكين والملعقة وكأس نبيذ يعلوه رمز الموسيقى وبيانو مائل.

عدت إلى الصالة فوضعت الورقة جانبًا ثم بسطت الكراسة، وجدتها مجلة صغيرة الحجم، متواضعة الإخراج، طبعتها السرية بطابعها، يحمل غلافها السميك اسم «صوت الثورة» وتاريخ يونيو ١٩٩٢. قلَّبت صفحاتها ثم عدت إلى الصفحة الأولى التي حملت عنوانًا غريبًا يُعلن أن المجلة قررت التوقف عن الصدور نهائيًّا بعد «مسيرة نضالية» عمرها عشرون سنة، كي تفسح المجال لصوت آخر غيرها يعبر عن «المرحلة الجديدة» من النضال، كان قسم كبير من المجلة مخصصًا لما أسمته «المؤتمر الرابع للجبهة الشعبية لتحرير عمان» الذي عُقد في أوائل شهر يونيو، أي منذ ما يربو على نصف العام، في أعقاب ما أسمته بـ «الصعوبات والخلافات التي شهدتها السنوات الأربع الأخيرة» وافتتحه الأمين العام الرفيق عبد العزيز القاضي. وقالت إنه انتهى بإقرار برنامج سياسي جديد وانتحال اسم جديد هو «الجبهة الشعبية الديموقراطية العمانية».

استعرضت المجلة أعمال المؤتمر وقراراته مستهلة بتحليل عوامل الخلافات التي شهدتها «الجبهة» وهي: الإخفاقات العسكرية، انهيار المعسكر الاشتراكي، سياسة التحديث الواسعة التي قام بها قابوس وسحبت كثيرًا من الكوادر، والسياسة الواقعية التي سار عليها في السنوات الأخيرة على الصعيدين الداخلي والخارجي، مرونة التعامل مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ومع الدول العربية التي رفضت الغزو الأمريكي في أزمة الخليج كاليمين والأردن. وأخيرًا السياسة التدريجية في مجال المشاركة الشعبية وتمثلت في تحويل المجلس الاستشاري العماني إلى مجلس الشورى لا يختار السلطان أعضاءه مباشرة، وإنما يقوم «وجهاء» كل منطقة باقتراح ثلاثة مرشحين يختار منهم السلطان واحدًا.

استخلص العرض من ذلك أن المهمة المركزية لم تعد هي إسقاط النظام؛ لأن ذلك لم يعد ممكنًا بالنسبة لإمكانيات الجبهة ورؤيتها ولا مرغوبًا من جانب الشعب. وبالتالي فهي تدعو النظام إلى المصالحة على أرضية الاستجابة للمطالب الشعبية بأن يتخلى هو الآخر عن العنف. وشدد العرض على أن قضية السيادة الوطنية تتصدر المطالب الشعبية، ودعا إلى إلغاء الاتفاقية المبرمة مع الولايات المتحدة في سنة ١٩٨٠، والتي وفرت للولايات المتحدة تسهيلات عسكرية واسعة، وجددت لمدة عشر سنوات أخرى في عام ١٩٩٠، كما دعا إلى العمل بالوسائل السلمية على تحقيق وحدة عمان الطبيعية المقسمة حاليًّا إلى دولتين هما سلطنة عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة.

هذه اللهجة المسالمة لم تمنع المجلة من التنديد في إطار مستقل بما أسمته «استمرار الحكم العشائري والفردي»، و«استمرار انتهاك حقوق الإنسان العماني». قالت إن المعارضة تتعرض للملاحقات والاعتقالات، ويتعرض المعتقلون للتعذيب الجسدي والنفسي، ويُحرمون من الضمانات القانونية لعدم وجود محاكم عصرية. وهاجمت استمرار الحصار المفروض على قرى ومدن الجبل الأخضر ومدينتي رخيوت وضلكوت في ظفار. إذ يُطلب من سكان هذه المناطق تقديم ما يثبت أنهم من أبنائها ليحصلوا على ترخيص بالدخول والخروج.

وضعتُ المجلة جانبًا وأنا أفكر. كنت معتادًا على أمثال هذه النشرات التي تصلني في القاهرة. بعضها علني بالبريد، والبعض الآخر سرِّي باليد. لكن السؤال الذي عرض لي هو: كيف عرف المرسل بعنواني بل بوجودي أصلًا ولم تمضِ عليه سوى ثلاثة أيام؟

عدت إلى الغلاف الملون وقرأت السطور القليلة التي حملها باللغتين العربية والإنجليزية: إشراح الصدر تدعوكم لكي تنسوا همومكم كل يوم سبت، وذلك عندما نقدم لكم التشكيلة الرائعة من المأكولات وأفضل أنواع النبيذ والألحان المألوفة من عهد جلين ميلر في مطعم القرم بفندق إنتركونتينتال.

لم أكن سمعت عن هذا الجلين ميلر من قبلُ. لا بأس. لكن ما العلاقة بينه وبين الجبهة؟ هل هي مجرد ورقة أراد المرسل أن يغلف بها المجلة وحسب أم هي رسالة أخرى؟ ثم كيف عرف أني سأكون موجودًا في هذا الوقت بالذات بمفردي؟ أم لا يهمه إن وقعت في يد أصحاب المسكن الأصليين؟ وقادني السؤال الأخير إلى سؤال آخر: ماذا أفعل بها؟ هل أتخلص منها أم أحتفظ بها؟ لم أكن لأنسى المرة التي التجأت فيها إلى منزل فتحي في القاهرة هربًا من الاعتقال وكيف كانت شفيقة تفتش كل شعرة من حاجياتي ثم دفعت ابنتها لتمزيق زراير قمصاني لتجبرني على الرحيل.

مضيت إلى غرفتي فدسست المجلة بين طيات ملابسي في حقيبة السفر. انتقلت إلى المطبخ وأشعلت الفرن ثم استخرجت بقايا طعام الأمس من البراد.

٥

كانت في انتظارنا سيارة فان أمريكية تحمل أجهزة التسجيل والتصوير واثنين من الفنيين، وخلفها سيارة جيب يابانية بها شابان بالملابس التقليدية أحدهما صاحب النظارة الطبية الداكنة الذي التقيته من قبل.

صعدت إلى جوار فتحي في السيارة الأولى ومررنا بمسجد قابوس الفخم ثم خرجنا إلى شارع قابوس قرب مقر قيادة شرطة عمان السلطانية، أشار فتحي إلى مساحة خضراء كثيفة خلفها، فقلت: حديقة قابوس.

ضحك: فعلًا. لكنها مشروع رائع يرمي إلى تكوين محمية طبيعية للنباتات والحيوانات.

لزمنا شارع قابوس ثم تركنا مدينة قابوس على يسارنا وواصلنا السير مرورًا بمعرض سيارات قرأت لقب أحد الوزراء فوق لافتته. علَّق فتحي على استفساري قائلًا: هنا لا يجدون عيبًا في أن تكون وزيرًا وتاجرًا في نفس الوقت.

وأوشكت أن أعلِّق مستنكرًا ثم تذكرت وزراءنا الذين يتاجرون سرًّا.

أشرفنا على الدوار المؤدي إلى المطار وتوقفنا لنتزود بالوقود من محطة تابعة لشركة النفط الإنجليزية، ثم اتجهنا يسارًا في طريق مرصوف ظهرت مداخن بعض المصانع على يساره.

مررنا بمجموعة من المنازل الحجرية الصغيرة ذات طراز موحد يتألف من طابق واحد مستقل بحديقة صغيرة وسور يفصله عن المنزل المجاور. ومن الجدران برزت أجهزة التكييف كما ظهرت خزانات المياه فوق الأسطح.

قال فتحي إنها مساكن شعبية تبنيها الدولة ويختار المواطن بينها وبين هبة مقدارها ٦٠٠٠ ريال إذا فضَّل أن يقوم بترميم مسكنه القديم.

بلغنا مدينة سمائل بعد حوالي مائة كيلومتر فتوقفنا للراحة. ترجلنا وخرجنا من الطريق الأسفلتي إلى ميدان مترب، أقيمت به سوق صاخبة تمتد معروضاتها من قلوب النخيل وعسل النحل وشمعه والجبن والزبد، إلى أغنام وأبقار بعضها حديث الولادة. لحظت غلبة العنصر النسائي بين الباعة وكان البعض منهن يغطين وجوههن بأقنعة

جلدية حادة الزوايا مثل الأقنعة الحديدية التي كان يضعها فرسان العصور الوسطى، تبدو منها عيون واسعة عسلية قوية، وأحيانًا تبدو أيضًا الشفاه. والبعض الآخر كن سافرات تمامًا.

استأنفنا السير بعد قليل ووصلنا مدينة نزوى بعد ساعة، أخذني فتحي إلى سوقها المسقوف الذي خصص له مبنى حديث مسور يشرف عليه السجن والقلعة الدائرية الضخمة. ولجنا من أحد المداخل ومررنا بحوانيت حديثة متلاصقة تضم كل شيء من الملابس والسجاد والصناديق الخشبية إلى الحلوى المسقطية والعطور الواردة من الهند وآسيا.

توقف فتحي كعادته أمام المشغولات المعدنية: أساور وخواتم وحلقان وخلاخيل ذات زخارف دقيقة من أشكال الزهور وأوراق الشجر. لم تكن بعض الأساور كاملة التدوير وزخرف أكثرها بكريات بارزة مثل التي رأيتها فوق الأبواب الخشبية العتيقة. أما العقود الفضية والذهبية فتنتهي بميداليات مرصعة بالآيات القرآنية أو بريال ماريا تريزا الفضي الذي كان العملة السائدة في بداية القرن.

علَّق على الأشكال السائدة التي تتميز بفجاجتها: كل هذه الحلي التي تراها جديدة في الصياغة وفي النقش. فالناس يحضرون ما لديهم من قطع قديمة ليعاد صهرها وصياغتها. تأثير الخليج.

تطلع في ساعته وغادرنا السوق. وفي هذه المرة ركبنا السيارة الجيب وتولى الشاب ذو العوينات الطبية قيادتها في طرقات متعرجة بين بيوت تطل الأشجار من فوق أسوارها الحجرية. وتبعتنا السيارة الأخرى إلى الطريق الرئيسي.

قال فتحي: سالم درس التصوير التليفزيوني عند أصحابك.

التفت إلى صاحب النظارة الداكنة مستفسرًا. ظل وجهه خاليًا من أي تعبير مستغرقًا في القيادة، نقلت البصر إلى فتحي فقال لي: تعلم في بلغاريا. ولهذا السبب لم يعين في التليفزيون وجاء من نصيبنا.

كنا نسير في منطقة صخرية تحف بنا الجبال شاهقة الارتفاع تكسوها الخضرة الكثيفة في بعض المناطق، انحنى الطريق قليلًا إلى اليسار ومررنا بطريق جانبي مرصوف.

أشار فتحي بالتوقف قائلًا: تعالَ نريك تنوف.

عدنا إلى الوراء ثم انحرفنا في الطريق الجانبي ومضينا فيه ما يقرب من ربع الساعة إلى أن أشرفنا على بضعة مبانٍ قديمة.

غادرنا السيارة وقادنا سالم وسط منطقة مهجورة تناثرت فيها الأحجار والأعشاب حتى اقتربنا من جدران قائمة بلا سقوف أو بأجزاء من سقوف.

أشار سالم إلى الثقوب المنتشرة فوقها وقال: الإنجليز قصفوا القرية بالطائرات سنة ٥٦ ودمروها عن آخرها وقضوا على كل أهلها. هذا هو كل ما تبقى منها.

تطلعت حولي في حيرة: أليس المفروض أن تذكر هذه المعلومات في لافتة. ليس هناك ما يشير حتى إلى اسم المكان.

أطرق برأسه إلى الأرض وقال: السلطات لا تحب نبش الماضي.

قلت: نحن إذن قرب الجبل الأخضر.

– هو فوقنا تمامًا.

لم يكن هناك ما نفعله سوى أن نعود أدراجنا، ولحقنا بالسيارة الأخرى عند مشارف مدينة بهلا، ثم واصلنا السير مسافة مماثلة لنزور حصن جبرين.

أشرفنا على جدران صخرية عالية تتوسطها بوابة ضخمة موصدة. ترجلنا في باحة ضيقة واقتربنا من بوابة في أسفلها فتحة صغيرة تشكل بابًا خشبيًّا وقف أمامه حارس بالزي المألوف يمسك ببندقية قديمة. أفسح لنا فولجنا ممرًّا مسقوفًا قادنا إلى باحة داخلية.

كان ثمة صف من المباني الواطئة إلى اليسار ضمت في الماضي اصطبلات الخيل ومخازن المؤن ومساكن العبيد وثكنات الجنود وأجنحة الخدم. ارتقينا سلمًا طويلًا عموديًّا إلى سطح تتخلل سياجه فتحات ضيقة تبرز منها فوهات مدافع قديمة صدئة وإلى جوارها القذائف المعدنية المستديرة.

أشار سالم إلى فتحة عند حافة السطح وقال: هذه الفتحة تطل مباشرة على مقدمة المدخل. وهناك سبع فتحات عند كل مستوى من مستويات الحصن تطل من خلال بئر كهذه على فتحة المدخل وعلى الفتحات التي تسبقها. وبهذا فكل من يقتحم المدخل مُعَرَّض للقتل عدة مرات، فإن نجا عند باب لن ينجو عند الأبواب الأخرى التي تحرسها الفتحات الموجودة عند الأبواب التالية لها.

قادنا إلى فتحة أخرى لها غطاء خشبي، رفعه فظهرت شبكة من القضبان الحديدية الأفقية وأسفلها غرفة عميقة الغور ملساء الجوانب.

قال: من يُحكم عليهم بالإعدام يُرمى بهم هنا بعد تعذيبهم ولا ينفذ فيهم الحكم إلا بعد أن يعترفوا.

أعاد الغطاء الثقيل إلى مكانه في صعوبة ثم دفع المزلاج بقوة. وقال كأنما يفسر الأمر أو يعتذر عنه: تاريخ عمان مليء بالقلاقل والأطماع والغزوات. كل قبيلة تريد الإمامة التي تتم بالانتخاب. وكل أسرة من كل قبيلة تريد أن تسود هي باقي الأسر.

هبطنا إلى الباحة وولجنا القصر. ألفينا أنفسنا في غرف واسعة رحبة جيدة الإضاءة والتهوية رغم سمك الجدران الصخرية، خُصص بعضها للسلطان والبعض الآخر لجلسات الحكم والقضاء، وكانت السقوف محلَّاة بزخارف مستوحاة من الزهور والنباتات، ظهر فيها تأثير الفنَّين الفارسي والأفريقي، وفي السقف الخشبي المزخرف علقت المروحة: قضيب نحاسي تتدلى منه شرائط من القماش. وكان ثمة حجرات صغيرة بين كل طابق أعدت لتكون بمثابة حمامات فزُودت بفتحات يُرفع الماء خلالها من بئر القلعة. وفي زاوية السلم العريض لكل طابق حجرة ضيقة ذات باب قصير سميك من الخشب مخصصة لسجن الرجال، تقابلها في الطابق التالي حجرة مماثلة مخصصة لسجن النساء.

تخيلت الحياة تدب في المكان. الرجال المشغولون بأسلحتهم ونزاعاتهم والنساء اللاتي لا يرين العالم الخارجي إلا فيما ندر، ويمثل القصر كل شيء في حياتهن، يتنقلن بين أرجائه ويتبادلن الزيارات والشجارات الصغيرة. ويتوافد الخدم والعبيد من المساكن المخصصة لهم أو من خارج الحصن. يتولى بعضهم تحريك قضبان المراوح بالساعات. فإذا تهاون أو أخطأ تعرض للعقاب.

هبطنا السلم إلى ما تحت مستوى الأرض. وقفنا في مدخل حجرة معتمة في قاعها قبر السلطان بلعرب الذي حكى سالم قصته؛ أبوه هو الذي بنى القصر في اثنتي عشرة سنة منذ ثلاثة قرون ونصف وترك لابنه دولة مزدهرة. لكن الابن كان كريمًا طيب القلب، فالتف حوله الرعاع وخرج عليه أخوه سيف الذي انحاز له الفقهاء والمشايخ. دارت معارك متعددة بين الأخوين راح ضحيتها الكثيرون. وجرت آخر هذه المعارك في الشمال من نزوى، هُزم فيها بلعرب فارتدَّ محتميًا بمدينته لكن أعيانها منعوه من دخولها، فالتجأ إلى هذا الحصن وانزوى فيه. حاصره أخوه وظل يهاجمه محاولًا اقتحامه ودافع بلعرب مع حاشيته وزوجاته وحرسه عن الحصن حتى يئس فالتجأ إلى هذه الغرفة وحفر قبره ورقد فيه ثم ودع أهله وابتهل إلى الله أن يموت فأجابه الله إلى طلبه.

علقت قائلًا: قصة مأساوية.

قال بوجه خلا من كل تعبير: المأساة الحقيقية أن القاتل وهو سيف دخل تاريخ عمان بل التاريخ العربي كله من أوسع الأبواب. فقد تمكن من توحيد البلد كله تحت

سلطانه وحقق السلام والعدالة في ربوعها، وانتزع من البرتغاليين ممباسا وزنجبار، وكوَّن أسطولًا قويًّا مزودًا بأقوى المدافع فرض به سيطرته على البحار من حوله، التاريخ لا يهتم إلا بالنتائج.

فكرت في عبارة سالم الأخيرة ونحن نغادر الحصن ونستقل السيارة. انتظرت حتى دار بالسيارة لنعود من حيث جئنا ثم سألته: كيف ذهبت إلى بلغاريا؟

ظل صامتًا برهة ثم قال: بعثة.

أبديت دهشة: هل كان قابوس يرسل بعثات إلى الدول الشيوعية؟

قطب جبينه وقال: الجبهة هي التي أرسلتني.

قلت وما زلت مدهوشًا: جبهة ظفار؟

قال بلهجة المدافع عن نفسه: كان لي ابن عم بها، فساعدني على الذهاب إلى عدن، وهناك حصلت سنة ٧٤ على منحة دراسية في بلغاريا.

سألته: ومتى عدت إلى عمان؟

قال: منذ ثمانية أعوام تقريبًا.

حسبت المدة وقلت: يعني بقيت هناك عشر سنوات. ولم تواجه أية مشاكل عند عودتك؟

قال: أبدًا. الثورة كانت انتهت وأصدر السلطان عفوًا عامًّا.

قلت: وماذا حدث للجبهة؟ هل انتهت هي الأخرى؟

قال: لم يعد أحد يسمع بها.

– ألا تعرف أحدًا من أعضائها ... هل يمكن مقابلة أحدهم؟

هزَّ رأسه نفيًا.

غيرت مجرى الحديث وسألته إذا كان متزوجًا، فأجاب بالإيجاب وأن لديه ثلاثة أطفال، ولدين وبنتًا.

توقفت السيارة في سهل فسيح منبسط تناثرت فيه الأشجار شديدة الخضرة، نزلنا نحرك سيقاننا. وأشار سالم إلى مجرى مائي يمتد مسافة طويلة وتلمع مياهه الصافية تحت أشعة الشمس.

– الفُلج. إحدى العجائب العمانية أو قُل إحدى عجائب التاريخ والحضارات. مثل الأهرامات عندكم.

– ما وجه العجائبية؟

– ليست مجرد قناة للمياه الجوفية. إنها نظام متكامل من قنوات معقدة التكوين.

انضم إلينا سائق الفان ووقف يتأمل المياه. كان قصير القامة ضامر الجسد تكاد رأسه تختفي أسفل مصرته.

سألت: من الذي بناها؟

تطوع السائق للإجابة: القديمة بناها النبي سليمان، وبعد ذلك قلده الناس.

– النبي سليمان جاء إلى هنا؟

– الله يسلمك. جاء في موكب على أجنحة الريح.

– لكن من الذي قام بالبناء؟

– الجان. أقام سليمان عشرة أيام وفي كل يوم كان الجان يحفرون ألف قناة.

– معقول، ألم يكلم النمل. والجديدة حفرها الجان أيضًا؟

ضحك سالم وقال: لا، هناك الآن متخصصون في حفر الآبار والأفلاج. بل قبيلة كاملة اسمها العوامر. لديهم خبراء بمواقع الماء تحت الأرض. يلقب الواحد منهم بالباصر، وهو يتفحص التربة ويحدد وجود الماء وعمقه، بعد ذلك يحفرون مجرى الفُلج ويمدونه تحت الأرض في نفق، ولمسافة تمتد عدة كيلومترات.

علق فتحي: هناك فُلج حديث بالإمارات استغرق حفره بطول كيلومتر ونصف كيلومتر حوالي ثمانية عشر عامًا من العمل المستمر.

قال سالم: الفرس هم الذين ابتدعوا الأفلاج عندما كانوا يحتلون المنطقة في عهد الساسانيين. وكلمة فُلج مستمدة من جذور سامية تعني تقسيم الملكية إلى أنصبة، والمقصود عملية تنظيم وتوزيع المياه بين من ساهموا في بنائها وصيانتها.

– عين العدل.

– ليس تمامًا. فالأغنياء هم الذين استفادوا منها إذ تولى كبار الإقطاعيين بناءها وإدارتها واحتكروا مياهها. المفروض أن تكون سقاية الماء من الأفلاج حرة مشاعة للجميع.

لم يُعلِّق أحد ومشينا في صمت إلى السيارتين. توقف سائقنا ليحدق في سيارة شيروكي بألوان مبهرجة وكشافات إضافية وهوائيات متعددة، تابعها ببصره مدة طويلة إلى أن اختفت ثم قال: سأشتري واحدة لي.

سألته عما إذا كان راتبه من الوزارة يمكنه من ذلك فقال: سأترك العمل بالوزارة قريبًا وأعود إلى التجارة.

– وبماذا ستتاجر؟

– العمال.

– لم أفهم.

– أحضرهم من الخارج وأؤجرهم لمن يشاء مقابل عشرين ريالًا في الشهر عن كل رأس.

– كفيل يعني؟

– نعم.

واصلنا السير حتى بهلا فتوقفنا عند الفندق الذي سنقضي به الليلة. واجتمعنا لتناول طعام الغذاء حول مائدة كبيرة قرب مسبح مستدير. وتولى خدمتنا طاقم من الهنود.

جاء مكان السائق إلى جواري. سألته عن عمره فضحك وقال إنه لم يتجاوز بعد الخامسة والثلاثين. أمعنت النظر في الغضون التي تملأ وجهه وفمه الذي أوشك أن يخلو من الأسنان، ثم سألته عما إذا كان متزوجًا.

قال: اثنتين، واحدة عمانيَّة والثانية هنديَّة.

علَّق على دهشتي: الرجال عندكم في مصر يتزوجون أيضًا اثنتين. أليس كذلك؟

قلت: أربعة.

أضفت: هذا كان فيما مضى. فمن يقدر الآن على واحدة؟

أمَّن على حديثي مبتسمًا وقال: خصوصًا المصرية.

قلت: لكن لماذا هنديَّة؟

قال: إرادة ربنا، كنت أتردد على الهند كل سنة. أنا في الأصل تاجر أقمشة قبل أن ألتحق بالوزارة. وفي الهند أقيم شهرًا. وهناك يمكن تقريبًا أن تشتري الهنديَّة.

– والعمانية تعرف أنك متزوج في الهند؟

– طبعًا تعرف. لأننا نعيش سويًّا الآن.

– هنا في عمان؟

– أجل. فالسلطان أصدر قانونًا يحرم الزواج من أجنبيات، لأن الرجال انصرفوا عن البنت العمانية وصاروا يتطلعون إلى الزواج من بنات متعلمات أو متحررات، وأعطى السلطان مهلة اشترط خلالها إجراءات معينة لتقنين الزيجات القائمة فعلًا. كان لا بد من إحضار الهندية. فلم أرد التخلي عنها بعد أن صارت أمًّا لأولادي.

– الاثنتان في بيت واحد؟

– طبعًا. العلاقات بينهما على أحسن ما تكون.

قلت وأنا ألتقط حبات الجمبري: لا بد أنك تعدل بينهما.

قال بثقة مطلقة: لا أترك لهما فرصة للشكوى.

– ألا تفكر في واحدة ثالثة؟ مصرية مثلًا؟

قال بجدية شديدة: ليس الآن. ربما في المستقبل.

– بس خلي بالك. المصرية صعبة للغاية. لن تقبل الحياة مع ضرتين.

لم تهتز ثقته بنفسه.

أجلت النظر حولي وعلقت على فخامة الفندق، فقال فتحي: انتظر حتى ترى قصر البستان.

سألت: أهو فندق؟

قال السائق: تكلف ٢٨٠ مليون ريال واستغرق بناؤه سنتين.

ضربت الرقم كعادتي في ٨، وأطلقت صفيرًا: ٢٢٤٠ مليون جنيه، ملياران وربع مليار جنيه أو ٧٥٠ مليون دولار!

قال فتحي كأنما يلتمس تبريرًا لهذا السفه: أقيم لتُعقد به قمة مجلس التعاون الخليجي.

قال السائق بصوت محايد: بعد افتتاح الفندق بمدة لاحظ جلالة السلطان أن شعار الفندق قريب الشبه من شعار السلطنة فأمر بتغييره. وتكلف ذلك فقط ٣ ملايين ريال.

صفرت مرة أخرى: ٢٤ مليون جنيه لتغيير الشعار!

استطرد بنفس الصوت المحايد: تطلب الأمر تغيير كل الأطباق والشوك والسكاكين والأكواب والمفارش والملاءات والستائر ... إلخ.

صببت لنفسي كوبًا من المياه المعدنية. وتبينت أن الزجاجة تحمل اسم القرية التي دمرها الإنجليز وزرناها منذ قليل.

قلت لسالم وأنا أعيد الزجاجة إلى مكانها بحيث تواجهه اللوحة الملونة التي تحمل اسمها باللغتين العربية والإنجليزية: التاريخ أيضًا لا ينسى.

تأمل الزجاجة باستغراق ثم التفت إليَّ قائلًا: ألا تحب الصعود إلى الجبل؟

نهضت على الفور واستمهلته حتى غسلت يدي ثم أخذنا السيارة الجيب وخرجنا مرة أخرى إلى الطريق الرئيسي وانطلقنا في اتجاه نزوى.

قلت: كان لي صديق عماني من هذه النواحي. كان يتحدث عن الجبل الأخضر ونزوى. اسمع ... أتذكر أنه تحدث عن قرية لها اسم له علاقة باليسار. وكنا نتندر بذلك ... يعني مثلًا اليسرى أو التقدم أو نجمة ... حاجة زي كده ...

– توجد هنا قرية مشهورة اسمها الحمرا ... ربما تكون هي.

– هل يمكن أن تسأل عنه؟

قال: سنرى.

انعطفنا بعد مسافة قصيرة في طريق جانبي إلى اليسار يميل إلى أعلى. واصلنا الصعود مسافة تربو على عشرة كيلومترات، ولحظت أن التربة تكتسب لونًا أحمر بالتدريج.

توقفنا أمام تليفون عمومي على الطريق، ثم غيَّرنا الطريق وولجنا القرية.

سألني: ما لقب صديقك؟

قلت: لا أذكر ...

التفت إليَّ مستغربًا. فأضفت: هذا كان من زمن بعيد. من أكثر من ثلاثين سنة.

– بالكاد كنت ولدت.

– أي سنة؟

– سنة ٥٧.

– هذا هو تقريبًا الوقت الذي تعرفت فيه بيعرب.

– هذا اسمه؟

– لست متأكدًا.

– كيف؟

اخترت كلماتي بعناية: تعرفت عليه في ظروف خاصة بالقاهرة. كان مضطرًّا لإخفاء اسمه الحقيقي. ربما كان هو يعرب. لا أذكر.

– ولم ترَه من وقتها؟

– ولا مرة.

قال: كيف سنستدل عليه إذا كنت لا تعرف لقبه؟ الناس هنا عائلات وقبائل.

اخترقنا طرقات نظيفة يلعب بها الأطفال إلى ساحة مركزية تحيط بها عدة مبانٍ حديثة البناء متواضعة الشكل تتألف من بقالة ومدرسة وعيادة طبية ومقر إداري.

تركنا السيارة في الساحة وانطلقنا في طرقات ضيقة حتى بلغنا مسجدًا صغيرًا، اقترب سالم من المدخل وأطل داخله دون أن يجتاز عتبته بقدميه، ثم هزَّ رأسه وكرَّ راجعًا.

اتجه إلى منزل صغير ملاصق للمسجد ومكون من طابق واحد وطرق بابًا خشبيًّا حديث الدهان بألوان فاقعة.

كانت واجهة المنزل مؤلفة من نوافذ خشبية مغلقة خلف قضبان أفقية من الحديد. كرَّر الطَّرْقَ، فانفرج مصراع نافذة عن رجل أصلع في حوالي الأربعين من عمره. ألقى عليه سالم السلام ثم سأله عن أبيه.

ظل الرجل يتطلع إلينا صامتًا ثم اختفى في الداخل وأغلق مصراعي النافذة خلفه. مضت دقائق. وكنت سأقترح عليه أن يطرق الباب مرة أخرى عندما انفتح فجأة وظهر في فتحته عجوز ضئيل الحجم ذو عينين يقظتين ولحية بيضاء كثَّة تنسدل فوق صدره. تأملني بإمعان ثم تحول إلى سالم وصافحه في تحفظ قائلًا: كيف الحال؟

قال سالم: الحمد لله.

قال الشيخ: كيف الجماعة؟

قال سالم: بخير والحمد لله.

قال الشيخ: كيف الأهل والأولاد؟

قال سالم: الحمد لله. طيبين. بخير.

صمت الشيخ. وانتظرنا إلى أن قال بعد فترة: من هين الأخ؟

أجاب سالم: من العاصمة.

قال الشيخ: تفضلوا عندنا.

قال سالم: أحسنت. مشكور.

قال الشيخ: كيف الأحوال في العاصمة؟

قال سالم: بخير. الأخ من مصر، وهو يسأل عن صديق.

رفع الشيخ حاجبيه وتأملني من جديد في إمعان.

استطرد سالم: كان له صديق عُماني في القاهرة، من ثلاثين سنة، وليس متأكدًا من اسمه.

قلت معتذرًا: الذاكرة أصبحت ضعيفة. ربما كان اسمه يعرب.

قال الشيخ: من هنا؟ من الحمرا؟

قلت: نعم.

فكر الشيخ قليلًا ثم قال: هناك كثيرون بهذا الاسم.

قلت في لهفة: عمره الآن لا بد يقترب من الستين. كان يتعلم في الجامعة في مصر.

هزَّ الشيخ رأسه ببطء: من أي عائلة؟

تدخل سالم: للآسف لا نعرف.

قلت فجأة: كانت معه أخته. وكانت تدرس أيضًا في الجامعة.

سألني الشيخ: هل تذكر اسمها؟

هل أذكره؟ قلت: أظن أنه شَهْلا.

التفت سالم في حدة نحوي وفتح فمه ثم أغلقه دون أن ينبس بحرف.

أطرق الشيخ برأسه إلى الأرض وقال في حسم: ليسا من هنا، لا أعرف أحدًا بهذين الاسمين، تفضلوا عندنا.

قال سالم: أحسنت. لا بد أن نذهب.

استدار الشيخ ودخل المنزل قائلًا: مع السلامة.

وقبل أن نتحرك كان قد أغلق الباب في وجهينا.

سألت ونحن نخطو بعيدًا عن المنزل: تعرفه من قبل؟

قال: أبدًا. هو شيخ المسجد. وإذا كان لا يعرف فلن يوجد من يعرف غيره.

– والمجلس البلدي؟

– لن نحصل على شيء منهم. فكلهم شبان يعملون في النظافة ورش المنازل بالمبيدات والتفتيش على المتاجر.

سألت: ألا يوجد هنا أو في مسقط ناس من الذين شاركوا في الثورة؟

توقف عن السير واستدار نحوي: أي ثورة؟

قلت: ثورة ١٩٥٧ التي قادها إمام لا أذكر اسمه.

قال: الإمام غالب. يوجد بالطبع لكني لا أعرف أحدًا منهم.

استأنف السير وعدنا إلى السيارة وهو يسبقني بخطوة كأنما يضع حاجزًا غير مرئي بيننا.

قال: سنبذل محاولة أخيرة في القرية التالية.

انطلقت السيارة صاعدة إلى الجبل. ولم يعد الطريق مرصوفًا وإنما ممهدًا تتخلله مناطق وعرة. ودار بنا عدة دورات وضعتنا على حافة هاوية سحيقة أو وادٍ. وانتشرت أمامنا خضرة كثيفة ومسطحات خضراء. تعلقت بباب السيارة ونحن ندور في طريق ضيق يطل على هوتين، وأخيرًا توقفنا في ساحة صغيرة بين عدَّة منازل إلى جوار شاحنة بيك أب، وغادرنا السيارة.

كان ثمة عدة رجال متجمعين فيما بدا أنه مدخل القرية. وجلس بعضهم فوق سور حجري بينما ظل الآخرون وقوفًا. ومن أول نظرة استوقفتني وجوههم. كان يبدو عليها القدم والمتحفية رغم أن أغلبهم كان في أواسط العمر. القدم وشيء ما من التشويه أو

الخلل، كأن يكون الوجه أكثر طولًا من المألوف أو مائلًا إلى إحدى الجهتين أو نحيلًا بشكل غير عادي أو تكون الجبهة ضيقة للغاية أو عريضة للغاية. كانوا يرتدون الجلابيب المألوفة وارتدى أحدهم فوقها سترة أوروبية قصيرة.

واصلوا حديثهم في لهجة لم أستطع تبينها بينما كانوا يلاحظوننا خِلسة.

اقتربنا منهم ووجهنا إليهم التحية فاستقام الجالسون وقوفًا وتصافحنا. وجرت طقوس التحية المألوفة: كيف الحال وكيف الجماعة والأهل والأولاد ثم الدعوة التقليدية: تفضلوا عندنا.

ورد سالم بالطريقة المنتظرة: أحسنت، متمشيين.

عندئذٍ أطرقوا برءوسهم كأنما يدركون ما يدفع الأغراب لزيارة قريتهم النائية.

سألت سالم ونحن نخطو في طرقة ضيقة بين منازل مغلقة الأبواب: هل يعرفونك؟

– أبدًا.

مررنا بخزان مياه كبير الحجم طُبعت عليه عبارة وزارة الكهرباء والمياه تمتد منه أنابيب رفيعة بحذاء الجدران إلى حوض أسمنتي به حنفية عمومية، وعبرنا نفقًا مظلمًا أسفل أحد المنازل، وأوشكت أن أفقد توازني فوق درجات حجرية ضيقة نحتتها الأقدام عبر الأعوام.

بدت القرية كأنها أقيمت بصورة عمودية على سطح الجبل بعدة مستويات وبصورة عشوائية، فتراكمت البيوت الصغيرة فوق بعضها دون نظام، وتخللتها حقول صغيرة منحدرة. وقفت أمام بيت أقيم فوق صخرة مائلة، فبدا موشكًا على السقوط، واعتمد عليه منزل آخر يتألف من مستويين عُلِّقت في نوافذه قلل الماء الفخارية لتبرد.

مر بنا صبي وفتاة على أعتاب المراهقة … كانا يجريان ضاحكين ولاحظت شحوب وجهيهما وهزال جسديهما. ولمحت في نهاية الدرجات وبين الأوراق الخضراء العريضة الأشجار الموز، ركنًا وارف الظلال يتردد فيه صوت انسياب المياه من مكان ما وزقزقة العصافير. وكان ثمة عجوزان يتبادلان الحديث دون أن يأبها لنا.

اتجه سالم إليهما وبقيت مكاني: ترامت إلى مسمعي التحيات المتبادلة ثم مرت لحظة من الصمت هز الاثنان بعدها رأسيهما بالنفي، وتردد أذان المغرب في قوة بين الأشجار والنخيل.

انضم سالم إليَّ فقلت وأنا أفكر في المنحنيات الضيقة التي تشرف على الهاوية: الأفضل أن نعود قبل أن يسود الظلام.

وأخذنا خطواتنا عائدين إلى السيارة.

٦

غادرنا الفندق بعد الإفطار وخرجنا إلى ساحة واسعة في ظاهر البلدة تجمع بها حشد من الرجال في الملابس التقليدية يحملون السيوف اليمنية المقوسة والبنادق والأعلام العمانية ذات الألوان الحمراء والبيضاء والخضراء.

كانوا يشكلون صفوفًا مستعرضة، يضم كل صف منها عددًا صغيرًا من الأفراد، وبينه وبين الصف الآخر مسافة تسمح لأفراده بأن يحمل كل منهم بندقيته أو سيفه مشرعًا في الهواء وفي وضع مائل إلى الأمام. وتصدَّر الصفوفَ طبالان يحمل كل منهما نوعًا مختلفًا من الطبول وإلى جوارهما نافخ البوق.

نصب سالم ومساعداه آلات التصوير وشرع يقيس المسافات، ثم انفرد باثنين من حاملي السيوف وتحدث إليهما بصوت منخفض وهو يلتفت ناحيتي بين الحين والآخر.

اتخذ مكانه أخيرًا خلف الكاميرا. وبدأ صاحب البوق في النفخ وهو يطلق صيحات متقطعة تنبه أهل العشيرة وتدعوهم للانضمام إلى المسيرة، وتحرك الحشد والطبالان يدقان في إيقاع ثنائي نشط.

تقدمت المسيرة في خطى سريعة ثابتة تتوافق وسرعة الإيقاع، وتوحي بالشجاعة والإقدام. وترددت أهازيج لم أفهمها في البداية إلى أن تكررت فميزت بعض الكلمات وإن غاب عني معناها في أكثر الأحيان.

وصلوا إلى الساحة فانقسموا إلى صفين متقابلين. وأخذ الطبالان يتنقلان بين الصفين وهما يدقان بإيقاع سريع بينما تبادل الصفان الغناء بأبيات واحدة:

أول سلامي على الديرة،
وانتو عليكو سلام الله،
الحصن ناشل بناديره،
خسران لي يخون عهد الله.

غيَّر سالم موضع آلات التصوير وأدركت السبب عندما نزل الساحة رجلان شاهري سيفيهما وفي اليد اليسرى لكل منهما قطعة معدنية مخروطية الشكل أشبه بدرع صغيرة. وبدأت المبارزة بينهما.

وأخذا يدوران حول بعضهما وأبديا مهارة فائقة في توجيه الطعنات وتفاديها. وبعد أن ظلا يتحركان في حذر وكل منهما يتلمس نقاط قوة وضعف الآخر، تسارعت حركاتهما وعنفت، وتردد صليل احتكاك السيوف مختلطًا بإيقاع الطبول الذي تسارع هو الآخر.

كان صراعهما حادًّا عنيفًا، وخلت في لحظة أنهما لا يمثلان، وأن المبارزة جادة، وأن كل منهما يسعى لإصابة الآخر، ولن يتوقف إلا بعد أن يغمد سيفه في صدر خصمه.

لحظت أن سالم يوجه عدسة الكاميرا نحوي بين الحين والآخر كأنما يسجل انفعالات وجهي. وشعرت بالانفعال يسري بين المتفرجين وهم يتطلعون في تركيز إلى المتبارزين كأنما يتلهفون على النتيجة: هزيمة أحدهما ومصرعه؟ وبدأ الغناء يعلو تدريجيًّا، وتصاعد الغبار من حولنا، وميزت من الغناء الشطرين الأخيرين:

الحصن ناشل بناديره،
خسران لي يخون عهد الله.

قدرت أن الشطر الأول يشير إلى الرايات المرفوعة أو المدافع المنصوبة وأن الثاني يهدد من يخون العهد.

ازداد صراع المتبارزين عنفًا، وتفصد العرق على وجهيهما. وتسارع دق الطبول. واقتصر المغنون على الشطر الأخير: خسران لي يخون عهد الله، يرددونه في إيقاع لاهث.

كان المتبارزان قد دارا في أنحاء الحلقة حتى أصبحا أمامي مباشرة. وجاءتني رائحة عرقهما، ودارا مرة أخرى بحيث أصبح ظهر أحدهما لي والتحم سيفاهما وجسداهما فجأة ثم انفصلا مرة واحدة. تراجع المبارز الذي أعطاني ظهره خطوة جعلت الفاصل بيني وبينه قدمًا واحدة ثم قفز فجأة جانبًا بينما كان الثاني يستعد ليوجه له طعنة نافذة. ارتفع دق الطبول وتردد الشطران الأخيران من الغناء في عنف بينما خطف بصري لمعان الشمس فوق سيف المتبارز الآخر، تعلقت عيناي بالسيف وهو يندفع نحوي، ولم أشعر به إلا وقد صار أمام وجهي واستقر طرفه الحاد على مسافة شعرة من ذقني.

توقف دق الطبول والغناء مرة واحدة وساد السكون. وخف فتحي إلى جانبي بادي الانزعاج، لمحت السيف يبتعد عن وجهي، وانحنى فتحي فوقي مستفسرًا عما إذا كنت أصبت بشيء.

مسحت وجهي بيدي اليمنى ورفعتها أمام عيني متوقعًا رؤية الدماء رغم أن طرف السيف لم يلمسني، ثم نهضت واقفًا وتراجعت إلى الوراء وأنا أقول: بخير لم يحدث شيء.

تحول فتحي إلى المبارز غاضبًا، وشرع هذا يعتذر.

كررت: لم يحدث شيء.

بحثت بعيني عن سالم فوجدته خلف كاميرته التي أخفت ملامح وجهه. سمعته يسأل: هل سنعيد التصوير؟

ردَّ فتحي: لا، صعب أن نمسك بنفس الإيقاع مرة أخرى.
وأضاف وهو يغتصب ابتسامة: على الأقل حصلنا على نهاية درامية.
وماذا عن البداية؟

الفصل الثالث

القاهرة

١٩٥٧–١٩٥٩

كان ذلك بعد العدوان الثلاثي بعدة شهور، وبعد أن أتممت عامي التاسع عشر. كنت غارقًا إلى أذني في خضم عملية التمرد التقليدية. وقد انقطعت عن الذهاب إلى الجامعة، وكرست وقتي كله للنشاط السياسي معتبرًا نفسي واحدًا من هؤلاء المكافحين الذين يتخلون عن حياتهم البرجوازية في سبيل هدف أسمى، وكنت أظنني قد عثرت على الطريقة المثلى للحياة: السبيل لتصحيح كافة أشكال الظلم والقهر المحيطة بي، نظرة واضحة للعالم تستند إلى تفسير علمي للتاريخ والاقتصاد، (دون أن أدرك وقتها أن هذا التفسير العلمي بالذات يتطلب خبرة واسعة بالعالم)، ودور متفرد يضعني على الفور في مستوى أعلى بكثير من أقراني ومن الكبار الغارقين في حياتهم الضيقة المبتذلة.

لكن ما بدأ كمغامرة مثيرة تقوم على لقاءات سرية بأشخاص مجهولين، بينهم فتيات من طراز غير مألوف، وعلى التفنن في اكتشاف الشرطة السرية وتضليلها، وفي سبل توصيل الشعارات والمفاهيم الثورية للجماهير، سرعان ما فقد الكثير من بهائه وجاذبيته. فالدكتاتورية العسكرية التي كان الشيوعيون يسعون إلى إسقاطها بدعوى عمالتها للأمريكان وعدائها للطبقة العاملة (الذي كشفت عنه بإعدام خميس والبقري)، قد تحولت بالتدريج إلى طليعة للحركة الوطنية العربية واشتبكت مع القوى الاستعمارية في مواجهات عدة بلغت ذروتها بتأميم قناة السويس وما تلاه من عدوان مشترك من جانب القوتين الاستعماريتين التقليديتين وإسرائيل. وعندما أقدم عبد الناصر على تمصير الاقتصاد وتحريره من سيطرة الأجانب وإنشاء القطاع العام، مغلقًا الطريق في وجه

تشكل رأسمالية تابعة للغرب، وممهدًا لخطة تنمية شاملة تستند إلى مصالح الجماهير الشعبية، لم يكن أمام كل وطني مخلص إلا أن يقف إلى جانبه ويدافع عنه.

هكذا صار يومي يتألف من الطواف بأقدام متثاقلة على مراكز التجمعات بحي الدقي الذي أقطن به؛ مصنع تعبئة الكوكاكولا ومصنع تعبئة البيرة ووزارة الزراعة ومعمل المصل واللقاح ومركز البحوث، سعيًا وراء تجنيد العناصر المناسبة للعمل السري من خلال تعبئتها للدفاع عن سياسة الحكم! لم يكن تثاقلي نابعًا من كراهيتي للمهمة، وإنما من صعوبتها فقد كان من العسير إيضاح الالتباس الحادث بين الوضع السري للحركة الشيوعية وموقفها السياسي.

فلم يكن عبد الناصر راغبًا في التعاون مع جماعة من المثقفين الذين يتميزون بوعي مرتفع لا يملكه الضباط وقدرة فائقة على التنظيم والعمل وسط الناس، واستعداد للتضحية دون مقابل (أبدوه في أكثر من مناسبة من مقاومة الاحتلال الإنجليزي والاستغلال الطبقي ووباء الكوليرا في الأربعينيات إلى المقاومة المسلحة أثناء العدوان الثلاثي). ومن ناحية أخرى فهذه الجماعة المسلحة بالوعي كانت غير قادرة على تجاوز الخلافات فيما بينها، فتوزع أفرادها على عدة تنظيمات متناحرة، وأبدى بعضهم سذاجة مطلقة في تطبيق المفاهيم العلمية. لهذا استمر وضعنا السري، وخلق هذا الوضع عقبات جمة لكفاحنا ومصداقية خطابنا. فكم من مرة وجدتني أنجح في تجنيد شخص ثم أكتشف أنه آخر من يصلح لأنه لم ينضم إلينا إلا لتصوره أننا بحكم وضعنا السري نعمل على إسقاط النظام الذي يهدد مصالحه، ولا أنسى يوم قمت بتوزيع أحد منشوراتنا السرية بصورة علنية عندما رأيت أنه لا يحمل ما يستوجب السرية أو التجريم، طالما أنه يدعو إلى حماية النظام والدفاع عنه حتى الموت. واستوقف الأمر أحد المتفذلكين فصاح بأعلى صوته: شيوعي. وسارع الناس الذين لم يفهموا شيئًا من الأمر كله إلى المساعدة في القبض عليَّ وتسليمي للشرطة.

ولم يكن الذنب ذنبنا لأن عبد الناصر في سعيه للانفراد بالسلطة المطلقة ألغى كل التنظيمات السياسية فيما عدا التنظيم الذي أنشأه في أعقاب الثورة باسم هيئة التحرير، وكان مثار التندر والسخرية. أما نحن فقد احتفظنا بتنظيمنا السري إذ كنا مصرين على المشاركة. إنها بلادنا جميعًا فلماذا يكون من حق أحد دون غيره أن ينفرد بالتفكير والعمل من أجلها؟ بل كنا نعتبر أننا بتفكيرنا المستند إلى نظرية علمية أكثر الناس وعيًا بمستقبل البلاد واستعدادًا للتضحية في سبيلها. كما أننا كنا نؤمن بأهمية تنشيط العمل

السياسي للجماهير ونعارض محاولة وضعها على الرف ونعي الأخطار المترتبة على ذلك، والتي اتضحت بعد ذلك في تطور الأحداث.

وفي يوم لا أنساه — بعد انتظار طويل أمام مصنع تعبئة الكوكاكولا للقاء أحد عماله — مضيت للقاء الضابط المنوط بفرع هيئة التحرير والذي أصبح فيما بعد من أكبر تجار شرائط الفيديو، كنت قد تعرفت إليه أثناء العدوان الثلاثي إذ ذهبت إليه قائلًا إني أضع نفسي تحت تصرفه ولم أخفِ عنه هويتي السياسية، وفيما بعد حرصت على محاولة إيجاد سبل للعمل المشترك بيننا.

في ذلك اليوم أخذني في سيارته الفيات الصغيرة ومضى يطوف بي في شوارع الدقي الهادئة، وهو يوجه لي أسئلة عديدة متنوعة هدفها معرفة عدد أعضاء تنظيمنا المحلي. وكدت أضحك من سذاجته عندما سألني بشكل مباشر: أنتم خمسين؟ فلم نكن في الواقع نتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. وعندما يئس مني قال لي في اقتضاب إنه لا يرى أية حاجة للاتفاق على أي نشاط مشترك، فكل شيء على ما يرام، والفائدة الوحيدة التي يمكننا تقديمها هي أن نلزم بيوتنا ونترك الثورة تعمل.

تركته شاعرًا بالإحباط واتجهت إلى مقهى في الميدان ينتظرني به أحد الزملاء الذي صار فيما بعد شاعرًا كبيرًا. وجدته برفقة شاب قصير القامة ممتلئ الجسم ذي وجه أسمر عريض وملامح بدوية، ولمحت أمامه فوق المنضدة كتابًا عن القومية العربية لساطع الحصري بجوار علبة سجاير مارلبورو، فأدركت أنه ليس مصريًّا. وكانت الدقي وقتها — ولعلها ما زالت بسبب قربها من الجامعة — مركزًا لسكنى الطلاب العرب، فضلًا عن الثوريين واللاجئين السياسيين من يمنيين ومغاربة وفلسطينيين وسودانيين. وكنا نتعرف عليهم بسهولة من الكتب السياسية والأدبية التي يحملونها دائمًا بالإضافة إلى علب السجاير الأجنبية.

قدم لي صديقي الشاب العربي على أنه طالب من البحرين يُدعى خليفة. ولم يلبث الخلاف أن نشب بيننا؛ إذ شن حملة شعواء على الشيوعيين متهمًا إياهم بالعمالة للاتحاد السوفييتي وخيانة قضية فلسطين، قلت له إن لينين أدان المشروع الصهيوني منذ البداية، ثم غيَّرت الدولة السوفييتية موقفها عندما قبلت التقسيم، وهو ما بدا حلًّا معقولًا وقتها؛ لأن البديل وهو الحرب صبَّ في صالح الأنظمة العربية الرجعية والحركة الصهيونية. وذكَّرته بأن الحكام العرب حاصروا الحاج أمين الحسيني وأحبطوا دعوته إلى إعلان الدولة الفلسطينية. وتصالحنا في النهاية على مسئولية الحكام العرب عن الكارثة. وعندما فارقناه أعطانا عنوان مسكنه مؤكدًا علينا أن نزوره.

ذهبنا في اليوم التالي إلى العنوان في منطقة العجوزة الهادئة التي تملؤها الأشجار، وتبدأ إيجارات مساكنها من ثمانية جنيهات، وهو مبلغ كبير في تلك الأيام. سرنا حتى المتحف الزراعي تم انحنينا في شارع نوال حتى منتصفه. اتجهنا يسارًا وواصلنا السير حتى عبرنا شارع الدرك وبلغنا أطراف الأراضي الزراعية. توقفنا أمام بناية حديثة من أربعة طوابق. خرج إلينا البواب وأنكر وجود شخصًا باسم خليفة، ثم ذكر أن هناك ساكنًا من إحدى البلدان العربية في الطابق الثاني. فتح لنا خليفة الباب وأفسح لنا لندخل وهو يعتذر بأنه نسي أن يذكر لنا اسمه الحقيقي — يعرب — وبلده أيضًا، فهو ليس من البحرين وإنما من عمان. وأسر إلينا بالسبب الذي جعله يخفي علينا هويته في البداية، وهو خوفه من أن يصل أمر لقائه بنا إلى المخابرات المصرية التي أشرفت على إحضاره هو وأخته وعدد آخر من الشبان العمانيين واليمنيين ليتعلموا ويشعلوا الثورة ضد الإنجليز.

لم نجد في الأمر غرابة؛ إذ كان لكل شاب تقريبًا في تلك الفترة اسم سري، بل وأحيانًا اسمان. كما أن أخته ظهرت في تلك اللحظة.

كانت شهلا أضأل منه حجمًا لكن سمرتها كانت خمرية ولها عينان جميلتان وشفتان رقيقتان، وصدر ممتلئ، رحبت بنا وقدمت لنا الفاكهة والشاي، بينما انطلق أخوها في حديث متواصل عن عمان، مرددًا بين الحين والآخر: هل تتصوروا؟

لم نكن، فما حكاه عن ظروف الحياة في بلاده فوق كل خيال. روى لنا كيف حفظ القرآن في طفولته وكيف تعلم القراءة والكتابة أسفل شجرة هو وبقية الأطفال من بنين وبنات. كانوا يجلسون وفي أيديهم كتب مطبوعة في مصر وأمامهم المعلم بلحيته الكبيرة ورأسه العارية يكتب بقطعة من البوص على شكل القلم فوق عظمة حيوان، بعد أن يغمسها في سائل ملون، وقد رشق قلمًا آخر بين إصبعين في قدمه اليمنى الممددة أمامه.

– تصوروا! قائمة الممنوعات التي وضعها السلطان سعيد: التدخين، ركوب الدراجات، كرة القدم، فتح مطعم، قص الشعر، ارتداء الحذاء، امتلاك راديو، الهجرة.

حكى لنا كيف بدأ أبوه التجارة في عمان ثم أفلس فانتقل بتجارته إلى عدن، وفي أثناء الحرب بين إندونيسيا واليابان سمع عن ثمانية آلاف طن سكر معروضة للبيع في سومطرة بثمن بخس، فاشتراها واتفق مع مركب صيني من هونج كونج على نقلها. ومرت ثلاثة شهور دون أن يظهر السكر الذي انعدم تمامًا من السوق اليمني، ثم وصل المركب في أحد الأيام وتم تفريغ شحنته في الليل، وفي الصباح كانت قد بيعت عن آخرها وحقق منها مكسبًا خياليًّا.

تدخلت أخته في الحديث لتصف لنا كيف تضاعفت أرباح أبيها بعد ذلك عندما احتكر شراء الجلود والبن من المزارعين الصغار لينقلها إلى الحديدة فوق الجِمال، وبيعها إلى تجارها كي يصدروها عبر الميناء.

ولا زلت أذكر كيف توقفت عن الحديث ونظرت إليَّ باستنكار قائلة: هل تعرف كم يكسب أبي؟ إنه يشتري من المزارعين المائة كيلو من البن بعشرين ريالًا، ثم يبيعها لتجار الحديدة بمائة.

سألت في سذاجة: وماذا يجبر المزارعين على أن يبيعوا له؟

فضحكت: الواحد منهم لا يستطيع الانتقال بنفسه إلى الحديدة ليبيع محصوله، وهو أيضًا مدين لأبي من قبلُ؛ ولهذا يضطر إلى البيع بهذا السعر البخس. القصة نفسها في عمان. كل إنسان مجبر على أن يشتري من دائنه؛ ولأن صاحب الأرض مدين لتاجر الجملة تجده يبيع له بخسارة فادحة. والتاجر الصغير مدين للتاجر الكبير، وكذلك تاجر التجزئة مدين لتاجر الجملة، أما المواطن العادي فهو مدين لهم جميعًا.

لم أعجب للهجة العداء لأبيها التي ظهرت في أحاديثها. فقد كنا كلنا نتبارى في السخرية بآبائنا وتخلفهم أو جهلهم أو قسوتهم وعدم إنسانيتهم. وكثيرًا ما شاركت في هذه الأحاديث مستنكرًا الحب المفرط الذي يحمله أبي لي، منتهزًا الفرصة لأحكي كيف قضى ليلة شتوية كاملة خارج مركز الشرطة الذي حُجزت به عندما اشتركت في إحدى المظاهرات المعادية. أو كيف اكتشف المخبأ الذي أودعت به نسخة من البيان الشيوعي وأخرى من «كتيب كيف تكون شيوعيًّا حقًّا» لفيلسوف الثورة الصينية ليوتشاو شي، وأراد أن يحرقهما فهددته بالقتل إن فعل.

غادرت المنزل تلك الليلة في حالة غريبة من السعادة. وتذرعت بأمر ما لأذهب إليهما بعد يومين، حيث وجدت صديقي قد سبقني.

في منزل يعرب وجدت الجو الأسري الذي حرمت نفسي منه: كان مسكنًا نظيفًا مرتبًا عامرًا بأصناف الطعام البيتي التي تتولى أمره شغالة مصرية، وبالفاكهة وعلب السجاير الأجنبية. وكان كل منهما يحصل على منحة شهرية من الحكومة المصرية مقدارها تسعة جنيهات في الشهر، ويتلقيان مبالغ إضافية من أبيهما، ولهذا كانا في مصاف الأثرياء بالنسبة لنا، وعلى الرغم من بساطة مسكنهما فإنه كان لا يقارن بالمنزل الذي قضيت فيه طفولتي، والذي ظلت محتوياته تتناقص بالتدريج حتى لم يتبقَّ به في النهاية غير فراشي المعدني الصغير الذي تفككت ملته وهبطت في المنتصف حتى أوشكت أن تلمس الأرض

بالإضافة إلى فراش أبي الحديدي الكبير وخزانة رخيصة يتعسر إغلاق مصراعيها وكنبة خشبية تمرح الصراصير في جنباتها وعدة مقاعد متهالكة.

على أن أهم ما كان يميز مسكن يعرب هو بالطبع أخته. كانت تصغره بعامين لكنها كانت أكثر منه وعيًا. وعندما تعلق على قول ما كان ينصت إليها في اهتمام. وقبل أن يبدي رأيه في أمر من الأمور ينظر ناحيتها بشكل تلقائي وإن كانت نظراته تستقر دائمًا على صدرها، وكنت أنا وزميلي الذي عرفني به نتظاهر بأننا مهتمان بالمناقشات السياسية والفكرية معه بينما كان اهتمامنا الحقيقي منصبًّا على أخته، ولعلها كانت أول فتاة في حياتنا نجالسها بحرية وحميمية. وكانت البهجة تشع في كياني عندما يقع نظري عليها ويجتاحني اليأس إذا لم أجدها. وكانت من جانبها ترحب بنا وتستحثنا على الزيارة. ولم نكن وحدنا الذين نتردد عليهما. فقد التقينا لديهما بالعديد من الطلاب العرب الذين لم يخفوا اهتمامهم بها.

كان شتاء ذلك العام قاسيًا، فكنا نتردد عليهما تقريبًا كل ليلة، ونجلس حول المدفأة الكهربائية في الصالة فوق فوتيات حديثة ذات أرجل انسيابية وقماش مزركش، أو نحملها إلى غرفة يعرب ونتجمع فوق فراشه العريض أسفل الأغطية نشرب الشاي ونستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية، أو نشتبك في نقاش نحرص على إبعاده عن نقاط الاختلاف، فنسخر من حزب البعث وحديثه عن الرسالة الخالدة للأمة العربية التي تظهر بأشكال متجددة في مراحل التاريخ وترمي إلى تجديد القيم الإنسانية، ومن زعيمه ميشيل عفلق الذي استكتبه الدكتاتور السوري حسني الزعيم تحت ضغط المسدس تعهدًا بالتوقف عن النشاط السياسي.

خلال ذلك كنت أرهف كل جوارحي لإيماءاتها وخلجاتها، متلمسًا أي إشارة لعلاقة خاصة بينها وبين أحد المترددين على المنزل، متمعنًا في تلك النظرة الغامضة التي تطل من عينيها، والتي كانت تبدو أحيانًا متسائلة وأحيانًا أخرى ساخرة وأحيانًا ثالثة متحدية، وقد أتلعت رأسها وتضرجت وجنتاها سواء بفعل الحرارة المنبعثة من المدفأة أو بفعل النظرات المسلطة عليها، فإذا ما التقت عيوننا تدافعت الدماء إلى وجهي وحولت نظري عنها. وفي نهاية السهرة أعود إلى غرفتي حاملًا طيفها معي إلى أن آوي إلى فراشي، وعندئذٍ أنحيها جانبًا وأغرق في طوفان من الحمى الجنسية لا مكان لها فيه.

كانت فترة كالحلم، وككل الأحلام، انتهت.

ففي أحد الأيام وجدت لديهما شابًّا أردنيًّا قادمًا لتوه من بيروت يُدعى شهاب. كان وسيمًا بالغ الاعتناء بملبسه. كان يدرس بالجامعة الأمريكية ويتردد عليهما باستمرار

عندما يزور القاهرة. كشف عن انتمائه لجماعة «القوميين العرب» وعرض علينا أفكارها التي بدت لي غامضة وساذجة مصوغة في كلمات فخمة وفضفاضة تحت شعار «وحدة، تحرر، ثأر». انبريت لمناقشته لكني لحظت أنهما يصغيان إليه في احترام. كان هذا وحده كافيًا لأن يثير قلقي، ثم تزايد القلق عندما لاحظت أنه يشترك معها في الحرف الأول من اسمها. وبدا لي ذلك نذيرًا بالشؤم. لكني لم أكن مستعدًّا لما حدث بعد قليل؛ إذ انسحب الاثنان، شهلا وشهاب، إلى غرفة أخرى.

بدت على يعرب علامات التوتر وواصل الحديث بذهن شارد. وكنت متوترًا مثله، وقد تركز اهتمامي على تلك الغرفة. كنت أعرف أن بها مكتبًا خشبيًّا ومقعدين وكنبة صغيرة، وكان بابها مواربًا لكني لم ألتقط صوتًا يمكنني من تبيُّن ما يجري داخله.

أشعلت سيجارة بأصابع مرتجفة. ودخنت عدة سجائر على مدى أكثر من ساعة قبل أن يظهر الاثنان. بدا شهاب كما لو كان مستيقظًا لتوه من إغفاءة هنيئة وفي عينيه نظرة حالمة وعلى شفتيه ابتسامة رضاء. نقلت البصر إلى شهلا التي جاءت في أعقابه. كان وجهها موردًا ويداها مضمومتين أمامها. وعندما غادرتهم في تلك الليلة كنت موشكًا على البكاء.

تكرر ذلك المشهد عدة مرات. في البداية عللت الأمر لنفسي بأن هناك عملًا سياسيًّا ما بين الاثنين. وبالتدريج أيقنت أن ما يربط بينهما لا علاقة له بالسياسة.

كنت أعاني في صمت. وأتابع في تلذذ شرير مظاهر العلاقة بينهما: كيف تستقبله عندما يصل في وجودي. وكيف تودعه إذا انصرف قبلي، وأحيانًا كنت أتعمد الذهاب في مواعيد مختلفة أثناء النهار متذرعًا بأي حجة لأتبين وجوده من عدمه. كنت محاصرًا لا أدري ماذا أفعل، سعيدًا فقط بأن أراها دون أن أجرؤ على مفاتحتها بحقيقة مشاعري.

وذات يوم استقبلنا يعرب منفعلًا: تصوروا! بدأت الثورة في عمان!

كان ربيع ٥٧ ساخنًا للغاية. في مصر كان يجري الاستعداد لأول انتخابات ديموقراطية بعد الثورة. وفي الجزائر كانت المقاومة ضد الفرنسيين تدخل مرحلة حاسمة، وفي الأردن اضطر الملك حسين تحت الضغط الشعبي والقومي إلى طرد الجنرال جلوب باشا الحاكم الفعلي الإنجليزي وجرت انتخابات ديموقراطية أتت بحكومة وطنية، لم يلبث أن انقلب عليها، وكان رد فعل حركة القوميين العرب عنيفًا بتنفيذ سلسلة من عمليات تفجير القنابل.

ولم تكد حرارة الصيف تشتعل حتى تلقى العمانيون رسالة من الإمام غالب تعلن الجهاد وتدعوهم إلى العودة إلى الوطن لتحريره من سلطان مسقط والنفوذ الإنجليزي.

وما لبثت دعوة الإمام غالب أن انتشرت، وسلمت له المدن الرئيسية وعلى رأسها نزوى، وحوصر السلطان في مسقط فاستنجد بالإنجليز. دخل هؤلاء المعركة وهاجموا قلعة نزوى وقصفوها بالطائرات، فاضطر المجاهدون — كما كانوا يسمون أنفسهم — إلى مغادرتها والالتجاء إلى الجبل الأخضر، وأبلغنا يعرب بسقوط نزوى وهو يكاد يبكي، واتخذ قراره بالسفر فانهار الحلم. إذ تقرر أن تنتقل شهلا إلى بيت الطالبات.

طار أولًا إلى البحرين ومنها إلى دبي، ثم واصل الرحلة بالسيارة حتى مسقط حاملًا معه كمية من الأدوية التي يحتاج إليها المحاصرون، وظللنا نتابع أنباءه من خلال رسائل متقطعة يبعث بها إلى أخته التي كنت ألتقي بها في انتظام رغم الصعوبات؛ إذ كانت هناك قيود على الزيارات وعلى خروجها من بيت الطالبات في المساء. كنا نلتقي في العصاري بميدان المساحة القريب ونقترش حديقته الواسعة المرتبة. وأحيانًا لا تأتي إذا كان شهاب في القاهرة، لم أسألها أبدًا عنه كأنما أردت إلغاء وجوده بالتجاهل التام، وكانت تطلعني على رسائل يعرب التي تروي أخبار المعارك والبطولات. ولم تغِبْ عن ذاكرتي قصة رواها عن امرأة عمانية قُبض على زوجها بتهمة مساعدة الوطنيين، وفي الليل فوجئت بدخول ضابط إنجليزي عليها، فهجمت عليه بسكين وصرعته بطعنتين ثم هربت في الظلام.

وفي إحدى الرسائل ذكر لنا ما تردد من أن صلاح سالم — أحد زملاء عبد الناصر الذي اشتهر باسم الصاغ الراقص عندما زار جنوب السودان ورقص شبه عارٍ مع قبائله — قد وصل إلى الجبل الأخضر ليقود الثورة. وقال إن الإنجليز صدقوا الإشاعة وبحثوا عنه في كل مكان.

كانت الرسائل غير منتظمة يحملها المسافرون أو تنظم وصولها المخابرات المصرية. لكننا كنا نجد وسيلة لمتابعة الأخبار عن طريق إذاعة صوت العرب التي كانت تخصص ركنًا لعمان مساء كل خميس، وكنا نشعر بالنشوة عندما نتخيل الجالسين في جبال عمان وهم يستمعون إلى نداءات أحمد سعيد الحماسية التي تنادي العرب من المحيط إلى الخليج، وكان يعرب قد أكد لنا في رسائله أن هذه الإذاعة تُسمع جيدًا في قمم الجبال، وكثيرًا ما تحمل إليهم أنباء المعارك الدائرة في أطرافها.

كانت شهلا تستمع معي وقد تورد وجهها وشردت عيناها والتمعتا بضوء غريب. وعندما ينتهي البرنامج العماني كنا نستمر في جلستنا وتحدثني عن طفولتها. ومن هذه الأحاديث تكوَّنت لديَّ صورة عن مدينة صنعاء التي نزح إليها أبوها وشبت بها: الأسوار الطينية التي تزينها الأبراج من كل جانب وتتخللها أبواب تقفل في الليل. البيوت الشاهقة

المتلاصقة المغطاة بالزخارف والنقوش البيضاء وتعلوها المنارات. النوافذ الواسعة العالية المكونة من مصاريع خشبية بعقود من الزجاج الملون الثابت الذي يعكس أشعة الشمس، الأسواق التي تحوي كل شيء من ترامس يابانية وأقمشة هندية وسورية وخزف تشيكي وأدوية إيطالية. الميدان الكبير الذي تتصدره صورة الملك أحمد محاطة بأنوار النيون. أصحاب الحوانيت الذين يتركونها مفتوحة في الظهيرة وينطلقون للصلاة في المسجد وقد سربلوا أكمامهم الطويلة لوقاية أيديهم التي طهروها للتو. وبعد الصلاة يتأخرون في المساجد لأن المقاهي ممنوعة، فيتبادلون الأخبار ثم يذهب الأغنياء لشراء القات ويئوبون إلى منازلهم من أجل التقييلة وتخلو الشوارع.

وذات مرة شرحت لي حكاية القات وكيف أنه شجرة صغيرة ذات أوراق خضراء لها خاصية منبهة، ويقبل اليمنيون على مضغها وتخزينها في جوانب أفواههم ساعات كاملة في مجالس خاصة بالرجال يشعرون خلالها بالسعادة.

سألتها إن كانت قد ذاقته، فضحكت قائلة: طبعًا. النساء أيضًا لهن مجالس يذهبن إليها في كامل زينتهن. الأحمر للشفاه والخدود والأظافر، والكحل للحواجب والجباه وتحت الفم، أما اليدان والقدمان فتزينهما جدائل سوداء في شكل أكاليل من الزهور. تخلع كل قادمة ملاءتها وحذاءها ثم تدخل وتتبادل تقبيل الأيدي مع الجالسات. وتكون النوافذ مغلقة بالستائر والعقود الزجاجية تضيء الحجرة، ثم يبدأن بالتدخين وتخزين القات وبعد ذلك يأتي دور الرقص، فيفسح المجال في الوسط لمغنية تحمل دفًّا وتنهض إحدى النساء وتمد يدها إلى أخرى تدعوها إلى الرقص معها.

قلت: أنتم إذن شعب سعيد.

ضحكت ساخرة: أنت لم ترَ أحد المناظر المألوفة في المدن: رجل يجر الأصفاد في قدميه ويسير في الشوارع. فيكفي أن يكون لأي إنسان نفوذ ما ليأمر بتكبيل من لا يعجبه بالقيود الحديدية أيامًا أو شهورًا يواصل الأخير أثناءها أعماله العادية. وفي معظم الأحيان يكون عبدًا يعاقبه سيده.

كان ذكر العبيد أمرًا مثيرًا لشخص مثلي لم يصادفهم في حياته القصيرة فاستوضحتها، قالت إن في حرض بشمال اليمن سوقًا للرقيق يمكن أن يشتري فيه الواحد آدميًّا بألف ريال. وروت لي كيف أن سفير السعودية طلب من أبيها أن يساعده في شراء جارية بيضاء من أحد أمراء صنعاء ليقدمها هدية لسيده. ونجحت وساطة أبيها وجرى التنفيذ في منزله. وشاهدت شهلا من خصاص الباب كيف أجرت طبيبة أجنبية

فحصًا للجارية التي لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، وكيف قاومت الفتاة الفحص الطبي إلى أن أخضعها الأمير.

لاحظت أنها تتجنب الإشارة إلى أمها، فسألتها عنها، وإذا بملامحها تتبدل وتقسو. أجابتني في اقتضاب إنها ماتت، ثم أضافت بعد لحظة: كانت حاملًا للمرة العاشرة. المرة الأولى كانت عقب زواجها مباشرة في الرابعة عشرة من عمرها. كانت تشكو من متاعب في منطقة الحوض منذ ولدتني، وحذرها الطبيب من الحمل والولادة لكن أبي لم يعبأ. ظلت تحمل ثم تلد جنينًا ميتًا، وفي المرة العاشرة أحضر أبي طبيبًا إيطاليًّا من تعز لرؤيتها. كان يجب أن تشهد هذا المنظر؛ الطبيب يصعد الدرج وخلفه المترجم وأمامه شاب يردد: الله ... الله، تنبيهًا للنساء حتى يبتعدن ... أبي فوق إلى جوار أمي وباب الغرفة موارب ويقف خلفه مترجم، ثم تبدأ الأسئلة بصوت خافت؛ إذ لا يجوز للمرأة الفاضلة أن تسمع إلا صوت زوجها وألا يسمع صوتها غير زوجها: ينطق الطبيب بالإيطالية، ويترجم المترجم لأبي الذي يهمس بالسؤال في أذن زوجته ويتلقى منها الجواب ويبلغه للمترجم الذي ينقله للطبيب. وبعد قليل أفتى الطبيب بضرورة الجراحة، وفعلًا أُجريت العملية وولد الطفل وسعد الجميع إلا أمي التي قضت الأيام التالية مستلقية غير مكترثة إلى أن توفاها الله.

كنت بعد أن أتركها أمشي طويلًا على شاطئ النيل دون أن أعبأ بالشقوق المنتشرة في حذائي وأنا أستعيد كلماتها وإيماءاتها، مفتشًا بينها عما قد يكشف عن عاطفة خاصة إزائي. ويغشاني الأسى العميق عندما تتناهى إلى سمعي أغنية لعبد الوهاب أو عبد الحليم حافظ. كم من السجائر دخلت في استغراق وأنا أستمع إلى أغنيات «ظلموه» و«أهواك» و«أسمر يا أسمراني»، أو وأنا أشكو لأحد أصدقائي حبًّا بغير أمل.

في هذه الأثناء تكللت مباحثات الوحدة بين المنظمات الشيوعية المصرية بالنجاح، وأُعلن مولد الحزب الواحد في ٨ يناير ٥٨. وبعد شهر واحد أُعلنت وحدة مصر وسوريا وطار عبد الناصر إلى دمشق حيث حملت الجماهير سيارته. وتلاحقت الأحداث؛ في شهر يوليو سقط النظام الملكي في العراق وانهار حلف بغداد في ثوانٍ بعد أن استولى عبد الكريم قاسم على السلطة. وبدا حلم الدولة العربية الكبرى على وشك التحقق. كان عبد الناصر في عرض البحر عائدًا من زيارة ليوغوسلافيا، فعاد أدراجه إليها وطار منها إلى موسكو، وقد أدرك خطورة الموقف الذي وصل إلى درجة الانفجار، وبالفعل قام الأمريكيون في اليوم التالي بإنزال مشاة بحريتهم إلى لبنان.

لكن الخطورة الحقيقية جاءت من ناحية أخرى.

فقد أدارت الانتصارات المتلاحقة رأس عبد الناصر، خاصة بعد أن نجح في أن يفرض على سوريا مفهومه عن الديموقراطية، وتمكن من تصفية التحالف المؤلف من البعثيين والشيوعيين. وبدوره آمن عبد الكريم قاسم بأنه الزعيم الأوحد. وتخاصم الزعيمان فانطلقت إذاعة صوت العرب تدعوه بقاسم العراق، واستغل الإنجليز والأمريكان الفرصة بذكاء من خلال أنصارهم من المستشارين المحيطين بالزعيمين والصحفيين المغامرين (أمثال مصطفى وعلي أمين) في الحيلولة دون أي محاولة للمصالحة.

وانجرف الشيوعيون إلى المعركة.

في العراق أشفق الشيوعيون الذين قاموا بدور رئيسي في إسقاط النظام الملكي أن يُحرموا من حقهم في الوجود الشرعي، إذا نجح عبد الناصر في فرض مفهومه للوحدة على العراق، وهو المفهوم الذي يقوم على اعتباره هو شخصيًّا القوة السياسية الوحيدة الفاعلة؛ لذلك ساندوا عبد الكريم قاسم وانجرفوا إلى الحملات الموجهة ضد عبد الناصر وعقليته الانفرادية. ووجد هذا الموقف صدًى له في صفوف الحزب الشيوعي المصري الذي لم تمضِ على توحيده سوى بضعة شهور.

كان شيء مثل الذي فعله عبد الناصر عندما تحالف مع البعثيين ضد الشيوعيين السوريين توطئة للتفرغ بعد ذلك للأولين، يجري داخل صفوف الحزب الوليد. فلم يتمكن المتحدون من إزالة العداوات الشخصية التي ولدتها صراعات دامت منذ الأربعينيات، ولا تمكنوا من الاتفاق على خط سياسي واحد، لهذا تكتل تياران رئيسيان من أجل تصفية التيار الثالث. وبسرعة صار الموقف من عبد الناصر محل الخلاف السياسي، ولم يلبث الحزب الوليد أن انقسم من جديد إلى حزبين، واحد يساند القوى الديموقراطية في العراق وسوريا دون تحفظ، والثاني يؤيد عبد الناصر ويدعو إلى المصالحة بين القوى الوطنية لمواجهة المخاطر الاستعمارية.

في هذا الجو عاد يعرب فجأة من عُمان.

وعندما التقينا في الشقة التي استأجرها من جديد مع أخته راعني التغير الذي طرأ عليه. وجدته جالسًا في الشرفة وأمامه زجاجة بيرة وبجوارها علبة المارلبورو العتيدة. بدا واجمًا عازفًا عن الحديث ولم يلبث أن حدثنا عن صعوبة الحياة في الجبل الأخضر وانتشار الأمراض وعدم وجود طبيب أو دختر كما يسمى هناك. قال: تصوروا أننا نخرج الرصاصة من جسم المصاب بالحبال!

وأضاف مبتسما بمرارة: نضع الحبل مكان الجرح ونمرره داخله حتى يصل إلى الرصاصة ثم نسحبه فيخرج بها، وطبعًا ينجم تسمم عن ذلك.

روى لنا في تلك الأمسية قصصًا لا تُصدق عن سذاجة المجاهدين. كان بعضها أقرب إلى النكتة. مثل ما حدث عندما ترددت إشاعة بأن الميجور ووترفيلد القائد الإنجليزي لقلعة نزوى صرح بما معناه: إذا كان الثوار جدعانًا فلماذا يتحصنون بالجبال، لماذا لا يأتون إلى نزوى ويواجهونه؟ وعندما بلغ هذا التصريح أسماع المجاهدين سارع خمسة من زعمائهم بمغادرة الجبل وانطلقوا إلى القلعة عازمين على اقتحامها والوقوف أمام الميجور الإنجليزي ليقولوا له: ها نحن قد جئنا يا ميجور فافتح الباب! فإذا فعل قضوا عليه وإذا لم يفعل سجلوا عليه جبنه وجبن حرسه!

وعاد المجاهدون الخمسة من رحلتهم ليروا أنهم طرقوا باب القلعة، فلم يستجب لهم أحد، فضاعفوا الطرق، وهنا وصل إلى سمعهم صوت الميجور يصرخ في الحرس: لا تفتحوا البوابة لأي إنسان، ما دامت مغلقة فنحن في أمان. وأخيرًا قرر المجاهدون الخمسة الانصراف، فصاح أحدهم مخاطبًا البوابة المغلقة: يا عقيد القلعة قل لسيدك إننا جئنا فلم يخرج لنا!

تمالكت نفسي كي لا أنفجر ضاحكًا بينما مضى يعرب في حزن: الإنجليز هاجموا البيوت والطائرات خزقت (أي ألقت قنابلها) فوق كل مكان. حتى منابع المياه قُصفت بالقنابل والتجأ الجميع إلى الكهوف. لكن الإنجليز تمكنوا من إسقاط جنودهم فوق الجبل ونجحوا في احتلال قسم منه بإرشاد جندي كان مع جيشهم في كينيا وانضم إلى المجاهدين. وتمكنوا من اعتقال بعض الزعماء فوضعوهم في زنازين تحت الأرض بقلعة الجلالي وأحرقوا بساتين الآخرين ونسفوا منازلهم وصادروا أملاكهم.

أذكر أنه صمت طويلًا ولم نجرؤ على مخاطبته بينما كانت شهلا تحدق في الفضاء، ثم تحولت إليه وقالت في سخرية: وهرب الباقون.

شعرت أنها تواصل حديثًا سابقًا معه. وقال هو في اضطراب: لم يبقَ إلا القليل من المجاهدين في الجبال فقد نجا كثيرون بأنفسهم وفروا إلى الدمام والكويت والبحرين.

قاطعته شهلا، أو جاءوا إلى القاهرة.

أضاف في حمية مفاجئة: أنا لم أهرب. لقد جئت برسالة إلى السلطات المصرية طلبًا لدعم عسكري، كما أني مكلف بإعادة تنظيم المجاهدين.

لكن ما شاهدته من سلوكه في الأيام التالية كان يُكذِّب ذلك. فقد كان يقضي معظم الوقت جالسًا في الشرفة مع زجاجات البيرة. التمست له وقتها الأعذار، فقد كانت الأنباء تتوالى من عمان مؤكدة حتمية الهزيمة. ودبَّ الخلاف بين زعماء المجاهدين وانقلب رؤساء

القبائل مؤثرين السلامة، بل قام بعضهم بالإرشاد عن مخابئ الثوار وأسلحتهم، وعقب يعرب على ذلك بأن الثورة لم تُخَضْ عن وعي وفهم، وكانت أقرب إلى القبلية، فإذا سكت رئيس القبيلة سكت الجميع.

وما لبث أن انخرط في الصراع الدائر بين الشيوعيين المصريين، كان القوميون العرب يؤيدون عبد الناصر على طول الخط، بل ويدعونه لسحق من أطلق عليهم لقب الشعوبيين، أي أعداء الوحدة الفورية مع العراق. ورحبوا بحل كافة الأحزاب السياسية في سوريا، وشكلوا في الكويت لجانًا لمقاومة الشيوعية. ومن الطبيعي أني توقعت أن يكون موقفه متسقًا مع موقفهم بحكم علاقته الوثيقة بشهاب. لكني فوجئت به يأخذ جانب من كنا نسميهم باليساريين الذين رفعوا شعارات تساند عبد الكريم قاسم وتدعو عبد الناصر إلى الاقتداء به. ولم تفرق أقفال الحديد التي لوح بها هيكل مهددًا في مقاله الأسبوعي بين يمين ويسار. ففي الساعات الأولى من أول أيام العام الجديد — ٥٩ — كان الجميع، بما فيهم أنا، مقبوضًا عليهم وفي الطريق إلى السجون والمعتقلات. وكان ذلك آخر عهدي ببيعرب وأخته.

الفصل الرابع

مسقط

ديسمبر ١٩٩٢

١

«إن الخلاص الكامل والأبدي لكافة كائنات الكون أجمع، سيتم إذا ما أنشدت البشرية جميعًا وبقوة: نام – مياو – هو – رن – جي – كيو.

إن النمو الروحي السلس واللامحدود لكافة الكائنات في الكون أجمع، الظاهر واللامرئي، لن يتحقق إلا إذا تلقت البشرية كلها الـ «نوكو-دو» أمام تيان تان. الخادم المقدس لتيان تاو».

انتهى الإعلان التليفزيوني بأن رفع المذيع كتابًا يحمل هذا العنوان: «أربع خطوات نحو السلام التام، المؤلفات المختارة للبروفسور الدكتور هيلساتو كي كوماكي».

أعجبني إيقاع الكلمات الآسيوية وذكرني بالإعلانات التي ألفناها في السبعينيات للزعيم العظيم كيم إيل سونج «الشمس المشرقة فوق كوريا الشمالية».

فتحت علبة البيرة التي زودني بها جوهر وتخيلت شفيقة أمامي لكي أقول لها وأنا أجرع المنكر: مياو.

كنت منفردًا بالمنزل أنتظر عودتها مع فتحي لنتناول طعام الغذاء الذي تبرعت بالمساهمة في إعداده.

انتهيت من طهي الأرز ووضعت صينية بطاطس بالطماطم والبصل في الفرن ثم عدت إلى الصالة، فاسترخيت في المقعد التليفزيوني وأمامي علبة البيرة. أدرت التليفزيون

ومضيت أتنقل بين القنوات. واحدة عربية، أخرى من الإمارات، ثم بي بي سي، وأخرى إنجليزية من هونج كونج. وانتهى بي المطاف عند قناة غربية تقتصر على الأغاني.

دقَّ جرس التليفون فرفعت السماعة المتنقلة إلى أذني. كررت كلمة آلو دون أن يرد عليَّ أحد، أنصت لصوت أشبه بالتنفس ثم انقطع الخط، فأعدت السماعة مكانها.

تناولت أحد مجلدات «موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب» المصفوفة في خزانة التليفزيون، قرأت الكلمات المدونة على ظهر الغلاف والتي تصف الموسوعة بأنها «تجربة فريدة لم يسبق لها مثيل في التاريخ العربي الحديث»، وتتمثل في جمع وتوثيق وتسجيل الأسماء العربية المتداولة وتحقيق أصولها ونشأتها وتطورها. وتعرضت الكلمة الموجزة إلى الفائدة العملية للموسوعة بالنسبة للمواطن العادي. فقالت إنه سيعرف بفضلها لماذا يسمى ابنه زيد أو عمرو.

قلبت صفحات المجلد الذي يضم حرف ش بحثًا عن اسم شفيقة، ولم يقدر لي أن أتوصل إلى أصل اسمها، إذ دقَّ جرس التليفون فرفعت السماعة، تكرر ما حدث معي في المرة الأولى فأعدتها إلى مكانها، وبعد قليل دق مرة ثانية فتأملتها دون أن أحرك يدي. استمر الرنين مدة طويلة وأخيرًا رفعتها فجاءني صوت غريب: السيد رشدي؟

– أنا هو. من يبغيه؟

– أنت لا تعرفني. هناك موضوع هام أريد أن أراك بشأنه.

كان المتحدث عمانيًّا في الأغلب رغم محاولته تقليد اللهجة المصرية.

قلت: أي موضوع؟

– لا أستطيع الحديث في التليفون. الأفضل أن نلتقي.

فكرت لحظة ثم قلت: تفضل عندي.

– لا. أفضل أن نلتقي في الخارج.

قلت: أين؟ أنا لا أعرف البلد.

قال: يمكن أن نلتقي أمام المدخل الرئيسي لمسجد قابوس. فهو ليس بعيدًا عن منزلك. عشر دقائق على الأقدام.

قلت: متى؟

قال: عند صلاة الظهر.

قلت: وكيف سأتعرف عليك؟

قال: أنا الذي سأفعل. ما رأيك؟

ترددت في الإجابة فقال: الموضوع يهمك.

قلت: أوكي.

قال: هناك شيء مهم. أرجوك ألَّا تخبر أحدًا بهذا الموعد. ولا حتى قريبك.

ترددت مرة ثانية فأضاف: الظهر إذن.

انقطع الخط ووضعت السماعة في بطء. تناولت علبة البيرة فأتيت على رشفتها الأخيرة ثم وضعتها في كيس بلاستيكي ودستها أسفل المقعد وعدت إلى الموسوعة. واصلت البحث عن اسم شفيقة دون جدوى.

نهضت بمجرد أن ترامى إلى سمعي صوت الأذان، فجذبت الكيس وغادرت المسكن. ألقيت به في أول صندوق قمامة صادفني. وسرت حتى مبنى الغرفة التجارية الذي يقع على ناصية شارعين. انحدرت في الشارع الذي يمر فوق الوادي حتى بلغت سينما بلازا ومطعم كنتاكي. واصلت السير حتى أول ناصية فانحرفت يمينًا ورأيت المسجد على مقربة.

كان المصلون ما زالوا يتوافدون وبينهم كثير من الهنود والباكستانيين. ولم يعبأ بي أحد منهم. وتذكرت ضجة القاهرة عندما سمعت سائق ميكروباص ينادي بأعلى صوته: بوشر. بوشر.

انتظرت مدة أمام المدخل دون أن يقترب مني أحد، وعندما انصرمت نصف ساعة قررت الانصراف. مضيت في الشارع حتى نهايته، فمررت بعدة مبانٍ حكومية تلتها السفارة اليمنية إلى أن بلغت تقاطعًا رئيسيًّا فاتجهت يمينًا، وقمت بجولة واسعة حول المنطقة قبل أن أعود إلى المنزل.

وصل رنين جرس التليفون إلى سمعي وأنا أضع المفتاح في قفل الباب. وتوقف بمجرد دخولي ولم يلبث أن تكرر بعد لحظات.

جاءني صوته معتذرًا: جئت لكني لم أتمكن من الحديث إليك. سأشرح لك الأمر عندما نلتقي.

قلت: ليس عندي وقت لهذه الألاعيب.

قال: معلهش. تحملني قليلًا.

قلت: ألا تظن أن المسألة زادت عن حدها؟ إذا كنت تريد أن تراني تعالَ البيت.

قال: جربني هذه المرة. إنها الأخيرة. ولن تندم.

تنهدت في استسلام فسألني: هل ستخرج غدًا؟

قلت: ربما.

سأل: متى ستخرج لو فعلت؟

– ليس قبل العاشرة صباحًا.

– سأكلمك قبلها.

ووضع السماعة.

شممت رائحة غريبة فتذكرت صينية البطاطس. أسرعت إلى المطبخ وأخرجتها من الفرن. تأملت الكتلة السوداء التي طالعتني ولعنت المتحدث التليفوني والموسوعة وشفيقة والبيرة.

ألقيت محتويات الصينية في صندوق القمامة ثم وضعتها أسفل مياه الحنفية. وشغلت هواية المطبخ وفتحت نافذته ثم عكفت على إعداد صينية جديدة.

اعتنيت بعملي هذه المرة فلم أغادر المطبخ حتى نضجت الصينية. وبينما كنت أكشف غطاءها لأتأكد من درجة ملوحتها سمعت صوت ابن عمي وزوجته. حملت حلة الأرز إلى المائدة، وفوجئت بسيدة غريبة ترتدي ثوبًا عصريًّا يكشف عن ساعديها حتى المرفقين، والأهم من ذلك أن شعرها كان عاريًا تم تصفيفه عند الكوافير كما كان هناك أثر مكياج خفيف على وجهها.

سألتها عما حدث، فلم تُعنَ بالرد عليَّ وتبرع فتحي بالإيضاح: قال لها طبيب باكستاني إن الحجاب مسئول عن الصداع، وخيَّرها بين أن ترتديه طول الوقت ولا تخلعه عند النوم كما تفعل، أو تتخلى عنه نهائيًّا كي لا تتعرض لتأثير الهواء المكيف على جيوبها الأنفية.

قالت في تحدٍّ: اخترت الحل الأخير، فالإسلام الصحيح لا يشترط حجاب المرأة.

قلت: يا شيخة. من قال هذا؟

قال فتحي: الأرستقراطيات هن اللاتي يتغطين كاملًا، أما اللاتي من أصل زنجباري فلا يغطين حتى رءوسهن.

أحضرت صينية البطاطس وجلسنا حول المائدة وأنا مستغرق في محاولة فهم فلسفة الأزياء، وانتزعني فتحي من تأملاتي قائلًا إن الفندي، مدير المركز الموسيقي، ينوي دعوتنا للعشاء.

استفسرت شفيقة: في بيته؟

قال: لا. في فندق الانشراح أو نادي الجولف.

قالت: هل سيحضر زوجته معه؟

قال: لا أعرف لا أظن.

قالت: اذهبا أنتما، أنا على أي حال أنوي الصيام.

لم يبدُ عليه الحماس. قال: هذه دعوة ستكلف كثيرًا.

قلت: أليس هو الذي سيدفع؟

قال: لكن لا بد من ردها، وبشكل أفضل. العمانيون كرماء لكنهم يحتقرون من لا يبادلهم الكرم بنفس المستوى أو أكثر قليلًا.

قالت: نصف دَخْلِنا يضيع في الهدايا والمجاملات.

تدخلت في الحديث: ألا يمكن الاعتذار؟

– لا الفندي لا يعتذر أحد عن دعوته، ثم إنها من أجلك فهو يريد أن يتعرف بك.

٢

تلفن في الصباح كما وعد.

قال: ما رأيك في أن نلتقي بعد نصف ساعة؟

قلت: أين؟

قال: في المتحف الوطني.

قلت: أنت نسيت أني لا أعرف البلد جيدًا.

قال: المتحف لا يتوِّه. أنت تعرف مسجد قابوس ومطعم كنتاكي، التقاطع التالي هو دوار رُوي ويمر به شارع قابوس متجهًا إلى المطار. المتحف ليس بعيدًا. ستتبينه بعد أربعة دوارات. خذ تاكسي إلى هناك، وعندما يسألك السائق «انجاج» قل له نعم. لتضمن ألا يشاركك أحد.

استفسرت: ماذا يقول؟

– انجاج. كلمة إنجليزية قمنا بتعمينها. وضحك.

قلت: بعد نصف ساعة إذن.

أنزلني تاكسي انفردت به «انجاج» أمام مبنًى متواضع للغاية، ولجت قاعة واسعة بها تصدرها نموذج لسفينة شراعية قديمة وتحمل جدرانها لوحات للمراحل التاريخية. وأكملت خزانات الصخور وبقايا الأواني الخزفية والملابس والأسلحة صورة مثيرة لتاريخ يمتد إلى ما قبل التاريخ.

خالجني انطباع بأن الخطوة الأولى للحضارة بدأت هنا، وأن عُمان ربما كانت البوابة التي عبر منها الإنسان الأول.

قادمًا من وسط أفريقيا إلى آسيا؟

حقائق أم مبالغات؟

ما ثبت هو أن الجزيرة العربية تعرضت للجفاف قبل الميلاد بعدة قرون، فهاجرت قبائلها إلى عمان. وعندما انهار سد مأرب انضمت إليهم قبيلة الأزد اليمنية. وأقام زعيمها مالك بن فهم مملكة قوية، ربما كانت أول مملكة عربية عرفها التاريخ. واستمرت قائمة إلى أن بعث إليها النبي بعمرو بن العاص يحمل رسالة مكتوبة يدعو أهلها إلى الإسلام فلبوا الدعوة.

كانت الرسالة التاريخية محفوظة في صندوق زجاجي محكم. وبدا الخط — الذي سطره أحد الصحابة — أشبه بالطلاسم. لكن خاتم النبي كان واضحًا: محمد رسول الله.

انقضت نصف ساعة بسرعة دون أن يظهر متحدثي الغامض، فاتجهت إلى الباب وغادرت المبني. وقفت فوق الرصيف أتطلع حولي بحثًا عن سيارة تاكسي، وإذا بسيارة يابانية زرقاء اللون تقترب مني وتقف أمامي مباشرة. كان القائد رجلًا قصير القامة في الملابس التقليدية له وجه حليق شديد السمرة تغلب عليه الملامح الأفريقية. مال على النافذة القريبة مني وفتح لي الباب قائلًا: تفضل.

تعرفت على الصوت لكني لم أتحرك، فابتسم كاشفًا عن أسنان ناصعة البياض: أعتذر مرة أخرى على تأخري. تفضل بالركوب.

– إلى أين؟

– لن نذهب إلى أي مكان. سنتجول قليلًا لنتحدث.

وأضاف عندما لاحظ ترددي: لا تخف. لن تتعرض لأي أذى.

ركبت إلى جواره. وبحركة أوتوماتيكية وضعت حزام الأمان حول صدري.

قال وهو ينطلق بالسيارة في حركة رعناء: على كل حال أعطيتك فرصة لمعرفة التاريخ العماني.

خرج إلى شارع قابوس واتجه في عكس الاتجاه الذي جئت منه وهو يستطرد: هناك خاصية غريبة في هذا التاريخ، ربما بسبب الموقع. فنحن دائمًا مطمع لكل أجنبي.

– ألسنا جميعًا؟

– الأهم من هذا هو أن الأئمة الضعاف كانوا يستعينون دائمًا بالأجنبي ضد منافسيهم، ولو كانوا عربًا مثلهم. استعان أحدهم بالفرس فاحتلوا البلاد. هذا في الماضي البعيد. وفي العصر الحديث برزت قبيلة القواسم في رأس الخيمة وأصبحت قوة بحرية. وخشيهم السلطان السيد سعيد فتقرب من الفرنسيين ثم الإنجليز، وأخيرًا انتبه لقوة

الولايات المتحدة النامية، فعقد معها معاهدة في عام ١٨٣٣، وحاول أن يستعين بها للسيطرة على ممباسا.

توقف أمام إشارة مرور، فلزم الصمت إلى أن استأنف السير.

– خاصية أخرى هي قتل الأب، ابن السيد سعيد هذا وخليفته كان اسمه ثويني، فرض ضرائب أثارت استياء السكان وتذمرهم، فاجتذبوا إليهم أكبر أبنائه سالم. وذهب هذا إلى أبيه في الظهيرة، وكان الأب وحيدًا في غرفته مستلقيا فوق فراشه، طلب منه سالم إلغاء الرسوم الجديدة، لكن الأب تمسك بموقفه وبدأ يشرح موجبات وضعها، فما كان من الابن إلا أن شهر مسدسه وأطلق رصاصة على أبيه فقتله ... هل رأيت لوحة مالك بن فهم في المتحف؟ هل تعرف أنه لقي مصرعه على يد ابنه؟

لم أكن قد انتبهت لهذه التفصيلة فانطلق يرويها.

– تقول الأسطورة إن أولاد مالك كانوا يتناوبون الحراسة بالليل. وكان سليمة أحبهم إليه، فعلمه الرماية منذ الصغر حتى برع فيها، وأثار هذا الحب حسد بقية الأخوة فدسوا عليه لدى أبيهم. وزعموا له أنه ينام أثناء الحراسة. ماذا فعل مالك؟ قرر أن يختبر دعواهم بنفسه، فخرج متخفيًا ووجده نائمًا على ظهر فرسه، وعندما شعر الفرس باقتراب مالك صهل فانتبه سليمة من نومه مذعورًا ووضع السهم في الوتر ويممه نحو أبيه، وسمع مالك صوت السهم وهو خارج من القوس فهتف به: يا بني لا ترمِ أنا أبوك، فقال الولد: يا أبت ملك السهم قصده. قولة مشهرة تعرفها ولا شك. أصاب السهم مالكًا في قلبه فوقع صريعًا وهو يردد قولة أخرى شهيرة: أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني. تعرفها طبعًا.

قصة مؤثرة تدعو إلى التفلسف. قلت: الحياة لا تستمر إلا بقتل الأب.

هز رأسه بشيء من الاستهانة: فرويد.

بلغنا أول دوار في طريقنا فانحرف يسارًا. وبعدها لم أعد أعرف أين أنا، ولحظت أنه لا يكف عن التطلع في المرآة إلى السيارات القادمة خلفنا.

أوشكت أن أبتسم. فمن المؤكد أنه لن يكتشف شيئًا إذا كانت هناك مراقبة ما، سواء من جانب السلطان أو غيره، فعملية التحديثات التي قام بها السلطان لا بد أنها شملت أيضًا فنون التنصت والتتبع والمراقبة.

قلت: ما رأيك في أن نتعارف؟ أنت تعرف اسمي ورقم تليفوني وربما أشياء كثيرة عني، بينما أنا لا أعرف عنك شيئًا.

قال: عفوًا إذا كنت لن أذكر لك اسمي، هذا أفضل، ثم إنه لا أهمية له. بوسعي أن أذكر لك أي اسم، وسوف تدرك بعد قليل سر الاحتياطات التي أتخذها، أنا كنت أمس بالقرب منك كما أخبرتك، لكني لم أغامر بالحديث إليك. كنت أريد أن أتأكد أولًا مما إذا كان هناك من يراقبك. واليوم أيضًا فأنا موجود منذ ساعة هنا.

تذكرت موسوعة السلطان. قلت: سأسميك زيد أم تفضل عمرو؟

ضحك: زيد أفضل. فهو الأكثر انتشارًا في جنوب الجزيرة.

استطرد: كل ما أبغيه هو أن أساعدك في العثور على صديقك.

فوجئت: أي صديق؟

– ذلك الذي تبحث عنه وعن أخته.

– كيف عرفت أني أبحث عن أحد؟ كيف عرفت أساسًا بوجودي؟

ضحك: هذه مدينة صغيرة لا يخفى فيها شيء.

لم أدرِ ماذا أقول فسألته: ولماذا تبغي مساعدتي؟

– لأكسب ثوابًا.

– أتظن هذه إجابة مقنعة؟

– طبعًا لا. لا تقلق. سأذكر لك كل شيء. اسمح لي أولًا بسؤال: ما هي آخر مرة رأيت فيها صديقك هذا أو أخته؟

ترددت لحظة ثم قلت: منذ ثلاثين سنة في القاهرة.

قال وهو يتأملني بإمعان: أليس هذا غريبًا أن تبحث عن شخص لم ترَه منذ ثلاثين سنة؟

فعلًا غريبة، معه حق.

– هل تذكر اسمه الكامل؟

– لا.

– ألا ترى أن هناك غرابة في الأمر؟

– أنت نفسك قلت إن الأسماء لا أهمية لها.

كنا قد اخترقنا عديدًا من الشوارع الجانبية وهو لا يكف عن التطلع خلفه. ولحظت أننا نتحرك في دائرة واسعة حول الطريق الرئيسي السريع.

– وأخته؟

– لم أرَها أيضًا أو أسمع عنها طول هذه الفترة.

– والآن؟

– أريد أن أعثر عليها.

تفحصني بدقة: لماذا؟ لا بد أنها الآن في مثل عمرك؟

لزمت الصمت برهة ثم قلت: ربما كنت أبحث عن موضوع للكتابة. مد يده إلى درج تابلوه السيارة وتناول كيسًا من البلاستيك دفعه إليَّ.

كان الكيس خفيفًا ويحمل شارة محلات «بنيتون، الألوان المتحدة» هممت بفتحه فاستوقفني: ليس الآن، اقرأها في المنزل.

– مجلة أخرى؟

نظر إليَّ متسائلًا: ماذا تعني؟

قلت: هل أنت الذي تركت لي مجلة «صوت الثورة» مع البواب؟

أطلق من فمه صفارة طويلة: وصلوا إليك إذن.

– من هم؟

– ستعرف في الوقت المناسب. ستجد هنا نسخة مصورة من أوراق تهمك. ستجد اسمك فيها. اقرأ ثم نلتقي وأحكي لك كل شيء.

ثم أضاف: لست في حاجة لأن أحذرك من وقوعها في يد السلطة.

كنا قد بلغنا دوار روي، فدار يمينًا وأنزلني قبل ناصية كنتاكي. غادرت السيارة فانطلق على الفور، سرت في اتجاه منزلي وأنا أهز الكيس في يدي اليمنى. تذكرت أيام المنشورات السرية. كانت مطبعة التعليم قد وقعت في يد الشرطة، فاستأجرنا غرفة فوق سطح أحد البنايات في منطقة القبة. وأقمنا فيها مطبعة مؤقتة عبارة عن لوحين من الخشب في حجم مجلد من مجلدات «تاريخ الحضارة» تغطي أحدهما قطعة من القماش الشفاف، وطبعنا أول منشور يعلن التأييد لعبد الناصر بعد عودته من باندونج. ووصف المنشور حكومته بـ «الرشيدة» وهو وصف أثار التندر طويلًا، ثم توليت توزيعه على أعضاء التنظيم، وكنت دائم الابتكار في طريقة اللف. فكنت أجمع أكياس البقالة الورقية السميكة وأضع فيها المنشورات وأحملها في الطريق ضامًّا إياها إلى صدري كما يفعل موظف الحكومة عند عودته إلى منزله بعد أن اشترى احتياجات اليوم من خضراوات وفاكهة. فلم تكن الأكياس البلاستيكية قد عُرفت بعد، ولا «بنيتون» وألوانه أيضًا.

هززت الكيس في وجه جوهر، فأعطاني نصيب اليوم من البيرة، ووضعتها في البراد بمجرد دخولي المسكن وجلست في مقعد التليفزيون وأخرجت محتويات الكيس، كانت عبارة عن مجموعتين من أوراق التصوير ثبتت كل منهما بالدبابيس على هيئة كراس. تصفحتهما بسرعة فتبينت أني أمام يوميات بخط واضح جريء، طمست كلماته في بعض

المواقع وحملت كل مجموعة تاريخًا باللون الأحمر على صفحتها الأولى، وأشار تاريخ إحداهما وأصغرهما حجمها إلى عامي ١٩٦٠ و١٩٦٥ فقررت أن أبدأ بها.

أعدت المجموعة الثانية إلى الكيس البلاستيكي وحملته إلى غرفتي فدسسته بين طيات قميص في حقيبة السفر. وعدت إلى مقعدي في الصالة. لم تكن الساعة قد تجاوزت منتصف النهار وقدرت أن أمامي وقتًا يسمح لي بقراءة المجموعة الأولى قبل عودة شفيقة من عملها. فلم يكن عندي شك في أن ما بها قمين بأن تصادره السلطة التي أعيش في ظلها.

الفصل الخامس

بيروت

١٩٦٠–١٩٦٥

٥ سبتمبر ٦٠

... أعشق هذه المدينة. هل لأني أشعر فيها بأني حرة؟ حتى الآن لا أفهم كيف استطاع يعرب إقناع أبي بأن يتخلى عن فكرة زواجي من ابن عمي ويلحقنا نحن الاثنين بالجامعة الأمريكية، ويدفع لكل منا ألف دولار في السنة. لعلها صحوة ضمير، أو ربما اتخذ القرار في إحدى فترات شروده عندما لا يكاد يحس بوجودنا، أعتقد أنه سعيد بفكرة التخلص منا لبضع سنوات. زوجته الجديدة أصغر مني سنًّا.

٦ سبتمبر

... أقمت في بيت الطالبات داخل «الكامبوس». اشترك يعرب مع طالبين أحدهما عراقي والثاني بحريني في شقة قرب الجامعة، يدفع كل منهم ٣٠٠ ليرة في الشهر.

... شريكتي في الغرفة مي عربيتها ضعيفة، رغم أنها ابنة أديب لبناني معروف، لا يغادر بيته في الجبل.

... بعد عشرين دقيقة على الأقدام تكون في الحمراء. ذهبنا إلى مقهى أليسار في شارع بليس، يسميه الطلبة مقهى اليسار، تعشينا في مطعم فيصل، كنا مجموعة كبيرة بها طلبة من أفغانستان وإثيوبيا وإنجلترا فضلًا عن العرب، أراد شهاب أن أرافقه إلى مسكنه، لكني اضطررت للعودة إلى البيت. لا يسمح لنا بأن نتأخر بعد الثامنة مساءً.

٧ سبتمبر

... رغم أن بيروت مرتع لأجهزة المخابرات الغربية، إلا أن فيها حركة ثورية نشطة. تقريبًا كل شخص منضم لجماعة ما، ما أحبه فيها هو المقاهي الأنيقة في الحمراء، والتجمعات الكبيرة التي يناقش فيها كل شيء. حركة الترجمة النشطة.

أشعار ناظم حكمت ومايكوفسكي. موسيقى الروك وألفيس بريسلي. أفلام تروفو وجودار. تبدو القاهرة رغم ضخامتها كالقرية إلى جوار بيروت. الرفاق اللبنانيون أكثر وضوحًا فيما يتعلق بمساواة المرأة بالرجل.

٩ سبتمبر

... أوصلنا شهاب بأحد رفاقه. انتظمنا في خلية تقودها طالبة لبنانية تسكن بناية عالية بشارع الحمراء، رغم الجو الديموقراطي إلا أننا ملتزمون بالسرية التامة. عدد كبير من الرفاق من عائلات ثرية ويملكون شركات كبيرة وسيارات، منظمة الجامعة تدعى الرابطة.

١٠ سبتمبر

... أراني شهاب قاعة بليارد كانت تتم فيها الاجتماعات الأولى لـ «القوميين العرب» بعد نكبة ٤٨ وسط الأعلام والسيوف. أغلبهم كانوا طلبة يرتدون القمصان السوداء ويمارسون طقوسًا غريبة في قهر النفس وتطهيرها. يعادون الماركسية والشيوعية، تشكَّلت منهم كتائب الفداء العربي (جهاد ضاحي وقسطنطين زريق)، ثم انفصل جورج حبش مكونًا منظمة الشباب القومي العربي من عناصر من طلبة الجامعة الأمريكية، منهم وديع حداد الفلسطيني، أحمد الخطيب الكويتي، هاني الهندي السوري، حامد الجبوري العراقي.

... ذاعت التفاصيل الخاصة بمقتل شهدي عطية أحد قادة الشيوعيين المصريين في السجن، وأول سجين شيوعي يقيد بالأغلال الحديدية أيام الملك. ظلوا يضربونه حتى سقط ميتًا. قيل إنه كان يهتف بحياة عبد الناصر أثناء التعذيب. هناك ارتياح بين قادة المنظمة لتصفية الشيوعيين المصريين. أفكر في مصير رشدي. لم أرَه أو أسمع عنه منذ بدأت الاعتقالات في فجر أول يوم من السنة الماضية.

... المعركة مستمرة بين قاسم وناصر.

١١ سبتمبر

... ذكرني الترام بالقاهرة. عربتان مفتوحتان مثل ترام السيدة زينب. درجتان: بريمو بمقاعد مبطنة وسكندو بمقاعد خشبية. ركبته من شارع بليس حتى نهاية الخط في رأس بيروت.

... اشتريت حذاءً جديدًا بكعب مرتفع من شارع سوق الطويلة.

١٢ سبتمبر

... فيلم سايكو لهيتشكوك. مثير، أتطلع إلى رؤية فيلم دولشا فيتا لفيلليني ... نزلت أنا ومي البحر أمام الجامعة.

١٥ سبتمبر

... قرر يعرب شراء راديو ترانزستور. سنحاول إرسال واحد لأبي.

١٩ سبتمبر

... زيارة لساحة البرج. سوق الشراميط. يحصلن على إذن عمل من الحكومة ورقابة طبية. من ٥ لغاية عشرين ليرة. مركز الشرطة في أول السوق. لافتات منورة بأحمر. ماريكا، سونيا، اللهلوبة، في شارع الحمرا نفسه مومسات يمكن طلبهن على التليفون. لا بد أن تتحرر النساء من الحاجة إلى بيع أجسادهن.

٢٢ سبتمبر

... نظمنا مظاهرة كبيرة تأييدًا لنضال الشعب الجزائري. عندما مررنا بشارع جان دارك وضعنا اسم جميلة بوحريد فوق لافتته.

٣٠ سبتمبر

... الناس تفهم الوجودية بصورة خاطئة. الوجودي في عرفهم إنسان بلا قيم أو أخلاق وبوهيمي. لكن النقطة الجوهرية في فلسفة سارتر مثلًا هي مسئولية الإنسان عن أعماله

أمام نفسه وأمام مجتمعه. يعجبني موقفه من المجتمع ومواقفه المبدئية. رفض مثلًا جائزة نوبل لأنها أعطيت له من قبل هيئة محافظة. يعيش هو وسيمون دي بوفوار علاقة حرة مهاجمًا الزواج البرجوازي والمؤسسة كلها بما فيها إنجاب الأطفال. اتفقا على أن الحب الذي يجمع بينهما لا يجب أن يقيد حرية كل منهما في إقامة علاقات جانبية. فلا أحد يملك جسد الآخر أو روحه.

أول أكتوبر

... حادث بشع في البناية التي يسكنها يعرب. قتل الحارس أخته عندما اكتشف أنها حامل بغير زواج.

٧ أكتوبر

... أبديت افتتاني بالازدهار الاقتصادي، فشرح لي أحد الرفاق اللبنانيين أنه ازدهار مفتعل من أساسه، الاقتصاد اللبناني لا يعتمد على وجود قطاعات منتجة بل على الخدمات التي يقدمها إلى أفواج السياح أو البلدان المجاورة، مثل تجارة الترانزيت ووكالة البيوت المالية والبنوك الغربية. كما أن هذا الازدهار المزعوم لا يستفيد منه سوى أربعة في المائة من السكان يسيطرون على ثلث الدخل القومي.

... قال يعرب إن الصحافة اللبنانية وطنية وحرة فضحك رفيقنا اللبناني وقال إن أغلب الصحف الوطنية هنا ممولة من السفارة المصرية، وتتلقى الصحف الأخرى تمويلها إما من شيوخ البترول أو الاستخبارات الأجنبية.

١٢ أكتوبر

... قررنا أن نمتنع عن تدخين السجائر الأمريكية احتجاجًا على السياسة الاستعمارية للولايات المتحدة وعلاقة شركاتها بالنظام العنصري في جنوب أفريقيا. تحولنا إلى سيجارة بفرة اللبنانية.

٣٠ أكتوبر

... في لبنان عشرون طائفة. لا أدري كيف يتعايشون.

... أبلغتنا المسئولة بحضور ندوة هامة عن الوحدة العربية في النادي الثقافي العربي. أعطوا الميكروفون لشاب دون أن يذكروا اسمه، بدأ يتحدث في هدوء ثم تدفق كشلال مياه. ركز على أهمية نكران الذات والعمل للوطن وللأمة العربية. ألهبنا. عندما ينفعل يطوي يده على شكل قبضة.

٤ نوفمبر

... استفسرت من المسئولة عن اسم المتحدث، رفضت أن تذكره لي قائلة إنه عنصر سري. قال لي شهاب إنه جورج حبش، لم أصدق أني رأيته بعيني.

... حولت من الطب إلى كلية العلوم السياسية، ففيها اقتصاد وفلسفة.

١٨ نوفمبر

... غريب أمر الرجل الشرقي. أنا الذي قررت أن الوقت قد حان لأنال حريتي، وبدا هو مترددًا. أثارتني الرغبة البادية في عينيه وهو يتطلع إلى جسمي العاري. لكني لم أستمتع بالشكل الذي كنت أتصوره. رغم أني لم أتألم. كنت أستمتع أكثر في القاهرة عندما كنا نكتفي بالقبل. وفيما بعد أخذ يعتذر لي ... لماذا؟ لا أدري، ثم قال إنه على استعداد لأن يتزوجني فورًا، كأنما ارتكب شيئًا في حقي. ضحكت.

... تأملت نفسي طويلًا في المرآة. لم يبدُ عليَّ أي تغيير. ما زلت عاجزة عن التآلف مع صورتي. كتفاي أعرض مما يجب، صدري أيضًا أكبر مما يجب.

... أتذكر كثيرًا منزلنا في الدقي ورشدي الذي كان يتطلع إليَّ دائمًا بعيون والهة. لم يجد الجرأة على مصارحتي بمشاعره. غريب هو الآخر.

... قرأت رواية ليلى بعلبكي. لم أتصور أن توجد كاتبة عربية بهذه الجرأة.

٢٥ نوفمبر

... ما زلت عاجزة عن الاستمتاع. تأخرت أمس عند شهاب، وصلت الهوستل في التاسعة مساءً. قررت الإدارة حرماني من الخروج في الويك إند التالي.

٣ ديسمبر

... الجامعة الأمريكية مركز لنشاط ثقافي حيوي، هنالك أساتذة قوميون مثل يوسف صايغ وقسطنطين زريق وحنا بطاطو ووليد الخالدي، لا يتورعون عن مهاجمة السياسة الأمريكية أمام أعضاء السفارة الذين يحضرون العروض السينمائية.

... اكتشفت منطقة شديدة الحساسية في ظهري، عندما يلمسها شهاب أذوب تمامًا. أصبح هناك منافس لصدري.

٦ ديسمبر

... علاقة يعرب بشهاب متوترة ... أيكون ذلك بسببي؟ أتذكر مواقف معينة. لا أستطيع تفسير سلوك يعرب إزائي. مي أيضًا لا تطيق شهاب.

٢٨ ديسمبر

... مررت بأيام صعبة عندما تأخرت الدورة، أصبحت أخاف من الإنتركورس. شهاب لا يحب استخدام الواقي الذكري، ولا أنا، قرأت اليوم عدة كتب في الموضوع. شرحت له كيفية حساب أيام الأمان.

أول يناير ٦١

... حفلة رأس السنة في الجامعة. رقصت الروك مع شاب إنجليزي لأتعلمها. غضب شهاب فتوقفت. رقصت مع مي.

٢٥ يناير

... تشاجرت أنا وشهاب حول أغنية أم كلثوم الجديدة «أنت عمري»، قلت له إنها نموذج لفن الإقطاع وللتطريب الرجعي، وإن الكلمات لا معنى لها. وإن استمتاعه بها يتناقض مع قناعاته الأخرى. أعتقد أني كنت أحاول استفزازه. هناك شيء ما تغير في علاقتنا.

... قرأت رواية الحي اللاتيني لسهيل إدريس. فاتنة.

١٣ فبراير

... اغتالوا لومومبا.

... ناقشنا علاقتنا. أكد لي أنه يحبني، لا يتحدث عن طفولته كثيرًا رغم أنه يحب الحديث عن نفسه.

... هل ينجح قرار وزراء الخارجية العرب في منع اسرائيل من تحويل نهر الأردن؟

٢٢ فبراير

... احتفلنا بعيد الوحدة المصرية السورية. مصادمات مع الكتائب. لاحقتنا السلطات العسكرية. اعتقلونا ثم أفرجوا عنا في نهاية اليوم.

... الحركة تحتاج إلى مساهمات مالية. قررنا تخفيف نفقاتنا. يكفي الواحد أن ينفق ٢٠٠ ليرة في الشهر. اقترحت أن نرتدي بنطلونات الجينز الرخيصة. رفض شهاب ويعرب إذ اعتبراها غير لائقة.

٢٨ فبراير

... تشاجرت مع شهاب مرة أخرى. اشترى حذاءً أسود لموسم الشتاء رغم أن لديه حذاءً رماديًّا من السنة الماضية فضلًا عن حذاءَين آخرين بألوان فاتحة للصيف، كان من الأجدر أن يتبرع بثمن الحذاء الجديد للحركة. قال إن الحذاء الرمادي لا يصلح لفصل الشتاء. اتهمته بالحذلقة.

أول مارس

... أسبوع حافل بالمؤتمرات والمظاهرات في بيروت وطرابلس وصيدا.

... زرنا مخيمات النازحين الفلسطينيين، تطوعت مع عدة رفيقات لتدريس اللغة الإنجليزية لتلاميذهم.

٢ مارس

... أمس يوم تاريخي! كنا معًا. كان في مزاج رائق بعد عدة كئوس. شاركته بعض الشراب رغم نفوري من الخمر. ركبت فوقه واستسلم لي. شعرت بلذة غريبة. همس لي

أنه يعبدني، فجأة ضعت، لم أعد أعرف أين أنا أظن أني فقدت الوعي عدة ثوانٍ. لا أحب هذا الشعور. يذكرني بالمرة الوحيدة التي سكرت فيها وفقدت توازني.

٢ أبريل

... يرفض أن يكون تحتي. يصر على أن يكون فوق. فكرته عن وضع الرجل وكرامته؟ أما أنا فلا أحب أن أشعر بنفسي مقيدة بين ساعديه القويين. أستمتع أكثر عندما أكون فوق.

١٢ ابريل

... انتصار عظيم للإنسانية. دار جاجارين حول الأرض في ساعة و٤٨ دقيقة.
... رُشح يعرب لمستوى أعلى.

١٩ أبريل

... الثورة الكوبية قوية وصامدة. فشل الإنزال الأمريكي في خليج الخنازير.

مايو

... أول عيد ميلاد لي وأنا امرأة كاملة.
... رفضت فكرة يعرب بأن نقضي الصيف في اليمن. خفت ألا نتمكن من الخروج ثانية لأي سبب، فربما غيَّر أبي رأيه أو أصدر الملك أمرًا بمنع السفر. دعتني مي لقضاء الصيف في بيت أبيها.
... أعتقد أن يعرب مهتم براندة.

يونيو

... رسالة تهديد غامضة تطالب يعرب بالابتعاد عن راندة. يعتقد أنها من أهلها المسيحيين.
... احتفلنا بإعلان استقلال الكويت وانتهاء الحماية البريطانية.

أول يوليو

... الكويت تستنجد ببريطانيا ضد التهديد العراقي.

... دورة في صوفر بالجبل. رشحوني لعضوية لجنة الفكر. تم تنزيل يعرب إلى عضو حلقة بسبب ما بدا عليه من حب للظهور.

٥ يوليو

... عبد الناصر يطالب بجلاء القوات البريطانية عن الكويت.

١٨ يوليو

... امتنعت راندة عن لقاء يعرب.

٢٠ يوليو

... تأميمات ناصر تثير الحيرة والتساؤلات، شهاب يقول إنها نتيجة منطقية لرغبة ناصر في توظيف الممتلكات الأجنبية في خطة تنمية شاملة للبلاد.

... أكتب هذا في الجنة. بيت مي في شتورة. شهاب في عمَّان لدى أهله، أظن أن نظرته لي تغيرت بعد ما حدث بيننا. رغم قناعاته النظرية بالمساواة بين الجنسين في كل شيء لا يستطيع أن يتخلص من ميراث القرون. الغيرة تفترسه ويظن أني يمكن أن أسلم نفسي لأي رجل كما فعلت معه. أعتقد أني نزلت من عينه كما يقول المصريون.

... قرأت كتاب سارتر الجديد: نقد العقل الديالكتيكي. محاولة لعقد زواج بين الوجودية والماركسية، يقول إن الفلسفة التي تصلح للدفاع عن الطبقة الصاعدة في أي عصر هي فلسفة هذا العصر، هي فلسفة حيَّة بالضرورة، ولهذا فالماركسية هي فلسفة القرن العشرين، قال ماركس إن التطور ديالكتيكي أي لولبي يجمع بين الدائرة والخط، فيتخذ من الدائرة الإيحاء بالحركة الدائمة ومن الخط الإيحاء بالتقدم، لكن الصراع هو السمة المميزة للتطور، للحركة التاريخية، أي للحركة الديالكتيكية. هو الذي يمنعها من التحجر. من ناحية أخرى يرفض سارتر مبدأ الحتمية التاريخية الذي تنادي به الماركسية لأنه يتعارض مع الطبيعة الديالكتيكية للتاريخ.

٢٩ يوليو

... مفاعل ذري عربي في مصر.

أغسطس

... لم أتصور يعرب بهذا الضعف ... إنه يبكي لأن راندة تركته. ومع ذلك أعتقد أن عاطفته ناحيتها لم تكن قوية.

١٤ سبتمبر

... شجار جديد مع شهاب. منذ عودته من عمَّان وهو يلاحقني بالأسئلة. إذا رآني أتبادل التحية مع شخص يسألني: كيف عرفته؟ هل قبَّلك؟ هل نام معك.

٢٨ سبتمبر

... انهيار الوحدة المصرية السورية على يد الانفصاليين.

أكتوبر

... مناقشات واسعة حول ترتيب المهام الثورية. أيهما الأول: الوحدة أم الحرية أم الاشتراكية؟ خلافات حادة وانقسامات.

... ملابسي الداخلية تختفي بانتظام. لا أعرف كيف.

أول نوفمبر

... تخفيض إيجارات المساكن في مصر.

١٠ نوفمبر

... اكتشفت أن مي تستولي على ملابسي الداخلية أولًا بأول وتستعملها. واجهتها فبكت، قالت إنها تحبني، لم أدرِ بماذا أجيب. أخيرًا قلت لها إني أحبها أيضًا، لكن ليس بهذا الشكل. رجتني ألا أقول لأحد.

٢٨ نوفمبر

... الجو متوتر في الغرفة. تحرص على تجنبي، تقرأ دروسها في القاعة العامة. هل أنتقل إلى غرفة أخرى؟

ديسمبر

... أريد أن أكون جميلة بوحريد الجزيرة العربية.
... فيلمان رائعان: العام الماضي في مارينباد لآلان رينيه والمتحذلقون لكلود شابرول.

٣ يناير ٦٢

... لم تشترك في حفلة رأس السنة. ذهبت إلى بيتها وبقيت هناك عدة أيام. تعاملني منذ عودتها بجفاء. هل بدأت تكرهني؟

فبراير

... لا نكاد نتبادل كلمة واحدة.
... قرأت ملخصًا لكتاب رأس المال لكارل ماركس. إنه يؤكد حتمية القضاء على نظام الرأسمالية وحتمية الانتقال إلى الاشتراكية بوصفها وريثة الرأسمالية: النظام الرأسمالي ليس سوى نظام استغلال طبقي تمارسه طبقة البرجوازية. وهو ينمي الطبقة التي تستطيع وحدها أن تضع حدًّا له وأن تنهي معه كل استغلال طبقي ألا وهي البروليتاريا. إنها الطبقة التي لا تملك أي وسيلة إنتاج وتنتج عن طريق بيع قوة عملها فائض القيمة الذي تتكون منه ثروات الرأسماليين. وجدت صعوبة في فهم موضوع فائض القيمة واكتشفت أن يعرب وشهاب لا يفهمانه أيضًا.

شرح لي عماد الموضوع: فائض القيمة هو الفرق بين ما يحصل عليه العامل من أجر وما أنتجه من قيمة لأنه لا يأخذ أبدًا المقابل الحقيقي لما أنتجه. لم يكن من الممكن الوصول إلى هذا القانون الرأسمالي بغير المنهج المادي الجدلي: المنهج الذي يدرس الظاهرة كحقيقة موضوعية مستقلة عن وعينا وإرادتنا، في اكتمالها، في حركتها، في تناقضاتها، في صيرورتها. أعطاني مؤلفات هنري لوفافر من الماركسية. عماد ذو ثقافة واسعة فضلًا

عن أنه شاعر ويبدو أنه شيوعي. شهاب يسخر من أنفه الضخم والبثور التي تملأ وجهه. هل يغار منه؟

أول مارس

... أصادف عماد كثيرًا هذه الأيام. أكثر من مرة أجده أمامي عندما أغادر.

٩ مارس

... أعطيت عماد اليوم موعدًا أمام الجامعة. تأخرت عليه ثلاث ساعات، وعندما خرجت وجدته ما زال واقفًا ينتظرني، شعرت بالنشوة.

١٧ مارس

... شنَّ كاسترو هجومًا عنيفًا على الشيوعيين بعد أن اتَّحد معهم في حزب واحد.

٢ مايو

... القاهرة تحتفل لأول مرة بعيد العمال العالمي.

... احتفلت بعيد ميلادي في بيت شهاب، عندما انصرف الجميع كان قد ثمل. مزَّق لي ملابسي. رأيت في عينيه نظرة غريبة أخافتني. حاولت دفعه عني. لكنه قيدني بقوة. لأول مرة يستمتع وحده دون مشاركة مني.

يونيو

... قرر شهاب أن يقضي الصيف إلى جواري في بيروت.

يوليو

... الرفيق سامر مسئول جديد لمجموعتنا ... شخصية جادة. ماهر في عرض أفكاره، لا يخلو من وسامة.

... انتصرت الثورة في الجزائر. إعلان الاستقلال بعد ١٣٢ سنة من الاستعمار.

... الجدلية كما يقول إنجلز هي علم القوانين العامة لحركة وتطور الطبيعة والمجتمع البشري والتفكير.

... ما من شيء أو ظاهرة في الدنيا ثابتة لا تتغير. ويدرس الديالكتيك العالم في حركته وتغيره وتطوره المستمر، فالقديم يندثر ويترك مكانه للجديد باستمرار. الجديد المقصود هو التقدمي. الأتقن والأكثر قدرة على الحياة. الذي ينمو ويتطور باستمرار، وهو ينتصر عندما يستجيب لمتطلبات الحياة الاقتصادية.

... القوانين الأساسية للمادية الجدلية: (١) قانون وحدة وصراع الأضداد: في كل الأشياء والظواهر جوانب متناقضة لا يمكن أن يوجد أحدها دون الآخر وهي موجودة جميعًا في حالة صراع. هذا الصراع هو العامل الحاسم في التطور.

(٢) قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية: العالم يتغير بطفرات وبصورة ثورية.

(٣) قانون نفي النفي: يصف الطابع التقدمي الحلزوني للتطور. تطور أي تظاهرة — لا بد — ينفي أشكال وجودها السابقة وفي نفس الوقت يحتفظ بما هو إيجابي في الوجود السابق.

... الجدلية هي مذهب الترابط الشامل والتبعية المتبادلة بين الأشياء والظواهر. من الضروري لفهم أي ظاهرة، كما يقول لينين، دراسة كل جوانبها وترابطاتها.

٧ سبتمبر

... اختارت مي غرفة أخرى. تسكن معي طالبة أمريكية، مغرمة بشاب كردي.

٢٦ سبتمبر

... يوم تاريخي ويا لروعة الدنيا. قامت الثورة أخيرًا في اليمن. ذهب الإمام وأسرة حميد الدين. أودُّ لو كنت هناك لأعانق السلَّال البطل. أوشكت أن أخضع لرغبة يعرب في الذهاب إلى صنعاء لكني خفت ألا يسمح لي أبي بالعودة إلى بيروت.

... رأيت الإمام أحمد مرة في تعز التي لا يغادرها. كان يرتدي قميصًا أحمر اللون وعمة بيضاء تتدلى منها عذبتان هما إشارة الإمامة، جفناه مخضبان باللون الأزرق ولحيته مضبوعة باللون الأسود. يبتسم ابتسامة مفزعة تكشف عن أسنانه الذهبية. كان يقيم مع

اثنتين من زوجاته الأربع ويتسلى باللعب بقطار كهربائي. إذا استدعي المهندس إلى تعز فذلك لتنظيم مواصلات قطار صاحب الجلالة.

والغريب أن الناس كانت تؤمن بقدراته الخارقة، هناك من أقسم إنه رآه يلقي على الأرض بحزمة حطب فتتحول إلى ثعابين. يقال إنه كان يختلي في غرفة ليلًا ويطفئ الأنوار ثم يجمع الجن ويصدر إليهم أوامره، هو وأسرته وطبقة الأشراف الزيدية مسئولون عن تخلف اليمن وعزله من العالم. منذ نهاية القرن التاسع الميلادي وهم يسيرون على قاعدة إمام يقتل إمامًا ثم يظهر واحد ليقتله ثأرًا للأول.

١٢ نوفمبر

... خمسة من الطيارين السعوديين يهربون بطائراتهم إلى القاهرة، رفضوا الاشتراك في ضرب الثورة اليمنية، تبعهما طياران أردنيان، وأخيرًا قائد الطيران الأردني نفسه. التيار القومي يزحف وينتصر.

٢٢ نوفمبر

... مفاجأة صاعقة. ذهبت إلى اجتماع في منزل الرفيق سامر. استقبلني بالبيجاما ووجدته بمفرده. قال إنه أبلغ الآخرين بتأجيل موعد الاجتماع، سألته لماذا لم يبلغني أنا أيضًا. قال إنه أراد أن يتحدث إليَّ في أمر خاص، سألني عن علاقتي بشهاب وقال إنه غير ناضج، ثم قال لي بالحرف: ما رأيك في ممارسة الجنس معي؟

... تطلعت إليه مذهولة. لم أتوقع أبدًا أن أكون محل إعجابه. فهو ذو شخصية جذابة والنساء يعجبن به، أنا نفسي كنت فعلًا معجبة به ... عندما استوعبت الموقف شعرت بالإهانة. قال بابتسامة ملتوية إنه يعرف كيف يبسطني وأني سأنبسط تمامًا وأن النساء يستمتعن معه جيدًا، وسيريني ما لا يقدر عليه صديقي الأردني، هممت بالانصراف ثم غيَّرت رأي. خلعت حذائي وأنزلت الكولون والكيلوت، رقدت فوق الأريكة وقلت له في هدوء: تفضل. بدا عليه الارتباك ثم خلع ملابسه وانضم إليَّ، ظللت أتأمله بجمود وهو يحاول معي. بالطبع لم يتمكن من شيء. فقد كنت جافة للغاية. وفجأة قذف منيه فوق فخذي. سألته وأنا أرتدي ملابسي: أنا لم أنبسط فهل انبسطت أنت؟ لم يرد. قلت: ألم يكن من الأفضل أن تأتي بعاهرة من ساحة البرج؟ كنت ستستمتع أكثر.

٣ ديسمبر

... اختفي سامر تمامًا وجاءوا لمجموعتنا برفيق آخر بدلًا منه. لم أفُه بكلمة لأحد.

... تفكير في تكوين لجنة مسئولة عن النشاط في عُمان. اجتمع بنا الرفيق أحمد علي (اسم حركي). عُماني من نفس منطقتنا عند سفح «الجبل الأخضر» أسرته من العمال الزراعيين. يقوم هنا بنشاط واسع بين العمال الزراعيين في سهل عكار، يتحدث بصعوبة ويتأتئ معظم الوقت. هناك تحرك في المنطقة الجبلية الواقعة بين عمان واليمن وتسمى ظفار. تشكلت جماعة باسم الجمعية الخيرية الظفارية. ربما كانت المخابرات المصرية أو السعودية وراءها. أعضاؤها يجمعون المال تحت ستار بناء المساجد ومساعدة الفقراء. غرضهم الحقيقي هو تنظيم معارضة مسلحة ضد سلطان عُمان.

... لأول مرة نتفق أنا وشهاب ويعرب في الرأي. أجمعنا على أن الميثاق الذي أعلنه عبد الناصر وضع حركتنا أمام مفترق طرق. لم يعد شعار «دم، حديد، نار — وحدة، تحرر، ثأر» يتماشى مع العصر والأحداث. عماد يتحدث بإعجاب عن جورج حبش وكيف أنه يميل إلى الاشتراكية.

... تشكلت «الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل» من مجموعة من التنظيمات السرية. كوَّنها قحطان الشعبي من العمال العائدين من الخليج والطلاب والمدرسين والعاملين في القاعدة البريطانية بعدن.

يناير ٦٣

... الرجعية السعودية تخشى تأثير ثورة اليمن ولهذا تجهد للقضاء عليها. أثبت ناصر قوميته بإرسال ٣٠ ألف جندي لمساندة الثورة.

... عرفنا أن الجمعية الخيرية الظفارية كوَّنها مسلم بن نوفل. من مشايخ بيت كثير في قبيلة القرا الظفارية وهرب إلى السعودية في العام الماضي، جمعية انعزالية انفصالية، فشعارها هو «ظفار للظفارين».

٨ فبراير

... مصرع عبد الكريم قاسم على يد انقلاب عسكري. هل ناصر وراء الانقلاب؟

... شكلت المخابرات المصرية جبهة مناوئة للجبهة القومية في عدن. أسموها جبهة التحرير.

... لا بد من مواجهة الأمر: لم أعد أستمتع مع شهاب، شجاراتنا مستمرة حول كل شيء. إذا قلت شرق قال غرب، يريد أن يؤكد شخصيته باستمرار، ثم هناك غيرته الشديدة التي تنغص عليَّ حياتي. طلب مني أن أكف عن رؤية عماد، قلت أن ليس من حقه مصادرة حريتي في لقاء من أشاء. وهل طلبت منه أن يمتنع عن لقاء أحد؟
تعبت.

٢٥ فبراير

... صراع بعثي في بغداد بين علي صالح السعدي والبكر. يعتمد الأخير على صدام حسين المعروف باسم جلَّاد قصر النهاية.

مارس

... منظمة فتح تتوسع. هاجمنا اتجاهاتها الانعزالية في نشرة الكادح الثوري.

مايو

... تقرر إدخال العنصر الطلابي للحركة في العمل الشعبي. وضعنا خطة لتجنيد حلقات في الشياح وفي المخيمات الفلسطينية.

أغسطس

... التأميمات مستمرة في مصر.
... محسن إبراهيم ومجلة الحرية يدعوان إلى الالتحام بالناصرية وتبني الاشتراكية العربية. صراع مع القيادة. هناك روح جديدة بيننا. طرح للقضايا الطبقية.

١٤ أكتوبر

... اندلع الكفاح المسلح في الجنوب اليمني بقيادة الجبهة القومية. كانت قبائل بن راجح بن غالب قد حاربت في اليمن إلى جوار القوات المصرية، عند عودتها إلى موطنها في جبال ردفان حاصرتها القوات البريطانية وطالبتها بتسليم سلاحها، نشب قتال سقط فيه شيخ

القبيلة، فانفجرت الشرارة الأولى في المنطقة. حولت الجبهة القومية التمرد إلى ثورة مسلحة وفتحت العديد من الجبهات داخل ولايات الجنوب.

... فيصل عبد اللطيف الشعبي وعدد آخر من قادة الجبهة لا يتحمسون للكفاح المسلح ويفضلون الكفاح السياسي بدعوى أن شعبنا في الجنوب عبارة عن قبائل مرتزقة يهمها المال والسلاح. طبيعي أن يكون ذلك هو موقف فيصل طالما أنه وزير في الحكومة التي عينها الإنجليز.

١٨ نوفمبر

... سقط النظام البعثي في العراق. انقلاب عبد السلام عارف بدعم من حركتنا والناصريين.

ديسمبر

... طلبت الذهاب إلى عدن للاشتراك في الكفاح المسلح.

... فيلم توم جونس لتوني ريتشاردسون أكثر من رائع.

... ثلاث اجتماعات في الأسبوع، توليت مسئولية خلايا في الجامعة اللبنانية أيضًا فرع جامعة الإسكندرية.

يناير ٦٤

... احتفلنا بالعام الجديد في قصر فخم لوالد أحد الرفاق، رقص شهاب طويلًا مع صحفية لبنانية تدعى نهلة، بيضاء ولها شفايف ممتلئة.

... أعلن البعث السوري تبنيه للماركسية كمرجع أساسي. يتحدثون عن الطريق العربي إلى الاشتراكية بعد أن كانوا ينادون بالاشتراكية العربية، تكتل عسكري من عمران وصلاح جديد والأسد وعبد الكريم الجندي.

فبراير

... قرأت مقالًا لنهلة في مجلة أسبوعية تافهة.

٢٣ مارس

... تعيين عبد الحكيم عامر نائبًا أول لناصر. هل هو انقلاب صامت؟ البعض يقول إنه يمثل الجناح التقدمي في الحكم.

١٤ أبريل

... اشتركت في مؤتمر القوميين العرب. كان الرفيق سامر موجودًا وتجاهلني. حضر وفد من الجبهة القومية العدنية برئاسة قحطان الشعبي، أصبح واضحًا أن هناك اتجاهين. اللبنانيون ثوريون بالتمام. طرحوا التوجه الطبقي للحركة وتعيين الموقف من الصراع الطبقي بالبلدان العربية والموقف من البورجوازية الصغيرة، دعوا إلى خوض حرب شعبية في سبيل تحرير فلسطين وضرورة اقتباس أفكار الاشتراكية العلمية، اضطرت القيادة إلى تبني وجهة نظر الثوريين، قال لنا أحد القادة بمرارة: ناصر سرق الأرض من تحتنا، خصوصًا بعد التأميمات، والجميع الآن يتنافسون لكي يقفوا على يساره.

١٧ أبريل

... شرح لنا الرفيق قحطان الشعبي في اجتماع خاص (حضره الرفيق سامر) تجربة الكفاح المسلح في الجنوب اليمني. كانت الأمور صعبة في البداية. عدن أشبه بشبه جزيرة صغيرة أو عنق زجاجة يمكن السيطرة عليها بسهولة بقوة صغيرة وإغلاق كافة منافذها خلال دقائق. الإنجليز ضربوا حصارًا حولها بنقاط تفتيش وأميال من الأسلاك الشائكة. وفوق ذلك فإن قواتنا لم تتدرب على قتال المدن. تمكنوا من إدخال السلاح إلى المدينة مع الجمال التي كانت تنقل العلف والخضراوات، داخل المدينة نفسها قام المناضلون بصناعة القنابل البلاستيكية. بعد شهور قليلة من انتفاضة ردفان بدءُوا يلقون القنابل اليدوية على منازل الضباط الإنجليز ونواديهم ويطلقون عليهم نيران البازوكا.

وصف لنا عملية الهجوم على المطار العسكري بقذائف الهاون، أثناء العودة طاردتهم الهيلوكوبتر فواجهوها برصاص الرشاشات حتى دخلوا أحد الشوارع. تتبعتهم الطائرات على علو منخفض. ومع ذلك تمكنوا من الاختفاء وإخفاء مدفع الهاون الثقيل.

... كنت أعرف أن سامر يمني لكني لم أعرف أن له صلة بالعمل المسلح. استمعت إليه غير مصدقة وهو يروي كيف قاد مجموعة الهجوم في منطقة تواهي حيث مقر القيادة

العامة الإنجليزية للشرق الأوسط. تسلقوا تلًّا يشرف على محطة الإذاعة الإنجليزية ومن هناك أطلقوا البازوكا، دمروا المبنى وقتلوا عددًا من الجنود الإنجليز، ثم عادوا إلى المدينة سيرًا على الأقدام خلال التلال واختلطوا بالناس في الشوارع ليتعرفوا على رد الفعل الشعبي.

كان يتحدث وهو ينظر نحوي بين الحين والآخر وعلى شفتيه ابتسامة زهو واستخفاف.

١٨ أبريل

... تم الاتفاق على صيغة توفيقية بين التيارين. اعتُبِر المؤتمر مرحلة في طريق بناء الحركة الاشتراكية العربية الواحدة تحت قيادة عبد الناصر.

... بدأ الإفراج عن الشيوعيين في مصر.

١٩ أبريل

... حدث غريب. قتل الحراس معتقلًا شيوعيًّا في سجن الواحات المصري. هل هي محاولة من جهة ما لإشعال الفتنة من جديد بين ناصر والشيوعيين؟

... تُرى ماذا حدث لرشدي؟

أول مايو

... أفكر كثيرًا في القاهرة وبيتنا في العجوزة. والأمسيات التي كنا نقضيها مع الأصدقاء، وزيارات شهاب أيضًا.

٢٠ مايو

... أُفرج عن كل المعتقلين والمسجونين الشيوعيين في مصر بعد اعتقال استمر أكثر من خمس سنوات، خرجوا جميعًا قبل أيام من وصول خروشوف ليحضر الاحتفال بتحويل مجرى النيل وانتهاء المرحلة الأولى من بناء السد العالي. اشتعلت المناقشات هنا من جديد بعد تصريح خروشوف. قال إن مصر تسير في طريق التطور غير الرأسمالي، واعتبر الناصريون هذا التصريح آخر مسمار في نعش الشيوعيين. اليمين رأى فيه دليلًا جديدًا على ارتماء ناصر في أحضان الشيوعية.

يونيو

... احتفلنا بتخرجي بدرجة امتياز، صففت شعري عند الكوافير، لم يدعُني شهاب إلى منزله كما كنت أتوقع.

يوليو

... تحالف يعرب وشهاب ضدي مرتين: الأولى عندما ارتديت الميني جوب، والثانية عندما قررت الانضمام للتنظيم العسكري. لكني تغلبت على معارضة يعرب كالعادة.

... جفوة بيني وبين شهاب.

٣ أغسطس

... مجموعتنا مؤلفة من ١٦ عنصرًا، هناك ثلاث فتيات غيري. واحدة لبنانية واثنتان فلسطينيتان. ذهبنا للتدريب في مزرعة نائية في البقاع.

... المدرب عسكري قديم، خرج من الجيش الأردني في ٥٧ بعد إقالة حكومة النابلسي. أقام مدرسة للرياضة البدنية. التدريب قاسٍ وصارم، فهو يطلب منا أقصى انضباط ولياقة بدنية وحياة شبه ناسكة. يدربنا من الفجر حتى الغروب، ويفرض علينا مواعيد منظمة في النوم والاستيقاظ. رآني مرة في الصباح أحمل فرشاة أسناني وفوطة في طريقي إلى الحمام المشترك. أمرني بالعودة قائلًا إني يجب أن أتعود على الحياة بدون حمام وبدون فرشاة أسنان. تعلمنا كيف نطلق النار ونقرأ الخرائط ونستخدم التنكر ونتحرك بلا صوت ونصنع المتفجرات ونرمي القنابل ونقوم بالدوريات، وكيف نعالج كسور العظام وتضميد الجراح، قمنا بمسيرات طويلة في كافة الظروف الجوية.

٥ أغسطس

... تدربنا على الكلاشينكوف. يمكنه أن يطلق طلقات مفردة أو رخات أوتوماتيكية. صممه سنة ١٩١٩ ضابط في الجيش الأحمر السوفييتي يحمل نفس الاسم. سلاح ممتاز. من النادر أن يتعطل ويمكن أن يرميه المرء في التراب ويقف فوقه بينما يستمر في الإطلاق.

... المقاتل الثوري في حرب العصابات «يصل كالإعصار فيهدم كل شيء، لا رحمة لديه إلا حسب الظروف، يقتل عند الاقتضاء ويعامل المهزومين بالحسنى ويحترم الموتى،

الجريح حرام وينبغي معالجته. لا يأخذ أسرى. يجازف بحياته كلما لزم ذلك. مقدام، يحلل الخطر وإمكانات العمل ببرود. يبرز قدرة كافية على التكيف. لا يترك رفيقًا جريحًا إلى رحمة جنود الأعداء ... لا يشكو. يستطيع تحمل الألم من العطش إلى الجراح، وغالبًا ما ينبغي أن تندمل الجراح دون تدخل الجراح بفعل الطبيعة وحدها ... لا يحمل معه إلا ما لا غنى عنه، يراعي عدم ابتلال الرصاص ويحرص على ألا يفقد منه واحدة. يأكل متى استطاع وكل ما يستطيع ويمكن أن يصوم يومين أو ثلاثة. السماء هي سقفه وبينه وبينها رق من النايلون مضاد للمياه ...» جيفارا.

... اعتبر جيفارا السلوك البطولي أمرًا عاديًّا وأي ابتعاد عنه يستحق الرفض.

١١ سبتمبر

... مؤتمر القمة العربية يقرر بدء العمل الفوري في مشروعات تحويل نهر الأردن والتأهب لحمايتها بالقوة المسلحة. الهدف هو قطع الطريق على المحاولات الإسرائيلية للسيطرة على مصادر المياه.

٢٥ سبتمبر

... حضر الرفيق سامر ليعطينا شهادة التخرج. لم تصدر عنه بادرة بأنه يعرفني. عندما جاء دوري طلب مني أن أقدم عرضًا للزحف في الطين وأنا أحمل بندقية وأحرص على عدم ابتلالها. تمرغت في الطين أمامه ثم وقفت ولحظت شبه ابتسامة ظافرة على وجهه. سألني: ماذا تفعلين إذا وجدت العدو فجأة أمامك وليس هناك وقت لتصويب سلاحك نحوه؟ قلت: أهجم على عنقه بيدي. ابتسم وقال: لكن يدك تحمل سلاحًا. لا أظن أنك قادرة على عمل شيء، أنت امرأة ... هيَّا. أريني ما يمكن أن تفعلي. افترضي أني أنا العدو. دون أن أفكر رفعت ساقي وبكل ما أملك من قوة صوبت طرف قدمي إلى ما بين فخذيه. سقط على الأرض يتلوى ويده على مكان الضربة. كدت أرقص من الفرح.

٢٦ سبتمبر

... ذهبت إلى بيت شهاب بمجرد وصولي إلى بيروت. لم أجده ورغم أني كتبت له من قبلُ بموعد وصولي. تركت له ورقة.

٢٨ سبتمبر

... التقينا. ذهبت معه إلى منزله. خلع ملابسه بمجرد وصولنا. فعلت مثله. ما جرى بعد ذلك تم بلا حماس.

أول أكتوبر

... بدأ تطبيق نظام التأمين الصحي بمصر.

٢٩ أكتوبر

... تدريب مرهِق ودورات سياسية والشفرات وإشارات الراديو وقواعد العمل السري.
... أعطيت حياتي للنضال من أجل تحرير البشرية.
... قرأت فونتمارا (سيلوني)، الأم (جوركي)، فارس الأمل (جورج أمادو).
... الثوري يتفانى في التضحية بلا أي قدر من الأنانية ولا يطيق الاستعراض والتفاخر والمبالغة والادعاء، جيفارا.

١٠ نوفمبر

... الانفجارات تتابع ضد الإنجليز في عدن. الأصنج يكشف عن وجهه الحقيقي. قال إن هناك بُلدانًا حصلت على استقلالها دون حروب مثل زامبيا ومالاوي والسودان.

٢٦ نوفمبر

... قدت مسيرة تضامن مع مظاهرات القاهرة التي أحرقت مكتبة السفارة الأمريكية احتجاجًا على عدوان القوات الأمريكية والبلجيكية الجديد على الكونجو.

٢٤ ديسمبر

... شنَّ ناصر أمس هجومًا عنيفًا على الولايات المتحدة ردًّا على سلوك السفير الأمريكي في مقابلة مع وزير التموين المصري. قال إنه دخل مقموصًا وأعلن في لهجة تهديدية أنه لا

يستطيع الكلام في شيء مما جاء من أجله لأن سلوك الجمهورية العربية المتحدة لا يعجبه. وجه ناصر حديثه إلى الولايات المتحدة قائلًا: إذا لم يعجبكم فاشربوا من البحر.

... ليفي أشكول: إسرائيل تعتبر المياه بمثابة الدماء التي تجري في عروقنا وسنتصرف على هذا الأساس.

... حتى الآن قدمت ألمانيا الغربية لإسرائيل تعويضات وهدايا قيمتها عشرة مليارات دولار.

٢٦ ديسمبر

... قتل فدائيو الجبهة القومية في عدن ضابطًا عربيًّا في المخابرات البريطانية. جرت العملية بالنهار وفي حي كريتر المزدحم. قاد العملية عبد الفتاح إسماعيل (عامل بمصفاة النفط صار معلمًا بمدرسة) ومحمد صالح مطيع وعلي سالم البيض.

... تشكلت جبهة تحرير ظفار. على رأسها لجنة خماسية مشتركة لتحضير الكفاح المسلح تتألف من القوميين العرب (الذين عملوا في الكويت) والجمعية الخيرية الظفارية ومنظمة الجنود الظفاريين السرية. مسلم بن نوفل هو همزة الوصل بين الجبهة وقبائل الداخل العماني. مصر ضغطت من أجل هذه الوحدة كشرط لتقديم أية مساعدة.

٢٨ ديسمبر

... بن بيلا يحاول السيطرة على إنتاج البترول الذي تتحكم فيه الشركات الفرنسية.

... كتاب المدارس الاشتراكية في أفريقيا لسكرتير الحزب الشيوعي السوداني عبد الخالق محجوب. يقول إنه يمكن بناء الاشتراكية في بعض المجتمعات دون حزب شيوعي، ويعلن تأييده التام للناصرية والطريق غير الرأسمالي. أصبح الحزب الشيوعي السوداني في الشهر الماضي حزبًا علنيًّا بعد ١٨ سنة من السرية.

يناير ٦٥

... تأكدت من أمر شهاب. لمحته أمس جالسًا في الحمرا مع نهلة وقد احتضن كفيها بين كفيه. واجهته اليوم فقال لي ببرود إن علاقتنا حرة.

... لم أنم.

٥ يناير

... الجبهة الظفارية الجديدة تتكون من فئتين رئيسيتين: المهاجرين الظفاريين في الخليج والعناصر القبلية من الرعاة ذوي التاريخ الطويل في التمرد على سلاطين مسقط. تزايدت نقمة هؤلاء على السلطان سعيد بن تيمور بعد إعلان نبأ اكتشاف النفط في ظفار وتصميمه على حرمانهم من أية فائدة من عائداته. أصدر قانونًا يمنع سكان ظفار من العمل في شركات البترول الأجنبية.

٨ يناير

... هناك احتياج لعمل سياسي وعسكري كبير في ظفار وخصوصًا بين النساء.

... أهمية ظفار أنها تقع على حدود تلبي احتياطيات الغرب من النفط الطبيعي. تعاني استغلالًا مركبًا، فإذا كانت عمان مستعمرة بريطانية فإن ظفار مستعمرة عُمانية. الضرائب: عنزة واحدة سنويًّا مقابل كل خمس عنزات وكذلك الجمال، بقرة لكل عشر بقرات، الصياد يدفع ١٢٠ ريالًا لوالي المدينة مقابل حق الصيد خلال موسم يتألف من ثلاثة شهور، ضرائب الواردات ٣٠٠٪ أعلى من باقي عُمان.

... أمريكا جُنَّت. أصدر جونسون أوامره للطائرات بالإغارة على حدود فيتنام الشمالية. تسيطر الفيت كونج على ثلثي مساحة فيتنام الجنوبية وتقود حرب عصابات ناجحة ضد الحكومة وسادتها الأمريكان الذين جلبوا ٢٧ ألف جندي.

٢٠ يناير

... اتفقت أنا وشهاب على إنهاء علاقتنا. سنبقى أصدقاء.

٣ فبراير

... مناقشات اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكي المصري حول خطة العمل للتنظيم السياسي تثير الضحك. عبد الحكيم عامر يقول إن التنظيم هو النقطة الرئيسية. يرد نور الدين طراف بأنه موجود لكن لا يتحرك، يعارضه ناصر بأن التنظيم موجود على الورق فقط. يقول حسين خلاف: كيف نعمل؟ إذا عملنا لا بد من الأشخاص كيف نأتي

بهم؟ اعترف عبد المجيد شديد بأن عدد الوحدات الرئيسية سبعة آلاف وحدة، والمشكلة أن أمناءها لا يعرفون المطلوب منهم. قال ناصر إنه لا بد من وجود حزب اشتراكي داخل الاتحاد الاشتراكي.

٢٤ فبراير

... عامر يعلن أن مصر خسرت في عمليات اليمن ١٠٥ شهداء من الضباط و١٥٠٢ من الجنود وتكلفت ٣ ملايين جنيه إسترليني و١٣ مليون جنيه مصري في سنتين.

... ذكر لنا الرفيق «م» عند عودته من القاهرة أن عبد الناصر بصدد تكوين تنظيم سري يسميه بالتنظيم الطليعي. قال إنه شعر بالحاجة إلى هذا التنظيم أثناء العدوان الثلاثي في ٥٦ عندما بدت القاهرة مهددة بالاحتلال، ثم بدأ يفكر في إنشائه بعد الانفصال السوري، ناصر يشترط في أعضاء هذا التنظيم الطليعي ألا يكونوا من أصحاب الملكيات الخاصة، ليظل الواحد منهم قادرًا على العمل من أجل إزالة الفوارق بين الطبقات. يشترط أيضًا سريته ليكون أشبه برقيب جديد على بقية التنظيمات.

علق الرفيق «م» على ذلك قائلًا إنه شعر من لقائه بناصر أنه لا يؤمن في أعماقه بالحاجة إلى هذا التنظيم. فهو قادر على تعبئة الناس وإخراجهم إلى الشارع بمجرد كلمة عن طريق التليفزيون، والدليل على ذلك تصوره لدور أعضاء هذا التنظيم كما شرحه للرفيق «م»، فهو يراهم مجرد شبكة من الأسلاك تصل بين القاعدة والقيادة وتنقل جميع المعلومات من القاعدة وما يدور فيها من مشاكل وأزمات بسرعة وأمانة وكفاءة حتى لا يصبح هناك شيء يجري فيها خافيًا عن القيادة.

مارس

... جيفارا في القاهرة، تمنيت لو كنت هنالك لأراه. قرأت حوارًا بينه وبين عدد من المثقفين المصريين، تحدث عن التجربة الكوبية في توحيد التنظيمات الثورية الخمسة وعلى رأسها تنظيم كاسترو الذي انبثقت قيادته من صفوف البرجوازية الصغيرة الثورية. كان به جناحان: الجبل والسهل. في الجبل كان الحديث عن الحرب الثورية التي تعتمد على جماهير الفلاحين بينما كان السهل يتحدث عن إضراب عام ثوري، لكن الجبل هو الذي تمكن من الاستيلاء على الحكم والإطاحة بباتستا. القوة الثانية هي الشيوعيون الذين

يملكون خبرة طويلة في الكفاح لأكثر من ٤٠ سنة. ارتكبوا أخطاءً هامة، بسبب عزلتهم عن الجماهير الواسعة نتيجة لما تعرضوا له من قمع سابق عجزوا عن التعمق في إدراك مدى انتشار الحركة الثورية لهذا ظلوا متخلفين عن الحركة الكبيرة التي قامت بقيادة فيدل كاسترو، ثم تبينوا بعد ذلك شرعية قيادته. قال: بدأنا نعمل سويًّا ... وعهدنا لاسكلانتي أحد قادة الشيوعيين بتنظيم الحزب الموحد. اختار بالطبع رفاقه القدامى لشغل المراكز القيادية فوصل عدد كبير منهم إلى قيادة المؤسسات الإنتاجية. لم يتكون حزب للطليعة، وإنما حزب للإدارة، واستولى اسكلانتي على كل السلطات بمفهوم انعزالي لا يسمح ببناء حزب جماهيري. وارتكب رجاله أخطاءً عديدة بسبب انعزالهم، وكان كثيرون منهم قد لاقوا متاعب كثيرة بسبب نضالهم وإذا بهم أصبحوا على رأس مؤسسات وتمتعوا بامتيازات عديدة: سكرتيرات وسيارات كاديلاك وتكييف هواء ... هكذا ظهرت العناصر الانتهازية ... كان في مكتب اسكالانتي ١٧ جهاز تليفون، وهذا لا يعني أنه كان خائنًا. لقد كان رجلًا ذكيًّا وثوريًّا، لكنه ارتكب أخطاءً خطيرة واستفاد أيضًا من وضعه ... إنه ليس خائنًا لكنه لم يكن قديسًا. واضطر فيدل أن يقوم بحركة كشف له في مارس ٦٢ وكونا الحزب الجديد.

... استوقفني في الحوار تعريفه للشيوعي، فقد تساءل: هل يجب أن يكون ملحدًا؟ أو هل يمكن أن يكون مؤمنًا؟ هل يجب أن نطالبه بمجهود في العمل يعادل مجهود العامل العادي أو أكثر؟ هل يجب أن يظل في المؤخرة؟ وإذا خضنا معركة في الجبهة هل نحميه أم يتعين وضعه في المقدمة ليواجه الأخطار ... أسئلة ما زالت تنتظر ردًّا. لكنه في رأيي آخر من ينام وآخر من يأكل وأول من يستشهد.

أول أبريل

... كتب عماد قصيدة جديدة. يقول إنني ألهمته إياها. عرض عليَّ الزواج أسفل شجرة دفلي. يا للرومانسية! قلت له إني سعيدة بعرضه وإنه إنسان ممتاز، لكني لست بعد مستعدة للزواج من أي إنسان، هناك أشياء أخرى كثيرة أريد أن أقوم بها أولًا. الحب هو آخر شيء أفكر فيه الآن. لا أريد أية قيود في هذه المرحلة من حياتي.

... عماد شديد الرقة إلى درجة الأنوثة. أستريح له كثيرًا. لكني لست متعلقة به.

٥ أبريل

... قرر الحزبان الشيوعيان المصريان الرئيسيان حل تنظيميهما والتقدم كأفراد بطلب عضوية الاتحاد الاشتراكي باعتباره التنظيم الثوري الوحيد لتحالف قوى الشعب العاملة.

... الشيخ عبد الله الطريقي يدعو إلى تأميم البترول: شركات البترول تحصل في الولايات المتحدة على ربح قدره ٧ بالمائة، وفي فنزويلا على ١٨ بالمائة، وفي المنطقة العربية على ٨١ بالمائة، وهي النسبة التي حصلت عليها أرامكو في السعودية حتى سنة ٦١.

٧ أبريل

... التقينا لدى رفيق عراقي بصحفي مصري يساري في زيارة عابرة للبنان. لم يتحمس يعرب لهذا اللقاء، قال إن أحدًا لا يستطيع الخروج من مصر إلا إذا كان قريبًا من السلطة أو له علاقة بالمخابرات. حدثنا عن الوضع في مصر: هناك صراعات مكتومة في قمة السلطة. سألناه عن التنظيم الطليعي وهل يمثل هيكل الجناح الرجعي في مواجهة علي صبري؟ وموقف عبد الحكيم عامر من التحول الاشتراكي، هاجم الشيوعيين قائلًا إنهم انتهوا وإنهم لا يملكون رؤية. يتكلم بحذر وهو يتطلع حوله. فيما بعد أسر إلينا الرفيق العراقي أن ضيفنا نموذج لما اصطلح على تسميته بـ «الذعر المصري».

بعد نصف زجاجة من العراقي بدأ يسترخي ويتحدث بطلاقة. علمنا منه أن التنظيم الطليعي المصري يقوم على أساس غريب. هناك قلة من المعاونين الذين يثق فيهم ناصر شخصيًّا مثل هيكل وعلي صبري وسامي شرف، يقوم كل واحد منهم بتجنيد عشرة أشخاص من الذين يثق فيهم، وكل واحد يجند عشرة، وهكذا. اشترط عبد الناصر أن يتم ذلك بعيدًا عن عيون المباحث والمخابرات. أبدينا دهشتنا واستنكارنا، فضحك وقال إنه شخصيًّا عضو في التنظيم، وروى لنا كيف قام بتجنيد عدد من الصحفيين. يواعد الواحد منهم في مكان منعزل ويقول له إنه مرسل من قبل الرئيس عبد الناصر الذي يثق فيه ويريده أن ينضم لتنظيم سري هدفه الدفاع عن المكاسب الاشتراكية. كل ذلك وهو خائف من عيون المباحث والمخابرات.

انفكت عقدة لسانه تمامًا بعد قليل، قال إن هيكل كون مجموعة من العاملين في الأهرام، وكون أحمد فؤاد وأحمد حمروش معًا مجموعة ضمت عددًا من الشيوعيين السابقين الذين هجروا العمل السياسي في بداية الخمسينيات أمام الضربات البوليسية

المتلاحقة، عادوا الآن يرفعون رءوسهم ليشبعوا رغبتهم في الوجود داخل تنظيم يشبه التنظيم الذي وجدوا فيه في شبابهم دون التعرض لأي مخاطر ويشبعون إحساسهم بالأهمية ويطمئنون لضمائرهم المعذبة بأنهم كانوا على حق طول الوقت وأنهم لم يتخاذلوا. وفيما بعد كون كل وزير مجموعة من كبار الموظفين الذين معه بالتسلسل الوظيفي: وكلاء الوزارة ثم مديري العموم وهكذا. وكون شيخ الأزهر مجموعة من الإخوان المسلمين السابقين.

سألناه عن قصة حل الحزبين الشيوعيين فقال إنهم أخذوا «مقلبًا» ذكيًّا، قيل لهم في البداية إن عبد الناصر موافق على عقد وحدة تنظيمية بينهم وبين التعليم الطليعي، وبالفعل أعدت خريطة كاملة لدمج أعضاء التنظيمات الثلاثة، في آخر لحظة قيل لهم أن ينضموا كأفراد إلى الاتحاد الاشتراكي دون أن يكون هناك التزام بضمهم إلى التنظيم الطليعي، ثم جرى اختيار عدد محدود منهم يعد على أطراف الأصابع استبعد منهم العمال. في نفس الوقت بدأت المباحث العامة تستدعي الشيوعيين وتوجه إليهم الاستفسارات التهديدية عن نشاطهم وتسألهم عن معلوماتهم عن التنظيم الطليعي!

١٠ أبريل

... شيء ما يجري بالنسبة لجيفارا ... صحف العالم تتحدث عن اختفائه ... هل اغتالته المخابرات الأمريكية؟

... حلمت بالأمس أني مع جيفارا وسط الجبال.

١٢ أبريل

... تقرر أن نسافر إلى ظفار لبدء الكفاح المسلح.

... مواد لا غنى عنها: الزيت، علب المحفوظات، الحليب المركز، السكر والملح والبصل والثوم والبن والشاي. ملعقة وسكين متعدد النصال. شحوم خاصة لصيانة البندقية ويمكن الاستعانة بزيت آلة الخياطة. خرق لتلميع السلاح باستمرار، مطرة (زمزمية). الأدوية مثل البنسلين ومسكنات وأسبرين وحبوب ضد البرد والإسهال والطفيليات وأمصال للحيوانات السامة وحقائب الإسعاف الأولى. السجائر الثقاب والقداحة. بطاريات للراديو والصابون لتنظيف الأواني في الجسم. كتب، قنينة بنزين صغيرة لإشعال النار عندما

يكون الحطب مبلولًا. حلوى إذا أمكن، مفكرة أو كراسة، قلم. خيط وإبر وأزرار، حبل ... لا غنى عن البطانية لأن ليل الجبال شديد البرودة.

... ترددت أمام حبوب منع الحمل ثم قررت أن آخذها. كم آخذ منها؟ لأول مرة تنبهت إلى أني لا أعرف متى سأعود أو إلى متى تستمر هذه المغامرة. عام؟ اثنان؟

... قصصت شعري وأظافري. وداعًا للأظافر المصبوغة ...

المستقبل هنا ...

يجب ألا أنسى حبوب «الدرامامين» لدوار البحر.

... اخترت اسما سريًّا جديدًا هو «وردة».

الفصل السادس

مسقط

ديسمبر ١٩٩٢

أنزلني التاكسي «انجاج» أمام فندق انتركونتيننتال، مضيت من أمام فتاة أفريقية في بلوزة وجوب تحتل مائدة صغيرة في مواجهة المدخل. ألفيت نفسي في مساحة رحبة غير مسقوفة تحف بها من مختلف الجوانب طوابق الفندق. مضيت أستكشف البهو فاستوقفني صانع قهوة افترش وسادة على الأرض. صبَّ لي فنجانًا صغيرًا من دلة نحاسية. ارتشفت القهوة المرة ثم واصلت تجوالي. لمحت شابًّا في الرداء العماني والكمة يتطلع إليَّ باسمًا. بدا وجهه مألوفًا لي ورأيت على صدره شارة تعريف. اتجهت نحوه وانحيت أقرأ ما هو مكتوب على صدره: «وزارة البيئة»، قال: هيا بنا.

قلت: إلى أين؟

وبدا عليه الارتباك وقال: ألست مشتركًا في المؤتمر؟

اتسعت ابتسامته عندما اكتشف الخطأ الذي وقع فيه. وتركته دون أن أدرك ما هو مقدر لي.

كانت ثمة مصعد زجاجي مثبت في الباحة غير المسقوفة، ورأيته يهبط على مهل مقلًّا فتاة أوروبية ذات شعر نافش وثوب قصير، وشيئًا فشيئًا تجلى فخذاها في كامل بهائهما، ممتلئتين في تناسق ومتلامستين تمامًا.

مضيت إلى نهاية البهو بحثًا عن مطعم القرم والسيد جين ميلر. وجدته مغلقًا وأمامه لافتة تحدد موعد العمل في المساء. واصلت السير فألفيت نفسي بعد لحظات أمام حمام السباحة انتشرت حوله الأجساد شبه العارية، الأوروبية بالطبع.

كنت ما أزال تحت تأثير الفخذين المتناسقتين المتلامستين اللتين غطتهما الجوبة إلى منتصفهما فلم تجذب انتباهي أي من تلك الأفخاذ التي تعرَّت تمامًا دون أن تترك شيئًا للمخيلة، ولهذا لم أنتبه إلى المرأة التي اتجهت نحوي فجأة هاتفة باسمي.

كانت جوليا واحدة من الأجانب الذين يترددون على القاهرة بانتظام ويقيمون فيها بعض الوقت بذرائع شتي (مثل البحث العلمي والتحقيقات الصحفية والاشتراك في المؤتمرات) ثم يختفون ويعودون إلى الظهور بعد فترة. كانت تحمل جواز سفر دنمركيًّا وتعرفت عليها لدى صديق لي من الكتاب. أهلت علينا في جلابية بلدية ملطخة بالبقع وطفل رضيع على كتفها. خلعت صندلها عند الباب ثم انضمت إلينا حافية القدمين. بهرتنا بشرتها اللبنية وعيناها الزرقاوان وجسدها الفارع وإجادتها للعربية، فصحى وعامية، بينما نحن نتحدث بكى طفلها فأخذته في صدرها وأخذت تهدهده لكنه واصل البكاء. ففكت أزرار الجلابية وأخرجت ثديًا بضًّا مثل الكمثرى الناضجة ألقمته فم الطفل دون أن تكف عن الحديث ودون أي تحول نظرها عنا كما تفعل أي بائعة خضار في باب الشعرية.

سألتها وأنا أتفحص الغضون الخفيفة التي أحاطت بعينيها الجميلتين: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

قالت: ما الذي جاء بك أنت؟

أضافت بلهجتها السريعة وهي تتجنب التقاء عيوننا كعادتها مع كل من تتحدث معه، أنها زارت مقبرة يهودية قديمة على بعد ميل ونصف من صحار، إلى الشمال من مسقط.

علقت متعجبًا: يهود في صحار!

قالت: ويلستد سجل وجود عشرين أسرة يهودية بها في العقد الأول من القرن التاسع عشر. يبدو أنهم عراقيون لجئوا إلى هذا المكان خوفًا من بطش داود باشا حاكم بغداد في ذلك الوقت.

سألت: وهل ما زال أحد منهم هناك؟

– ولا واحد، لم يبقَ من أثر لهم سوى المدفن. لقد رأيت بنفسي على جداره أسماء يهودية كثيرة مثل موسى ويوسف ويعقوب مكتوبة بلغة عبرية.

جذبتني من ذراعي قائلة: ألا تريد أن تتثقف قليلًا؟ تعالَ.

قادتني عبر ممرات إلى قاعة تتصدر مدخلها لافتة تعلن عن مؤتمر دولي لمناقشة أزمة المياه في الشرق الأوسط. كان المؤتمر الذي تقاعست عن حضوره قد بدأ. وجلس

حوالي ثلاثين شخصًا أمام منصة اصطف خلفها عدد من المتحدثين بينهم اثنان بالملابس العمانية وأوروبيان فضلًا عن واحد شعرت من ملامحه أنه مصري.

لمحت في الصف الأول الصحفي السعودي يعبث بأزار جهاز تسجيل صغير الحجم، كان المتحدث يستعرض بالإنجليزية الأبعاد المختلفة لمشكلة المياه. وقدرت من لهجته أنه من أبناء الجزيرة التي غربت عنها الشمس.

– الشرق الأوسط ككل يحتاج إلى ضعفي ما لديه من المياه لإطعام سكانه، وهذا يسري على مصر أيضًا حيث إنها تستورد نصف ما تحتاجه من الغذاء. هناك أزمة إذن لكن حلها بسيط في نظري ويكمن في شراء الحبوب زهيدة الثمن من السوق الدولية وليس زراعتها. إنك مثلًا تحتاج ألف طن من المياه لري طن واحد من القمح. إلا أنه من السهل عليك نقل طن من القمح أكثر من نقل طن من المياه.

رفع السعودي يده طالبًا التعليق فابتسم البروفسور الإنجليزي، واستطرد: إن البلدان التي قررت زراعة الحبوب لتأمين نفسها ضد ارتفاع الأسعار مثل المملكة السعودية لم تؤثر في الأسعار. هناك مبالغة وانفعالية في النظر للأمر. لبنان مثلًا يريد الاستفادة من مياه نهر الليطاني لتطوير الإنتاج الزراعي. وإسرائيل تريد من جهتها شراء جزء من مياه لبنان. لكن الوضع النفسي والسياسي السائد يدفع بيروت للتفكير في كيفية استخدام المياه وليس بيعها، على الرغم من أن الطرح الأخير مفيد اقتصاديًّا للبنان، خاصة أن الوكالات الدولية قد لا تتحمس لإقراضها في الحالة الأولى.

لم يتمسك السعودي بالتعليق والتزم الصمت. وخيل إليَّ أن أحدًا لم يستوعب حديث البروفسور الإنجليزي وما به من مغالطة. ومضى المؤتمر على هذه الوتيرة في جو هادئ إلى أن تكهرب فجأة عندما عرض العضو المصري بالمنصة مشروعًا لتحلية مياه البحر يتكلف عدة مليارات، ويتطلب اشتراك دول الشرق الأوسط جميعًا في تنفيذه بما فيهم إسرائيل، كان يدرك الألغام التي يسير عليها، فختم كلمته بهذه العبارة: التعاون وليس التسوية السياسية هو طريق السلام.

طلب أحد الحاضرين من القاعة الكلمة بانفعال وقال بلهجة شامية: حرب ٦٧ وقعت أساسًا حين أرادت إسرائيل تحويل مياه نهر الليطاني، وأسفرت هذه الحرب عن زيادة مصادر المياه العذبة لإسرائيل بمقدار ٢٥ بالمائة من أنهار الأراضي التي احتلتها. وهي تؤكد الآن باستمرار أن أنهارها هي الأردن والليطاني واليرموك، أي أنهار جيرانها، وتطالب في مباحثات السلام بعدم الحديث عما أسمته بحقوق الماضي، أي المياه التي اغتصبتها، فضلًا عن الأراضي، وبأن ينطلق أي حديث من الأمر الواقع.

سكت برهة ليهدئ من انفعاله ثم أنهى كلمته بقوله: إن تجربة نصف قرن من التواجد الإسرائيلي لا تترك مجالًا للثقة في الوعود والاتفاقات، واقتناعي أن أي تعاون لا بد أن تسبقه تسوية سلمية عادلة وليس العكس.

ويبدو أن هذه الانفجارة شجَّعت الحضور فعقب شاب عماني قائلًا: هناك نوع من الإجحاف في توزيع المياه واستهلاكها في المنطقة. الفرد في إسرائيل يستهلك من المياه خمسة أضعاف ما يستهلكه أي فرد من جيرانها، والمستوطنون يملئون حمامات السباحة بالمياه العذبة المسروقة من البلاد العربية.

وقف أحد الحاضرين معلنًا أنه أستاذ جيولوجيا المياه في هيئة الطاقة الذرية المصرية ووجَّه سؤالًا إلى المنصة: إسرائيل حصلت على مليار متر مكعب من المياه الجوفية في سيناء بقيمة ملياري جنيه، وحفرت ٢٠٠ بئر على الحدود المصرية لسحب مليون متر مكعب يوميًّا من مياه خزان وادي الجراض. فما موقف القانون الدولي من ذلك؟

تولى الإجابة خبير هولندي في القانون الدولي فقال باقتضاب: إسرائيل بحاجة إلى كميات من المياه أكثر من تلك التي تمتلكها.

رفعت هذه الإجابة من درجة حرارة الجلسة ولوَّح كثيرون بأصابعهم رغبة في التعليق. لكن منظمي المؤتمر العمانيين سارعوا برفع الجلسة لاستراحة قصيرة، وتقدمت أنا وجوليا إلى مائدة صفت فوقها أصناف البسكويت والمشروبات الساخنة والباردة.

انضم لنا الأستاذ الهولندي الذي يعرف جوليا وقال عندما قدمتني إليه: المصريون حكماء وعرفوا كيف يتبعون سياسة سليمة.

أدركت أنه يقصد ما سمي بـ «سياسية السلام»، فقلت: تقصد النظام المصري.

فكَّر برهة في إجابتي ثم استطرد بلهجة تقطر حكمة: الحضور في التاريخ شرطه الاعتراف بالأمر الواقع، إنه القانون الذي لم يدركه الهنود الحمر مثلًا.

قاطعته متسائلًا: من هو الذي اغتصب أرض الآخر ولا زال يحتلها ويرفض …

استوقفني بحركة من يده: الأمر الواقع الآن في صالح إسرائيل. يجب أن تتقبلوا ذلك وإلا كنتم غير علميين وغير واقعيين وخرجتم من التاريخ تمامًا.

فكَّرت وأنا أتطلع إليه أني لو كشطت جلده الأبيض المُدهن لقطر عنصرية. ويبدو أنه التقط أفكاري إذ تجاهلني وطلب عنوانها عارضًا عليها عنوانه. أخرجت من حقيبة يد منتفخة مفكرة ضخمة امتلأت صفحاتها بالعناوين. قلبت صفحاتها بسرعة ثم سجلت عنوانه وأعطته بطاقتها فتناولها وابتعد.

حملنا فنجان قهوة وتنحينا عن المائدة. سألتها عن مشروعاتها القادمة فقالت: ماذا تعرف عن سيف بن ذي يزن؟

قلت: أظن أنه من أبطال الأساطير اليمنية.

تطلعت إليَّ في خبث وابتسمت: هل تعرف أنه يهودي؟

قلت: يا ألطاف الله، ربما أكتشف غدًا أني أيضًا يهودي.

ضحكت: اسمع القصة. قبل الميلاد بخمسة قرون تدهورت مملكة سبأ وقامت مكانها الإمبراطورية الحميرية التي استمر عهدها عشرة قرون حتى القرن الخامس الميلادي. وعندما انهار سد مأرب فرض آخر حكامهم الدين اليهودي على المسيحيين الذين كانوا يتعايشون مع اليهود والوثنيين فقامت حرب أهلية استنجد فيها المسيحيون بإخوانهم في الحبشة التي تمكنت من فرض سيطرتها على البلاد لمدة نصف قرن. إلى أن التجأ سيف بن ذي يزن إلى ملك فارس طالبًا العون في تحرير بلاده. وبالفعل هبطت جيوش الفرس في عدن وطردت الأحباش من اليمن، واقتسم ملك الفرس السلطة مع سيف لفترة قصيرة، ثم انقلب عليه وانفرد بالحكم.

– وهل يعني هذا أن سيف كان يهوديًّا؟

– ما يهمني هو أنه كانت هناك دولة يهودية في الجنوب اليمني في بداية التقويم الميلادي.

– لو ثبت هذا تقع كارثة.

– لماذا؟

– ستطالب إسرائيل بضم اليمن وعُمان إلى أراضيها.

ضحكت وقالت: نكتة. بس ممكن والله. هل تعرف أن جزيرة سقطرى اليمنية كانت مرشحة في سنة ١٩٣٩ لتكون وطنًا لليهود بدلًا من فلسطين؟ من حسن الحظ أن هذا لم يحدث.

قلت: حسن حظ اليمنيين وسوء حظ الفلسطينيين. يمكن لمصر أيضًا أن تطالب بالكعبة أو بضم السعودية.

قالت: كيف؟

– هناك من يزعمون أن عائلة عبد مناف أتت من مدينة منف المصرية. وبذلك يكون الرسول من نسل الفراعنة.

– ولمَ لا؟

نهضت واقفة وهي تقول: أشعر أني ملزقة. سأصعد لآخذ حمامًا.

– والمؤتمر؟

مدَّت يدها وتأبطت ذراعي: تعالَ، أريد أن أتكلم معك.

سألتها عن طفلها فقالت إنه لم يعد طفلًا فهو في العاشرة من عمره الآن.

– معك هنا؟

– لا، مع أبيه في لندن.

أقلنا المصعد الزجاجي إلى الطابق الثالث، وتقدمتني إلى غرفتها بخطوات سريعة وهي تخرج المفتاح من حقيبتها. كان ثمة شيء ملفت في تكوين جسمها ومشيتها وتصلب قامتها يذكر بالعسكر. فتحت الباب وتنحت جانبًا.

قالت: تفضل.

قلت: ليديز فيرست.

أصرت أن أتقدمها وانتظرت حتى تجاوزت المدخل ثم تبعتني وأغلقت الباب خلفها.

استدرت إليها ورأيت عينيها تجولان في أرجاء الغرفة بسرعة وتركيز، ثم خطت نحو الفراش وألقت بحقيبة يدها فوقه ثم تهالكت على حافته. أشارت إلى المقعد المجاور فاتجهت إليه وجلست بعد أن وضعت حافظتي الجلدية على الأرض.

سألتني: ماذا تحب أن تشرب. سكوتش؟

قلت: نحن ما زلنا في بداية النهار.

قالت: وهل هذا يهمك؟ على العموم عندك الميني بار، سأدخل أنا لأستحم.

فتحت خزانة الملابس بحركة سريعة ثم أغلقتها. ودارت بعينيها في أرجاء الغرفة إلى أن استقرتا على حقيبة يدها، فانحنت وتناولتها ومضت إلى الحمام. ولحظت أنها لم تهتم بإغلاق بابه جيدًا.

مددت ساقي ورفعت عيني إلى النافذة التي كانت ستائرها نصف مسدلة.

خرجت بعد لحظات مرتدية روبًا من الكشمير الأبيض أحكمت إغلاقه بحزام الخصر، وكان شعرها ملفوفا بمنشفة من نفس القماش على شكل عمامة.

جلست إلى جواري على حافة الفراش وطلبت أن أشعل لها سيجارة. جذبت نفسًا عميقًا ثم وضعت السيجارة في المطفأة ورفعت يديها إلى العمامة وفكتها وشرعت تجفف بها جدائل شعرها.

قالت: قل لي ماذا تفعل هنا حقًّا.

لم أتمالك نفسي من الضحك. كان روبها قد انحسر عن ركبتيها واستقرت عيناي على فخذيها ثم رفعتهما إلى وجهها فرأيتها تتأملني في ترقب. كان الفضول وليس الرغبة

هو ما دفعني إلى أن أمدَّ يدي وأضع راحتي فوق ركبتها ثم أحركها ببطء إلى أعلى دون أن أحول عيني عن عينيها.

وضعت يدها فوق يدي واحتوتها بأصابع حديدية ثم جذبتها بعيدًا وهي تقول في حزم: من فضلك.

لمحت في عينيها نظرة ظفر، فنهضت واقفًا وأنا أتناول حقيبة يدي: يجب أن أذهب.

وضعت ساقًا فوق ساق فانحسر الروب تمامًا عن فخذيها. قالت: ألن تواصل جلسات المؤتمر؟

قلت وأنا أتجه إلى الباب: ليس عندي وقت ... إلى متى أنت هنا؟

قالت وهي تلقي بالمنشفة جانبًا: بضعة أيام.

قلت وأنا أفتح الباب: سأراك إذن. باي.

غادرت الغرفة وهبطت إلى البهو، أدرت البصر حولي بحثًا عن الـ «كوفي شوب» فوجدته إلى يسار المدخل. كان خاليًا إلا من أوروبي يقرأ صحيفة إنجليزية باهتمام. أدركت أن فتحي صدقني القول عدما نصحني بالالتجاء إلى هذا المكان إذا شئت الانفراد بنفسي أو الهروب من شفيقة التي لزمت المنزل بسبب إصابة برد. اخترت مقعدًا في ركن منزوٍ وأخرجت من حقيبة يدي المجموعة الثانية من اليوميات.

الفصل السابع

جبال ظفار

١٩٦٥–١٩٦٨

أول مايو ٦٥

... كل شيء جرى بسهولة شديدة رغم أن الرحلة كانت شاقة، وخصوصًا الجزء الذي تم بالسيارة، فالطرق غير معبدة، كنا أربعة غير يعرب. أنا وغزال الكويتي ورفيق من البحرين وآخر عُماني. أخذنا زورقًا من البصرة وغادرناه قرب دبي بعد أربعة أيام. أرهقني دوار البحر لكن يعرب عانى أكثر مني وكان يتقيأ طول الوقت.

٥ مايو

... أقمنا يومين في الجبل الأخضر. تركنا يعرب والرفيقين البحريني والعُماني. انضم إلينا في الطريق رفيق ظفاري هو عمَّار. جدي وصارم، يبدو كبيرًا في السن رغم أنه في منتصف العشرينيات. غزال على نقيضه، سريع الانفعال لكن طبيب القلب، يدخن كثيرًا ويستخف دمه، واصلنا الرحلة بعد أن استخدمنا الطريق الذي يربط نزوى بصلالة في أقصى الجنوب ويمتد قرابة ألف ميل. وجدنا بعض الصعوبة في دخول صلالة إذ كانت البوابة الرئيسية محروسة جيدًا. نجحنا في اجتيازها مع دزينة جمال محملة بالحطب. امتدت الدروب مستقيمة ومررنا بعنقود من المباني الطينية ذات الطابق الواحد، منطقة كبيرة من النخيل، ثم مبانٍ عديدة أحدها هو السجن. به مدني إنجليزي صدم شخصًا بسيارته وهو ثمل فقتله، وسيظل في السجن إلى أن يتحدد المبلغ الذي سيدفعه لأسرة

القتيل. توزعنا على عدة بيوت، جاء نصيبي في بيت أخت عمَّار. تؤيد كفاحنا هي وزوجها الذي يعمل في مكتب الوالي.

١٠ مايو

... اجتمعنا برفيقين ظفاريين. فهد (٣٦ سنة) عريف سابق في الجيش. قبض عليه بعد محاولة اعتداء فاشلة على السلطان. هرب من سجن الحصن في مغامرة بطولية. متين البنية. حاد الطباع لدرجة الشراسة أحيانًا. يعتني بشارب كثيف يمسده بإصبعه طول الوقت. قليل الكلام. أشك في أنه يخفي خلف حدته وعدوانيته خجلًا شديدًا وخصوصًا بالنسبة للنساء. رافع (٢٨) سنة أسود البشرة ذو ملامح أفريقية. كان عبدًا.

... أعطيتهما الرسائل الخاصة بهما، اقتسمنا الريالات التي أحضرتها معي. بسطا خريطة وانحنيت فوقها. القياسات بالأميال. حولتها إلى كيلومترات كي أتمكن من استيعابها، امتدت ظفار أمامي بطول ٢٣٠ كم وبمساحة حوالي ٥٨ ألف كم مربع. تنقسم إلى ثلاثة أقسام طبيعية: سهل ساحلي يتراوح عرضه بين البحر والجبل بين ١٢ إلى ١٦ كم. منطقة جبلية تمتد على شكل هلال يطوق السهل الساحلي وتتألف من ثلاثة جبال: سمهان في الشرق، وجبل القمر في الغرب، وفي الوسط جبال القرَّا وهي أعلاها؛ إذ يتراوح ارتفاعها بين ٩٠٠ و١٥٠٠ متر فوق سطح البحر. القسم الثالث هو النجد وهو هضبة حجرية وراء الجبال تفصلها عن رمال الربع الخالي التي تقبع السعودية خلفها.

... يعيش بالإقليم قرابة ٦٠ ألف نسمة. يتألفون من ثلاث مجموعات. البدو الرحل في المناطق الصحراوية في الشمال. تنتشر قبائلهم مثل الرواشيد والعوامر حتى الربع الخالي، ثم سكان الجبال الذين يربون الماشية ويزرعون على الأمطار الموسمية. ينحدرون من جماعات إثنية عديدة ومتشابكة، يشار إليها عادة بالجباليين. ينتمون أساسًا إلى قبائل القرَّا والمهرة والشحرة. المجموعة الثالثة هي سكان الشواطئ، ويقومون بالزراعة وتربية الماشية فضلًا عن صيد السمك والتجارة.

... ينقسم السكان إلى من يعملون ومن يعيشون على عمل الآخرين. ويشمل القسم الأخير التجار والمديرين وبعض الشيوخ الأكثر غنى، أما العاملون فهم الرعاة والعبيد والصيادون والمزارعون والحمالون، وتقوم الطوائف الاجتماعية على نفس النسق. فتؤلف طائفة صغيرة من السعدة — الذين ينتسبون إلى الرسول — قمة البناء الطبقي، ويأتي بعدهم القبائل الأرستقراطية وهم قرَّا وكثير والمهرة، وأسفلهم القبائل الضعاف مثل

الشحرة. وفي القاع عبيد السلطان. تلعب ملكية الماشية — رغم أنها عائلية أكثر منها فردية — دورها في التمييز في المكانة بين بطون القبائل. يجري الحفاظ على التمييز الاجتماعي بالحيلولة دون الزواج من نساء ينتمين إلى عائلات أعلى مكانة.

... العلاقات القبلية هي التي تحكم الحياة اليومية هنا، وهي معقدة وشديدة الحساسية، بعض القبائل تمارس الحماية على قبائل أخرى تعتبر في وضع الضعيف، كما تفعل القرَّا مع الشحرة. يترتب على ذلك نتائج اقتصادية هامة فقبيلة المهرة مثلًا حصلت على حق مطلق في استخدام المياه في أراضي قبيلة البطارحة مقابل خنجر مقوس و١١ عنزة. وتشكو الجنابة من احتلال الحراسيس لأراضيها.

... يقوم شيوخ القبائل بدور حلقة الاتصال بين المواطنين والسلطة، وفي الآونة الأخيرة أصبحوا سماسرة توريد العمال لشركة البترول.

... اتفقنا على تقسيم المنطقة بطريقة تكسر حدة التقسيم القبلي، سيتولى فهد مسئولية الإقليم الشرقي (جبل سمهان) وغزال الإقليم الغربي (جبل القمر) وأنا الإقليم الأوسط (جبل القرَّا). سيبقى رافع وعمار في صلالة لقيادة النشاط السري ودعم العمل المسلح والتنسيق بين الأقاليم المختلفة.

١٣ مايو

... حلمت بالأمس أني أُحلِّق بجسدي فوق ظفار.

... المرأة في الجبال تتمتع بوضع متميز عن أختها في المدن. تحتفظ ببعض استقلاليتها لأنها تشارك في الإنتاج. المتزوجات يملكن ماشية ويرثن. بوسعهن أن يحصلن على الطلاق بسهولة ويتزوجن ثانية دون أن يتأثر وضعهن الاجتماعي بذلك. يسافرن بحرية دون أزواجهن. الرجل يشارك في الطهي والعناية بالأطفال ولا يفصل المجتمع بينهن وبين الرجال. لا توجد أفضلية لابن العم في الزواج ولا تقاليد عذرية. شيء يشبه العادات السائدة لدى قبائل دهم اليمنية. إذا وضعت الزوجة عندهم قطعة من القماش الأحمر على باب مسكنها فإن الزوج لا يجرؤ على الدخول، ولو فعل جلب العار على نفسه وأهله.

لكنهن ما يزلن محرومات من التعليم. ويتم الاتفاق على الزواج الأول (عكس اللاحق) بين الأب والعريس، ويتم تزويج الفتيات من كهول. وما يزال تعدد الزوجات سائدًا. بالمثل الختان العنيف بإزالة البظر.

... فصل الربيع من ١٢ مارس حتى ٢١ يونيو يسمونه هنا فصل القيظ.

١٨ مايو

... فقدما عنصر المفاجأة. أعلنت القيادة الخماسية في بيان لوكالات الأنباء وزِّع في بيروت عن بدء الكفاح المسلح في ظفار قبل أن تكتمل استعداداتنا. النتيجة أن دورية إيرانية احتجزت زورقًا كان ينقل السلاح والرجال ووثائق من العراق، وسلمته للسلطات البريطانية في مسقط.

١٩ مايو

... اعتقلت السلطة في صلالة أربعين مناضلًا قادمين من دبي بمجرد وصولهم إلى المدينة.

... ضربة أخرى على يد العميل سعيد بن جيج. كان قد تلقى أسلحة من السعودية، فسلمها للمخابرات البريطانية. وأبلغها بأمر سيارات قادمة من السعودية يقودها مسلم بن نوفل، فقامت الطائرات البريطانية بقصفها.

... انتفاخ في صدري. العلامات المألوفة. أكره اللزوجة وضرورة تغيير ملابسي باستمرار، ليتني كنت رجلًا.

... أعددت قائمة بمحطات الراديو ومواعيد نشرات أخبارها والموجات التي تذيع عليها.

٢٠ مايو

... تسللنا في الظلام إلى الجبال. تلقانا عدد من المناضلين، قادونا إلى موقع مؤقت. هناك كهف كبير يتسع للرجال، أحطنا مدخله بجذوع الأشجار. وعلى بعد خطوات وجدت فجوة وسط الصخور خصصتها لنفسي؛ علقت ستارة من الخيش فوق مدخلها. علقت أيضًا مرآة صغيرة في الداخل، وضعت الراديو أسفلها. صنعت وسادة من القش.

... دهشت لعدد الضفادع المتواثبة في الصحراء دون أن تكون ثمة برك مياه. ارتعبت عندما دخلت كيس النوم في الظلام وقفز أحدها مستقرًّا فوق صدري. نقيق الضفادع يجعل النوم مستحيلًا. المياه عكرة وتحتوي على حشرات صغيرة بعضها في حجم يرقات الضفادع. الذباب رهيب لا يكل. بصقت واحدة. هناك أنواع عديدة من الخنافس أحدها كبير الحجم ثقيل الوزن يطير حول الخيم وأماكن الاغتسال، لأن أجنحته قصيرة ييأس بعد قليل ويسقط على أي شيء، النمل أسود وآخر أحمر يعض عضة لاسعة، الزنابير الفخمة تظهر فجأة حول الرأس فأغوص لأتجنبها. هناك أيضًا العناكب والعقارب.

... في الصباح تجولت بمفردي حول المكان إلى أن وجدت ما أبحث عنه عند فم الوادي: منخفض صغير يحميه حاجز طبيعي من الصخور، عندما اقترب الغسق تسللت قابضة على بندقيتي وورقة من صحيفة. توقفت عند حاجز الصخور. حدقت في المنخفض الصغير مذهولة. فقد سبقني أحد لنفس الغرض، توجهت إلى مكان آخر وبعد أن أنزلت بنطلوني أقعيت فوق عقبي، لمحت عقربًا على مبعدة، قبضت بشدة على رشاش أرماليت وأخذت أتطلع حولي خوفًا من البشر والعقارب.

... اجتمعت بفهد ورافع في «غرفتي» قبل أن يغادرانا. اتفقنا على طرق الاتصال.

... سأتولى قيادة خمسة وعشرين مناضلًا مقسمين إلى خمس مجموعات. لدينا عشرون بندقية بلجيكية تعطي طلقة طلقة وخمس سيمنوف روسية نصف أوتوماتكية وقليل من الرصاص، ونحن نتحدث سمعت صوتًا غريبًا، قفز فهد واقفًا وأسرع إلى الركن، انحنى فوق الأرض ثم اعتدل، رأيت في يده ثعبانًا طويلًا (حوالي نصف متر). أمسك به من ذيله بإحدى يديه مدليًّا رأسه المفلطحة إلى أسفل، ثم مرَّ بيده الأخرى على جسمه في خفة حتى قبض على عنقه وضغط عليها حتى فارق الحياة. نظر إليَّ في زهو وقال: العدو هنا ليس بريطانيا العظمى وإنما الثعبان العظيم. قال رافع مبتسمًا: إن الثعبان من النوع الأفريقي الفحاح، وهو بطيء الحركة وذو سم قاتل.

... لم يمكنني الرعب من النوم. شغلت نفسي بالراديو. هناك أكثر من ثلاثين محطة باللغة العربية، من بكين إلى صوفيا وتيرانا وبي بي سي وصوت العرب وصوت عُمان من القاهرة، سجلت أهم الأخبار لأستخدمها في الدرس السياسي، أخيرًا أشعلت نارًا ونمت فوق كيسي دون أن أخلع البوط. تخيلت أن المكان المهدد من جسمي هو قدمي. رفعتهما فوق النار ونمت. حرقت النار البوط.

٢١ مايو

... كنت الوحيدة في ملابس عسكرية. أمرت بجمع الوحدة فاصطفوا كيفما اتفق وفي تكاسل ودون حماس. لم يكونوا يرتدون ملابس عسكرية، وهذا مفهوم. أغلبهم شبان صغار السن عراة الصدر تمامًا. لا يستر بدن الواحد منهم سوى المعوز أو الإزار الملون الذي يمتد من الخصر إلى القدمين. الأقدام عارية. القليل منهم يعلق السلاح في كتفه. وجوههم متشابهة. كثير منها أسود البشرة تمامًا. السواد الأفريقي. الأسنان صفراء

ومتآكلة. خرج صوتي ضعيفًا: انتباه. تطلعوا إليَّ ولحظت في النظرات استهانة. اعتدل بعضهم في وقفتهم. أبعد ما تكون عن الوقفة التي تعلمناها في سهول البقاع. نظر البعض الآخر مباشرة إلى صدري في محاولة لقياس حجمه، لكني كنت قد أخفيته جيدًا. فكرت أني أواجه امتحانًا حاسمًا ليس له ملحق.

استجمعت إرادتي وقلت بصوت وضعت فيه كل ما استطعت من حزم: إننا جميعا أعضاء في منظمة ديموقراطية هي جبهة تحرير ظفار، لكن منذ اليوم كلكم جنود في جيش التحرير الشعبي، وأنا قائدتكم. انتظرت لحظة متوقعة أن يعلق أحد رغم أني ما كنت سأسمح له بالاستطراد. لم ينطق أحد بكلمة.

ارتفع صوتي: جيش التحرير جيش متطوعين ومتطوعات بدون رُتب أو رواتب، لكن كل واحد منكم سينفذ ما آمر به، وليس لأحدكم الحق في المناقشة. النظام العسكري قاسٍ لكنه الطريقة الوحيدة المجربة لصيانة قواتنا وتحقيق النصر.

تحدثت بعد ذلك عن الموقف السياسي وطبيعية العدو وميزان القوى وتساءلت: هل يمكن أن نخسر الحرب؟ أكدت أننا سنربح الحرب. لا محالة، فالهزيمة مستحيلة، ومصيرنا محتوم. إما أن نموت هنا حتى آخر ثائر أو نتغلب على الصعاب التي تنتظرنا.

قلت إننا ضد الأعمال الإرهابية التافهة التي يقوم بها أشخاص مندفعون. فهي تترك حصيلة مفجعة من القتلى والضحايا دون أن تحقق أية فائدة لقضية الثورة.

أصدرت الأمر بأن يتقدم إلى الأمام ذوو الخبرة بالقتال والأسلحة. قفز أغلبهم أمامي. استبعدت من لا يحمل سلاحًا ثم تفحصت الباقين، من طريقة حملهم للبندقية ميزت ذوي الخبرة الحقيقية، اخترت منهم قادة المجموعات، وجمعتهم جانبًا، أوقفتهم أمامي وأنا أحاول أن أخفي توتري وأضغط على نفسي كي لا أهرب من النظر إلى صدورهم العارية.

صبي صغير أسود يُدعى مسرف، عمره بالكاد ١٢ سنة. تتدلى من وسطه أربع قنابل يدوية ويحمل رشاشًا في طول جسمه، واحد منهم على الأقل كان في سن أبي أو أكبر قليلًا. له لحية قصيرة بيضاء وجسد نحيل برزت عظام صدره العاري حتى الخَصْر، انتشرت على صدره ندوب غريبة الشكل. كان يمسك ماسورة البندقية بيده اليسرى مسندًا قاعدتها إلى الأرض وينظر إلى الأمام متحاشيًا النظر إليَّ، لكني كنت أشعر أنه يراقبني بطرف عينه. كان يشد قامته ليبدو في هيئة عسكرية ويترك فيَّ انطباعًا بلياقته. سألته عن اسمه. لم يبدُ عليه أنه سمعني أو فهم كلامي، كررت السؤال فهتف: علسيس.

إلى جواره وقف شاب قصير الجسم قدرت سنه بين العشرين والثلاثين بسبب صلعته. كان هناك تناقض واضح بين صدره العريق وحوضه الضيق، علق بندقيته في كتفه الأيسر وحزام الطلقات في كتفه الأيمن ونظر إليَّ بحدة، ردد اسمه: بخيت. نزعت نظراتي في صعوبة عن صدره القوي العريض الذي يغطيه الشعر، خيل إليَّ أن هناك ظل ابتسامة في عينيه. كأنما يزهو بمظاهر رجولته. شعرت بالنفور منه.

معوزا الاثنين من لون أحمر باهت وتزينهما زخارف موزعة في مربعات متساوية. بخيت يرتدي حزامًا للخراطيش حول خصره، خطر لي خاطر أزعجني: ماذا لو سقط المعوزان فجأة؟ كنت واثقة أنه لا يوجد أسفلهما لباس من أي نوع. شعرت بالدماء تندفع إلى وجهي.

الثالث — حمد — أصغر سنًّا بالتأكيد بسبب شعره الكثيف الذي أحاط بوجهه، كان أطول من بخيت لكنه لم يكن مفتول العضلات مثله. علق بندقية في كتفه الأيمن وأراحها خلف ساعده. أحاط رقبته بكنزة صوفية ولف حول خصره حزام الطلقات. كانت جوبته زرقاء اللون بمربعات مزركشة وتمتد من خصره حتى قدميه بعكس رفيق آخر وقف في طرف المجموعة، جوبته تنتهي عند ركبتيه وتذكرني بتنوراتي القصيرة. انتبهت إلى أن الأخير (عبد الله) هو الوحيد الذي يرتدي قميصًا كاكيًّا مفتوح المصدر يكشف عن جسم هزيل مجرد من الشعر. عروق رقبته بارزة. يبدو وادعًا مستكينًا. لم أتمكن من تحديد سنه وكان يقف ملتصقًا بالرفيق الأخير. أطول الخمسة بل أطول الموجودين. متين البناء في معوز أسود يتدلى من خصره أسفل السرة حتى يكاد يلمس الأرض. ساعده الأيسر القوي الذي لفحته الشمس مثني فوق صدره ليستقر على البندقية التي حملها بساعده الأيمن. عضلات قوية نافرة، الوحيد الذي يحمل ساعة في معصمه، لحيته خفيفة لا تتصل بشاربه الأسود، شعرات بيضاء في فوديه. قدرت سنه فوق الأربعين. كان ينظر إلى أعلى فوق رأسي متجنبًا النظر إليَّ مباشرة كأنما يريد أن يقول إنه لا يعبأ بهذه الشكليات، وإنه يعرف كيف يقاتل عندما يحين الجد وهو يشك في أني — قائدتهم — أعرفه. اسمه سويد.

قلت إن المهمة الأولى أمامنا هي النظافة ومكافحة الذباب والبعوض أو النامس كما يسمونه، وإقامة مرحاض مؤقت لاستخدامي من جذوع الأشجار والأعشاب بعيدًا عن الكهفين ويكون معرضًا لتيار الهواء. أما الآخرون فيجب أن يبحثوا دائمًا عن أماكن بعيدة، ثم يحرصوا على دفن المخلفات جيدًا. أمرت بإطفاء أي نيران وتغطية الجمر المتقد بالتراب كي لا يستدل العدو على مكاننا.

٢٢ مايو

... تركت جماعة من ستة رفاق للحراسة تحت قيادة سويد، وقدت الباقين في مسيرة تدريبية وسط الجبال هدفها اختبار قوة تحملهم وانضباطهم، وأيضًا استكشاف المنطقة.

فرضت على رجالي الصمت التام أثناء السير، يتم نقل الأوامر بالإيماء أو الهمس، حسب القواعد كنت أسير في الوسط. كنت أرتدي البوط المحروق. ومع ذلك كنت أتحرك بصعوبة وسط الصخور أما هم الحفاة فكانوا يتنقلون في رشاقة ويسر.

سِرنا بلا توقف عدة ساعات عانينا خلالها من حرارة الشمس، مررنا ببضعة بيوت مبنية من الحجر تستعمل كحظائر للماشية عندما يغادرها أصحابها في الشتاء للسكنى في الكهوف هربًا من الرياح الشمالية اللاذعة. تركنا الوادي وتسلقنا ٥٠٠ قدم إلى منطقة صخرية عالية وشديدة الانحدار. مروج صفراء يصل فيها ارتفاع القش إلى خصر الإنسان. أجمات متناثرة من أشجار عملاقة سقطت أوراقها. خلفنا وتحتنا البحر الأزرق وحولنا تتدرج الصخور المغطاة بالغابات. الفراشات والنطاط والجراد ... فجأة وادٍ جميل يتخلله نبع. شجرتان من التين البري.

ثلاث ساعات من التسلق جعلتنا عطشى، التقينا بعدد من الرعاة مع أغنام غريبة الشكل تتميز بإليات رفيعة تشبه الذنب وصوف قصير أقرب إلى الشعر، ورءوس دقيقة تشبه رءوس الغزلان في تكوينها وفي جمال عيونها والتفاتاتها.

وجهنا التحية إلى الرعاة بسؤالهم عن الأخبار: خُبور؟ ردوا علينا: خُبور خير، لم يبدُ عليهم أنهم استغربوا وجودنا. لكنهم أيضًا لم يرحبوا بنا. كانت هناك بضع خيام استلقت إلى جوارها عشرات الجمال تحت الشمس وتركت للطيور التقاط ما في جلودها من حشرات.

استرحنا إلى جوار عجوز سافرة الوجه صبغت وجهها بطلاء أصفر وأخضر وضعته أيضًا فوق ساعديها وعنقها. ارتدت ثوبًا فضفاضًا أسود، وعصبت رأسها بقطعة قماش تدلى طرفاها فوق كتفيها. قدمت لنا وعاء من الخزف امتلأ لحافته بلبن ناقة ذي رغوة، جاء شاب فقبلها فوق خدها الأيمن ثم الأيسر ثم فوق رأسها وعلى صدرها وتطلع إلينا في جمود. لمحت زريبة لا يزيد طولها عن قامة إنسان ولها فتحة ضيقة لن يمر منها إلا زحفًا فوق بطنه، أرضيتها مفروشة بالقش وليس بها موقد للطبخ إنما بعض الأوعية المصنوعة من عيدان القصب لحفظ اللبن والعسل أو الزبد.

سِرنا مرحلة تحت أشجار السقام الوارفة الظل التي تنبت دون زراعة. ثمرها يصلح للأكل عندما تنفد المؤن.

عدنا في نهاية اليوم. كان بعضهم متهالكًا من شدة التعب، شعرت بالنشوة لأني كنت في حالة جيدة. عينت مجموعة للطهي انهمكت في إعداد وجبتنا اليومية الوحيدة المكونة من الأرز واللوبيا. منعت إشعال النيران قبل أن يحل الظلام كي لا يكشف الدخان موقعنا.

عندما دخلت غرفتي فوجئت باختفاء الراديو. وجدته في الكهف الكبير مع سويد. قضت مجموعة الحراسة الوقت في الاستماع إلى الأغاني، عنفتهم بشدة. أكدت على أن الراديو هو وسيلتنا الوحيدة لمعرفة ما يجري بالعالم. شرحت أهمية الاقتصاد في استعماله للحفاظ على البطاريات، وعدت بتخصيص ساعات معينة للاستماع إلى الأغاني عندما يتوفر لنا احتياطي من البطاريات.

٢٣ مايو

... عضلات فخذي تؤلمني من أثر مسيرة الأمس، مرت بي ليلة صعبة. استعصى النوم عليَّ. أخذت أستعرض وجوه المقاتلين وأستعيد ما جرى بيني وبينهم من أحاديث. وبين اللحظة والأخرى يتراءى لي صدر بخيت العاري ووجه سويد المستخف.

خرجت من كيسي فهاجمني البعوض بشدة. أشعلت شمعة فهاجمني الذباب. أخرجت كتاب حرب العصابات لماو تسي تونج، وكتابًا مماثلًا لشي جيفارا و«حرب الشعب وجيش الشعب» للجنرال جياب. أخذت أتصفحها وأنا أهش الذباب بينما يدور سؤال وحيد في رأسي: كيف يمكن تحويل هؤلاء البدو المتحمسين إلى مقاتلين ثوريين؟ كيف يمكن إقناع هؤلاء الذين لم يعرفوا نظامًا في حياتهم بمعنى النظام والدقة والوقت والانضباط؟ كيف يمكن إقناعهم بضرورة غلي الحليب؟ والأهم من كل ذلك إقناعهم بأن ينقادوا لامرأة. وكيف يمكن النفاذ إلى قلوب أهل الجبل.

... اصطاد أحد المقاتلين تيسًا جبليًّا عجوزًا. طعم لحمه كريه كرائحته. سلقناه وتركت لسويد مهمة توزيعه، قسمه إلى خمس حصص متساوية. أخذت كل مجموعة حصتها وبدأ توزيع جديد، ثارت مشكلة في المجموعة التي يرأسها مسرف، أكد أحد أفرادها أنه غُبن في حجم نصيبه. تدخل سويد لفض الخلاف وتولى بنفسه التوزيع. تناول خمسة عيدان من القش وأطلق اسمًا من أسماء أفراد المجموعة على كل عود. أدار ظهره ووضع عودًا على كومة لحم وقال هذه لأفضل واحد فيكم. وضع عودًا ثانيًا على كومة أخرى وقال هذه للأسوأ. ووضع ثالثًا وقال هذه لمن لا يستيقظ مبكرًا، ضحك الجميع وخف التوتر، انضممت إلى هذه المجموعة وتحلقنا حول طبق الأرز وأمام كل منا

حصته من اللحم، ما زلت أجد صعوبة في تناول الأرز بالطريقة السائدة رغم أني كنت أجيدها في طفولتي. أمد يدي اليمنى مداورة وأكور كمية في راحتي ثم أرفعها إلى فمي وأدفعها داخله بأصابعي. ألقيت محاضرة سياسية بعد الطعام عن الاستعمار والاستعمار الجديد. تحدثت عن نضال الشعوب وانتصاراتها. ذكرت مسيرة بريستوس (فارس الأمل) في البرازيل وماو تسي تونج في الصين. سألتهم إذا كانوا سمعوا عن الصين. قال علسيس إنها بلاد الواق واق. سألته عن السبب في هذا الاسم قال لأن بها شجر تشبه ثمرته صورة الإنسان. فإذا اقتطفت الثمرة قالت: واق. لم أشأ أن أجادله وواصلت حديثي، تحدثت عن النظام ومخاطر عدم التقيد به. وعن واجب العناية بالسلاح الشخصي وتنظيفه باستمرار وعدد الطلقات النارية والحرص على ألا تضيع منها واحدة وعدم التفريط في السلاح. وعن احترام الأخلاق الثورية، ثم ركزت على مكافحة الذباب بأن ندفن فضلاتنا في أماكن بعيدة ونحرقها أولًا بأول. شددت على أن التمرد والفرار والانهزامية جرائم عقوبتها الإعدام. قلت إن تناول القات ممنوع.

تفقدت المهمات والمواد الضرورية الكافية لحياتنا وكل ما يلزم للنوم والأشغال والطبخ. وجدت المياه شحيحة، فأصدرت أمري بأن تخصص للشرب فقط، وألا تستخدم في النظافة أو الاستحمام إلى أن نحصل على المزيد من أقرب بئر. لاحظت أيضًا أن الملح قليل، وتأكدت من وجود كفاية من السكر، وأخيرًا صرفتهم بعد أن انتقيت جماعة خاصة بالحراسة على أساس ساهر واحد لكل خمسة نائمين. التجأت إلى الكهف المخصص لي. أسدلت الستارة وأدرت الراديو. أشعلت شمعة. أزَّ النامس في أذني. كنت أشم رائحة عرقي وأشعر بالتصاق ملابسي بجسدي. تمنيت لو كان بإمكاني الاستحمام وغسل شعري ثم التعطر بشانيل ٥. التقطت بي بي سي، وبدأت أدون أخبارها.

سمعت صوت حديث فأطفأت الشمعة وأغلقت الراديو وغادرت كهفي. كنت قد نبهت على ضرورة الهجوع والنهوض بساعات محددة وأصدرت إشارة النوم. ثار غضبي عندما رأيت عددًا من المقاتلين قد أشعلوا نارًا عند مدخل الكهف الكبير وتحلقوا حول بخيت ينصتون إليه وهو يروي لهم شيئًا بلهجة لم أتبينها. كفوا عن الحديث وتطلعوا إليَّ في صمت. لم يتحركوا من أماكنهم ولم يفكروا في الوقوف. حاولت أن أتبين اللغة. ليست الحميرية التي أعرف بعض ألفاظها (على الأقل أعرف كيف أعدُّ من طاد أي واحد إلى تسعيت وعشروت) أو الأمهرية القريبة الشبه منها، والتي يتكلمها أهل حضرموت، ولا البطحرية التي يتكلمها أبناء قبيلة البطاحرة. سألني بخيت عما إذا كنت في حاجة

إلى شيء. هززت رأسي نفيًا. قال: لا بد أن الأمور صعبة عليك، قلت: لأني فتاة؟ لم يرد واستقرت عيناه الحادتان على صدري. شعرت بالدماء تندفع إلى وجهي وأنا أتامل انعكاس وهج النيران على صدورهم العارية. هبت نسمة باردة فسرت في جسدي قشعريرة وضممت ساعدي فوق صدري. قلت بصوت محايد: إلى النوم يا رفاق. انتظرت حتى نهضوا متكاسلين ثم مشيت إلى كهفي. خلعت حذائي وأنا أتجنب التقاط رائحة قدمي، ثم نزعت القميص العسكري وأنا أرتجف من البرد، بسطت كيس النوم البلاستيكي فوق الأرض وتكورت داخله.

٢٤ مايو

... ثارت اليوم زوبعة مفاجئة. تغطي السهل بالأتربة. رأيت بخيت يتأمل العاصفة واجمًا، قال إنها معارك الجن التي تحدث هذه الزوابع. أبديت استنكاري. قال: انظري إلى شكلها. تأملت الزوبعة، مخروطية الشكل تتثنى وتتلوى كالراقصة. قلت له إن هذه خرافات من ابتداع الرجعيين، وإن العلم ... إلخ. امتعض من حديثي ولزم الصمت. حاولت أن أغيِّر الحديث، سألته عما كانوا يتحدثون فيه بالأمس حول النار. قال: عن الساحرات وكيف يتقمصن الإنسان والنساء بالذات. روى قصة شخص يعرفه كانت أمه وشقيقاته يكرهنه. اتفقن على أن تغير إحداهن شكلها إلى ثعبان وتعضه. ودار هذا الحديث أمام قطة كانت في الحقيقة جنية متنكرة تحب الرجل. فقامت بقتل الثعبان المسحور. لم أعلق. أيتصورني ثعبانًا أم قطة؟

... اثنان من المقاتلين كانا يخدمان في الجيوش الإنجليزية بالخليج، أحدهما كان شرطيًّا في قطر وساهم في قمع انتفاضة ١٩٦٣ بها.

... البعض من صلالة نفسها. الأغلبية من أهل الجبال، وبعضهم من قرى قريبة من موقعنا، بين هؤلاء كثير من المتزوجين على عكس القادمين من المدينة.

٢٥ مايو

... استيقظت مع ضوء الفجر. نهضت في صعوبة، إسهال. هل أصبت بميكروب ما؟ هل نغلي المياه؟ أخذت حبتين انتروفورم. قررت أن أغسل أسناني خفية بمعجون وفرشاة ثم تراجعت. لا يُعقل أن أحل لنفسي ما أحرمه على الآخرين. عندما خرجت من كهفي لمحني

أحد المقاتلين ذوي الملامح الأفريقية. فوجئت به يرفع يده إلى رأسه بتحية عسكرية عنيفة ويصيح: جود مورنج سير. ظننت أنه يسخر مني ثم تبينت أنه يعبر لي عن أقصى درجات الاحترام والتقدير. كان يعمل في ميس الضباط الإنجليز بالقاعدة الجوية.

... أقمنا أهدافنا قريبة وبعيدة تمثل الجنود الإنجليز. أجرينا عليها تمرينات رماية، ثم أريتهم كيفية إسناد زجاجة مولوتوف إلى البندقية، ولم يكن أحد منهم يعرف هذه الطريقة. استمتعت بذلك.

... أرسلت دوريتين للاستكشاف وجمع الأخبار وتحديد الأماكن الصالحة لعمل كمائن. أرسلت أيضًا دورية خاصة لإحضار الماء في قرب.

... لا بد من تدريب دقيق: مسيرات مضنية ليلًا ونهارًا تزاد فيها المسافة كل مرة حتى نصل بهم إلى حافة الانهيار.

... تعرضت لموقف سخيف اليوم. كنت عائدة من زيارة كشك المرحاض الذي أقمناه على مبعدة نصف كيلومتر وبدأت أطوي كيس النوم لأضعه في حقيبتي بعد أن تمت تهويته. ما إن فتحت الحقيبة حتى قفز شيء في وجهي. صرخت فزعة وتبينت بعد لحظة ضفدعًا يقفز هاربًا. شككت أن واحدًا من الشباب هو الذي فعلها. خطر لي بخيت فهو يلاحقني بنظرات غريبة لا أستطيع تفسيرها. هل غضب من حديثي عن الجن؟ قررت أن أتجنب الحديث إليه مباشرة أو على انفراد.

... ما زال سويد ينظر إليَّ بنفس الطريقة المتعالية.

... عند عودة الدورية الأولى وجدت قدم أحد أفرادها غارقة في الدماء. تورمت نتيجة لدغة ما فغمسها في دم عنزة ذبحتها جماعة من الرعاة. رفض أن أقوم بتطهيرها كما رفض أن يتناول أي دواء قائلًا إن دم الغنم يشفي كل الأورام.

٢٧ مايو

... لم تتحسن قدم المقاتل. أقنعته بأن يأخذ مضادًّا حيويًّا وقمت بتطهير مكان الورم.

... يتألف سلاح الجو السلطاني من أربع فرق تتميز بألوان أغطية الرأس: بيريه أحمر لفرقة مسقط، وأخضر ورملي لفرقة الصحراء، ورمادي لفرقة الجبل. لكن الجميع يرتدون أثناء العمليات غطاء رأس من القماش بألوان الأخضر والأسود والمارون. أغلب الجنود من بلوخستان وأغلب الضباط من الإنجليز مع بعض الآسيويين والعرب.

... سمعت مقاتلًا يشجع رفيقًا له بكلمة غريبة: شوباش. اكتشفت أن بيننا عددًا من البلوش ذوي الأصل الهندي أغلبهم من العمال: جمعة الذي لا يتجاوز عشرين سنة وماتت

زوجته الأولى أثناء الولادة، وهو في سن ١٥، تزوج أخرى وأنجب ولدين. محمد الذي تزوج أيضًا في الخامسة عشرة، وخميس الذي ولد عبدًا من ٣٠ سنة وهرب في الرابعة عشرة من عمره إلى مسقط حيث تم تحريره. تزوج منذ ست سنوات وله ولد وبنت.

٢٨ مايو

... أمرت بتجريد واحد من سلاحه لعدم إطاعة الأوامر.

... ليس بوسعنا أن نعاقب أحدًا بالسجن. عندما يكون الذنب خطيرًا يمنع الطعام عن المذنب يومًا أو يومين. ممنوع بتاتًا إنزال عقاب جسدي بأي رفيق.

... انتهزت اليوم فرصة وأشرت في الحديث السياسي إلى موضوع الجن. قلت إني شخصيًّا لا أومن بوجودهم، لكني أحترم رأي من يفعل. شعرت أن بخيت استراح.

... سألت الكهل عن موطنه فقال إنه من بيت هندوب في الغرب. ترك زوجته وأولاده هناك، خَطَرَ لي أن أستفسر عن السبب الذي حدا به للانضمام إلينا. قال على الفور وهو يبتسم: لاستعادة الكرامة والشرف. سرت في وجداني مشاعر الفخر، ثم شعرت بعدم الارتياح، بدت إجابته معدة كأنما كررها من قبل، وماذا في ذلك؟ وجهت نفس السؤال إلى سويد. فابتسم ابتسامته الساخرة وقال: أنا هارب من الضرائب. هل يسخر مني أم هذه هي الحقيقة؟

٢٩ مايو

... على بعد ٢٥ كيلومترًا شمال صلالة صخرة تطل على بحيرة عميقة تتردد فوقها نداءات الطيور. لا بد أن أستحم بها في يوم من الأيام. أفضل وقت الاستحمام بمياه دافئة هو عند الغروب.

... شفي المقاتل الذي أصيبت قدمه. اقتنع بفائدة العلم الحديث. انتهزت الفرصة وحدثته طويلًا عن الخرافات.

... أثناء تمرينات الرماية لاحظت أن سويد مرتبك، تعطلت بندقيته الأرماليت وحار في كيفية إصلاحها. أدركت المشكلة على الفور. كان قد ملأ خزانتها بأكثر من طاقتها، قلت له: هناك شيئان يجب الانتباه لهما بالنسبة لهذه البندقية: الأول لا تعمر خزانتها

بأكثر من ١٧ طلقة، وإلا ستجد الأجزاء العاملة بها عاجزة عن الانطلاق، الثاني هو أنها قد تتعطل إذا انفصلت حافة الطلقة وهي ما تزال في الماسورة، في هذه الحالة تدفعها إلى الخارج بعود من المعدن. أريت كيف يفعل. بدا خجلًا من جهله. أما أنا فكنت سعيدة.

... وقع حادث مزعج في المساء. كنت أنصت إلى نشرات الأخبار بالراديو عندما دوى طلق ناري عن قرب. أسرعت إلى مصدر الصوت فوجدت بخيت ممسكًا بمسدس وحمد يحاول انتزاعه منه. قال بخيت إنه كان ينظف المسدس عندما انطلقت منه الرصاصة خطأً. أمن حمد على حديثه، شيء ما في لهجته وتعبير وجهه أثار ريبتي. تناولت المسدس من يده وقلبته فوق راحتي، ماكاروف عيار ٩ ملم. لم تكن النقطة الحمراء في جانبه الأيسر مغطاة. أي إنه لم يكن مؤمنًا. هل كانا يتشاجران؟

٣٠ مايو

... لم أتمكن من المقاومة. استسلمت للإغراء. تسللت بعد الغروب إلى البحيرة، خلعت ملابسي وقفزت إلى المياه. روعة. شعرت بحركة على الشاطئ غمرت جسدي كله في المياه. كان سلاحي على الشاطئ فوقي ملابسي. هناك جسم ما عندها، إنسان أم حيوان؟ عدو أم صديق؟ بقيت في مكاني دون حركة. لم يتحرك الجسم الغريب أيضًا. عمت نحو الشاطئ فابتعد الجسم الغريب. ارتديت ملابسي بسرعة. شعور غريب راودني بأن هناك عيونًا ترقبني. جاسوس؟ عابر سبيل؟ وأخيرًا واجهت الخاطر الذي أرعبني: أحد رجال فرقتي؟

٣١ مايو

... وجدت رسغي متورمًا عندما استيقظت. لم أتمكن من إطباق قبضتي أو استخدامها. عند انتصاف النهار برز الوريد في لون أحمر قانٍ انتشر بالتدريج حتى إبطي، لا بُدَّ أن شيئًا ما لدغني دون أن أشعر. أخذت مضادًّا حيويًّا.

أول يونيو

... بدأ ذراعي في التحسن. اللون الأحمر للوريد يتراجع. هناك حشرة تسمى الظفر تسبب لسعتها تورمًا وحكًّا لعدة أيام.

... ينتمي بخيت وحمد إلى بيتين متنافسين من قبيلة آل كثير.

٢ يونيو

... عقدنا المؤتمر الأول للجبهة الظفارية في الوادي الكبير بظفار الوسطى. مؤتمر ناجح. بلا خلافات واضحة. الجميع متحمسون. قررنا بالإجماع أن يبدأ الكفاح المسلح فورًا. انتُخبنا أنا ورافع وفهد وعمار وغزال في قيادة من ١٨ شخصًا بينهم يوسف بن علوي.

... من بيان المؤتمر إلى الشعب العربي في ظفار: «... لقد قامت طليعة ثورية منك آمنت بالله وبالوطن ... وأن حكومة السلطان سعيد العميل قد استأجرت جيشًا من المرتزقة الشعوبيين ... لكن الإرادة الحرة التي تستمد إرادتها من إرادة الله سوف تنتصر على هذا الجيش الشعوبي الحاقد ...»

... الجبهة مسئولة عن إعاشة المقاتلين. تمدهم بالطعام والملابس والسلاح ووسائل الانتقال. يحصل كل مقاتل أيًّا كان وضعه أو مستواه القيادي على عشرة دنانير في الشهر كنفقات شخصية نثرية. تنازلت عن نصيبي، شجعت أفراد كتيبتي على أن يحذوا حذوي. ليست هنا مقاهي أو سينمات يمكن الإنفاق عليها! الوضع المالي جيد بفضل تبرعات الأنصار في دول الخليج.

٤ يونيو

... قسمت قواتي إلى ثلاثة أقسام؛ قسم يبقى في المعسكر لحمايته، وقسم يقوم باستطلاع الموقع البريطاني في طريق حمرين، جعلت سويد على رأسه. أخذت القسم الباقي لاستطلاع مطار القاعدة البريطانية.

... كانت الليلة حالكة الظلام بلا قمر، هبطنا من الجبل دون أن يشعر بنا أحد. كنا سبعة أفراد، تقدمنا في خطى زجزاجية في حذر. توزعنا حول القاعدة ورقدنا في الرمال. وضعت المنظار واللاسلكي جانبًا وأخذت أستخرج الرمال من تحتي وأكومها حولي. فجأة شعرت بحركة على مقربة. عشرات من السراطين تحاول مشاركة حفرتي. زحفت إلى أعلى الكثيب لأتمكن من رؤية أفضل، جمعت كتلة من العشب دفنت فيها رأسي ورفعتها إلى أعلى ببطء. لم أرَ شيئًا. رقدت مرهفة الحواس، بعد ما بدا ساعات سمعت صوتًا إلى يساري، تكرر الصوت، عدت إلى حفرتي بين السراطين، رفعت الـ «إف إن» إلى كتفي.

تنبهت فجأة إلى أن البندقية ليست معمرة، فهي تخلو من صمام أمان. لم أقم بتعميرها كي أتجنب أي حادثة في الطريق المليء بالحفر، لو فعلت الآن سيسمعني من هو هناك ويتعرف على الصوت. لم يكن أمامي غير أن أنتظر حتى يكشف عن نفسه وعندئذٍ أقوم بتعمير البندقية وأصوب وأطلق بأسرع ما أستطيع. صوبت على قمة الكثيب وقبضت على مقبض الزناد الثابت بيدي اليسرى. كنت مستعدة. سأطلق زختين ثم أتدحرج يمينًا. ازداد إحساسي بثقل البندقية. فجأة أحسست بحركة. دققت التصويب وأنا أنصح نفسي بالصبر حتى يكشف عن نفسه أكثر ويكون التصويب أفضل. كنت على وشك إطلاق النار عندما قفز شخص فوقي واضعًا يده على فمي، انتزعت نفسي في غضب من أحضان بخيت. وضع إصبعه على فمه. انكمشنا متلاصقين كان فخذه عاريًا أسفل المعوز القصير، انتقلت حرارته إلى جسدي، صلبت ساقي في محاولة لإبعادها عنه لكن ضيق المكان لم يسعفني وآلمني ظهري. أخيرًا تركت ساقي تستريح إلى جوار ساقه. ظللنا متلاصقين حتى بزغت الشمس صعدت إلى قمة الكثيب مرة أخرى. احتميت بكتلة العشب. وجهت المنظار إلى القاعدة. سور من السلك الشائك، البوابة الرئيسية تحرسها شرطة عسكرية من الإنجليز والآسيويين مسلحة برشاشات سترلنج يرتدون بيريهات ذات لون رملي، بعد السلك بمائة ياردة مدفعان زنة قذائفهما ٢٥ رطلًا تحيط بهما براميل سعة ٤٠ جالونًا. ممر الهبوط غير مرصوف أمامه وإلى يمينه خنادق دائرية كبيرة. منطقة مسورة بأسلاك شائكة يحرسها جنود محليون يرتدون بيريهات حمراء فاقعة. براميل بترول فارغة حول طائرات سترايكماستر النفاثة وطائرات النقل سكاي فان.

أعطيت الأمر بالانسحاب في منتصف النهار. عاد سويد ومجموعته قبل الغروب. سجلت ملاحظاتهم.

... تجنبت بخيت أثناء العشاء. استعصى عليَّ النوم مرة أخرى. تقلبت عدة مرات. كانت أحشائي تغلي، وضعت وسادة بين فخذي وضغطت عليها. استعدت اللحظات التي احتضنني فيها بخيت. ثرت على نفسي. تقلبت مرات أخرى. تذكرت وجه رشدي ونظراته الوالهة وعماد وأشعاره، شهاب والمرة التي ثمل فيها وقال إنه يعبدني، استعدت موقف البحيرة، تخيلت أن بخيت وآخرين كانوا يرقبونني عارية. حاولت أن أتذكر قولًا لجيفارا: على الثوري الذي يستعد في السر لخوض الحرب أن يكون ناسكًا مكتملًا. هل كان يقصد أثناء العمل السري في المدينة تحضيرًا لحرب العصابات أم خلالها؟ وماذا لو استمرت هذه الحرب شهورًا وسنوات؟

٦ يونيو

... صعد إلينا من صلالة اثنان من الرفاق حاملين كميات من المؤن والذخيرة (بينها عدد من الألغام الأرضية مسروقة من المستودعات الإنجليزية) وعدة صحف عربية قديمة وعدد من التكليفات. حدثونا عن المؤتمر الأول لـ «الجبهة القومية للجنوب اليمني» الذي انعقد في تعز. عكس الخلافات القائمة حول عدد من القضايا مثل الموقف من المشايخ والسلاطين ومن وصاية المخابرات المصرية. أصدر المؤتمر ميثاقًا حدد أن الجنوب يمر بمرحلة تحرر وطني تليها مرحلة بناء اجتماعي على طريق الاشتراكية. القوى هي العمال والفلاحون والجنود والمثقفون الثوريون والطلبة. ولم يكتفِ الميثاق بعدم إدراج البرجوازية في عداد القوى المحركة للثورة، بل إنه أدرجها من جبهة الأعداء، علق أحمد الرفيقين ساخرًا بأن واضعي الميثاق لا يفهمون الاشتراكية التي تبنوها. قال إن اليساريين طرحوا على قيادة الجبهة ٣٨ مطلبًا، وصمموا ألا يبرحوا إلا بعد الموافقة عليها، ومن بينها عقد مؤتمر ثانٍ في يناير القادم.

... ناقشنا نتائج الاستطلاعات التي قمنا بها.

... الصحف حافلة بتكهنات متباينة عن مصير جيفارا وخسائر القوات الأمريكية في فيتنام. أزمات عديدة في مصر: الكراريس، والسجاير، والكبريت، والفكة، والمواصلات.

... ليست هناك أنباء من يعرب.

٧ يونيو

... تحدد بعد الغد للهجوم.

٩ يونيو

... بدأت الثورة في ظفار.

... قدت الهجوم على طريق حمرين. كنا جميعًا متوترين نتصبب عرقًا.

حاولت قدر الإمكان أن أخفي اصطكاك ركبتي، أصدرت الأمر بفتح النار على الموقع، أطلق الإنجليز صاروخًا أضاء المنطقة، فظن المقاتلون أنهم انكشفوا فأوقفوا هجومهم وهربوا. لحقت بهم وقلت لهم إنهم إذا واصلوا الهرب سيتعرضون لمحاكمة عسكرية. ترددوا، عندئذٍ تركتهم وعدت إلى موقعي وأطلقت النار. لم يرد الإنجليز بنيران مضادة.

لمحنا سيارات مسرعة تغادر الموقع. أطلقت مزيدًا من النيران، تبينت بعيد قليل أن الإنجليز تركوا الموقع وهربوا. أدرك جنودي ذلك فعادوا على الفور. شعرت بروح جديدة تدب فيهم. انكسرت هيبة العدو.

... تهورت وأمرت بصرف علبة بولوبيف لكل مجموعة على العشاء.

... سيكون هذا اليوم هو عيد ميلادي الحقيقي.

١٠ يونيو

... السيارات البشرية: الجباليون الذين يجوبون الجبال بسرعة خارقة تختلف عنا نحن أبناء المدن، جاءونا بالأنباء في الصباح. قامت مجوعة ثانية بقيادة فهد بنسف شاحنة بترول تابعة للشركة الإنجليزية، وقادت الثالثة هجومها على حصن الوالي في بلدة طاقة. تأكدنا من النبأين في المساء عن طريق الراديو.

... قررنا أن نزرع شجرة لبان بهذه المناسبة في موقع معسكرنا. تحتاج عشر سنوات قبل أن تعطي.

... أراد المقاتلون أن يكرروا احتفال أمس فمنعتهم في حزم. لاحظت اختفاء مسرف. عاد مبتسمًا قبل موعد العشاء يحمل عدة طيور وعصافير. أراني كيف اصطادها: أعد حفرة صغيرة وضع بها حفنة من الأرز ثم ثبت قطعة مسطحة من الحجر فوق الحفرة بأعواد من البوص بطريقة تجعلها تسقط عند أية حركة، أعددنا من الصيد وجبة شهية في صندوق التموين الحديدي.

١٢ يونيو

... اتفقت مع مسرف على أن يعلمني اللغة الجبالية وأساعده في إتقان العربية. حصيلة اليوم قليلة: تث هي المرأة وغيج الرجل. بول هت: كيف الحال. من هولن هت: من أين أنت؟ هت تعني أنت للمذكر وهيتي أنتِ للمؤنث، أما التحية فحسب الأوقات: يول صباحك تعني كيف أصبحت أو كيف حالك هذا الصباح. يول غمدك تعني كيف أمسيت أو كيف حالك هذا المساء. الولد بيرء. اذهب الغا. البنت أغا بجوت. الماء مه، ويقول الرعاة عندما يسقون الجمال: ألون هك، أهير بك، أي تعالوا يا جميلاتي، اشربوا كفايتكم.

... لا بد من مكافحة الكسل بمهام عديدة.

... في البداية نفتقد إلى صفات الصبر والجلد والمثابرة التي يبلورها النضال. إلى وعي أيديولوجي واضح.

١٤ يونيو

... غدًا سنهاجم المطار البريطاني الذي سبق استكشافه، سآخذ معي عبد الله وحمد.

١٥ يونيو

... اقتربنا من المطار قبل الفجر. تجنبنا البوابة الرئيسية. تسللنا من ثغرة أحدثناها بالسلك الشائك. هدفنا هو الطائرات الرابضة فوق الأرض. اكتشفنا أن ما خلناه خنادق دائرية تحيط بممر الهبوط ليس سوى دشم دفاعية منفصلة ومتباعدة، أشرت لرفيقيَّ أن يتكفل كل واحد منهما بإحداها، بينما أتجه أنا إلى الطائرات. زحفنا في خفة، انفجرت القنابل اليدوية التي ألقاها رفيقاي في دوي هائل أعقبه على الفور سيل من نيران العدو، اندفعت في خط متموج نحو أقرب دشمة وقفزت داخلها. كان هناك جندي يرقد على ظهره والدماء تغطي وجهه. تحاشيت النظر إليه. لم أجد القدرة على محاولة التأكد من مصرعه ولا على معرفة جنسيته. انطلقت زوبعة من النيران من المواقع الأخرى. أنصت وأنا أرتعش. دوى انفجار ضخم عند حافة الحفرة. قذيفة مدفع، أحد المدفعين اللذين يبعدان عن السلك الشائك بمائة متر. مزق الرمل اللاذع وجهي ويدي. تتابعت القذائف، لو استمرت سيستحيل علينا مغادرة المكان ويتمكنون من تطويقنا. لا بد من إسكات مصادر النيران. غامرت برفع رأسي إلى أعلى. تبينت المدفع بسهولة. رفعت بندقيتي إلى كتفي وثبت منظارها على المدفع. أطلقت النار. أخطأته. يبدو أنه لم يشعر برصاصتي. أدركت من حركاته أنه يدير فوهة المدفع نحو مصدر النيران التي يطلقها حمد، حاولت ثانية فأخطأته أيضًا. جاهدت كي أجمع شتات نفسي. أرغمت جسمي على الانصياع: شهيق ... زفير ... انتباه ... ضغط خفيف متواصل. انطلقت الرصاصة وسقط الرجل، بدأت أرتعش. تقيأت، لم أدرِ بنفسي أثناء انسحابنا.

١٦ يونيو

... لا أستطيع أن أنسى وجه الجندي المغطى بالدماء داخل الحفرة. ولا رأس المدفعي الذي أصبته ببندقيتي. إنها المرة الأولى التي أريق فيها دماء شخص آخر. كنت أتصور أنها

عملية سهلة. أتمنى لو نجيا من الموت. نحن لسنا قتلة. لكنهم يرغموننا على أن ندافع عن أنفسنا. إما نحن أو هم.

١٨ يونيو

... الصباحات المبكرة والليالي صارت باردة تمامًا. خلال شهور الأمطار يتم إطعام الماشية بالسردين المجفف، تتصاعد عفونة السمك المتعفن من كل مكان في الكهوف والأكواخ.

... بعد ظهر أمس تجمعت سحب العواصف السوداء في السماء ناحية الجنوب، اقتربت منا بسرعة. في المساء كان المطر لا يزال يتساقط. عندما عدنا إلى المعسكر وجدنا الرفاق قد أشعلوا نارًا. جلسنا قربها نجفف ملابسنا. اشتد سقوط المطر. كنا نرفع أصواتنا أحيانًا لنسمع بعضنا البعض. تردد صوت الرعد مثل طلقات مدفع. أضاء البرق المكان لمدة ثانية مجمدًا كل شخص وكل شيء في مكانه قبل أن يختفي. تحولت المياه إلى نهر وتصاعدت فوق الأرض. اضطررت للابتعاد عنها لبرودتها. ارتقيت صخرة لكني وجدت فوقها عقربًا هاربًا من المياه.

١٩ يونيو

... صدمة. انقلب بومدين على بن بيلا وعزله واعتقله، الانقلاب غير مفهوم. الاتجاهات السياسية كلها ممثلة فيه من اليمين إلى اليسار. أعلن بومدين التزامه بنفس السياسات القديمة في الاشتراكية والحزب الواحد ... إلخ. لماذا إذن كان الانقلاب؟

٢١ يونيو

... بدأ موسم الخريف ويستمر حتى ديسمبر. لا تزيد الحرارة فيه عن ٢٥ درجة مئوية. رياح موسمية تهب من الهند مع مطر هادئ وضباب شفاف يجعل الجو ساحرًا. تكثر الحشرات القارصة: الخينيوت التي تمتص الدم والكتان التي تكمن في الملابس وتنشط في الظلام عندما نخلد للنوم فتجعله مستحيلًا بلدغاتها. لا تخرج من الملابس إلا بعد مضي شهر من الغسيل والتجفيف في الشمس.

... تتزايد حصيلتي من اللغة الجبالية: الحشيش الأخضر (شَعَر)، البقرة (هاتي)، السمن (مَش)، ثور (فيور)، جلة (كو)، المنجل (مزرب)، جوال (خاتك)، حقل مطر موسمي

(ميشنون)، الدُّخن (الدخان)، اللوبيا (داجور)، الخيار (هاشيبه)، التبغ (تيمبيكو)، اللوبان (ليبانوج)، الشتاء (شاتاء)، الخريف (خورف)، الماعز (أرون)، الجمال (عمبريك)، الغليون الحجري (فيجير)، الزيتون (ميتان)، ابن فلان (بر فلان).

... الأمراض: الشيفة (ألم حاد بالبطن)، بو برقع (شلل العصب الوجهي) الحزازة (حبيبات صغيرة تصيب جلدة فروة الرأس)، السلوع (ورم شديد في الرقبة) البوشة (حبوب تصيب الأطفال تحت الأنف)، بوخويط (سيلان الرجل) النزول (غشاوة شديدة في العين تؤدي إلى فقد البصر)، الحبة المشئومة (حبة الشام أو حبة بغداد وهي دمل صلب).

٢٣ يونيو

... نتيجة استطلاع قاعدة أم الجواريف مقر قيادة سلاح الجو السلطاني: معسكر كبير محاط بسور من الأسلاك الشبكية تتخلله أبراج مراقبة مزودة بكشافات متحركة على مسافات منتظمة. وسط المعسكر قلعة قديمة ترفع العلم العُماني. لا بد أنها مركز القيادة، خطوط من الأكواخ الجاهزة تفصل بينها شجيرات داكنة هي عنابر الجنود. قرب البوابة بئر مياه قديمة مزودة بمضخة يحرسها جنود محليون مسلحون ببندقية إف إن ٧,٦٢مم. خلف البئر ميس الضباط ومساكنهم والمخازن. شوهدت عملية تحميل السكاي فان بقنابل هاون وفوسفور ودخان، وعلب سمن وجركنات فارغة لنقل مياه الشرب. جندي بريطاني خلف رشاش براوننج في موقع محفور أحيط بأكياس الرمال والبراميل، آخرون في شورتات وقمصان بأكمام قصيرة.

٢٥ يونيو

... نموذج للتضامن الأممي. الاتحاد السوفييتي يحول سفن قمح متجهة إليه إلى مصر.

٢٧ يونيو

... اختفينا خلف الصخور المطلة على قاعدة أم الجواريف وأقمنا بسرعة دشمًا واطئة. لمحنا نقطتي غبار تقتربان عبر السهل. مرت ثلاث جمال تحمل الحطب متجهة إلى صلالة، ثم خرجت سيارتان باكار من القاعدة وشقتا طريقهما ببطء، صعدتا من الوادي. فتحنا النار على سيارة المقدمة. التوت وفقد سائقها سيطرته فانقلبت. تراجعت السيارة الثانية إلى الوراء ثم استدارت وانطلقت عائدة إلى أمان أم الجواريف.

غادرنا مواقع اختبائنا واقتربنا في فضول من حطام السيارة المصفحة، هي المسماة بمصفحة صلاح الدين بها مدفع براوننج. جررنا جثث شاغليها، كان أحدهم إنجليزيًّا. لحسن الحظ أنهم موتى وإلا اضطررنا لنقلهم وعلاجهم. جردناهم من ملابسهم، حملنا المدفع وصندوق ذخيرة وقفلنا عائدين إلى الجبال. نقطع الكيلومتر الواحد في ثلاث ساعات بسبب الأمطار.

أول يوليو

... بدأنا برنامجًا لبث الألغام في الطرق المؤدية إلى قواعد العدو.

... أستكشف جسدي كل ليلة.

١٥ يوليو

... فقدنا رفيقًا في انفجار لغم وضعناه. تركه الانفجار نصفين. سيطرت علينا الكآبة. أول خسائرنا البشرية دون قتال مباشر وبسلاحنا نفسه. أمرت بأن يكون السير دائمًا في أثر أقدام الإنسان والحيوان أو فوق الأحجار الكبيرة التي يصعب إخفاء الألغام أسفلها.

٢٤ يوليو

... تتوالى خسائر أمريكا في فيتنام. في مرة حاصرت القوات الجنوبية والأمريكية ٨ آلاف جندي من فت كونج. بعد ذلك صرح مسئول أمريكي بأنهم لم يعثروا للجنود على أثر كأنما انشقت الأرض وابتلعتهم.

... أشجار جبل القمر: الأتيرة نصف شجرة ونصف صبار، الحبوك أوراقها سامة وتتجنبها الماشية، لكن كمية قليلة منها تكفي للقضاء على ديدان البطن، زيروات تستخدم لعلاج الجروح مثل الأيودين، الميتان تتخذ منها العصي ودعامات وعوارض السقوف، نبات بدها الذي تحمص جذوره الدرنية في روث الجمال. يصبح طعمها مثل الكستناء المشوية.

٢٥ أغسطس

... عقدت أمس اتفاقية السلام بين عبد الناصر والملك فيصل، وتقضي بإجراء استفتاء شعبي في اليمن على نوع الحكم على أن تسحب مصر قواتها.

... يعرب في بيروت. لا أعرف لماذا ترك موقعه. ربما لم يتحمل قيظ عُمان.

أول سبتمبر

... قررنا مهاجمة المطار البريطاني قبل أن تتوقف الأمطار.

... علسيس يتقيأ دمًا. اعترف بأنه مريض من سنوات. وأنه عرض صدره للكي عدة مرات من أجل الشفاء. قلت له إنه مصاب بالسل وشرحت له خطورة المرض. لم يبدُ عليه أنه اقتنع بكلامي. ليس لدينا أدوية كافية. لا أعرف ماذا أفعل. اكتفيت بعزله عن الباقين. شعرت أن هذا قد جرحه.

... طلب أحد المقاتلين النزول إلى صلالة لرؤية أمه. رفضت. شعرت أن قراري، أغضب الباقين. شرحت لهم أننا لا يمكن أن نسمح بتعريض أمان العملية القادمة للخطر.

٣ سبتمبر

... اختفى نصيب الذي منعته من النزول إلى المدينة، قررت إلغاء العملية. عرضت الأمر للنقاش بين قادة المجموعات، أصروا على القيام بها، غضبوا مني عندما ألمحت إلى خطر الوشاية.

٨ سبتمبر

... كدنا نتعرض لكارثة. عرف الإنجليز بالموعد. أعدوا لنا مفاجأة بالاتفاق مع سلاح الجو السلطاني، كانت الخطة أن يختبئ فريق منهم في الوادي تحت ستار الظلام ويتركونا نمر بهم في السهل ثم يفتحوا النار علينا. في نفس الوقت تكون المدفعية العمانية قد انتقلت إلى موقع جديد قرب المطار، فتقصفنا عندما نحاول التقهقر. وهنا يهاجمنا سلاح الجو السلطاني ويُجهز علينا. الحظ أنقذنا، قبل أن نبلغ فتحة الوادي ونقع بين الجانبين فتحت المدفعية العمانية النيران بطريق الخطأ. تنبهنا إلى أن هناك شيئًا يُعد لنا. أسرعنا بالانسحاب قبل أن نقع في الكمين.

٩ سبتمبر

... عقدت اجتماعًا عامًّا للفرقة. تناولت ما حدث بالتحليل. أكدت على أن قراري كان صائبًا بمنع نصيب من النزول إلى المدينة، وبالمثل اقتراحي بإلغاء العملية بعد اختفائه.

قلت إنه ليس بالضرورة خائنًا، يمكن أن يكون ثرثر مع شخص غير مناسب، أو تعرض للتعذيب.

قمت بأول نقد ذاتي لي: كان يجب أن أصر على موقفي من إلغاء العملية وأستخدم حق القيادة في تنفيذه. شرحت فكرة النقد الذاتي وكيف أن ممارسته هي التي تميز الثوري الحقيقي، قلت إنه من الضروري أن نغير موقعنا. شعرت بعدم الحماس للفكرة. استعرض البعض مزايا موقعنا (أعتقد قربه من قراهم الأصلية) قال سويد: إننا في أمان لأن الرعاة يعرفون المارين فيبلغوننا بأمر أي غريب، قلت له إنهم يمكن أن يفعلوا نفس الشيء مع الغرباء. فيدلون من يسأل عنا، اتخذنا قرارًا بالبحث عن موقع جديد بمجرد انتهاء موسم الأمطار بعد أيام.

١٢ سبتمبر

... أحضر الحارس المناوب في الصباح امرأة كانت تبحث عن موقعنا طول الليل، تحمل طفلة أصيبت بلدغة أفعى. عالجها أهلها بالطريقة التقليدية: شقوا موقع اللدغة بالسكين، ثم قامت الأم بامتصاص السم وبصقه. لكن الجرح تلوث. كانت حرارتها مرتفعة. وضعت لها ضمادات مبللة بالمياه فوق رأسها. ترك الجرح ثقبًا عميقًا في كاحلها. نظفته وأعطيتها الترياق المضاد للسم. أمرت بتشديد الحراسة وتدعيمها. إذا كانت المرأة قد تمكنت من العثور علينا فماذا يمنع العدو من ذلك؟ من ناحية أخرى كان للأمر مغزًى لا يمكن تجاهله، لقد بدأ السكان يقبلوننا ويتجهون إلينا طلبًا للعون.

أول أكتوبر

... انتهى موسم الأمطار. تفتحت أزهار نباتات البلح التي يتخذها الجبليون طعامًا لهم. ازدهرت شجيرات الصفوت والقراضة ونبات الفطر الذي يجمعه السكان ويطهونه وأشجار تشبه ثمرة التين البري حلوة المذاق. بدأت النباتات الاستوائية تنمو بغزارة على جوانب الوادي. انضمت ناقة إلى الفرقة.

... انقلاب في إندونيسيا وحمام دم للشيوعيين: قائد حرس سوكارنو يقوم بحركة غامضة اتخذها الجنرالات اليمينيون ذريعة للادعاء بمحاولة الشيوعيين قلب نظام الحكم.

... أذاع كاسترو في اجتماع عام للحزب الشيوعي الكوبي فقرات من رسالة سلمها إليه جيفارا قبل اختفائه في أول أبريل الماضي. ذكر جيفارا أنه أدى الواجب الذي عهدت به

إليه الثورة الكوبية أداءً كاملًا، ولهذا يتخلى عن جميع مناصبه كوزير وعضو في الحزب وقائد، بل ومواطن كوبي أيضًا. قال مخاطبًا كاسترو: ... إن أممًا أخرى تطلب خدماتي ويتعين عليَّ أن أغادركم ... سوف أكون مستعدًّا لتقديم حياتي في سبيل تحرير أي بلد كان في أمريكا اللاتينية إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك ... إني أترك ورائي أعز ذكرياتي وأحب الناس لي، وأحمل معي الروح التي زرعتموها فيَّ إلى ميادين جديدة في النضال ضد الاستعمار وإذا واتتني نهايتي في أي مكان فسأحمل معي دائمًا المثل الأعلى الذي وضعتموه.

٢ أكتوبر

... نظفنا مكاننا جيدًا وأزلنا كل أثر لنا. حملنا الناقة بممتلكاتنا القليلة والذخيرة وجراكن الماء وصندوق الأدوية. انطلقنا سيرًا على الأقدام الحافية لمدة ثلاث ساعات وبنادقنا على أكتافنا ممسكين بها من الفوهات. توقفنا في العين وهو نبع ماء عند سفوح جبال قرًّا، أطلقنا سراح الناقة لتبحث عن طعام. قضينا الليل تحت شجرة تين. أسراب الحشرات تحدث أصواتًا عالية. الخنافس تثب فوقنا من غصن إلى غصن. تجمعت طيور اللقلق البيضاء والبنية على قمم الأشجار للمبيت. عنزة للعشاء شكلت وجبة شهية مع الأرز المسلوق والحساء الدسم اللذيذ. ظلوا يقظين من شدة البرد. علسيس لا يكف عن السعال. عند النصر سنوفر له علاجًا كاملًا.

٣ أكتوبر

... أيقظتنا نداءات طيور الوروار في الفجر. غادرنا موقعنا. سرنا عبر مروج صخرية ومنحدرات عميقة، على يسارنا أودية واسعة تمتد حتى السهول. شجر ليمون أخضر قرب إحدى عيون الماء. بعد فترة وصلنا إلى حافة وادٍ كثيف الأشجار يرتفع ١٦٠٠ قدم فوق سطح البحر.

٤ أكتوبر

... زرنا مخيمًا على هضبة صغيرة. عائلة تعيش في كهف منخفض أرضه مفروشة بروث الماعز عجوز نصف أعمى فوق مقعد من الخيزران المجدول المغطى بالجلد. أحضر لنا صبي طاسة من الحليب الدافئ تعلوه رغوة حلبه للتو. طعمه مالح كحليب كل النياق.

٥ أكتوبر

... تسلقنا إلى قمة ممر كسميم. المرتفعات مغطاة بالعشب والأدغال الخضراء والأغوار الظليلة. تنحدر باتجاه سهل جربيب وصلالة والمحيط الهندي المفتوح على عالم آخر. إلى الشمال مباشرة تنحدر الصخور السوداء والرمال الصفراء إلى الربع الخالي.

٦ أكتوبر

... نزلنا في الصباح إلى بركة العيون التي تقع على ارتفاع مائتي قدم في رأس وادي غودون، قال واحد إن أفعى مخيفة تعيش فيها. ابتلعت مرة عنزة كانت تشرب. اغتسلتا وملأنا الجراكن.

٧ أكتوبر

... انتقلنا شمالًا ببطء متتبعين وادي غودون، وهو واحد من خمسة مجارٍ نهرية جافة تنحدر من السلسلة الساحلية. سرنا بصعوبة في قعر المجرى، بين أكوام الصخور المصقولة. مررنا بعائلتين من بيت كثير تقيمان تحت الأشجار، شاب لسعته أفعى من شهرين برجل متورمة ينز منها الصديد. غسلت له الجرح وأعطيته بعض الدواء. زوجته نحيفة جدًّا وتعاني من سعال متواصل. كل ما يملكونه مطروح على الرمال: بضعة قدور، قِرب، كيس من جلد الماعز مملوء حتى منتصفه بالطحين. كمية من سمك السردين منثورة فوق قميص ممزق. رائحته الكريهة النفاذة تعبق المكان مجتذبة أسراب الذباب. بساط قديم وبعض الخرق التي يتدثرون بها ليلًا. خُرجان ودلو من الجلد لسحب الماء. بندقية قديمة ذات طلقة واحدة.

٩ أكتوبر

... وجدنا مكانًا ملائمًا على مبعدة نصف كيلومتر من بئر ماء، كهفان كبيران للرجال، وآخر صغير منعزل لي. حولنا حقول من اللوبيا. يمكن أن نمشي فيها عدة ساعات دون أن نرى الشمس.

نوفمبر

... أمر السلطان سعيد بتسوير مدن ظفار الرئيسية بالأسلاك الشائكة ومنع التجول داخل ظفار نفسها. تقلص عدد الجبليين الذين تجرءُوا على النزول إلى الساحل للعمل أو التبادل التجاري. صار اقتناء السلع الغذائية صعبًا، شنت قواته حملات انتقامية نكلت بالنساء والأطفال، وأحرقت الماشية والأكواخ، ونسفت الآبار. لجئوا إلى احتجاز الرهائن لإجبار المتهمين بالتعاون مع الجبهة على الاستسلام، قررنا الرد بعملية جريئة.

... وضعت خطة لمهاجمة قوافل التموين والذخيرة المرسلة من قاعدة أم الجواريف إلى مدينة طاقة. كمين بسيط على مشارف المدينة. عرضت الخطة في زهو على رفاق اللجنة القيادية. عارضني فهد واقترح خطة بديلة. قال إن العدو يعرف أننا لغمنا الدرب الرئيسي المؤدي إلى طاقة. إذن أفضل طريق لسياراتهم هو على طول الشاطئ بعد أن يذهب المد وتكون الشمس قد جففت الرمال وصلبتها. ولا بد سيختارون لحظة القيام من أم الجواريف بدقة. إذا خرجوا مبكرين سيضطرون للانتظار على الشاطئ حتى يذهب المد فيصبحون أهدافًا ثابتة لنا. إذا تأخروا كثيرًا سيقعون في أسر المد الجديد. إذن نستطيع أن نحدد الوقت بين مدين. وعند خروجهم ففي الغالب لن يخرجوا من البوابة كما يفعلون عادة، بل من الناحية الأخرى المواجهة للبحر، ثم يستديرون يسارًا ويمضون في درب موازٍ للسور الذي هو امتداد للسور المحيط بصلالة. تلي ذلك بوابة من السلك الشائك يحرسها جنديان مسلحان ببنادق ٣٠٣ ومقامة فوق أخدود من الرمال الناعمة مغطاة بشبكة من أسلاك الصلب، بعد ٧٥ مترًا تبدأ الرمال الصلبة. خلال هذه الأمتار السبعين سيسيرون ببطء وحذر. هذه هي فرصتنا.

... كان عرضه منطقيًّا يستند إلى معرفته بالمنطقة. لكن الطريقة التي كان يتكلم بها وهو ينظر إليَّ استفزتني. الموقف الذكوري التقليدي. يعتبر نفسه خبيرًا عسكريًّا لمجرد أنه كان جنديًّا.

... دونت النقاط الرئيسية في خطاب لعبد الناصر. قال إن الذين لا يستفيدون من تجاربهم ولا يتفاعلون مع الواقع يتخلون عن قدرتهم على تغييره، أكد أن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه، والمحظور الوحيد هو استغلال الإنسان للإنسان. قال إن دول الكتلة الشرقية تعطى ج ع م قروضًا بفائدة ٢ بالمائة بينما القروض الغربية فائدتها ٧ في المائة، أي إن مصر تدفع للدول الغربية ثمن المصنع مرتين. شرح بدقة أساس الاستغلال الرأسمالي: أي واحد إزاي يعمل مليون جنيه؟ حاجة بسيطة جدًّا، يبتدي بمبلغ

ويجيب عمال وهؤلاء العمال بيشتغلوا ... يديهم جزء من حقهم وياخد الجزء الباقي ... لازم يسرق، أعلن أيضًا عن وجود التنظيم السياسي داخل الاتحاد الاشتراكي باسم طليعة الاشتراكيين.

٢٨ نوفمبر

... انتصر فهد. نجح الكمين الذي أعددناه لقاعدة أم الجواريف. لم نتعرض لأية خسائر.

ديسمبر

... البوت تهرأ، حصلت على حذاء رياضي مطاطي.

... ما زال مصير الزعيم المغربي بن بركة مجهولًا. هل هو معتقل أم اغتالوه؟ لماذا يحدث هذا الآن؟ لأنه حدَّد خط تطور كفاح الشعب العربي في المغرب على أنه الاشتراكية؛ ولأنه يرأس اللجنة التحضيرية لمؤتمر القارات الثلاث الذي سيعقد في كوبا. أمريكا لها خمس قواعد ذرية جوية في المغرب.

... هاجم عبد الناصر في بورسعيد مطالب الإخوان المسلمين، ومنها فرض الحجاب على ١٠ ملايين امرأة وعدم تشغيل المرأة، قال إن العمل حماية للمرأة يمنعها من أن تضل ومن أن تفرط في نفسها. قال إنه لا بد من تأميم تجارة الجملة.

... دعا الحزب الشيوعي الإيراني إلى جبهة وطنية واسعة من العناصر البرجوازية ورجال الدين مثل خوميني ضد النظام المرتبط بالاستعمارين الإنجليزي والأمريكي.

... قرر البرلمان السوداني حل الحزب الشيوعي.

... هناك تيار قوي داخل الحزب الشيوعي السوداني يدعو إلى تحويله إلى حزب اشتراكي، يتزعم هذا التيار أحمد سليمان وهو محامٍ معروف وعضو بالمكتب السياسي ويسانده بعض قادة الحزب الذين شغلوا مناصب وزارية بعد ثورة أكتوبر.

... أنا محظوظة حقًّا إذ أولد وأعيش العصر الذي يشهد التحول الحاسم للعلاقات البشرية من علاقات استغلال إلى علاقات مشاركة وتضامن ومساواة. الصراع الرئيسي يدور بين القيم الفردية والقيم الجماعية. فالمبالغة في تأكيد قيمة الفردية يؤدي إلى تغليب الروح الأنانية. المقابل الاقتصادي لمبدأ الفردية هو تأكيد دافع الربح: على أساس أن أقوى الدوافع المسيطرة على الفرد هو تحقيق منفعته الذاتية ولو على حساب الآخرين. أي إن

الإنسان أناني بطبعه ولا يمكن الاعتبارات المعنوية أو الأخلاقية أن تكون حافزًا كافيًا لجهده.

... أمشي حافية بعد أن تمزق الحذاء الكاوتشوك. في البداية امتلأت قدماي بالبثور ثم تصلبت، أمشي الآن أسهل وأسرع من ذي قبل.

... سمعت أغنية أم كلثوم وعبد الوهاب الجديدة «أمل حياتي». أشعر بالحنين إلى القاهرة. ترى ماذا يفعل رشدي الآن؟

... لا أنباء من يعرب.

بدأ هبوب رياح الشمال وهي رياح جافة حارة.

... انتهت الكمية التي لديَّ من مسحوق تايد بينما كنت أغسل ملابس الداخلية. أوشكت الدموع أن تطفر من عيني. أحضر لي مسرف فرعًا من شجرة بامية، يسمونها هنا قمروت. أراني كيف أدق أوراقها حتى تصير مسحوقًا ثم أذيبها في قليل من الماء حتى تصنع رغوة مثل تايد بالضبط.

أول يناير ٦٦

... ساهمت في إعداد تقدير موقف بعد ستة شهور من بدء الثورة: هناك روح جديدة في الجبال. في البدء كان رد فعل السكان حذرًا أو حتى معاديًا؛ إذ تعرضوا لضغوط جبارة من جانب المشايخ والعملاء. ثم انكسر طوق العزلة ببطء وكان أول المتعاونين مع الثورة أبناء القبائل المستضعفة والأسر الفقيرة من قرًّا وكثير، كما نجحنا في منع تسرب النزاعات القبلية إلى داخل الجبهة. إذ قسمنا الإقليم من البداية على أساس جغرافي وجندنا المتطوعين على أساس فردي لا على أساس الانتماء القبلي، كما أخضعنا اختيار القادة لمقياس الكفاءة لا غير.

١٣ يناير

... أعلن في عدن الدمج القسري (برعاية الأجهزة المصرية) بين الجبهة القومية ومنظمة التحرير (الأصنج ومكاوي) لقطع الطريق على التيار اليساري (عبد الفتاح إسماعيل). وصل وفد مكون من جورج حبش ومحسن إبراهيم وهاني الهندي إلى تعز للاجتماع بعبد الفتاح إسماعيل، عارض قحطان الشعبي الدمج من القاهرة فمنعه المصريون من مغادرتها.

... انتقد نايف حواتمة لأول مرة قيادة الحركة. وصفها بالقيادة البرجوازية الصغيرة.

١٤ يناير

... فقدنا مسرف.

١٨ يناير

... اليوم فقط تمكنت من الكتابة ... كنا عائدين من مسيرة تدريبية عندما وقعنا في كمين. سمعت الصوت المعدني الأجوف لقذيفة الهاون عندما تركت أنبوبها واتجهت نحونا. صحت: هاوان. ارتمينا على الأرض وأيدينا فوق رءوسنا. انفجرت القذيفة فوق التل. تتابع الدوي. بين كل واحدة والثانية نصف دقيقة مما يعني أن المدفعية تطلق من أقصى مدى وهو ٤٠٠٠ متر، اندفع مسرف يجري وهو يصرخ بشكل هستيري. كان صراخه كافيًا للفت نظر العدو إلى موقعنا، مررت بلحظة مرعبة، الفرقة كلها معرضة للإبادة، واجبي أن أسكته في الحال ولو بإطلاق النار عليه. رفعت رأسي في حذر وأنا أجذب الرشاش إلى أعلى، رأيت الدماء تغطيه وأمعاءه مدلاة من بطنه، اقترب من مكاني في غير وعي، جذبته من خصره إلى جواري. احتضنته بقوة واضعة يدي على فمه إلى أن توقف صراخه. مات بين ذراعيَّ.

٢ فبراير

... انتصار تاريخي للشعوب. هبطت محطة فضاء سوفييتية فوق سطح القمر، الإنسان لأول مرة في تاريخ البشرية فوق جرم سماوي آخر غير الأرض.

... أقر مجلس الأمة المصري قانونًا بألا يزيد ما يتقاضاه رئيس أو عضو مجلس الإدارة عن خمسة آلاف جنيه في العام.

... أنام بصعوبة. أستيقظ دائمًا أثناء الليل على صورة مسرف وهو يجري نحوي.

٢٣ فبراير

... انقلاب دموي في دمشق يقوم به جناح من حزب البعث بقيادة صلاح جديد وحافظ أسد. اعتقال ميشيل عفلق وصلاح البيطار.

... أمريكا تُعلن في صراحة عن صفقة أسلحة لإسرائيل.

... انقلاب ضد نكروما بعد حصار اقتصادي من قبل الشركات الغربية التي تشتري محصول الكاكاو من غانا.

مارس

... الشاعر الفرنسي الشيوعي أراجون يعارض في جريدة الحزب محاكمة كاتبين في الاتحاد السوفييتي بتهمة تهريب كتابات معادية إلى الخارج.

... انقلاب دموي جديد في إندونيسيا. حكومة عسكرية برئاسة سوهارتو.

أبريل

... تطور خطير للغاية: الطائرات الأمريكية تضرب أحد أحياء عاصمة فيتنام الشمالية لأول مرة منذ بدأت الحرب.

... أعددت تقريرًا عن الاحتياجات الصحية: أمصال ضد الثعابين والأفاعي، كل ما يملكه القوم ضد السل وسائر الأمراض الصدرية هو الكي مثنى وثلاث ورباع. أما الجرب فيعالجه الحلاق بإزالة الشعر ودعك فروة الرأس بليمونة. كيف يمكن إقناعهم بضرورة غلي الألبان؟ الأمراض الشائعة هي سوء التغذية والدوسنتاريا والملاريا والجذام والجرب والرمد. مطلوب مورفين وضمادات ومضادات حيوية.

٣ مايو

... في خطاب أول مايو هدد عبد الناصر بضرب قواعد العدوان السعودي ضد اليمن. عاد إلى شرح قضية الاستغلال بأنه استيلاء الرأسمالي على فائض قيمة عمل العامل، أي إنه يأخذ عرقهم: «العامل اللي بيشتغل وقيمة عمله جنيه بيديله ربع جنيه وياخد هو التلات أرباع».

... صحف بيروت: الملك فيصل يستنجد بالولايات المتحدة.

٩ يونيو

... عام جديد للثورة ولى. أشعر بالاكتئاب، ما زلنا بعيدين عن النصر النهائي. يبدو أنه لم تكن لديَّ فكرة واضحة عن الزمن الذي سيستغرقه القتال. ولا عن درجة التخلف

السائدة. صنعاء جنة بالقياس إلى الحياة هنا. كم أحن إلى رائحة القهوة في شوارع بيروت. الليالي بالذات صعبة. كل هذا العنف والقتل. لا بد من الصمود. سأبدأ غدًا برنامجًا جديدًا من المسيرات والتدريب، كوَّنا لجنة لنشر الوعي الصحي.

... ثلاثة متطوعين جدد، بينهم واحد غير صالح للقتال، اسمه سالم حسن (١٧ سنة)، عمل صيادًا في صلالة. كان يتقاضى من صاحب المركب ٢٥ ريالًا في الشهر (الريال = ١٣ روبية أو ٣ ليرات لبنانية) خلال شهور الصيد الثلاثة، بعد ذلك يعمل في نقل حجارة البناء لقاء ٥ روبيات لكل يوم عمل من عشر ساعات دون فترة غذاء. جرب حظه في الزراعة فاستأجر بستان خضراوات مقابل ٥ ريالات لكل ستة أشهر ونصف ريال لكل ساعة ري. أصيب بمرض التراخوما وأخذ يفقد بصره. باعه دجال يسمي نفسه طبيبًا نظارات لم تفده، فقدم طلبًا للسفر إلى الخليج بقصد العلاج. رفضت السلطات طلبه ففر إلى الجبل. سنعهد إليه بالمهام التي لا تعتمد على جودة الرؤية إلى أن تتاح فرصة علاجه.

١١ يونيو

... انتخب المؤتمر الثاني للجبهة القومية العدنية قيادة جديدة على رأسها عبد الفتاح إسماعيل زعيم التيار اليساري، ومعه علي سالم البيض، علي عنتر، سالم ربيع (سالمين)، علي صالح عباد (مقبل)، محمد علي هيثم. حضر يعرب المؤتمر. القيادة الجديدة ثورية تمامًا بحكم الأصول الطبقية لعناصرها: عبد الفتاح إسماعيل عامل بمصفاة النفط قبل أن يصير مدرسًا، علي عنتر راعي بغال صار حمالًا بمطارات الخليج، صالح مصلح سقَّا مياه التحق عريفًا بالجيش وتركه بعد أن قتل ضابطًا إنجليزيًّا، علي طايع خياط بالقرية.

... علق عبد الناصر على مقتل صلاح حسين في كمشيش على يد الرأسمالية الريفية الطفيلية، وبتحريض من عائلة الفقي الإقطاعية، فقال: «لا بد من ثورة حية، ثورة مستمرة، فالاستغلال لا يستسلم بسهولة ... قطاع الرأسمالية بيزيد، وإذا أردنا السير في طريق الاشتراكية لازم تجارة الجملة تنتقل إلى القطاع العام ...»

... تكوين اللجنة العليا لتصفية الإقطاع في مصر برئاسة عبد الحكيم عامر.

... وافق مجلس الأمة المصري على مشروع قانون تقدمت به الحكومة لتعديل قانون الإصلاح الزراعي. أصبح تأجير الأرض قاصرًا على من يتولى زراعتها بنفسه، ولا يجوز تأجيرها من الباطن أو التنازل عن الإجارة للغير أو مشاركته فيها.

... موسم الأمطار: طوال أربعة شهور سنكون قادرين على الحركة بينما يتحصن العدو بمواقعه لا يغادرها متجنبًا الاشتباك بنا.

يوليو

... مواجهة كبرى في رابضات الكلاب. خسرنا مقاتلين ونسفنا سبع عربات عسكرية وقتلنا وجرحنا ٥٨ من العدو.

... كشفت لجنة تصفية الإقطاع في مصر عن وقائع مثيرة! بين الإقطاعيين من ارتفعت ملكيته من ستين فدانًا عام ٥٤ إلى ١٤١٣ فدانًا عام ٦٦ عن طريق اغتصاب أراضي طرح النهر وتكبيل الفلاحين بالكمبيالات على بياض. حسب نظام المشاركة يستولي الإقطاعي على محصول القطن كله وبعد خصم المصروفات يحتفظ بنصفه، ثم إنهم يسيطرون على البنك العقاري وعلى الجمعيات التعاونية.

... لا تزال عملية التطهير السياسي مستمرة في الصين. ماو تسي تونج هو الذي أمر بها. تقرر تعديل نظام التعليم الجامعي بقصر مدة دراسة الآداب على سنتين ينتقل الطالب بعدها إلى التدريب العملي وسط العمال والمزارعين والجنود لاكتساب الخبرة العملية الثورية، وصف شواين لاي هذه التطورات بأنها ثورة اشتراكية ثقافية كبرى. برز وزير الدفاع لين بياو الذي أنشأ حركة جديدة لدراسة أعمال ماو، وقدم استراتيجية جديدة للثورة العالمية مؤداها: إذا أمكن اعتبار أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية مدن العالم، فإن آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تشكل المناطق الزراعية، والثورة العالمية المعاصرة تمثل أيضًا صورة من حصار المناطق الزراعية للمدن.

... كتاب جديد لجيفارا يهاجم الحوافز المادية لأنها تؤدي إلى تغليب قيم الرأسمالية، ويدعو إلى بعث الحوافز المعنوية. السلعة هي النواة الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي، وستظل تؤثر على تنظيم الإنتاج وعلى الوعي ما دامت قائمة. ولأن الطريق ما زال طويلًا أمام البلدان المتخلفة لذا فالإغراء شديد للالتجاء إلى الحافز المادي كمحرك للتنمية الاقتصادية السريعة. هنا يظهر خطر الدخول في طريق مسدود بمحاولة تحقيق الاشتراكية عن طريق أسلحة عفنة ورثناها عن الرأسمالية (السلعة بوصفها وحدة اقتصادية، الربحية، المصلحة المادية الفردية كحافز ... إلخ). إننا تنتهي إلى هذا المأزق بعد قطع مسافة طويلة تتشابك فيها الطرق الفرعية وتكون القاعدة الاقتصادية قد قامت بدورها في تخريب عملية تطوير الوعي. إن بناء الشيوعية يستدعي تغيير الفرد لنفسه مع

تغيير القاعدة الاقتصادية. ومن هنا لا بد أن تكون أداة تجنيد الجماهير أداة معنوية دون تجاهل الاستخدام السليم للحافز المادي ذي الطابع الاجتماعي أساسًا ... يجب أن يتحول المجتمع في مجموعه إلى مدرسة كبيرة ... لكي يسترد الإنسان طبيعته لا بد أن ينتهي الإنسان/السلعة. وأن تقدم له الدولة مقابلًا لقيامه بواجباته الاجتماعية. عندئذٍ يتحرر فكره من القلق الناجم عن ضرورة إشباع حاجاته الملحة بالعمل، ويتعرف على نفسه بعمله فيدرك عظمته كإنسان عن طريق الخلق والعمل. عندئذٍ لن يكون عمله عبارة عن تخلٍّ عن جزء من كيانه على شكل قوة عمل يبيعها، بل إسهامًا منه في الحياة المشتركة.

١٥ أغسطس

... عدوان إسرائيلي ثانٍ على سوريا بسبب الاتجاهات التقدمية للحكومية الجديدة بقيادة الأطباء الشبان أتاسي/زعين/ماخوس، وسيرها بشجاعة في تنفيذ المشروعات العربية لاستثمار روافد نهر الأردن.

... حصلت على بنطلون جينز على مقاسي، ضيق بعض الشيء.

سبتمبر

... صوت نشاز وسط اندفاع ثوري نحو وحدة القوى الثورية والتقدمية العربية. أحمد سعيد (صوت العرب) يهاجم الدعوة إلى وحدة القوميين العراقيين مع الشيوعيين أو البعثيين.

... شباب الحرس الأحمر الصيني يأخذ قضية الثورة في يده. تدخلهم في ملبس عديد من الشبان الصينيين والطريقة العربية في إرسال شعورهم، مع تقديم الشاي في صالات الشاي باعتباره متعة برجوازية. الهجوم على باخ وبيتهوفين، الشيوعي الحق هو الذي يعيش في تقشف كامل ويحمل أكثر الأعباء ثقلًا.

... وصلتنا ثلاث كتيبات من بكين بالعربية تتضمن مقالات نشرت في صحيفة جيش التحرير اليومية: فكر ماو هو قمة الماركسية اللينينية في العصر الحاضر. لين بياو أول من أمسك بقبضة حاسمة قضية الأدب والفن في الجيش. الاتحاد السوفييتي ينحدر الآن في طريق إعادة الرأسمالية.

... إن كل جملة من جمل ماو هي الحقيقة، ولها وزن يزيد عما لعشرات الآلاف من الجمل العادية.

... الكُتَّاب والفنانون دائمًا مصدر للمشاكل والانحرافات.
... تخليت عن بنطلون الجينز. فتحته حادة تحتك بجسمي بطريقة تشتت فكري.

١٤ أكتوبر

... انقلاب في أبوظبي ضد الشيخ شخبوط الذي تصفه الدوائر الإنجليزية بالبخل والرجعية والعناد، حل أخوه زايد محله. يوصف بأنه متفتح.

... في أعقاب كمين ناجح عثر سويد على قتيل باكستاني وجريح ظفاري. تبين أنه من عملاء السلطة. أجهز عليه في الحال. ثرت عندما عرفت بالأمر. القاعدة أننا نعالج الجرحى من الأعداء. صرخت في سويد إننا لسنا قتلة، قررت عقد محاكمة عسكرية له. سيواجه حكم الإعدام. توسل إليَّ عبد الله أن أراعي ظروفه. قال إن القتيل اشترك في تعذيب إخوة سويد ووالده كي يدفعوا الضرائب الجائرة مما أدى إلى مصرع الأخير. وإن هذا هو ما دفع به إلى الانضمام إلى الثورة، تذكرت ما قاله لي مرة عن هروبه من الضرائب. لكنه لم يتحدث أبدًا عما فعله به رجال الوالي. فكرت طويلًا في الأمر، عقدت اجتماعًا للفرقة، تحدثت عن مضمون كفاحنا. قلت إننا ضد الانتقام الفردي. إننا نبحث عن حل جذري لكل ما يتعرض له الشعب من ظلم وأسى. عفوت عن سويد بعد أن قام بنقد ذاتي لتصرفه.

١٣ نوفمبر

... غارة إسرائيلية من لواء كامل وثلاثين دبابة تؤيدها المدفعية والطائرات على قرية عزلاء في منطقة الخليل بالضفة الغربية. إنهم يعدون لشيء ويستكشفون الجبهات المختلفة.

٢١ نوفمبر

... متطوعون جدد فيهم نفس عيوبنا السابقة. أصبح عددنا ثمانين رجلًا.
... اعتقالات واسعة تقوم بها السلطة الأردنية على القوى الوطنية في الخليل ونابلس.
... استدعى الملك قوات البدو للسيطرة على المظاهرات.
... أصدرت المحكمة العليا في السودان حكمها بعدم شرعية حل الحزب الشيوعي. البرلمان يقرر عدم السماح للنواب الشيوعيين بحضور جلساته رغم حكم القضاء.

ديسمبر

... المؤتمر الثالث لـ «الجبهة القومية» في قعطبة بالشمال اليمني يقر الانسحاب من الوحدة مع جبهة التحرير، انتخاب قيادة جديدة تضم قحطان الشعبي وفيصل عبد اللطيف الشعبي، قيادة القوميين العرب بزعامة جورج حبش تقاوم التجذير اليساري في الحركة وتشجب الانسحاب.

... ضرورة تطهير الفرقة من الرجال ذوي المعنويات الضعيفة.

... مثال لما يمثله الموروث من سلبيات: حزب المؤتمر الهندي يوصي بمنع ذبح الأبقار رغم المجاعة، وذلك تحت ضغط الجماعات الدينية المتطرفة.

يناير ٦٧

... مشهد رائع: وصلتنا ثلاثة رشاشات ذات قوائم وثلاث بنادق من طراز مادزن وتسع بنادق م.أ. وعشر بنادق أوتوماتيكية و٦ آلاف رصاصة.

... يعرب في مسقط.

... اعترف تقرير بريطاني رسمي بأن عدد العمليات في عدن خلال العام الماضي ٦٦ بلغ ٥٠٠ عملية قتل وأصيب فيها ٥٨٣ شخصًا، كشفت منظمة العفو الدولية عن فنون التعذيب الذي تمارسه السلطات البريطانية: تخليع الأظافر، تكسير العظام، نفخ البطون بالماء، التعليق من الأكف.

... الخليج العربي ينتج ثلاثة أخماس واردات بريطانيا من البترول. تعمل بريطانيا الآن على خلق اتحاد فيدرالي بين إمارات الخليج.

... إن التاريخ يتحرك في كل شبر من الأرض العربية. كل جبروت الاستعمار لن يتمكن من وقف سيره المظفر إلى الأمام.

٩ يناير

... موقف غامض في الصين، شواين لاي يدافع عن الثورة الثقافية ويندد بليو تشاوشي ودنج هيساوبنج. الملصقات تتهمه بأنه خائف من الثورة الثقافية.

... بلغ عدد أفراد القوات الأمريكية في فيتنام ٤٠٠ ألف جندي. في غارة على إحدى القرى حاصروا ٤٢ شخصًا وقتلوهم بالمدافع الرشاشة. قبل قتل إحدى السيدات نزعوا ابنتها الصغيرة من بين ذراعيها، ومزقوها نصفين أمام عيني أمها.

١٦ يناير

... إضراب عام في عدن استجابة لدعوة الجبهة القومية بمناسبة الذكرى ١٢٨ للاحتلال الإنجليزي. مظاهرات تهتف لناصر.

فبراير

... لطفي الخولي يقول إن ناصر بخطابه في عيد العلم اكتسب لا وضعية القائد السياسي فقط، وإنما وضعية المعلم الثوري في الفكر والفلسفة كذلك. مزايدة على المنافقين أم عبادة للفرد؟

... أعدمنا خائنًا عثرنا معه على أوراق ومسدسات واعترف.

... إضرابات ومنع تجول في عدن.

٢٠ فبراير

... انتهيت من تدوين الأخبار واستلقيت فوق الفراش. تركت الفتيل مشتعلًا وحركت مؤشر الراديو، جاءتني موسيقى خفيفة فشرد فكري، باعدت بين ساقي، وفككت حزام البنطلون. سمعت حركة عند المدخل. ارتفع الستار عن فهد، لم أعرف أنه في المعسكر. اعتدلت جالسة في حنق، اكتسحت نظراته جسدي من قدمي حتى رأسي واستقرت على الراديو، قال بلهجة ذات مغزى: ماذا تفعلين وحدك؟ سقط ضوء الفتيل على وجهه. شعرت بالرهبة من ذكورته الطاغية. قال: ما رأيك في أن نتزوج؟ وجدت لساني أخيرًا. قلت في غضب: الإجابة على السؤال الأول هي: ليس من حق أحد أن يقتحم عليَّ وحدتي. الإجابة على السؤال الثاني: تفضل من هنا.

٢٧ فبراير

... أصدر وزير العدل المصري قرارًا بإلغاء تنفيذ أحكام الطاعة جبرًا وبواسطة الشرطة. أثار هذا التعديل معارضة أعداء تحرير المرأة في مجلس الأمة.

... قانون الأحوال الشخصية كان دائمًا موضع صراع بين الفكر المتخلف والفكر المتقدم: حق الرجل في تعدد الزوجات، حقه في الطلاق دون قيد، حقه في حضانة الأولاد

في سن مبكرة بغض النظر عن مصلحتهم، حقه في إخضاع المرأة بالقوة في بيت الطاعة. التعديل الثوري والجذري في القانون سيعدل نظرة الرجل للمرأة على أساس أنها سلعة إلى كونها شريكة متساوية معه في الحق والواجب.

... انفجار في عدن يودي بحياة ثلاثة من أبناء عبد القوي مكاري الأربعة. السلطات الاستعمارية تتهم الجبهة القومية بالمسئولية، عشرة آلاف في جنازة الضحايا. تصعيد العمل الفدائي.

٢٨ فبراير

... أبلغني بخيت أنه اكتشف دليلًا على أن حمد جاسوس، قال إنه رآه يخبئ أوراقًا في جذع شجرة، قدَّم لي الأوراق، وجدت بها أرقامًا ورسومًا غامضة. تعرفت على حرز الإحاطة الذي كان يحمله ملك اليمن. مكتوب به أنه نافع في زواج البنت والمحبة والقبول وتسهيل الارتزاق والبيع. وهو فعال أيضًا للسع العقرب والثعبان وأنواع الهوام، وفيه أيضًا العهود السليمانية السبعة التي تحمي صاحبها فلا يغلبه غالب ولا يدركه طالب.

مارس

... إذاعة ظفارية من راديو القاهرة: يجب أن يكون الهدف دائمًا هو مؤخرة العدو ... يجب ألا نشترك في معارك يحددها هو ويكون قد درس نتائجها ... اضرب واجرِ يا أخي.

... أعيد فتح المدارس في بكين بعد أن ظلت مغلقة لمدة تسعة شهور لانشغال الطلبة في حركة الثورة الثقافية. قال رافع إن الصراع الدائر في الصين سببه الرئيسي المصاعب الاقتصادية بعد فشل القفزة الكبرى إلى الأمام.

٧ أبريل

... لأول مرة منذ تسعة عشر عامًا حلقت ٧٢ طائرة إسرائيلية في سماء دمشق بعد أن عبرت سماء الأردن.

... تصريح غريب للرئيس الأمريكي جونسون: لدينا إجراءات عملية مباشرة سنتخذها بصدد الوضع بين إسرائيل والبلاد العربية.

٨ أبريل

... قمنا بعملية ناجحة عن طريق تمريت. أصيب حمد برصاصة في فخذه. حملناه في أرجوحة مربوطة بغصن ضخم. سنحاول تهريبه داخل صلالة للعلاج.

١٢ أبريل

... وصلتنا رسالة جيفارا إلى منظمة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا بعنوان تقرير عن الحالة الثورية في العالم، يستنكر فيها ما أسماه بعزلة فيتنام بسبب الشجار بين الاتحاد السوفييتي والصين. حمَّل الإمبريالية الأمريكية إثم العدوان، هي والذين ترددوا حين آذنت ساعة الفصل في جعل فيتنام أرضًا اشتراكية مصونة لا تمس وإن أدى بهم الأمر إلى المخاطرة باندلاع الحرب العالمية. لا بد أنه يقصد الاتحاد السوفييتي. قال إن المستغلين في العالم يجب أن يخوضوا المعركة في كل مكان يخوضها العدو، ويجب أن تكون الحرب شاملة بحيث لا نتركه يستريح ولو دقيقة واحدة. دعا إلى إنماء الأممية البروليتارية الحقيقية بجيوشها البروليتارية العالمية، بحيث يصبح اللواء الذي نقاتل في ظله هو القضية المقدسة لإنقاذ البشرية، وحيث يكون الموت تحت أعلام فيتنام أو فنزويلا أو جواتيمالا أو لاوس أو غينيا أو بوليفيا أو البرازيل مجدًا متساويًا ورغبة واحدة للأمريكي والآسيوي والأفريقي، بل والأوروبي أيضًا.

١٦ مايو

... ليفي أشكول يعلن: من المحتم أن تحدث مواجهة خطيرة بين سوريا وإسرائيل.

... ج م ع تطلب سحب قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة من سيناء وشرم الشيخ وتقرر إغلاق خليج العقبة في وجه إسرائيل ... الشعب العربي ينتزع المبادرة.

... في السعودية ٧٠ ألفًا من مقطوعي الأيدي والأرجل و٦٠٠ ألف رقيق سرقوا من كل بلد عربي ومن أفريقيا وآسيا وأوروبا.

١٧ مايو

... المشير عامر يُعين الفريق صدقي محمود قائدًا للقوات الجوية. ألم يتم اعتقاله صباح ٢٣ يوليو ٥٢ لمدة خمسة أيام بصفته من رجال النظام الملكي؟ تم عُين بعدها نائبًا لقائد

سلاح الطيران وترك طائراته فريسة للهجوم الثلاثي في ٥٦ وهي رابضة على الممرات الجوية دول تحليق، مما أدى إلى تحطيمها في يوم واحد؟ عجيب أمر المصريين.

٥ يونيو

... مع الراديو منذ الصباح الباكر. هل حلَّت أخيرًا لحظة المواجهة الكبرى مع الإمبريالية؟ الجميع في حالة توتر وحماس، أجلنا إحدى العمليات. «صوت العرب» يبشر بدخول تل أبيب.

٦ يونيو

... هناك شيء غير طبيعي في أخبار الإذاعات.

٨ يونيو

... إسرائيل تحتل غزة والعريش والقطاع العربي الشرقي من القدس. قواتها تتقدم في سيناء. الطائرات الإسرائيلية تقصف دمشق وتعلن أن جنودها في طريقهم إلى ضواحيها، ماذا ننتظر من قيادة البرجوازية الصغيرة؟ لا نبتعد عن الراديو لحظة واحدة.

٩ يونيو

... صدمة التنحي. هل هذا معقول؟ تشاجرت مع فهد عندما أعرب عن ارتياحه لتنحي ناصر.

... قررنا القيام بعملية احتفالًا بالعيد الأول لثورتنا وانتقامًا لما حدث في ٥ يونيو.

١٠ يونيو

... حالة استنفار تامة. لا أستطيع أن أصدق ما حدث. بكيت من التأثر والفرح عندما سحب ناصر استقالته بناءً على ضغط الجماهير، غدًا نقوم باستطلاع المطار الإنجليزي.

... نقاش حاد مع فهد. يُهاجم قبول ناصر لقرار وقف إطلاق النار، هاجمه الجميع وخصوصًا العراق والجزائر وسوريا.

١١ يونيو

... اتخذت موقعي تحت ستار الظلام خلف شبه دائرة من الصخور، أزلت حزام الذخيرة الجلدي الصيني الذي دار بخصري ووضعته على الأرض إلى جوار البندقية الآلية وخزانتها المقوسة. تجمعت حبات العرق التي جرت فوق ظهري وصدري في حزام البنطلون. سحبت من أحد جيوب الحزام بلحة قذفت بها في فمي. رفعت القربة المصنوعة من معدة عنزة وأخذت رشفة من المياه الدافئة وأنا أحدق في معسكر العدو. طائرة كاريبو يتم تحميلها ببراميل وقود سعة ٤٠ جالونًا. لاندروفر. مرتزق يصعد إلى الطائرة من بابها الخلفي المفتوح. إنزال صناديق بيرة وسجاير. أغلقت أبواب الطائرة وبدأت انزلاقها حتى نهاية شريط المعسكر. في منتصف الطريق توقفت ونزل منها الطيار. انطلق إليها المرتزق في اللاندروفر. أشار الطيار إلى أحد إطارات الطائرة. صعد إليها وأمسك بجهاز اللاسلكي. هل يطلب معونة؟ هل رأى أحدًا منا؟ وقف الاثنان يدخنان وهما يتطلعان إلى السماء. أخيرًا وصلت هليكوبتر أخرى، هبطت إلى جوار الأولى وقفز منها رجل تناول إطارًا من الداخل ورافعة وصندوق أدوات، لو كان لدينا مدفع.

٢٠ يونيو

... تمكن الرفاق العدنيون من إقامة سلطة الجبهة القومية في حي كريتر ورفعوا أعلامها. في نفس الوقت نشب قتال بين الجبهة القومية وجبهة التحرير.

... وصلتنا صحف الأيام السوداء. تأملت صورة عبد الناصر الحزينة في أسى. أين منها صورته المألوفة التي يبدو فيها متهلل الأسارير باسم الثغر تفيض عيناه بالمودة والثقة؟

٢٢ يونيو

... مقاتلون بقيادة علي عنتر يحررون إمارة الضالع.

٥ يوليو

... عرفت أن الرفيق سامر لعب دورًا بطوليًّا في الهجوم الذي شنه الرفاق العدنيون على مطار خور مكسر، تمكنوا من إصابة بعض الطائرات على الأرض ثم انسحبوا، وعندما طاردهم العدو بالهليكوبتر أطلقوا عليها نيران رشاشاتهم وتمكن من إسقاط واحدة.

٧ يوليو

... انسحب الرفاق العدنيون من حي كريتر بعد أن احتلوه لمدة أكثر من أسبوعين أقاموا خلالهما إدارة محلية. نقطة تحول في مجرى النضال المسلح.

١١ أغسطس

... شنَّت قوات التحرير الوطنية في الجنوب اليمني ٩٠ هجومًا خلال ٢٤ ساعة.

... وصلتنا مجموعة من الصحف البيروتية ... معلومات جديدة عن الوضع المصري وأسباب الهزيمة، العاملون في مكتب المشير كانوا يستخدمون الطائرات الحربية في تجارة الشنطة. أصحاب المراكز والمناصب غيَّروا أفكارهم كما يُغَيِّرون ثيابَهم، تطرف بعضهم في محاولة الظهور بمظهر اشتراكي. الطبقة الجديدة فرضت وجودها في مواقع عديدة أبرزها مجالس إدارات الشركات المؤممة والمناصب العديدة بوزارة الخارجية وجريدة الأهرام، حيث يوجد أكبر تجمع من الطبقات القديمة التي يهوى هيكل التواجد وسطها. فئة أكثر ذكاءً دخلت عالم الاستيراد والتصدير مخترقة كل الحواجز التي استحدثتها مرحلة التحول الاشتراكي باستغلال الثغرات في القوانين المتتابعة.

سبتمبر

... تغيير في الإذاعة الأسبوعية لجبهة تحرير ظفار. بدلًا من يوسف علوي ممثل الجبهة في القاهرة أصبح يُقدمها محمد أحمد الغساني أحد قادة الفصيل القومي داخل الجبهة، نادى كافة شعوب الخليج: الشعب العربي في مسقط، نزوى، الشارقة، دبي، البحرين وكافة أجزاء الخليج. إن جبهة تحرير ظفار تناديك. الثورة التحريرية في ظفار هي ثورتك.

... جولة قتال جديدة بين الجبهة القومية وجبهة التحرير في عدن بعد أن أعلنت الأولى اعتبار نفسها الممثل الشرعي الوحيد لشعب الجنوب اليمني في أي مفاوضات مع المستعمر وفي استلام السلطة. الإنجليز يفضلون التفاوض مع الجبهة القومية لسحب البساط من تحت ناصر الذي يؤيد الجبهة الأخرى.

٢١ أكتوبر

... المصريون يستعيدون المبادرة، وإغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات.

... أعلن كاسترو في حزن أن جيفارا قُتِل على أيدي قوات من الجيش البوليفي.

... وصلتنا قرارات المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي السوداني: الماركسية منهج وليست شعارات جامدة. العمل على تكوين جبهة واسعة ضد زحف اليمين الملتحف بالدين وضد الأفكار الانقلابية.

٢ نوفمبر

... أخلى الإنجليز فجأة منطقة الشيخ عثمان ودار سعد على مشارف عدن. أسرعت جبهة التحرير باحتلال هذه المواقع. اندلع القتال في مساء اليوم بين مقاتلي الجبهتين بمدافع الهاون والبازوكا والبلانسيت.

... فرغ مخزوني من أقلام الحبر الجاف والرصاص. أحضر لي بخيت بضع ثمار حمراء دائرية في عنقود تشبه الدوم لكنها أصغر حجمًا. أخذنا حبوبها وغليناها فصار لدينا حبر أحمر للكتابة. حبر ثوري!

٥ نوفمبر

... ظهرت نتائج الهزيمة: مصر توقف مساعداتها وتسحب قواتها من اليمن.

... تشكلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش من ثلاث منظمات أهمها الفرع الفلسطيني الأردني من حركة القوميين العرب وجماعة أحمد جبريل.

٩ نوفمبر

... انقلاب في اليمن ضد السلال أثناء وجوده في موسكو.

... ما زال القتال مستمرًّا في عدن بين الجبهتين. الضحايا مائة قتيل و٣٠٠ جريح.
... هجوم ملكي شرس بدعم من السعودية على القوات الجمهورية في اليمن. العقيد العمري يقوم بتصفية العناصر الديموقراطية.

٣٠ نوفمبر

... إعلان استقلال جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية بعد حكم بريطاني من عام ١٨٣٩ من خلال سلاطين موزعين على ٢٥ إمارة ومشيخة. الجبهة القومية تعلن أنها السلطة العليا في البلاد والتنظيم السياسي الوحيد، تعيين قحطان الشعبي رئيسًا مؤقتًا، شكَّل حكومة ضمت علي سالم البيض للدفاع ومحمد علي هيثم للداخلية وعبد الفتاح إسماعيل للثقافة وفيصل عبد اللطيف للاقتصاد.
... قوات السلطة العميلة تلقي القبض على ٥٥٠ شابًّا داخل مدن ظفار كانوا يشكلون الجزء الأكبر من الخلايا التي تسند الحركة الثورية في الجبل.

أول يناير ٦٨

... المصريون يسقطون ثلاث طائرات إسرائيلية من أربع أغارت على منطقة القناة.

١٦ يناير

... هجوم شامل للثوار في فيتنام في جميع الجبهات.

٣ فبراير

... تغيرات في صفوف القوميين العرب: في لبنان خرج الاشتراكيون واتحدوا مع فواز طرابلسي. في عدن انقسمت الجبهة القومية إلى يمين ينادي بالتمهل في الإجراءات بزعم أن النضال قد انتهى بالاستقلال (قحطان الشعبي)، وتيار ثوري (عبد الفتاح إسماعيل) ينادي بتعميق فكر واستراتيجية الطبقة العاملة والفلاحية الفقيرة، ويطالب بتقويض مؤسسات الدولة القديمة وإنجاز مهام الثورة الديموقراطية الشعبية بتوزيع الأراضي على فقراء الفلاحين دون تعويض لأغنيائهم. وأن تكون الأرض لمن يفلحها، وتوضع في الإطار التعاوني لخلق علاقات إنتاج جديدة على الطريق إلى الاشتراكية. أيضًا تحويل الاقتصاد

من الخدمات إلى الإنتاج، تسعون في المائة من الإنتاج الصناعي للبلاد كان ممثلًا في مصفاة النفط المملوكة لشركة بريتش بتروليوم، بينما تكونت ثروات خيالية من وكالة الاحتكارات الأجنبية التي بلغت حد تصفية صناعة الملح المحلية لصالح المستورد.

٥ فبراير

... تم الاتفاق مع الرفاق في عدن على وضع المحافظة السادسة (المهرة) في خدمة جبهتنا، سيصبح ميناء الحوف قاعدة لمساندة كفاحنا. أقمنا احتفالًا صاخبًا. ستتلاشى الصعوبات التي نعانيها في التموين والإمدادات. سنرسل علسيس وسالم حسن للعلاج في عدن أو الخارج. سنتلقى أسلحة جديدة. سنحصل على الصحف وعلى احتياطي وافر من بطاريات الراديو.

٢٥ فبراير

... الجبهة القومية تستعد لمؤتمرها الرابع.

... نايف حواتمة يشارك الجناح الثوري في التحضير للمؤتمر، مطالب هذا الجناح: تأميم كل ملكية الشركات الأجنبية والبرجوازية الكبيرة المحلية بإغلاق الميناء الحر، تخفيض رواتب موظفي الدولة والحد الأعلى للأجور بحيث لا يتعدى أربعة أمثال الحد الأدنى، الحد الأعلى لملكية الأرض ٥ أفدنة في الأراضي المروية و١٠ في الأراضي البور، توزيع الأراضي المصادرة بدون تعويض على الفلاحين الفقراء، إنشاء تعاونيات، إقامة مجالس شعبية من العمال والفلاحين والفقراء والجنود وإعطاؤها كل السلطة.

أول مارس

... النتائج الأولى للهجوم الفيتنامي المستمر منذ شهر ونصف: قتلى وجرح ربع مليون جندي أمريكي.

٩ مارس

... انتهى أمس مؤتمر الجبهة القومية الذي عُقد في زنجبار بمحافظة أبين. انتصر الاتجاه الثوري. تم انتخاب قيادة عامة جديدة تضم علي عنتر، عبد الفتاح إسماعيل، علي ناصر

محمد، سالم ربيع، صالح مصلح، علي سالم البيض، محمد صالح مطيع. الجبهة تعلن تبنيها للاشتراكية العلمية.

١٢ مارس

... هذه المرة كانت الطائرة جاهزة للإقلاع. تابعتها في أسى وهي تجري فوق الممر، سمعت حركة خلفي في الوادي. تدحرجت وأنا أصوب الكلاشينكوف نحو الصوت: ردد سويد اسمي قائلًا: المدفع. المدفع الكبير. إنه في الطريق. كدت أقبله من الفرح. تركني وزحف مبتعدًا. بلغت الطائرة نهاية الممر. تطلعت خلفي فلمحت ثلاثة رجال يجرون جملًا. أنبوب طويل يتأرجح فوق ظهره، اقترب مني قائدهم. تطلع إلى الممر الجوي البعيد. أكملت الطائرة دورتها استعدادًا للإقلاع. قال: المسافة بعيدة جدًّا، لا بد أن نقترب أكثر، قلت: ليس هناك وقت. تحول لرفيقيه وقال: طيب، حضروا المدفع. علا صوت محرك الكاريبو. اندفعت إلى الأمام وهي تزداد سرعة، فكَّ الرفاق الحبال التي تشد المدفع إلى ظهر الجمل. أقام المدفعي الحامل جيدًا على الأرض وثبت الماسورة الطويلة إليه. وضع في مؤخرتها قذيفة مرعبة المنظر، أقرب إلى صاروخ. ضغط الزناد. طارت القذيفة نحو الطائرة المتحركة، انفجار ودخان. جرى المرتزقة في كل اتجاه نحو الخنادق والدشم. تابعت الطائرة المرتفعة في السماء بإحباط. نظرت إلى العربات المركونة. أمرت بفك المدفع بسرعة. وضع فوق ظهر الجمل. تقدمت المجموعة إلى الأمام. انحدرنا قليلًا في سهل صخري. بعد عدة أمتار بلغنا كومًا من الصخور يمكن إطلاق النار من ورائه، أعيد تجميع المدفع وشحنه وتصويبه على العربات، قلت لقائد مجموعة المدفع: ننتظر حتى يأتي الجنود ويركبوها فعندئذٍ يمكن أن نصيب عددًا كبيرًا منهم. قال: لا يمكن أن ننتظر طويلًا، فسرعان ما يبدءُون البحث عنا بطائراتهم، توسلت إليه. تطلع إلى السماء ثم أطرق موافقًا. انتظرنا متوترين، أوشك الذباب أن يصيبني بالجنون. كان يحط على عيني. بصقت واحدة تسللت داخل فمي. رأيت شخصًا يسير نحو العربات، فسرني أن الانتظار انتهى، أصدرت الأمر بالاستعداد. وضع الشخص بندقيته فوق المقعد الأمامي للاندروفر. أصدرت الأمر بإطلاق النار. التقط سترته وشرع يعقد أزرارها. اقترب الأزيز منه فسقط فوق ركبتيه. لف ذراعيه فوق رأسه لحمايتها، انهال فوقه التراب. اندفع إلى اللاندروفر وأدار مفتاحها ثم انطلق فوق الممر الجوي وهو يتأرجح يمينًا ويسارًا. تطلعت

إلى الدخان المنبعث من الغلافة النحاسية الفارغة فوق الرمال، دفع المدفعي قذيفة جديدة داخل الماسورة. دوى صوت ارتطام مؤخرة المدفع عند إغلاقها، بدأ فك المدفع على الفور وربطه فوق الجمل. لم نعرف إذا كنا أصبنا الهدف أم لا. جرينا، انزلقنا فوق المنحدر إلى الوادي ثم انطلقنا في سرعة الريح، بلغنا فجوة عميقة في وجه صخرة لها منصة ألقت ظلًّا داكنًا أسفلها. قُدنا الجمل إلى الظل وجذبنا نطاق قوائمه الأمامية حتى ركع. جمعنا بعض الأشواك وكومناها حولنا. لم يمضِ وقت طويل حتى زأرت النفاثات فوق الوادي، تبحث عنا. انكمشنا في أماكننا إلى أن تلاشى صوتها. أصدرت إشارة الانطلاق ونخست الجمل ليقف. مضينا في طريق العودة.

١٣ مارس

... اللجنة الشعبية العليا في حضرموت تصدر قرارات ثورية: تأميم عدد من أملاك التجار الكبار واستغلالها كمدارس، تخفيض الإيجارات في حدود ٣٠ بالمائة، تخفيض مدة إقامة الأفراح من ٨ أيام إلى ٣، الحد الأعلى للمهور ٢٥٠ شلنًا، مصاغ العروس ثلاث أساور بدلًا من ثمانٍ. حضرموت مركز حضاري قديم به أدوات فلاحة عمرها ١٥ ألف سنة. عاد إليها أخيرًا ثمانية آلاف عامل من زنجبار وآخرون من إندونيسيا هربًا من حمامات الدم التي نظمت ضد الشيوعيين.

١٥ مارس

... وصلنا نص مقالات نايف حواتمة في مجلة الحرية البيروتية. وصف مصادرة المقاهي ودار السينما في حضرموت بأنها انتهاج للخط الثوري الصحيح بينما تنتهج السلطة في عدن خطًّا إصلاحيًّا ناصريًّا.

... اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي تقدم لمحكمة الثورة ثلاثة من أعضائها ينتمون إلى الحزب الشيوعي القديم، وصفتهم بالانتهازيين والانعزاليين القدامى، وبأنهم تبنوا أفكار أدعياء الثورة في أمريكا اللاتينية. يبدو أن أغلب الأحزاب الشيوعية القديمة لا تؤيد كاسترو في محاولة نقل الاشتراكية إلى أمريكا اللاتينية بواسطة حرب العصابات. قلوبها تخفق لموسكو ولا تشعر بنبض شعوبها.

١٨ مارس

... تطورات مقلقة في عدن. الجيش القبلي القديم يفض مهرجانًا لتأييد قرارات المؤتمر، اعتقل عددًا من أعضاء الجبهة بينهم محمد صالح مطيع، سالم صالح محمد وغيرهما من الجناح اليساري. إشاعات عن هروب سالمين والبيض والأشطل إلى مقطبة على الحدود بين الشمال والجنوب.

... أنباء عن مذبحة بشعة ارتكبها الجنود الأمريكيون في قرية ماي لاي في فيتنام.

٢٠ مارس

... انقلاب عسكري في عدن. هدفه المعلن إنقاذ البلاد من الشيوعية ... قحطان الشعبي يؤيد الانقلاب في بيان من الإذاعة.

٢٢ مارس

... الاعتقالات مستمرة في عدن. بلغ عدد المعتقلين ٣٠٠ شخص، منهم ثمانية من أعضاء القيادة العامة للجبهة. مظاهرات تطالب بإطلاق سراح المعتقلين.

٢٣ مارس

... علمنا أن علي سالم البيض وسالمين وعلي عنتر ومحمد صالح مطيع وصالح مصلح نجحوا في الفرار من السجن إلى المحافظة الثالثة. بيان قحطان الشعبي بتأييد الانقلاب كان تحت التهديد؛ إذ ساقه الانقلابيون ضربًا إلى مبنى الإذاعة.

٢٧ مارس

... اليمين يتراجع في عدن، الرئيس قحطان الشعبي يصدر قرارًا بتنفيذ قانون الإصلاح الزراعي الذي يتضمن مصادرة جميع أراضي ومنشآت السلاطين والوزراء السابقين وتحديد الحد الأقصى للملكية الزراعية من ٢٥ إلى ٥٠ فدانًا، وتوزيع الأراضي المصادرة على المحاربين القدامى والفلاحين المعدمين وإعداد مشروع لتكوين ميليشيا مسلحة من العمال. الملحق العسكري الأمريكي أشرف على تنفيذ الانقلاب الفاشل.

... الموقف الاقتصادي صعب بعد تعطل ٢٥ ألف عامل من عمال الميناء الذي توقف عن العمل بعد إغلاق قناة السويس.

٣٠ مارس

... تغييرات حافلة في بولندة وتشيكوسلوفاكيا تحت شعار المقرطة. شوكة التحريفيين تقوى.

٥ مايو

... هجوم شامل ثانٍ للثوار في فيتنام. للمرة الثانية يقتحمون العاصمة سايجون.

١٢ مايو

... مجلس الأمن يطالب إسرائيل بإلغاء الإجراءات التي اتخذتها لضم القدس.

٥ يونيو

... انتفاضة الطلاب الفرنسيين مؤشر على رياح الثورة، كلمات جيفارا تُلهم حركات الشباب في الغرب: إن المهمة الرئيسية التي تواجه المرحلة الانتقالية الراهنة في الإعداد لثورة الاشتراكية العالمية وبناء قاعدتها المادية، وليست هذه المرحلة مرحلة البناء الاقتصادي للاشتراكية في دولة واحدة.

٩ يونيو

... الاحتفال بذكرى الثورة.

... الثورة الآن تتكون من ١٠ فرق مسلحة تسيطر على ٨٠ بالمائة من جبال ظفار وتواجه ٦ آلاف جندي أغلبهم من الباكستانيين والإيرانيين، سنستغل موسم الأمطار في تسيير قوافل الأسلحة والذخيرة من جنوب اليمن.

... ليست هناك أنباء من مسقط. هل يشرب يعرب البيرة؟

١٧ يوليو

... انقلاب العراق يأتي بالجناح اليميني من حزب البعث القديم ويمثله أحمد حسن البكر الذي اختير رئيسًا للجمهورية.

... بدأ الاستعداد للمؤتمر الثاني لجبهتنا، اشتركت في إعداد تقرير بعنوان الفكر يقود البندقية يناقش معنى العنف الثوري المنظم: أولًا، التمييز بين نضالنا وبين الانتفاضات القبلية السابقة، العنف القبلي عنف «عفوي»، أي إنه بدون تنظيم أو هدف. أنتج ثائرين لا ثوريين، أي أناسًا حملوا السلاح ضد السلطة لكنهم كانوا يفتقدون إلى الفكر الذي يقود البندقية، أي النظرية الثورية. (عكس النظرة العفوية الغالبة على الكفاح الفلسطيني المسلح، حيث أضفيت على البندقية صفات شبه عجائبية في مجال بناء الوعي الثوري. «تصريح أبو عمار بأن البندقية هي القائد الوحيد للثورة الفلسطينية».)

العنف الثوري المسلح = الوعي الثوري + التنظيم الثوري. كيف يمكن تحقيق الانتقال من «الولاء الأعمى للقبيلة إلى الولاء السليم للثورة»؟ يتوقف ذلك أولًا على تحقيق الارتباط بين المبادئ العامة للماركسية والوضع المخصوص لظفار التي تختلف عن الصين وفيتنام مثلًا في أنها أقل تطورًا، ولم تنتج طبقة ملاك أرض أو برجوازية كمبرادورية كالتي ظهرت في الخليج.

٣ أغسطس

... حملة ضد الشيوعيين والأكراد في العراق يقودها صدام حسين الرجل الثاني في النظام.

٢١ أغسطس

... قوات حلف وارسو تدخل تشيكوسلوفاكيا لتوقف مسلسل المراجعة والتحريفية.

أول سبتمبر

... عقدنا المؤتمر الثاني لجبهة تحرير ظفار في حمرين بوسط الإقليم. ستون مندوبًا يمثلون جيش التحرير والميليشيا والتنظيم السري في مختلف أقطار الخليج. ضيوف من عدن بينهم الرفيق سامر الذي تجاهلني تمامًا. توزعنا على البيوت والزرائب. المساكن

مستديرة وبيضاوية ذات سقوف مقببة. أحصيت خمسين منها. الجدران من أحجار كبيرة الحجم. السقوف من فروع الأشجار المغطاة بطبقة كثيفة من الحشائش والقش، فتحة واحدة للمنزل ارتفاعها متر وعرضها أقل من المتر، مزودة بمصراع خشبي، قاعة واحدة نصفها مفروش بالحشيات للمعيشة والنوم. النصف الثاني مخصص لحفظ الأقمشة والأدوات المنزلية والأطعمة والحطب والسمك المجفف. قرب المدخل فرن مكشوف. استضافتنا أسرة من الرفاق أنا والرفيقة هدى. ابنة رجل أعمال في البحرين وطالبة سابقة بالجامعة الأمريكية في بيروت. سمعت عنها كثيرًا، ولحظت أن الجميع يحترمونها، أكبر مني ببضع سنوات.

٢ سبتمبر

... جرت الاجتماعات في كهف كبير كان مأوى للماشية خلال موسم الأمطار، أدلى الرفيق صالح بالتقرير السياسي: الطبقة القادرة تاريخيًّا على مقارعة الاستعمار هي طبقة العمال والفلاحين الفقراء والجنود والمثقفين الثوريين. البرجوازية أنجزت الثورة الوطنية الديموقراطية في البلدان الرأسمالية المتطورة، لكنها لا تستطيع ذلك في المستعمرات. لهذا فالأمر يتطلب ثورة متصلة. البلاد المستعمرة لن تمر بمرحلة برجوازية. ستقوم الطبقة العاملة بمهمة الثورة البرجوازية وسيتبع استيلاءها على السلطة إقامة دكتاتورية البروليتاريا. على الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية أن تتخلى عن أسطورة إمكانية الانتقال السلمي إلى الاشتراكية.

على الصعيد العربي: فشل القيادة البرجوازية الصغيرة لحركة التحرر الوطني في حل قضايا الثورة الوطنية الديموقراطية بسبب غموضها النظري وسياساتها المتذبذبة، كما اتضح في هزيمة حزيران المشئومة وحدة القوى الثورية العربية هي الشرط المسبق لوحدة عربية سلمية ذات محتوى اشتراكي علمي.

٥ سبتمبر

... شرح الرفيق فاتح الموقف من الحوار داخل الحركة الشيوعية العالمية. لا يختلف عن موقف سائر فصائل اليسار الثوري في المنطقة: إدانة التحريفية مع تأييد الخط الثالث في الحركة الشيوعية العالمية المتمثل في كوبا وفيتنام وكوريا الديموقراطية.

٧ سبتمبر

... سألني أحد الضيوف الفلسطينيين عن السر في انتشار فكر ماو وتأثيره على الحركات الثورية. أجبته بأن فكر ماو هو التنظير الماركسي الأكثر تقدمًا وبلورة لقضايا النضال الوطني والاجتماعي في العالم المستعمر وشبه المستعمر.

... عرفت أن رشدي يكتب في الصحف.

١٠ سبتمبر

... الرفيقة هدى شخصيتها قوية. لم ننسجم سويًّا.

١٥ سبتمبر

... قمت بدور نشيط في المناقشات، هناك معارضة واضحة من جانب العناصر اليمينية.

... وصل يعرب فجأة. جاء عن طريق عدن، تغير بعض الشيء يبدو عليه الارتباك والقلق، احتضنني بعنف وشعرت أنه انتصب، بل وأعتقد أنه قذف، أرجعت ذلك لانفعاله الشديد بأول لقاء لنا منذ أكثر من ثلاث سنوات. مع ذلك أشعر بالحرج في وجوده.

١٦ سبتمبر

... طلب فهد يدي من يعرب! قلت ليعرب إني لا يمكن أن أتزوج من شخص لم أختره أنا.

١٨ سبتمبر

... قال لي المقاتل: سننتصر بإذن الله على السلطان وعندما ننتهي منه سنتفرغ للشيوعيين، سألته مدهوشة: ما لهم؟ قال بحرارة: سنطهر الأرض منهم. سألته في حذر: لماذا تكرههم هكذا؟ قال: لأنهم ملاحدة ويجامعون أمهاتهم. ليس عندهم أخلاق أو دين.

فكرت أنه لو كان هذا النقاش حدث معي منذ ثلاث سنوات أو سنتين كنت وافقته في الحال على أن لهم أيضًا ذيولًا مثل القردة.

... المشكلة أن الشيوعيين التقليديين ليسوا ثوريين بما يكفي. لا يجيدون غير الكلام. قال عنهم جيفارا إنهم قادرون على الاستشهاد في المخابئ دول أن تصطك منهم الأسنان، لكنهم غير قادرين على تشكيل مجموعة تقتحم وكرًا من أوكار الرشاشات.

٢٠ سبتمبر

... استمرت المناقشات إلى اليوم. القرارات: تبني الاشتراكية العلمية، اعتماد المرشدين السياسيين في كافة وحدات الجيش الشعبي، بناء قوات الميليشيا، تحرير الرق، تنظيم الزراعة، تغيير اسم الجبهة إلى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل. أهمية هذا التغيير أنه ينفي عنا صفة الإقليمية والانفصالية ويؤكد وحدة المصير بين أقطار المنطقة.

... قرار هام: تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة.

... في حديث جانبي قال لي رافع إنه غير مستريح للاتجاه السائد رغم تأييده للقرارات. يعتقد أننا سنفقد جاذبيتنا السياسية نتيجة تبني الماركسية اللينينية. قال إن جبهة تحرير فيتنام لم تعلن تبنيها للماركسية اللينينية؛ لهذا صارت لها قاعدة جماهيرية أوسع. أضاف: قليل من الظفاريين يستوعب معنى القومية المعاصرة فما بالك بالماركسية؟ قلت له إن الإنسان يتعلم والحياة والمعركة تطوران الوعي. قاطعني ساخرًا: الواحد منهم يقول أنا من قبيلة كذا فكيف تريدين أن تحددي له وضعًا طبقيًّا؟ يقرأ كتاب «التطرف اليساري عبث أطفال» الذي ألفه لينين. وعد بإعطائه لي.

٢١ سبتمبر

... انتخب المؤتمر قيادة جديدة من ٢٥ عضوًا ولجنة تنفيذية من خمسة، وأمينها محمد أحمد الغساني، معه أحمد عبد الصمد وعبد العزيز القاضي وعبد الحافظ جمعان وحمدان سيف الظرياني، لم يتبقَّ سوى ٣ فقط من أعضاء القيادة السابقة، أدى هذا إلى انشقاق جماعة يوسف بن علوي ومسلم بن نوفل وعدد من شيوخ القبائل اتهموا المؤتمر بأنه انقلاب على يد نواة دربها الصينيون تخلصت من المسلمين المخلصين.

... هاجم يعرب القرارات. قال إنه سيواصل الكفاح مع جماعة مسلم بن توفل. دعاني للانضمام إليه. علق أحد الرفاق بأنه غاضب لأنه لم يُنتخب لعضوية اللجنة التنفيذية.

... ناقشت أحدهم طويلًا فسألني: هل أنت مسلمة؟ أجبته بسؤال: ماذا سيتغير إذا كنت مسيحية أو يهودية أو حتى ملحدة؟ تدخل آخر في نفاد صبر: هل تؤمنين بالله؟ أردت أن أعابثه فقلت: أي واحد؟ هناك آلهة كثيرون. كل دين له تصور مختلف عن الله. صاح فيَّ: بلا لف أو دوران. هل تؤمنين بإله المسلمين. هل أنت مسلمة؟ قلت: أعتقد أني

مسلمة حقيقية. أي أني أومن بإله الحق والعدل. ربما أنظر إلى الموضوع من زاوية ما. أنت مثلًا تتصور الله بصورة المذكر وأنه فوق. هو في الحقيقة في كل مكان وليس له جنس محدد لأنه من مادة مختلفة عن المادة التي صنعنا منها، من المادة التي يتكون منها الوجود كله. القرآن يؤكد على ذلك، بدا عليه عدم الفهم لكلامي، سألني الأول إذا كنت أصلي. أجبته: القرآن أعفى المسلم من فرض الصلاة إذا كان على سفر، أظن أن هذا ينطبق علينا هنا. لذلك من الأفضل التركيز على المفيد. أفضل مثلًا أن تسألني عما إذا كنت أومن بحقوق الشعب أو بالثورة أو بأننا سننتصر. صمتا فعدت أقول بلطف: نحن لسنا ضد الدين وإنما ضد من يحاولون استغلاله لقهر الشعوب وتبرير استغلالهم لها. الإسلام هو أول نظام عالمي وضع بذور تحرير العبيد. ومع ذلك ظل الرق قائمًا طوال فترة الحضارة الإسلامية، لماذا؟ لأن أصحاب المال كانوا دائمًا في مركز القرار. مبادئ الدين شيء ومن يطبقونها شيء آخر.

الفصل الثامن

مسقط

ديسمبر ١٩٩٢

انقسم الطريق الرئيسي إلى اتجاهين مستقلين، وقام زيد بسلسلة من الدورات المعقدة وهو يوزع اهتمامه بين المرآتين الأمامية والجانبية، مدققًا النظر في السيارات القليلة القادمة خلفنا. اخترقنا وسط المدينة القديمة وطرقاتها الضيقة، وهو يشير إلى المعالم التي تمر بها: قلعة كبريتة، متحف بيت نادر، سور المدينة، السفارة الأمريكية. تمهل عندما أشرفنا على مبنى السفارة البريطانية، وأشار إلى سارية العلم المثبتة في ساحتها الرحبة قائلًا: في السابق كان العبد المملوك الذي يستطيع الوصول إلى هذه السارية ويلمسها يمنح الحرية الكاملة ويزود بشهادة من السفارة تثبت بأنه أصبح حرًّا لا يجوز التعرض له.

أعجبتني الفكرة وتخيلت سارية مماثلة في كل عاصمة عربية.

أومأ إلى قلعة الجلالي العتيقة التي تشرف على المكان من فوق قمة جبل يمثل شبه جزيرة ممتدة باتجاه البحر: البرتغاليون هم الذين بنوا هذه القلعة منذ أربعة قرون، وما زالت فتحات المدافع موجودة. أما الأبراج الدائرية التي تراها فقد تحولت إلى سجون حصينة تفصلها عن البحر شباك حديدية. تصعد ابتداءً اثنتين وخمسين درجة حتى تصل البوابة الرئيسية الأولى، ثم ٤٨ درجة حتى الثانية. وهنا يفكون قيودك ويضعون مكانها القيود الخاصة بالسجن، قيود فولاذية لها أسماؤها: سنجور طوله قدم ونصف قدم، لا يقل وزنه عن خمسة كيلوجرامات، ويونس على شكل قذيفة مدفع ووزنه أربعة كيلوجرامات. الزنازين أيضًا أشكال وألوان، في الطابق الأرضي هناك زنزانة تتسع لمائة وعشرين شخصًا، وهناك الزنزانة رقم ٧ التي لا تريد مساحتها عن ١٢ مترًا ويودع بها

عادة ستون سجينًا يتناوبون الوقوف والجلوس أو التمدد على الأرض من أجل قسط من النوم.

التفت إليه في فضول وقلت: أنت تتكلم عن معرفة.

دار بالسيارة في طريق العودة وقال: طبعًا أنا ضيف قديم هنا.

لأول مرة يذكر معلومة عن نفسه، سألته: متى؟

– كنت في الثامنة عشر من عمري تقريبًا. اعتقلوني مع أخي الأكبر عقب هزيمة ٦٧ أيام السلطان سعيد. لم نكن نرى الضوء وطعامنا يقتصر على التمر والخبز صباحًا والعدس ظهرًا، الحراس كانوا وحوشًا بمعنى الكلمة، ولا يوجد بينهم عماني واحد، فجلهم من البلوش أو المرتزقة. وكانت القيود تحز في أيدينا وأرجلنا. كنا نرسم على الجدران بالدم المتسرب من الحز. كنا نرسم شموسًا وورودًا. ورودًا حمراء.

– هل بقيت مدة طويلة؟

– سنة ٦٩ نجحنا مع اثنين من رفاقنا في التسلل باتجاه البحر بعد أن مزقنا أسلاك الشباك الحديدية واستولينا على زورق القنصل البريطاني الراسي قرب السجن. قطعنا مسافة كبيرة بالزورق حتى المنطقة التي يوجد بها ميناء الفحل الآن، ثم نفد البترول وحوصرنا وتمكن أخي من الفرار بينما وقعت أنا، وخرجت مع الجميع عندما تولى قابوس السلطة سنة سبعين.

– وأخوك؟

– هرب إلى الخارج بعد هزيمة الثورة سنة ٧٥.

– ولم يعد؟

– لا.

– لماذا؟ ألم يعفُ السلطان عن الجميع؟

– هل صدقت قصة العفو العام؟ الذين استجابوا لهذا القرار احتجزوا عدة أسابيع جرى خلالها معهم تحقيق واسع عن نشاطهم السابق، ثم أُجبروا على توقيع عريضة يتبرءُون فيها من ماضيهم ويتعهدون بعدم ممارسة النشاط السياسي.

– هل تعرف سالم؟

– الذي في مركز الموسيقى؟ نحن نسميه سالم مطيع. أعرفه بالاسم فقط.

– كان يدرس في بلغاريا. وقال لي إن الجبهة هي التي أرسلته. هل عاد بنفس الطريقة.

– كلهم وقَّعوا.

غيرت مجرى الحديث: أفهم أنك ما زلت في المعارضة.

ضحك كاشفًا عن أسنانه الناصعة البياض: يمكنك أن تقول ذلك.

– ما لاحظته هو أن هناك عملية تحديث تمت بالفعل. أشياء كثيرة كان لا بد ستفعلها الجبهة لو أتيح لها استلام السلطة. البنية الأساسية مثلًا.

– أي تحديث هذا الذي يتم تحت سيطرة الأجنبي؟ هناك مستشار إنجليزي في كل وزارة. وهناك قواعد أمريكية جوية وبحرية في أماكن مختلفة. في جزيرة مسندم. في تمريت. هناك قاعدة بريطانية قديمة في جزيرة مصيرة ببحر العرب حولتها الولايات المتحدة في ٧٥ إلى محطة تموين لطائراتها المنطلقة من الفليبين، وتم تطويرها وتحديثها عام ٨٠، وقامت بدور مهم في تسهيل وصول الطائرات الأمريكية إلى إيران في عملية تحرير الرهائن الفاشلة. بل هناك قاعدة جوية في السيب بجوار مسقط. هناك أيضًا إسرائيل، علاقات وتطبيع وجواسيس يمرحون في كل مكان.

قلت: في مصر قواعد أمريكية أيضًا ومناورات مشتركة وتطبيع رسمي مع إسرائيل، لكن الثوريين لا يقولون بقلب النظام ويسعون إلى التأثير فيه. السياسة هي فن الممكن.

ضحك وقال في ازدراء: ومن قال إن هناك ثوريين في مصر؟ اسمع. التحديث المزعوم انتهى. خلاص. آخر مول بني هذا العام ولا جديد بعده.

– مول.

– أقصد المراكز التجارية الضخمة، النظام قدم كل ما عنده، أنفقوا عوائد النفط في شراء الأسلحة الغالية، وفي مشروعات تتطلب مقاولين أجانب يأتون ومعهم رجال الإدارة العليا والمتوسطة، ثم يتحدثون عن التعمين.

– لكني لاحظت نشاطًا واسعًا للقطاع الخاص.

– رجال الأعمال العمانيون يستثمرون في مشروعات تعيد لهم أموالهم في أسرع وقت خاصة في الإسكان. يقترضون رأس المال من بنك تجاري، ثم يفرضون إجارات عالية تغطي تكلفة المشروع في ثلاث سنوات ويحولون الأرباح إلى بنك في الخارج.

– لم أكن أقصد الإسكان وحده، فهناك …

قاطعني: الجامعة تكلفت مليارًا، لهف معظمها ابن مرجريت تاتشر وعدد من الوزراء، هذا الطريق الذي نسير عليه أليس حريرًا؟ كل فترة يعاد رصفه بواسطة مقاولين هم أنفسهم الحكام. النظام مسخر لخدمة مصالح التجار الكمبرادور من الأسرة الحاكمة

والوزراء وشيوخ القبائل ووجهائها. كل من تولى منصب وزير أو مدير دائرة أصبح مليونيرًا. هناك سياسة حكومية لتشجيع هذه الظاهرة، مدير بنك سرق عدة ملايين وافتضح أمره فحكم عليه بالسجن سنتين مع وقف التنفيذ ... وكيل وزارة البلديات قبض رشوة من شركات أجنبية قدرها ثلاثة ملايين ريال، وأبلغ عنه شريكه، فحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات مع وقف التنفيذ. وكيل وزارة المواصلات أيضًا حكم عليه بسنتين وغرامة مع وقف التنفيذ، ثم صدر عنهم عفو، بل منح الثاني مكافأة مالية!

قلت: هذه مسائل عادية اليوم. عندنا في مصر الكثير منها، ثم إن ...

استوقفني قائلًا: أعرف ما ستقوله. إن هذه العملية تحقق إعادة توزيع الدخل وخلق مجتمع رأسمالي. لكن المشكلة هي أن برجوازيتنا متخلفة فاقدة لطموح البرجوازية السياسي وتقاليدها وقيمها. والنظام يعتمد سياسة قصيرة الأمد. إيرادات النفط تمثل حوالي ٨٥ في المائة من إيرادات الدولة و٧٠ بالمائة من الإنتاج القومي الإجمالي. يمكنك إذن أن تتصور المستقبل المظلم الذي ينتظرنا خلال عقد أو عقدين عندما ينضب النفط. والدولة لا تفكر في ذلك ولا تهتم، وإنما تتمسح بإسرائيل لتفتح لها أبواب الاقتراض من المؤسسات الدولية.

أليس هذا شأنهم جميعًا؟

كانت الشمس تغرب بسرعة وأضاءت السيارات كشافاتها. بلغنا شمال العاصمة الذي خلا تمامًا من المارة ولزمناه في اتجاه الكورنيش.

سألني: قرأت؟

فتحت حقيبة يدي وأخرجت منها الكيس الذي يحوي اليوميات وأطرقت بالإيجاب.

تناول الكيس ووضعه أسفل مقعده. وعندما استعاد يده كانت تحمل كيسًا آخر قدمه إليَّ.

– كراسة أخرى؟

لم يرد إذ تعلقت عيناه بالمرآة.

كانت هناك سيارة خلفنا تضيء وتطفئ كشافاتها الأمامية في إشارة متعمدة. وتبينت فوق سطحها المصباح المألوف.

أسرع يدس الكيس تحت مقعده وهو يقول: الشرطة.

أخذ جانب الطريق وأوقف السيارة. وفعلت سيارة الشرطة المثل خلفنا. نزل منها شرطي يرتدى قميصًا بنصف كم وبنطلونًا بلون عسكري ويضع على رأسه كابًا بشريط

مزخرف. اقترب منا على مهل حتى بلغ نافذة السائق فرفع يده بالتحية العسكرية وطالبه بأوراق السيارة في أدب وحزم.

ألقى نظرة على الأوراق في ضوء مصباح يد يحمله ثم أعادها إلى زيد والتفت إليَّ قائلًا: ضع حزام الأمان من فضلك.

اكتشفت أنني نسيت ربط حزام الأمان، فجذبت طرفيه على الفور. رفع يده بالتحية مرة أخرى واستدار عائدًا إلى سيارته.

سألت زيد إذا كان معه سجائر.

قال: التدخين ضار بالصحة.

أدار السيارة وانطلق حتى الدوار الذي يبدأ منه شارع قابوس. أضاف كأنما لنفسه: في الغالب لمحونا وتبينوا أنك لا تضع حزام الأمان. إنهم يلبدون دائمًا في أماكن مظلمة ويظهرون فجأة.

بدا عليه التردد ثم قال كأنما حسم أمره: ولن تصل إلى صديقيك هنا في العاصمة. لا بد لك من السفر إلى صلالة.

سألت في دهشة: في الجنوب؟

أومأ برأسه: نعم. إنها تبعد أكثر من ألف كيلومتر، لكن الطائرة تقطعها في ساعة ونصف، يمكنك أن تذهب بالسيارة في حوالي عشر ساعات أو اثنتي عشرة على الأكثر.

– وماذا سأفعل هناك؟

– سيتولى أصدقاء لي مساعدتك.

– ألا تجد غرابة في الأمر؟ أنت تطلب مني الذهاب إلى آخر الدنيا دون أن تذكر لي من سأقابل وكيف. أنت لا تذكر حتى اسمك. لماذا تظن أني مستعد لمثل هذه الرحلة من أجل العثور على شخص بتعبيرك أنت لم أرَه من ثلاثين سنة؟

هزَّ كتفيه: لن تندم إذا ذهبت. إنها منطقة رائعة الجمال. على الأقل سترى قبر النبي أيوب.

وضحك.

– وماذا يهمك أنت من الأمر؟ ماذا تستفيد؟

– سأقول لك. لا بأس من أن تعرف بضعة أشياء بعد كل هذا.

– لا بأس فعلًا.

– أنا ورفاقي نخوض صراعًا مريرًا في عدة جبهات منها جبهة الانتهازيين. إنهم هؤلاء الذين عقدوا مؤتمرًا مزيفًا وانتحلوا لأنفسهم اسم الجبهة ورفعوا راية الاستسلام

للنظام وقدموا التنازلات. إنهم يحلمون بالاشتراك في السلطة وكل ما يصلون إليه هو مسح الأحذية.

كم مرة سمعت فيها هذه التعبيرات؟

– إنهم يشيعون أن صاحبتك وردة كانت تدعو للتفاهم مع السلطة والتخلي عن الكفاح المسلح. إنها شخصية أسطورية هنا. واختفاؤها ما زال لغزًا. لا أحد يعرف ما حدث لها بالضبط. أنا شخصيًّا أعتقد أنها أُعدمت على يد رفاقها، وهناك من يعتقد أنها موجودة على قيد الحياة وستظهر في الوقت المناسب. مثل قصة المهدي. ها أنت ترى أن الكشف عن حقيقة موقفها ومصيرها جوهري بالنسبة للصراع الدائر مع الانتهازيين.

– وكيف سيتم ذلك؟

– أنت قرأت جزءًا من يومياتها، والجزء الذي سأعطيه لك هو آخر ما لدينا. هناك أجزاء أخرى. وفيها الإجابة عن كل الأسئلة.

– وأين هذه الأجزاء الأخرى؟

– في صلالة.

– فكرت قليلًا ثم قلت: أظن هذا هو السبب في أنك تريدني أن أسافر؟

التفت إليَّ مبتسمًا: بالضبط. أنت الوحيد الذي يستطيع الوصول إليها.

– أنا؟ لماذا؟

– لأنها ذكرتك بالاسم. وطلبت أن تُسلَّم إليك.

كنت عاجزًا عن الحديث، أدير المعلومات المتلاحقة في رأسي.

أخيرًا قلت: هناك شيء لا أفهمه. أنت لا تعرف محتويات الأجزاء الباقية، ومع ذلك تقول إنها طلبت أن تسلم إليَّ.

– هذا ما تقوله ابنتها.

– ابنتها؟

نظر إليَّ محرجًا ثم قال: لم تكن تعرف أن لها ابنة؟

– لأ. ما هو عمرها؟ من هو الأب؟

– عمرها بالكاد ١٧ و١٨ سنة. أما الأب فهو من قبيلة معروفة، وكان من قادة الجبهة ثم اختفى أيضًا مع وردة وأخيها. والبنت الآن تعيش في كنف عمها ولا يستطيع أحد الاقتراب منها. وهي تحتفظ بالجزء الباقي من اليوميات، وترفض إعطاءه لأحد غيرك وشخص آخر لبناني. لهذا لا تتصور سعادتنا عندما عرفنا بوصولك.

– وكيف أجدها؟

– إنها ترأس الجمعية النسائية في مرباط. قرب صلالة.

– واسمها؟

– وعد. وعد الغميري.

هززت رأسي تعجبًا: افرض أني لم آتِ أصلًا.

– كنا سنجد وسيلة ما. أما وأنت هنا الآن ...

– لو ذهبت فكيف سأتصل بأصدقائك؟ كيف سأتصل بك؟

– ليست هناك ضرورة. سيعرفون عندما تصل، سيجدونك بسهولة، صلالة مدينة صغيرة، ربما لا يتجاوز تعداد سكانها عدد قاطني شارعين بالقاهرة.

تطلعت حولي في المعالم التي نمر بها ثم قلت: لا أظن أن رغبتي في معرفة مصيرها كافية لأن أقوم بكل هذه المغامرات. أنا مجرد زائر عابر. لا شأن لي بقضاياكم ومشاكلكم.

استخرج الكيس الذي أخفاه أسفل مقعده وناوله لي: اقرأ أولًا، ربما غيرت رأيك، سأتصل بك بعد يومين.

أخذت الكيس وقلبته في يدي كان يحمل اسم لاكوست وعلامة التمساح الشهيرة. وبدا خفيف الوزن لا يحتوي على أوراق كثيرة. دسسته في حقيبة يدي وعلقتها في كتفي.

كنا قد بلغنا دوار رُوي ولمحت لافتة مطعم كنتاكي عن بُعد فطلبت منه إيقاف السيارة. مددت يدي إلى المقبض ودفعت الباب إلى الخارج، ثم تمهلت وقلت: لماذا الاهتمام بهذه المذكرات أو اليوميات الآن؟

– لأنها لم تظهر إلى الوجود إلا منذ فترة قصيرة.

– أنت تفترض أن الأجزاء الباقية تدعم وجهة نظر جماعتك. ماذا يحدث لو تبين العكس؟

اتسعت ابتسامته: هل تتذكر ما حدث لوصية لينين؟

الفصل التاسع

جبال ظفار

١٩٦٨–١٩٧٠

٣١ أكتوبر ١٩٦٨

... تكونت هيئة باسم «لجنة حل مشاكل الشعب» تتألف من خمسة أعضاء: أنا، رافع، عمار، غزال، جداد. علينا أن نطوف بالمنطقة الغربية باستمرار لحل الخلافات القبلية والمنازعات حول الأرض والماء والخلافات الشخصية. المفروض أن نجتمع بصورة دورية. انتخبت لأمانة اللجنة رغم معارضة فهد. تولى قيادة الفرقة مكاني الرفيق عوض. من صلالة ومن أصول زنجية، ويتميز بالحيوية الشديدة وبالقدرة على حل كافة أنواع المشاكل. لا يتمتع بمستوى جيد من ناحية الوعي النظري.

... جداد عمره ٢٦ سنة. ولِد في شمال المنطقة الوسطى. انتقل إلى أبوظبي في بداية الستينيات، حيث التحق بالشرطة إلى جانب الدراسة الابتدائية، وانضم إلى التنظيمات السرية للجبهة. في بداية ٦٥ عاد في إجازة إلى مسقط والتحق بالثورة.

أول نوفمبر

... أقامت الفرقة حفل وداع لي. أعددت لهم لقمة القاضي، رددنا الأناشيد الثورية. سألني الرفيق عوض إذا كنت أعرف الرقص. قلت طبعًا، ظننته يقصد الرقص الغربي. أحضر لي حزامًا ألقيت عليه دوشا، الرقص الشرقي رمز لعبودية المرأة ولعهود الإقطاع والرقيق. اقترحت رقصة ظفارية جماعية.

... زوجة عوض سوداء مثله، ظريفة. طويلة ونحيفة. صدرها ممسوح.

... مشاعري متناقضة. لقد قضيت ثلاث سنوات من عمري مع هذه المجموعة من المقاتلين. ولا أستبعد أن تكون لفهد يد في إقصائي عن العمل العسكري. فهو لا يُخفي رغبته في الانفراد بقيادته في كل الإقليم. من ناحية أخرى لا أنكر شعورًا بالارتياح. العمل العسكري في نهاية الأمر غير إنساني بالمرة.

٢ نوفمبر

... اجتمعنا للتعارف ووضع خطة عملنا والمبادئ التي تحكمنا. هدفنا الرئيسي هو تربية الجماهير بروح جديدة في التعامل والتعاون والتسامح والمقاومة للطغيان.

... مهمتنا الأولى كانت التصدي لصعوبات التموين في المنطقة الوسطى. الجمال تتعثر في مشيها الوئيد في العقبات والشعاب. اقترحت استبدالها بالحمير والبغال. واجهت امتعاضًا وممانعة. الجباليون يحتقرون كل حيوانات الجر غير الجمال.

٣ نوفمبر

... ضلكوت بلدة ساحلية ذات مبانٍ جميلة على مبعدة ٨٠ كم من صلالة. يسكنها خمسمائة نسمة يرعون الماشية في الجبال المجاورة، ويزرعون الأذرة في الخريف. التبغ ينبت عند الجروف دون زراعة. ذهبنا إلى قرية جبلية تطل عليها للنظر في قضية. شيخ قبيلة اعتدى بالضرب على امرأة لأنها تجرأت على سقي ماشيتها قبل ماشيته، قطعنا مسافة على ظهور الجمال ثم استكملنا الباقي سيرًا على الأقدام. استقبلتنا الشعارات على الجدران: يا شعب الخليج اتحد، دقت ساعة التحرير، الاستعمار خائف من جبروت الشعب، لنجابه العنف الرجعي بالعنف الثوري المنظم، جيش التحرير الشعبي في خدمة الشعب، ثورتنا ثورة أحرار نفديها بالدم الحار، إرادة الشعب تقهر الأسلحة الحديثة. أكواخ من جذوع الأشجار بعضها مخروطية على شكل البيوت الأفريقية. تعلوها أعلام الجبهة التي تجمع بين الأحمر والأبيض والأسود. رحب بنا المرشد السياسي للوحدة المحلية وزوجته التي تضع حلقًا في منتصف أنفها وترتدي شبشب زنوبة. قدمت لنا الماء في نصف جوزة هند فارغة، اغترفت بها من طشت. أعدوا لنا الشاي في صفيحة صغيرة لعلها كانت تحوي جبنًا أو زيتونًا أو سمنًا وضعوها فوق موقد كاز بريموس الشهير. على مبعدة ركع

أحد المقاتلين فوق تبة ممسكًا بمنظار ميدان. كان يرتدي شورتًا فوقه سترة بنصف كم وعلى صدره عدة أحزمة خراطيش، بجواره رفيق يرتدي جوربًا أحمر وحذاء كاوتشوك.

هرع إلينا كهل. طلب منا علاج ابنه، قلت له إننا لسنا بأطباء، تدخل المرشد السياسي وقال له إننا من الثورة. لم يبدُ على الرجل أنه فهم لأنه أصر، قال له إننا «نعكس»، أي إننا صحفيون يستخدمون الكاميرا. لم يفهم أو تظاهر بذلك وأصر على أن نرى ابنه. ذهبنا معه إلى كوخ على حافة القرية، صبي صغير عنده خراج في رجله من كثرة الكي، قلت للمرشد السياسي أن يدبر نقله إلى الحوف على بعد ساعة، ومنها يحمله قارب ١٤ أكتوبر إلى الغيضة، ومنها إلى مطار الريان ثم عدن.

شربنا الشاي ونحن نتابع طابورًا من النساء ينقلن الأحجار المتخلفة عن عملية توسيع نبع مياه. قبل الثورة كان لكل قبيلة نبعها الخاص، أما الآن فقد أصبحت الينابيع متاحة للجميع. رأينا شابًّا يرفع الطشت الذي شربنا من مائه ويضعه أمام جملين. أرانا المرشد السياسي في فخر أول مضخة مائية في المنطقة المحررة. كان هناك أنبوب أبيض طويل يمتد منها إلى إناء حديدي استند إلى حجرين واشتعلت النار أسفله. قال مزهوًا: نحن نقوم بتعقيم المياه.

لمحت رجلًا غير مسلح يزين صدره بدائرة معدنية صغيرة في حجم العملة، تحمل صورة ملونة لماو تسي تونج، أشرت إلى الصورة وسألته: من هذا؟ قال: زعيم المسلمين، قلت: من قال لك ذلك؟ أشار إلى المرشد السياسي. قال لي الأخير معتذرًا: إننا نقول لهم هذا ليمشوا معنا. قلت إن هذا خداع لا تقبله الثورة ولا ماو تسي تونج نفسه، وإنه إذا كان يريد كسب المواطنين فعليه أن يخدمهم ويحل لهم مشاكلهم ويطور لهم وعيهم. عندئذٍ لن تكون هناك ضرورة للكذب.

٤ نوفمبر

... استمعنا إلى تفاصيل حادث الاعتداء ثم عقدنا اجتماعًا منفردًا للاتفاق على خطة العمل. الرفيق عمار رأى ضرورة الشدة لكي نعطي درسًا للقوى الرجعية، وفي نفس الوقت نشجع الجماهير على الوقوف ضدها. أعجبني عرضه. له طريقة مقنعة في الحديث. يتكلم في تؤدة ووقار وبلهجة قاطعة. يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويضع يده خلف أذنه على طريقة المقرئين عندما يوشك أن يدلي برأي؛ لهذا أطلقنا عليه لقب الشيخ. أيده معجب الذي كان يعمل بالرعي في المنطقة الشرقية. جاءت المعارضة من جانب الرفيقين الآخرين.

قال غزال إننا يجب أن نقدم صورة إنسانية ونتجنب إثارة الأحقاد. نصح بأن تكون العقوبة خفيفة. أدهشني تأييد الرفيق رافع لهذا الرأي. فهو من فئة المنبوذين ومن سلالة العبيد وذاق الأمرين على يد شيوخ القبائل. عندما جاء دوري كنت أنوي تأييد الرفيقين الأولين، لكن نظرة ودودة أبوية من رافع دفعتني إلى التردد. وخف هو إلى مساعدتي باقتراح أن نترك للمواطنين أنفسهم اختيار الحكم المناسب.

كان الجيش الشعبي المحلي قد احتجز الرجل. فأمرنا بإحضاره إلى موقع جريمته حيث روت المرأة ما حدث أمام بقية السكان. تكلمت باسم اللجنة وأكدت أن المواطنين جميعًا يملكون حقوقًا متساوية على المياه والأرض، ثم طلبت من الحاضرين أن يحددوا نوع العقوبة التي يستحقها الرجل، وفي النهاية قرروا العفو عن الشيخ لأنها أول جريمة يرتكبها. واكتفينا بأن يعتذر للمرأة.

٥ نوفمبر

... في الصباح شعرت في لحظة كأنني في صنعاء. أحاطت بي روائح البيوت وأصوات الماشية وصيحات الأهالي وضجة الأطفال. تأملتهم يجرون حولي وأنا شاردة، ثم عدت إلى الواقع عندما تبينت ما يفعلون. كانوا يمسكون بأغصان الأشجار ويتظاهرون بأنها بنادق وآليات ويطاردون الماعز على أنها جنود بريطانيون وباكستانيون. تناهى إليَّ فجأة صوت أزيز مألوف. ظهرت في الأفق مراوح طائرة هليكوبتر، أطلقت صيحة تحذير وجريت إلى الكوخ الذي تركت به سلاحي. راقبت الطائرة وهي تحوم فوقنا. في الغالب عملية استكشاف، حملت سلاحي واحتميت بجدار صخري ثم أطلقت النار عليها، تلاحقت نيران آليات أخرى فدارت الطائرة وارتفعت بسرعة في الهواء وهربت. سمعنا بعد لحظة صوت انفجار مدوٍّ. اكتشفنا أنها قصفت العين التي يحصل منها الأهالي على الماء، وأصابت بقرتين وناقة. قام الرفاق على الفور بشراء الحيوانات المصابة من أموال الجبهة. ذبحوها وقطعوا لحمها على شكل شرائط نشروها فوق أغصان الأشجار.

٦ نوفمبر

... هرب أحد الشبان من بيت أبيه في القاعدة الإنجليزية وصعد إلينا. حمل معه أوراق ضابط إنجليزي. كان عليَّ أن أقرأ هذه الأوراق وأترجمها إلى العربية. الضابط اسمه

الكابتن س. هيبورت. الأوراق أشبه بتقرير أو مقالة لإحدى الصحف. سجلت بعض فقرات منها:

«كان لي الشرف أن أُنتدب للخدمة في جيش السلطان. كنا في الخريف والجبل مكسو بالضباب والمطر الغزير، فانسحبت السرايا إلى المنحدرات الشمالية على حدود الصحراء. التحقت بسريتي التي كانت تبعد مسيرة يومين عن أقرب سرية مجاورة، فيما كنا نسميه المنطقة الغربية.

كل شيء هادئ، فالثوار يستغلون الغطاء الكثيف الذي يوفره لهم الخريف لتسيير قوافل الجمال المحملة بالأسلحة والذخائر والألغام من قراهم في جنوب اليمن، لذا قضيت الأسابيع الأولى من إقامتي في سلسلة من الدوريات والكمائن لقطع طرق التموين التي كانوا يستخدمونها. وقد اغتنمت هذه الفرصة لتحسين لغتي العربية والتعرف إلى الجنود.

كان جيش السلطان مكونًا من ثلاث كتائب وسلاح جوي صغير من نصف دستة من طائرات «بروفست» المخلخلة، المحملة بالرشاشات والصواريخ، بالإضافة إلى قوة بحرية من دهوين خشبيين قديمين (الدهو مركب شرعي مألوف في شواطئ الجزيرة العربية). وكان على هذه القوة الصغيرة أن تسيطر على منطقة بمساحة الجزر البريطانية، لكن تنقصها وسائط النقل أو الطرق الممتازة.

ثلثا الجنود من المرتزقة البلوش الذين يعبرون الخليج العربي للانضمام إلى جيش السلطان. والثلث الباقي من رجال القبائل العمانيين. لغة الجيش الرسمية هي العربية التي لا يتكلمها معظم البلوش إلا بصعوبة بالغة، وغالبًا ما يستعينون بالمترجمين. ولكل سرية ضابطان بريطانيان أو ثلاثة. كنا مجهزين ببندقيات رقم ٤ ومسدسات برين ٣,٣ ورشاشات فايكرز ومدافع الهاون عيار ٨١ مم، وسائط النقل سيارات بدفورد ولاندروفر، لكنا كنا نضطر عادة لاستخدام الحمير لأن الأمكنة الصالحة لسير السيارات قليلة جدًّا.

خلال الشهر الأول من إقامتي، كانت المنطقة هادئة إلى أن كنت عائدًا في سيارة لاندروفر مع فصيلة استطلاع في منطقة تدعى جدريت على حدود اليمن الجنوبي، عندما انهالت علينا نيران البندقيات الآلية من كمين يحوي ما يقرب الثلاثين ثائرًا. أصابت الطلقات الأولى ساقي، فانحرفت السيارة حتى اصطدمت بإحدى الشجيرات قاذفة بنا إلى الخارج. لسوء الحظ أصيب الجنود الثلاثة الذين كانوا جالسين في مؤخرة السيارة، كان الكمين منصوبًا في مكان ملائم لا يبعد عنا أكثر من مائة متر. لكن الضباب الكثيف وصعوبة الرؤية كانا يؤثران على تهديف الثوار الذين واصلوا إطلاق النار عشر دقائق إضافية ثم انسحبوا بعد أن تمركزنا في مواقع حصينة. وتمكنا من تشغيل السيارات

وكانت اثنتان منها مصابتين في عدة أماكن، وعدنا إلى المعسكر بتأنٍ حاملين جرحانا الأربعة.

كانت هذه عملية نموذجية إلا أنها كانت منعطفًا هامًّا في تاريخ الحرب؛ لأنها المرة الأولى التي يستخدم فيها الثوار البنادق الأوتوماتيكية. وقد تبين لنا من الطلقات الفارغة التي التقطت فيما بعد أن أغلب أفراد الكمين كانوا مسلحين ببندقيات أوتوماتيكية سوفييتية الصنع من طراز س.ك.س ٧٦٢، وقد أخذنا احتياطاتنا بعد ذلك، وكنا الطرف المنتصر في معظم الاشتباكات اللاحقة، ثم بدأ الثوار باستخدام مدافع الهاون المتوسطة لأول مرة وكان تهديفهم سيئًا.

بعد الخريف مباشرة صارت الاشتباكات يومية؛ إذ كان الثوار يهاجمون باستمرار حصون السلطان القليلة المبنية من الطين في القرى الساحلية ويقصفون المعسكرات بمدافع الهاون كل ليلة تقريبًا، بحيث استحال علينا السيطرة على هذه المنطقة الوعرة. الماء شحيح وتموينا صعب للغاية. غالبًا ما كنا نضطر إلى نقل المصابين على الحمير. إننا قادرون على احتواء العدو، إلا أننا عاجزون عن كسب الحرب.

غيَّر قائد الحملة تكتيكاته، فغادرنا تحصيناتنا في تلك الهضبة العطشى الواسعة شمال ظفار. كنت متعلقًا بهذه المنطقة المليئة بالذباب، حيث نظمنا غارات ناجحة على غابات جبل القمر الكثيفة وقتلنا العديد من بيت الشماس، أحد بطون قبيلة القرًا.

كانت مهمتنا الجديدة الانتقال بحرًا واحتلال موقع على ساحل قرية ضلكوت المهرية الصغيرة الواقعة على مقربة من «رأس ضربة علي»، في محاولة للسيطرة على خطوط تموين العدو من قرية حوف عبر الحدود مع اليمن الجنوبي. وقبل الإقدام على هذه المغامرة قضينا عطلة أسبوعين قرب حصن برتغالي مهجور في ريسوت، حيث تعلم أفراد سريتنا السباحة وتدربنا على عمليات الإنزال. كان بحوزتنا دهوان، الأول ملك السلطان والثاني لشيخ عماني من صور يسيره عبيده. وكانت وسائل الإنزال ثلاثة قوارب مطاطة من طراز «جيميني» مع محركاتها.

تم الإنزال في ضلكوت دون حادث يذكر، لكن عندما أخذنا نفتش القرية اتضح لنا أن كل من كان في سن حمل السلاح قد صعد إلى الجبل. فبدأنا بإنزال أمتعتنا عندما انهالت علينا زخات كثيفة من نيران الأسلحة الأوتوماتيكية وقذائف الهاون من المنحدرات الكثيفة الأشجار، حيث اختبأت قوة من خمسين ثائرًا. لازمنا ذلك المعسكر طيلة ثلاثة أيام، لكن هجمات العدو المتتالية بينت لنا استحالة الاستمرار باحتلال ذلك الموقع. فدمرنا آبار المياه في القرية وأخلينا المعسكر ليلًا وقفلنا عائدين إلى ريسوت. واضطررنا إلى تغيير

خططنا التكتيكية ثانية، فقضينا الأشهر الأربعة التالية في عمليات إنزال بحري ليلية على طول ساحل ظفار من رأس ضربة علي غربًا إلى قرية سدح شرقًا، نجحت بعض هذه الغارات نجاحًا باهرًا، قتلنا خلالها عدة ثوار واستولينا على كمية صغيرة من البنادق الأوتوماتيكية والرشاشات. كما أحرقنا قرى الثوار المعروفين وأطلقنا الرصاص على الماعز والبقر. أما جثث الثوار التي كنا نعثر عليها، فكنا نجمعها في زاوية من سوق صلالة كإنذار لكل من تسول له نفسه الانضمام إلى الفدائيين.»

... أعجبتني أمانة الكابتن. وصفنا بالثوار، في مقالات أخرى يصفوننا بالعدو، يكتبونها بحروف لاتينية فتصبح «الأدو».

٧ نوفمبر

... صادقت اللجنة المركزية للحزب الصيني من يومين على تقرير عن جرائم ليو شاوشي. وصفته بأنه القابض على زمام السلطة الذي يسلك الطريق الرأسمالي والمرتد ووكيل العدو وخائن العمال المختبئ في داخل الحزب وعميل الإمبريالية والتحريفية المعاصرة. أقرت اللجنة بالإجماع إبعاده عن الحزب إلى الأبد وتجريده من كل مناصبه.

... التقيت برفيق قادم من حضرموت. قال إن كثيرًا من الإندونيسيين ذوي الأصل الحضرمي عادوا إليها هربًا من مذابح سوهارتو، وإن جدران المساجد مغطاة بصور ماو وشعارات الثورة الثقافية والشعارات التي تهاجم الإمبريالية الاشتراكية وتعني بها الاتحاد السوفييتي.

٨ نوفمبر

... أربعة أيام دامية بالأردن. صمدت المقاومة الفلسطينية. حطم الجيش الأردني بالمدافع الثقيلة والدبابات معسكرات الفدائيين واللاجئين واعتقل ٢٠٠ من رجال المقاومة. هل نادوا بتحرير الأردن وتحويلها إلى فيتنام شمالية؟

... الجبهة تصدر أول قرار من نوعه في العالم العربي: منع تعدد الزوجات.

... انضمت أول فتاة من المنطقة الغربية: طفول مطيع. راعية عمرها ١٥ سنة، عارض أهلها خوفًا من انتقام الإنجليز.

١٣ نوفمبر

... أوفدت الجبهة عشرة رفاق للتدريب العسكري في الصين. ورغبت في الذهاب معهم، أقنعني الرفاق بأن عملية التنظيم التي تجري للمنطقة المحررة تتطلب وجودي.

ديسمبر

... انتصار عظيم: جونسون يقرر وقف الغارات الأمريكية على فيتنام. الثوار يتقدمون نحو سايجون.

... إسرائيل تقوم بغارة على مطار بيروت وتدمر ١٠ طائرات.

... تفجر الخلاف داخل الحزب الشيوعي السوداني، نشر أحمد سليمان عدة مقالات تصف القوات المسلحة بأنها الأمل الوحيد للإنقاذ. ردَّ عليها عبد الخالق محجوب معارضًا.

... نشب شجار بين بخيت وحمد انتهى بأن أطلق الأول الرصاص على الثاني فمات على الفور. احتجز المقاتلون القاتل لكنه تمكن من الهرب. أشك أن قبيلته آوته. الاثنان من بيتين متنافسين في نفس القبيلة بينهما ثأر قديم يعود إلى عشرات السنين. كان شيخ البيت الأول قد سرق مائة بقرة من البيت الثاني، طالب المقاتلون بمحاكمة القاتل وإعدامه. البعض قال إنه قتل متعمد، والآخرون قالوا إنه مجرد حادث. القاتل من أفضل العناصر. الموت رميًا بالرصاص أو ماذا؟ إننا لا نستطيع أن نطرده من جيش التحرير والجبهة، فربما انضم إلى الأعداء وزودهم بمعلومات عنا. وليس لدينا سجن نضعه فيه. ربما اكتفينا بعدم إسناد مهام ذات أهمية له وبإخضاعه لدورات تثقيفية وتدريبية.

أول يناير ٦٩

... احتفلنا بالعام الجديد في معسكر بجبال القمر. أعد الرفاق تموينًا إضافيًّا من الشاي والسكر وعنزة كاملة. بدأنا نغني. اقترب مني الرفيق غزال وقال إنه يرتب لاحتفال خاص بعد انتهاء الاحتفال العام. سألته عن الحاضرين فقال: نحن فقط أعضاء اللجنة. غمز لي بعينه وقال إنه يحتفظ بربع زجاجة عرجى لهذا الغرض. قلت له إني منعت الرفاق من الشراب ولا يعقل أن أجيز لنفسي ما أحرمه على الآخرين، ثم أضفت: أعدك بأن أشرب معك حتى الصباح بعد النصر. لم يحر جوابًا.

... بدأنا حملة تعليم جماهيري ذات شقين: مكافحة الأمية وتعليم اللغة العربية مع التربية السياسية. دروس محو الأمية هي في الوقت ذاته دروس التثقيف السياسي.

ما أن يجيد التلميذ فك حروف الأبجدية حتى يبدأ تلقينه «أبجدية الثورة»: طبقة. تحرير. مجتمع. نضال. حرية. ثورة. عامل. فلاح. استعمار، بعد ذلك يبدأ التلاميذ دراسة فصول مبسطة من برنامج الإرشاد السياسي المكون من خمس وعشرين درسًا تشمل أربعة موضوعات رئيسية: صفات المناضل الثوري، المبادئ التنظيمية، مبادئ الماركسية اللينينية، الأممية والتحرير الوطني والصراع الطبقي.

٣ يناير

... زرت مدرسة النساء. كلهن بلا استثناء لا يعرفن القراءة والكتابة، إخوة وأمهات وزوجات رجال في المعارك. أربعة صفوف في كل صف ١٥ امرأة وفتاة. تتراوح أعمارهن بين الثامنة وبين الأربعين. لاجئات من الأقاليم الشرقية والوسطى التي دمر الطيران السلطاني مساكنها. يجلسن على الأرض في دائرة واسعة فوق حُصر صغيرة ومعهن أطفالهن. بينهن اثنتان من الحوامل، من الثامنة صباحًا إلى العاشرة في الدراسات ثم ينصرفن إلى أعمالهن المنزلية. سبعون امرأة بعد سنة واحدة سيتمكن من القراءة والكتابة. تعرفت على بعضهن. روت لي طفول من كفكوت، كيف أحرق المرتزقة كل ماشية ومنازل القرية. سمعت نفس القصة من منى مسلم القادمة من وادي ناهيز. وصفت لي طفول سالم وهي تجرب تركيب أجزاء الآلي هجوم المرتزقة على قرية بيت زربك وكيف أطلقوا النار على أب لسبعة أطفال خرج من منزله بغير سلاح ثم أحرقوا أكواخ القرية المائة. أيضًا سعاد ماهاد.

٤ يناير

... بالمدرسة أربعة مدرسين ومشرف، طلبوا مني أن أتحدث إلى الصف، فرويت لهن قصة من التراث القبلي تحذر من غواية المرأة، وتؤكد على ضرورة قتل الأنثى لدى ولادتها. تبدأ بأن شابًّا أنقذ أخته الرضيعة من سيف والده الذي تعهد بقتل كل مولودة أنثى وهرب بها وتولى رعايتها. كبرت الفتاة وأحبت أميرًا وسيمًا، لكن أخاها اعترض فهربت مع حبيبها بعد أن خدعت شقيقها وأوثقته. تمضي القصة الأصلية بعد ذلك، فتصف كيف تصالح الأخ والأب وأقر الأول بأنه كان الأفضل قتل أخته لدى ولادتها. لم أرِو هذا الجزء، وإنما عدلته فقلت إن الأخ والأب تصالحا وأقر الأب بأنه كان السبب في كل ما حدث بسبب رغبته في قتل ابنته. كن يعرفن القصة الأصلية وأعجبتهن النهاية الجديدة التي اخترعتها.

... وأنا أتأمل وجوههن البادية الهزال والسقم وأفكر في نمط حياتهن قفزت إلى ذهني كلمات لجيفارا مؤداها أنهن ينبتن ويترعرعن دون رعاية كالنباتات البرية وينهمكن بسرعة في حياة من الأشغال الشاقة لا هوادة فيها، أمثال هذه الملاحظات تضاعف إيماني بصحة الطريق الذي اخترته.

٥ يناير

... تبينت جهلهن الشديد بأمور الجنس. قررت أن أعطيهن درسًا جماعيًّا في المعلومات الأولية. التشريح مثلًا ومكان البظر وعملية الختان التي تعرضن لها وتأثيرها على استمتاعهن بأجسادهن، وكيف يمكن تعويضها وضرورة الحيلولة دون تكرار المأساة بالنسبة لبناتهن. اكتشفت أيضًا أن المتزوجات لا يمارسن أي وسيلة من وسائل منع الحمل، قلت إننا في حاجة إلى مواطنين جدد لكننا نحتاج أيضًا إلى الحفاظ على صحتهن. ولهذا لا بد من عمل مسافة زمنية بين الطفل والآخر كي تستريح أجسادهن وتستعيد عافيتها. أشرت إلى فاطمة الهزيلة وهي أم لطفلين وموشكة على وضع ثالث. تصاعدت الضحكات وقالت واحدة إنها مخاتلة. حملت منذ سنتين عندما سافر زوجها إلى الخليج، ثم رفض المولود النزول من الرحم في موعده الطبيعي وظل يخاتل إلى الآن! لم أشأ مناقشة هذه الخرافة التي يؤمن بها الجميع وابتدعها المجتمع لحماية المرأة التي يتغيب عنها زوجها مدة طويلة. أقنعهن المثال الذي ضربته من واقع الأرض وكيف تترك للراحة عدة شهور كل سنة. شرحت طريقة حساب أيام الأمان. وعدتهن بأن تكون أول مهام الثورة عندما نحرر البلاد هي تحريم الختان وتوفير وسائل منع الحمل والرعاية الصحية الكاملة.

٦ يناير

... زوج إحدى النساء ثائر. يقول إني أتلف أخلاقهن وأضع أفكارًا منحلة في رءوسهن. تقدم بشكوى إلى اللجنة، الرفيق عمار في صفه، يعتقد أني أسأت التصرف. دافعت عن موقفي، قلت إنه لا يمكن فصل القضايا بعضها عن البعض. الزوج الثائر من المقاتلين الممتازين. رفضت امرأته التي ما زالت ترضع طفلها أن تنام معه خوفًا من حمل جديد. طلبت منه أن ينتظر فترة الأمان. بعض النساء أيضًا استنكرن موقفي! تشاجرت أنا

وعمار. كرر أننا يجب أن نحترم التقاليد والأعراف. قلت له إن ثورتنا في جوهرها تمرد على التقاليد والأعراف والنفاق.

... شعرت فاطمة في الليل بألآم المخاض. هرعت لمساعدتها لكنها رفضت. معيار الأنوثة هنا يقاس يوم الولادة. فتنزوي الحامل عن أهلها في مكان منعزل وتقعي فوق كومة تبن أو قش وتلد، ثم تقطع حبل السرة بين حجرين أو بواسطة سكين تحملها معها. ويقضي العرف أن تعود إلى بيتها سيرًا على الأقدام حاملة المولود الجديد. ينظر القوم إلى المرأة التي تستعين بسواها على الولادة على أنها ضعيفة، وناقصة الأمومة.

٨ يناير

... اشتركنا في افتتاح مركز تدريب رئيسي على الحدود باسم «معسكر الثورة». يديره فريق من خمسة كوادر هم: عمر المسئول العسكري وأول المساهمين في إطلاق الكفاح المسلح في يونيو ٦٥، ومساعداه، ومرشدان سياسيان هما عبد العزيز عبد الرحمن (ابن قاضٍ من صلالة درس في الكويت، ومصر) وهدى المرشدة السياسية لفرقة النساء المقاتلات، توقعت أن ألقاها عند افتتاح المعسكر لكنها كانت في مهمة تنظيمية في عدن.

٤٠ شابًّا و٨ فتيات (بينهم نسبة كبيرة من السود). الفتيات يقمن في خيمة منفصلة. الجميع ينامون على الأرض، لا حمام لأنه لا يوجد ماء يكفي للشرب. أثار الرفيق عمار مشكلة إذ أصر أن يغتسل. يعتني بنظافته اعتناءً شديدًا. الشاي والأرز متوفران ويأتيان من اليمن. طلب غزال ليمونة وألح زاعمًا أن لديه مغصًا. يشكو دائمًا من علل غربية.

يتلقى الجميع دورة تدريب مكثفة لأربعة أشهر، الشبان والشابات يتدربون معًا. التربية الثورية أوجدت علاقات جديدة بين الجنسين قائمة على المساواة. لم يعد الرجل ينظر إلى المرأة على أنها أداة للذته هو يأمر وهي تطيع. إنها شريكة ورفيقة حياة. ربما تطورت علاقة خاصة بين فتًى وفتاة، لكنها تقود إلى الزواج واستمرار النضال معًا.

٩ يناير

... يوم مشحون بدأ في الخامسة صباحًا، تجمع الشبان والفتيات في الجزء المركزي لتحية العلم. اشتركوا جميعًا في إعداد الإفطار دون أن يتخلَّوا عن بنادقهم. أربع ساعات من التدريب العسكري. الغذاء ودرس محو الأمية، ثم ساعتان إضافيتان من التدريب العسكري. العشاء في حوالي الخامسة، تعقبه أربع ساعات من الدرس السياسي، التثقيف

السياسي بالنسبة لمن يجيدون اللغة العربية ينقسم إلى قسمين، الأول يضم كتابات الجبهة: الميثاق، تحليل التركيب الاجتماعي لإقليم ظفار، النساء والثورة في الخليج، دراسات عن حركة التحرر الوطني العربية والعمالية بما في ذلك الناصرية والبعث وتاريخ الأحزاب الشيوعية العربية.

القسم الثاني يتألف من اللائحة الرسمية للمطالعة التي وضعتها القيادة العامة بعد المؤتمر الثاني. تتضمن البيان الشيوعي ومختارات لينين والكتاب الأحمر. يستجيب المقاتلون بحماس لحديث ماو عن ضرورة التضحية بالنفس. هناك أيضًا المادية التاريخية والمادية الجدلية لستالين والمتوافر من الترجمات العربية لكتابات هو شي منه، جيفارا، كاسترو، كيم إيل سونج، بالإضافة إلى كتابات الجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين ومجلة «الحرية» اللبنانية المعتمدة كمادة تثقيف أسبوعية.

١٠ يناير

... اكتشفت بالصدفة أن غزال لم يستخدم الليمونة وما زال يحتفظ بها. سألته عن المغص فقال إنه اختفى. يحاول دائمًا أن يستحوذ على شيء نادر أو غير متوفر لدى الآخرين.

... حضر زوج عزيزة إلى المعسكر يطالب بإعادتها إلى بيتها. كانت قد اتصلت بالجبهة من سنة عن طريق شقيق إحدى صديقاتها. سارت تجمع التبرعات من المواد الغذائية، عارض زوجها فواصلت العملية في السر، ثم تشاجرا واعتدى عليها بالضرب فغادرت البيت وتطوعت في فرقة النساء، قررنا رفض طلبه بناءً على رأي الفرقة التي اعتبرت أن عزيزة تطوعت بملء إرادتها. لو كان زواجها أصلًا يقوم على توافق ما نشأت المشكلة.

١٣ يناير

... أنشأت الجبهة ثلاث لجان زراعية. أعلنت إلغاء الملكية القبلية للأرض والإيجار المفروض عليها. الأراضي والآبار الواقعة تحت سيطرة قوات الجبهة ملكية عامة. أدى ذلك في المنطقة الغربية، إلى إلغاء احتكار قبيلتين — من أصل عشرين — لغالبية الأراضي والآبار.

... باتت الأرض الزراعية تُزرع على أساس تعاوني تحت إشراف لجان زراعية فرعية. التعاونية كوحدة إنتاج لا تختلف كثيرًا عن وحدة الإنتاج السابقة التي كانت مكونة من عدة أسر (أي من فخذ أو فصيل). الفرق أنها ألغت الإيجار والاستحواذ الفردي أو القبلي على المحصول. يوزع الآن بين الأسر كل حسب عملها، بما أن الجبهة هي أكبر مستهلك

للمواد الغذائية في المنطقة، فإنها عادة تشتري المحصول وتدفع نقدًا. رغم الطبيعة المعزولة نسبيًّا للمجتمع الظفاري، فإن النقود نفذت إليها وشجعنا هذه العملية.

١٥ يناير

... نجحت مساعينا. سالم حسن الآن في عدن وسيسافر بعد أسبوع إلى بلغاريا لعلاج عينيه.

١٨ يناير

... انتصار جديد للاشتراكية: سفينة الفضاء السوفييتية سيوز-٥ تهبط بعد أن قامت بتجربة التحام في الفضاء مع السفينة سيوز-٤. تم بذلك إنشاء أول محطة فضاء.

... تُوفي ساطع الحصري الذي كرس كتاباته لموضوع القومية مركزًا على عنصر اللغة المشتركة، متجاهلًا عناصر أخرى أبرزها الحياة الاقتصادية المشتركة. لا بد أن تكون الأمة بكاملها في نفس الطور من أطوار النظم الاقتصادية، ولا يكون جزء منها يطبق الاشتراكية مثلًا بينما جزء آخر منها تسوده قوانين الرأسمالية أو الإقطاع.

... أصدرنا أول حكم بالإعدام. أحد شيوخ القبائل كان قد قدم لنا مساعدات جمة في أصعب الفترات ثم بدأ يستولي لحسابه الخاص على الأغذية التي ترسلها لنا خلايا الجبهة في صلالة. وقتل جارًا له ليستولي على زوجته. إنهم يبدءُون ثوارًا على كل ظلم، ثم ينصرفون إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة.

جرائم القتل قبل سبتمبر ٦٨ كانت تعاقب بدفع تعويض من أسرة القاتل إلى أسرة الضحية. الآن أصبحت عقوبتها الموت.

فبراير

... لفك الحصار الاقتصادي بدأ شق طريق يربط المحافظة السادسة في اليمن الجنوبي بالمنطقة الغربية المحررة. يقوم بالعمل أفراد من جيش التحرير الشعبي والميليشيا الشعبية يفرزون من مختلف الفرق بالتناوب. يساهم أيضًا مواطنو المنطقة التي يمر

فيها الطريق، مما يعمق العلاقة بين الجبهة والشعب. يفتقر العاملون إلى المعدات الآلية مثل الحفارات والبلدوزرات كما يتعرضون لقصف الطائرات البريطانية.

... انتقل مسرح العمليات العسكرية من المنطقتين الوسطى والشرقية إلى المنطقة الغربية المحاذية لليمن الجنوبي. ألقى جيش السلطنة بقوات كبيرة للحيلولة دون ارتباط الثورة في ظفار بمؤخرتها في اليمن. تمركزت هذه القوات في مذهوب مركز القيادة العسكرية للمنطقة بقيادة الكابتن كلارك، وفي جانوك وخارات.

... عادت بعثة الصين. تولى أفرادها قيادة عدة وحدات. يرددون أقوال ماو في كل مناسبة.

مارس

... التقيت أحد الصينيين، كما صرنا نسمي العائدين من الصين. سألته عن انطباعاته. تحدث بإعجاب عن النظام والنظافة والانضباط والصحة وكل المظاهر الحضارية. سألته عن الأحداث السياسية والثورة الثقافية. بدا عليه التردد. قال إن الصين ما زالت لغزًا وإن لشعبها طريقته الخاصة في التعامل مع المشاكل. أثناء حديثنا شعرت بحركة بين الأعشاب ففزعت. قال لي بهدوء: لا تخافي يا رفيقة. إنه ثعبان. ردد عبارة ماو الشهيرة: «الاستعمار نمر من ورق» بعد أن حورها بما يناسب المقام: الثعابين نمور من ورق. في المساء أصيب صبي بلدغة من نفس الثعبان فيما أعتقد. فشلنا في إنقاذه. قلت للرفيق الصيني إن الثعابين أيضًا تقتل وتميت.

... بدأت حملة لتشجيع التوطن من أجل تحويل الزراعة إلى الفاعلية الاقتصادية الرئيسية في المنطقة الغربية، الترحال هو الأساس بالنسبة للقبائل. أفرادها لا يميلون للاستقرار في الأرض فهم يحتقرون العمل اليدوي كالزراعة.

... يجري تكوين الميليشيا الشعيبية، لها وظيفة مزدوجة. إنها المرحلة التمهيدية التي يمر بها الجميع قبل الالتحاق بجيش التحرير، وهي إلى ذلك تجسد «الشعب المسلح»، أي جميع الذين يحول عملهم في مجالات الإنتاج دون تفرغهم للكفاح المسلح.

١٤ أبريل

... دستور جديد للحزب الشيوعي الصيني ينص على أن أفكار ماو هي أعلى مرحلة في تطور الماركسية اللينينية، وأن لين بياو هو خليفته، حديث عن خلاف حول أولوية البناء الصناعي أم التطوير الزراعي.

... اكتشفت أن الشيخ عمار يعيش قصة حب فاشلة. هو أصلًا من حي الحصن الذي يسكنه الخدم والعبيد والعسكر ويقع فيه قصر السلطان. أحب فتاة من حافة المدينة التي يسكنها الشنافر، ولم يوافق أهلها بالطبع على تزويجها منه، فهاجر إلى الكويت وهناك ارتبط بالثورة.

٢٤ أبريل

... نظمت الأحزاب الوطنية والتقدمية في لبنان، أمس، مظاهرة احتجاج على الإجراءات التي اتخذتها السلطة بإيعاز من حزب الكتائب وغيره ضد العمل الفدائي، أطلق أحد الجنود النار على المتظاهرين فأشعل مصادمات دامية وراح ضحيتها ١٧ قتيلًا و١١٦ جريحًا.

... قراران في بغداد بمنع ارتداء الميني جوب ومنع اشتغال المرأة سكرتيرة. دافعت عن القرار الأول في مناقشة مع الرفاق. قلت إن الميني جوب يحول المرأة إلى لعبة وهدف جنسي. سخر مني غزال وقال إن ساقي في الغالب قبيحتان. تفحصتهما جيدًا قبل النوم.

٣ مايو

... أضيفت إلى مهام جيش التحرير شق قنوات الري وحفر الآبار وبناء السدود والمستودعات. إلا أن التقدم بطيء وهناك افتقار إلى أبسط الأدوات والخبرة.

١٥ مايو

... رفض المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوداني عرضًا من بعض الضباط للقيام بانقلاب عسكري.

٢٥ مايو

... ثورة في السودان. حركة عسكرية يقودها اللواء جعفر نميري وهاشم أبو العطا.

... الحصار الاقتصادي المفروض على الريف عزل سكان الجبال عن أسواقهم التقليدية في قرى الشاطئ. نواجه حملة تجويع فعلية.

٣١ مايو

... قسمت بعض الحقول الكبيرة التي تتغذى على موسم الأمطار في الجزء الشرقي من جبال القرَّا. عهد إلى السكان ككل وإلى أعضاء الجبهة بقطع منها لزراعتها. كما جرت محاولة لحفظ بعض الأمطار للاستخدام في موسم الجفاف بإنشاء سدود صغيرة في مجاري الأودية. يجري تشجيع السكان على زراعة الذرة الرفيعة والخيار واللوبيا.

أول يونيو

... معلومات جديدة عن الوضع في السودان. جرى تعيين بابكر النور وهاشم أبو العطا — المعروفين بصلتهما بالحزب الشيوعي — في مجلس الثورة رغم أنهما لم يشتركا فعليًّا في تسلم السلطة. كما اختار الانقلابيون للوزارة أربعة من قادة الشيوعيين دون أخذ رأي الحزب. أصدر الحزب الشيوعي بيانًا أعرب فيه عن اعتراضه على فكرة الانقلاب العسكري كحل لأزمة البلاد السياسية، اقترح عبد الخالق محجوب على زملائه رفض الاشتراك في الوزارة، لكن أغلبية أعضاء اللجنة المركزية وقفت ضده وخصوصًا أحمد سليمان والوزراء المعينين.

٩ يونيو

... العيد الرابع للثورة. عقدنا حلقة دراسية حول مقال في مجلة «بانسيه الفرنسية» عن أسلوب الإنتاج الآسيوي. حدد ماركس أربعة أساليب إنتاج معروفة تعاقبت على تاريخ البشرية، وهي: المشاعية البدائية، العبودية، الإقطاع، الرأسمالية. تنبأ بحتمية حلول أسلوب الإنتاج الاشتراكي محل الأسلوب الرأسمالي، اعتبر ستالين هذا التقسيم نهائيًّا متجاهلًا المناقشات التي دارت من قبل حول وجود طريق آخر يعتمد على النموذج الآسيوي في الإنتاج، فهو الشكل الأعم لتطور المجتمع المشاعي البدائي في كثير من مناطق العالم الشرقي، وبالأخص في الحضارات الزراعية الكبيرة في الصين والهند ومصر وبين النهرين، تميزت هذه الحضارات بالاعتماد على نظام الري الصناعي على شريط ضيق نوعًا من الأراضي الزراعية وعدم وجود ملكية خاصة للأرض (عكس ما حدث في اليونان وروما)

وقيام دولة مركزية قوية وتوفر كمية كبيرة من اليد العاملة، وعدم الاعتماد على العبودية المطلقة، بل على حيازة الفلاحين للأرض مقابل الالتزام بدفع الضريبة للحاكم المطلق بوصفه المالك الوحيد لكل أراضي الدولة. في جميع هذه الحضارات قامت الدولة بوظيفة لا غنى عنها في عملية إعادة الإنتاج وهي إقامة مشاريع الري والإشراف على توزيع المياه للزراعة. تميزت هذه الدول بمركزيتها الشديدة (اللقب الأول الفرعون مصر كان مهندس ري البلاد). هذه السمات مختلفة تمامًا عن سمات النظامين العبودي والإقطاعي التقليديين. الإقطاع الأوروبي لا يعتمد على المركزية المطلقة والملك نفسه ليس إلا سيدًا إقطاعيًّا منتخبًا من بين أقرانه من السادة لا يمتد نفوذه عادة خارج إقطاعيته إلا إذا تمكن من فرض سلطانه على السادة الضعاف. هنا يظهر الاختلاف الواضح بين ندرة اليد العاملة وبين وفرتها التي سمحت للحضارات الشرقية بإقامة منشآت هائلة مثل الأهرامات وسور الصين العظيم.

١٤ يونيو

... الفلاحون يستعدون لموسم الأمطار. يحفرون بالعصي أماكن وضع البذور.

... البراميل الحارقة تنتشر في الحقول وتقضي على كل أمل في الموسم الزراعي. اختراع جهنمي وارد من فيتنام في الغالب. يوفر ثمن القنابل التقليدية الغالية وساعات طيران ستراتيكماستر الثمينة. يملئون براميل سعة ٤٠ جالونًا من مادة حارقة تثبت بها فتائل جاهزة للاشتعال، يضعونها في مؤخرة السكاي فان بعد أن يسحبوا منها دبابيس الأمان، عند إلقائها من الطائرة يشتغل سلك الفيوز. بمجرد اصطدامها بالأرض تتحول إلى كرة كبيرة من النيران وترتفع سحابات كثيفة من الدخان الأسود فوق المنطقة. يغطي برميلان مساحة تماثل ملعبًا لكرة قدم.

١٨ يونيو

... أكملت منذ أيام العام التاسع والعشرين. غريبة. مر الوقت بسرعة. لم أتصوَّر أني سأبقى هنا حتى الآن. أشعر أني عجزت، اكتشفت شعرة بيضاء في رأسي.

... الرئيس قحطان الشعبي يعزل محمد علي هيثم وزير الداخلية.

٢٢ يونيو

... القوات المسلحة المصرية تواصل سياسة إنهاك العدو بالقصف المدفعي عبر قناة السويس. دايان يصرح: قناة السويس تحولت إلى جبهة حرب جديدة. عمليات فدائية فلسطينية على كل الجبهات: ألغام وكمائن ونسف سيارات وتدمير منشآت.

فجر ٢٣ يونيو

... راديو عدن يذيع أن الرئيس قحطاني الشعبي قدَّم استقالته من منصبه وأن القيادة العامة للجبهة القومية قبلتها. أشار الراديو إلى النزعة الفردية التي سادت كل المستويات. تكوين مجلس رئاسة من خمسة أعضاء: محمد علي هيثم وزير الداخلية، عبد الفتاح إسماعيل وزير الثقافة والإرشاد السابق وقائد الفدائيين في عدن، محمد صالح العوليقي وزير الدفاع، علي عنتر قائد الفدائيين في الضالع، سالم ربيع (سالمين) قائد الفدائيين في الفضلى الذي انتخب رئيسًا للمجلس. عين محمد علي هيثم رئيسًا للوزراء وعبد الفتاح إسماعيل أمينًا عامًّا لتنظيم الجبهة القومية.

... أصبح بإمكاننا استخدام التسهيلات الإذاعية في اليمن الديموقراطي.

... المراكز البريطانية في مذهوب مقر القيادة البريطانية في الغرب مطوقة من جانب جيش التحرير.

٢٥ يونيو

... أخلى الإنجليز مذهوب إخلاءً تامًّا. عثرنا بها على مدفع روسي ضخم وعشرات الدشم المهجورة، ومئات من صناديق الذخيرة الفارغة تحمل علامة وزارة الدفاع، مسقط. إحدى الدشم تميزت بجدران سميكة وأرضية أكثر نعومة واحتوت على: كريم حلاقة «يارديلي»، علب بيرة، ملحق الأحد الملون من صحيفة التايمز، والبقايا المتفحمة لشفرة لا سلكي، ولم يبقَ غير الفرق المرابطة في ضلكوت ورخيوت على الساحل.

... جاءنا عجوز يريد جوابًا به أمر لزوجته الصغيرة كي تستسلم له، أو تعويذة مثل التي يحملها القادمون من المدينة ويبيعونها لمختلف أمراض الإنسان والحيوان بريال أو ريالين.

٢٧ يونيو

... اشتركت طفول في الدفاع عن شعبوت في معركة استمرت ٢٤ ساعة. تنقل الماء في القرب وتملأ خرطوشات المقاتلين وتطلق الرصاص هي نفسها.

... أصبحنا نسيطر على معظم الجبل بما في ذلك طريق تمريت – صلالة.

١٢ يوليو

... عثر الرفاق في أحد المواقع التي احتلوها على عدة براميل من البترول وهوية باكستانية باسم سعيد وورقة تحمل هذه الكلمات بالإنجليزية: نحن نضربهم ٢٤ ساعة وهم أيضًا.

أغسطس

... احتل رفاقنا بلدة رخيوت الساحلية وألقوا القبض على واليها حميد بن سعيد. بذلك تم تحرير القطاع الغربي من ظفار وتوقفت أعمال شركة البترول. الآن تسيطر الحكومة فقط على صلالة وضواحيها المباشرة أما بقية الساحل فعرضة لهجومنا.

... ذهبت إلى البلدة للاشتراك في محاكمة الوالي. تقع بين جبلين على مبعدة ٤٨ كيلومترًا من الحدود اليمنية. تضم ٣٠٠ بيت من الحجارة الجبلية. أصدرت المحكمة الثورية حكم الإعدام عليه بتهمة خيانة الوطن والعمالة لبريطانيا.

... أصبح صدام حسين نائبًا للرئيس العراقي.

وكالة الأنباء الفرنسية: المقاومة الفلسطينية تسير في اتجاه التحول إلى حرب تحرير شعبية.

أول سبتمبر

... مجموعة من صغار الضباط برئاسة العقيد القذافي تستولي على السلطة في المملكة الليبية وتعلن الجمهورية. وضع قاعدة هويلس الأمريكية تحت إشراف السلطات الليبية. خطة لتصفية القواعد البريطانية والأمريكية الأخرى.

... حضرت اجتماعًا لمناقشة الأوضاع الجديدة الناتجة عن تحرير القطاع الغربي بالكامل. تضمن جدول الاجتماع أحداث الصين وعدن وآخر أنباء المعارك. قال الرفيق رافع إن الانتصارات الأخيرة تطرح علينا مسألتين رئيسيتين: كيف يمكن تطعيم مجتمع رعوي

قبل رأسمالي من الرعاة والصيادين والحمالين والمملوكين والمزارعين الأميين بالماركسية، عقيدة البروليتاريا الصناعية؟ وكيف يمكن تدمير النظام القبلي والنضال ضد قيمه وتقاليده بانتظام، وإعادة تنظيم المجتمع على أسس جديدة؟

... المنطقة المحررة ثلث مساحة ظفار تقريبًا وتمتد من رأس ضربة علي عند حدود اليمن إلى ريسوت. أقل مناطق ظفار كثافة بالسكان: ١٠ آلاف نسمة. يعيشون على الرعي والزراعة الموسمية بالإضافة إلى بعض صيادي السمك على الشواطئ. ينقسمون إلى عشرين قبيلة أقواها وأغناها بيت عيسى والمشايخ. كلتاهما من القرَّا، وكانتا تسيطران على معظم الأراضي والآبار.

... يتمركز حوالي مائة مقاتل في الحامية المركزية للمنطقة الغربية المحررة. يقومون بمهام متعددة، أحيانًا على الطريق المؤدي إلى حماية الصحراء حيث توجد بقايا طائرة بروفوست أسقطت في الصيف، وأحيانًا أخرى على الشاطئ لمراقبة محاولات التسلل وحماية خطوط التموين الحيوية التي تنقل الغذاء واللباس والسلاح.

... تفتحت زهور أشجار اللبان. صفراء بقلب قرمزي.

٥ سبتمبر

... استمعت إلى خطبة الجمعة في مسجد رخيوت. الشيخ علي كان إمامًا لمسجدها من ٦٠ إلى ٦٦، عندما تشاجر مع الوالي واضطر إلى الرحيل. عاد الآن ويعيش مع زوجته وأمها وطفله من الأجرة التي يحصل عليها لقاء قيامه بالواجبات الدينية ومن عائد عنزاته الخاصة، هاجم في كلمته الاستعمار وأيد النضال المسلح. تحدث عن الاشتراكية فقال إن الشريعة الإسلامية تحترم المبدأ القائل بأن العمل هو الأساس الوحيد للملكية. وإن الإسلام وضع قاعدة ذهبية مؤداها أن مالك الأرض ليس إلا من يبذل فيها عمله ومن يزرعها بنفسه. قال إن الرسول نهى عن كراء الأرض قائلًا: من كانت له أرض فليزرعها أو ليزرعها أخاه، ولا يكاريها بثلث أو بربع ولا بطعام مسمى. قال أيضًا إن الاسلام يحرم الربا والاتجار بالنقود والمضاربة والاحتكار ويدعو إلى تحرير مصادر الثروة الطبيعية وتحرير الإنتاج من السيطرة الخاصة إلى كفالة العاجز وضمان الحياة لجميع الناس، أكد أن الإسلام ضد الأغنياء واستشهد بآيتين قرآنيتين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾. و﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾. استشهد أيضًا بقول عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب، لا أذكر: ما تمتَّع

غني إلا من جوع فقير. وقول عمر: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ورددتُّها على الفقراء.

١١ سبتمبر

... انضمت إلينا أمينة وأخوها. عمرها ١٤ سنة. سوداء بخاتم في أنفها ووجه ممتلئ مستدير تدور به طرحة. من طائفة المنبوذين الأفارقة في صلالة. يعمل أبوها في الزراعة أو نقل الحجارة مقابل أربع أو خمس روبيات في اليوم. أكثر الأحيان لا يجد عملًا فيصنع الحبال من قشور ثمار النارجيل (جوز الهند) وتخبز زوجته للجيران على التنور مقابل أجر بسيط. هربت مع أخيها الذي يكبرها بخمس سنوات ويعمل كوليًّا في البناء. قالت لي: كان الناس يعثرون على منشورات ضد السلطات واستحسنوها. عرفنا حقوقنا وقررنا طلوع الجبل، لكن كيف نحقق ذلك والأسلاك الشائكة تحيطها من كل جانب؟ لم يكن أمامنا غير طريق البحر. اشترى أخي إطار سيارة قديم. أحضر أربعًا من ثمار النارجيل وربط كل اثنتين ببعض وأوصلها برباط واحد بحيث تكون كل اثنتين في طرف واحد على مسافة تتسع لبطنه. صنعنا واحدة أخرى. كنا نعمل على ضوء قنديل الكاز، تسللنا بين الأزقة والعشش في الظلام حتى وصلنا إلى أشجار النارجيل الكثيفة العالية الواقعة بين شاطئ البحر والمدينة. كنا في منتصف الليل ونريد اجتياز السور سباحة عند بلدة عوقد في الغرب قبل شروق الشمس، سبحنا في البحر معًا طوال ثماني ساعات. لا أجيد السباحة وكنت جوعانة بردانة عطشانة لكن فضلت الموت على أن أقع أسيرة بيد الإنجليز. عندما تعبت رفعني ووضعني على التيوب (إطار السيارة) وأخذ يدفعني للأمام. تسللنا إلى عوقد ومكثنا عند أحد المعارف حتى قدوم الليل ثم واصلنا السير إلى الجبل وهناك طلبنا من المواطنين أن يأخذونا إلى الثوار.

١٢ أكتوبر

... وزير الخارجية اللبناني يرحب بالتصريح الأمريكي بفرض الحماية على لبنان.

... وحدات كوماندوز مصرية تعبر القناة في أماكن متنوعة وتلحق خسائر فادحة بالإسرائيليين ثم تعود سالمة.

٢١ أكتوبر

... نسف مقر منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت. الجيش اللبناني يهاجم قواعد الفدائيين ويقتل ويصيب ٣٩ فدائيًّا.

نوفمبر

... حوار في الطليعة القاهرية مع نايف حواتمة عضو اللجنة المركزية للجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين. شرح أسباب انقسام الديموقراطية عن الشعبية. قال إنه يعود إلى الصراع الأيديولوجي والسياسي الذي نشأ في حركة القوميين العرب منذ التأميمات المصرية في يوليو ٦١ التي طرحت على المنطقة العربية أفقًا فكريًّا وسياسيًّا جديدًا ... هذا الصراع حسمته هزيمة ٥ يونيو التي أكدت أن أفق وبرنامج البرجوازية الصغيرة في حل مشكلات حركة التحرر الوطني وإنجاز مهمات الثورة الوطنية الديموقراطية في بلد متخلف في عصر الاستعمار والإمبريالية غير مؤهل وغير قادر على تحقيق الاستقلال التام والناجز وإدخال البلاد في عصر التصنيع الثقيل والزراعة المكثفة ودفع الاقتصاد عن طريق الانفصال عن السوق الرأسمالية العالمية والتطور المستقل عنها ولا على مواجهة الاستعمار الجديد الذي تقوده الولايات المتحدة. وانتهى الجناح التقدمي إلى موقع ماركسي لينيني ثوري طرحه في اجتماع اللجنة المركزية للحركة وتقبله الجناح التقليدي لكنه لم يكن مستعدًّا للاستجابة إلى نتائجه التنظيمية ... بأن تصبح المسئولية كاملة في يد الجناح اليساري. اتضح بعد قليل أن إمكانية تحويل مؤسسة بورجوازية صغيرة إلى مؤسسة ماركسية لينينية بكاملها غير ممكنة؛ إذ لا يمكن تحويل طبقة بالانتقال بها من موقع إلى موقع مضاد لمصالحها.

سأله المحاور بخبث عن البديل الذي يطرحه لقيادة البرجوازية الصغيرة في ظل غياب الكم اللازم والوعي السياسي المنظم للطبقة العاملة نتيجة عدم اتساع حركة التصنيع والاضطهاد الذي تعرضت له. أجاب حواتمة بقوله: لا بد من طليعة منظمة تلتزم بالرؤية الأيديولوجية والطبقية لقيادة القوى والطبقات الأكثر جذرية وثورية متحالفة مع البرجوازية الصغيرة.

١١ نوفمبر

... رافع يرغب في الزواج من أمينة. عارضت الفكرة بسبب فارق السن بينهما. هل هذا هو السبب الوحيد؟

١٩ نوفمبر

... أعلن نميري فصل أعضاء مجلس الثورة الثلاثة المعروفين بصلاتهم بالحزب الشيوعي وهم: فاروق عثمان حمد الله، بابكر النور، هاشم العطا. الوضع متوتر للغاية وخاصة بين نميري والشيوعيين. يعمل نميري على تشكيل تنظيم جماهيري مثل الاتحاد الاشتراكي المصري، وعلى طريقة عبد الناصر طلب من الشيوعيين السودانيين أن يحلوا حزبهم ويندمجوا لديه، فرفض عبد الخالق محجوب ذلك ووصف نميري بالبرجوازي الصغير. وكتب أحمد سليمان في إحدى الصحف متسائلًا عما يجعل عبد الناصر ديموقراطيًّا ثوريًّا ونميري برجوازيًّا صغيرًا، وكيف يمكن تحقيق الاشتراكية في مصر دون حزب شيوعي بينما يُشتَرط هذا في السودان وهو أقل تطورًا. ولماذا أيَّد عبد الخالق محجوب حل الحزب الشيوعي المصري.

١٨ نوفمبر

... قالت الصحف اللبنانية إن ١١ عضوًا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني فُصلوا من الحزب لأنهم وقفوا مع الاندماج في حزب نميري. على رأس المفصولين أحمد سليمان ومعاوية وأبو عيسى.

١٩ نوفمبر

... مسيرة ضخمة في واشنطن من نصف مليون أمريكي ضد حرب فيتنام.

... الكشف عن تفاصيل مذبحة ماي لاي التي جرت العام الماضي. صباح يوم ١٦ مارس هاجمت سرية من الجنود الأمريكيين قرية ماي لاي وأطلقت النار بصورة عشوائية على سكانها بما في ذلك النساء والأطفال والشيوخ، وعندما احتمى الفلاحون بأكواخهم ألقوا عليهم بالقنابل اليدوية، ثم جمعوا أكثر من ٤٠٠ من الذين بقوا أحياء في مكان فسيح وأوقفوهم على حافة مصرف وأطلقوا عليهم النار بأمر الضابط ويليام كالي. وأثناء إطلاق النار حاول طفل لم يتعدَّ عمره العامين الهروب فأسرع كالي خلفه وأمسك به، ثم ألقى به في المصرف بعد أن قتله. هل يمكن أن تصل وحشية البشر إلى هذا الحد؟

... الثورة الليبية توجه الضربات إلى السيطرة الإمبريالية على بعض نواحي الاقتصاد الليبي. ذعر بين احتكارات البترول العاملة في ليبيا. توقع إعلان دفاع مشترك بين ليبيا والسودان ومصر.

٢٧ نوفمبر

... قرارات في عدن بالسيطرة على شركات المصارف والملاحة وتوزيع البترول والتأمين وشركات التجارة.

أول ديسمبر

... أصبح سهل صلالة ومطارها معرضين لقنابلنا رغم الحواجز التي أقامتها قوات السلطان على الطرقات الرئيسية. لكنا لسنا بعد قادرين على مهاجمة المدينة، كما أن قوات السلطان عاجزة عن ولوج المناطق الجبلية إلا في دوريات جيدة التسليح.

... هرب إلينا عن طريق البحر عبد سابق يُدعى عامر علي يجيد الكتابة والقراءة. تبعه ستة عبيد آخرين بينهم ابن رئيس استخبارات السلطان المدعو نظر. كان عامر في قصر السلطان مكلفًا بمراقبة تنفيذ تعليماته بشأن عبيده، والتي تحرم عليهم مغادرة مساكنهم أو الزواج أو حتى تعلم القراءة والكتابة دون إذن منه.

أعطانا معلومات ثمينة عن الحياة في قصر السلطان. القصر مزود بمرايا مزدوجة الرؤية، وعدد كبير من التلسكوبات والعبيد. في جناح حصين ١٥٠ امرأة.

... افتتحنا مدرسة محو الأمية، تعتمد على بعض الكراريس الثورية؛ إذ لا تتوفر كتب محو الأمية. الدارسون في فصل من مختلف الأعمار: طفل في التاسعة، امرأة في العشرينيات، رجل في الثلاثينيات. المدرس لا يتجاوز الرابعة عشرة، لكنهم يعاملونه باحترام وتقدير. يجلسون ساعات القيظ بعد الغداء مباشرة للتعلم داخل الكهوف، في المساء حضرت الجلسة المسائية المفتوحة. أدارها المرشد السياسي الأول.

٨ ديسمبر

... قررت قيادة الجبهة العدنية تخفيض عدد أعضاء مجلس الرئاسة إلى ثلاثة، هم: سالم ربيع، عبد الفتاح إسماعيل، محمد علي هيثم.

... انتصار للمرأة: انتخبت عايدة اليافعي لعضوية قيادة الجبهة القومية في عدن.

٢٠ ديسمبر

... اشتركت في حلقة سياسية أقيمت في شيروس شمال رخيوت لنخبة من طلبة مدرسة مكافحة الأمية تؤهلهم للانضمام إلى تنظيم الجبهة. مدة الحلقة ثلاثة أشهر. تجتمع ثلاث أو أربع مرات بالأسبوع. الجلسات مطولة تستغرق بين خمس وسبع ساعات يديرها مرشد سياسي من وحدة شعبوت ومساعده. تخصص جلسة واحدة في الأسبوع لمناقشة المسائل السياسية والتنظيمية. التدريب العسكري مستمر. يقسم الطلبة والطالبات إلى مفارز تساعد في إعداد الأكل وتقديمه، وفي أعمال النظافة والحراسة الليلية. وأقمت مع الفتيات في خيمة كبيرة منفصلة.

٢٥ ديسمبر

... انضمت مريم إلى الحلقة. عمرها ١٦ سنة. أهلها يزرعون الأذرة ثلاثة شهور ثم يرعون الأغنام بقية السنة. أرادوا تزويجها برجل عجوز. سمعت عن الجبهة فتركت أهلها، سمراء هزيلة. شعرها أسود ناعم شديد اللمعان. خصلاته متكورة، تسير مرفوعة الرأس مشدودة القامة في اعتداد. في نفس الوقت خجولة. قائمة الابتسام. سألتها إذا كانت تفتقد أهلها. قالت إنها لا تفكر بهم وتفكر بالثورة، فقط، تريد أن تتعلم القراءة والكتابة والسياسة. الجبهة علمتها اللغة العربية لكنها ما تزال تجدها صعبة. قلت لها: حياة القتال أيضًا صعبة. قالت في حزم: أستطيع القيام بكل ما يقوم به أي رجل.

أول يناير ٧٠

... أساعد مريم في دروس اللغة العربية وهي تعلمني مفردات جديدة من اللغة الجبالية. طلبت مني اليوم أن أحكي لها قصة أبو زيد الهلالي. إنه هنا مثال الشجاعة والفروسية والقصص المروية عنه تمثله مرتديًا قناعًا يُخفي به جماله كي لا يغوى النساء.

٥ يناير

... انتقل جيش المرتزقة من الهجوم إلى الدفاع. وعاد مسرح العمليات إلى المنطقتين الوسطى والشرقية، حرب مواقع وتطويق على طريق حمرين الذي أسميناه بالخط الأحمر، حاصرناهم في أكثر من موقع. اضطروا إلى التحصن في خنادق دفاعية.

١٠ يناير

... تزايد عدد المدنيين الهاربين من صلالة ومدن الساحل، صعد إلينا أيضًا سعيد مسعود الذي قضى خمس سنوات في سجن الحصن. مئات السجناء يقيدون سويًّا في غرف مظلمة. التعذيب المألوف هو يومان من المقطرة (العجلة). حراس بلوش تحت إشراف بريطانيين.

١٨ يناير

... كانت أمس نوبة مريم في الحراسة الليلية. رافقتها بعض الوقت، حكت لي كيف توفي شقيق لها وتم دفنه، ظل أبوها مقيمًا إلى جوار القبر يبكي ابنه. انزعجت الأشباح الموجودة في حوش المقبرة، وأبلغته أن ابنه لم يمت لكنه واقع تحت تأثير ساحرة نقلته إلى قرية هندية وحولته إلى عنزة. ضحكت فاستاءت.

قالت إن الأشباح وصفت لأبيها كيفية الإمساك بالساحرة وإرغامها على إعادة ابنه إلى صورته الأصلية كإنسان. لم أتمكن من كتمان الضحك وسألتها: هل عاد؟ أطرقت برأسها ولم تجب. زمَّت شفتَيها. كانت غاضبة مني. احتويتها بساعدي وربت على ظهرها. قالت عاتبة: أنت دائمًا تسخرين مني. قلت: أبدًا.

قالت: توجد هنا أشياء لا تعرفينها. هل تعرفين مثلًا أن هناك عقارب تطير كالعصافير؟ هممت بالكلام فوضعت أصبعها على شفتي. قالت: أحد أعمامي اصطاد مرة سمكة كبيرة هذا القد. بسطت ذراعيها إلى أقصاهما واستطردت: تجمع الناس حولها ودخل بعضهم من فكها وخرج من الجانب الآخر، أحدهم كان يركب ناقته. انفجر ضحكي فابتسمت على استحياء. قالت: ما رأيك في أن أمير عمان أهدى إلى هارون الرشيد نملة سوداء في قفص حديد؟ أبديت استغرابي: نملة في قفص؟ بدا عليها السرور لأنها أثارت دهشتي: نعم. كانت مقيدة بالسلاسل إلى قضبان القفص، قطبت حاجبي فقالت: كانت في حجم القط. وكانوا يطعمونها يوميًّا شرائح اللحم. قلت لها: يا عبيطة هذه لم تكن نملة، هي في الغالب نوع من القطط المتوحشة أو ربما فهد.

٢٢ يناير

... اكتشفت بحيرة قريبة. أستمتع بالاستحمام في مياهها في المساء.

... اعترف رئيس الوزراء طارق بن تيمور في تصريح علني بأن الثوار يسيطرون على ثلاثة أرباع ظفار.

... صوتها جميل، تحفظ أغاني عبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة. غنت لي «في يوم في شهر في سنة»، «حبك نار»، «ساكن قصادي».

٢٧ يناير

... كنت أهم بوضع الإناء الصفيح المخصص لغلي المياه فوق الموقد عندما سمعت صوتًا بعيدًا يشبه صوت انفجار صواريخ الألعاب النارية في السماء: بوك بوك بوك، كنت بمفردي في الخيمة أنتظر عودة الفتيات من تدريب ليلي على إطلاق الهاونات. كان الصوت مختلفًا عن صوت قذائف الهاون. أسرعت إلى باب الخيمة. تطلعت إلى السماء، رأيت أشعة جميلة من الضوء الأخضر تتجه نحوي في بطء شديد. بدا لي أنها تسرع كلما اقتربت، ثم تبينت أنها تتجه نحو موقع التدريب، وسرعان ما أدركت ما هي. صرخت وأنا أجري في جنون. إنها أحدث ما أنتجه الجيش الإنجليزي ضد الهاونات، رصاصة تحوي مركبًا كيميائيًّا يبين خط انطلاقها بواسطة سهم من الضوء الأخضر. يلتقط هذا السهم خط طيران قذيفة الهاون ويقتفي أثر المكان الذي أُطلقت منه. رأيت الأنوار الجميلة تتساقط حول موقع التدريب والبعض منها ينفجر بوهج أبيض يزغلل الأبصار. لا بد أن يكون رشاش براوننج ٥٠ الذي يطلق مزيجًا من الطلقات تضم بينها رصاصة السهم الأخضر، كنت أجرى دون وعي وأنا أدعو الله ألا تكون مريم قد أصيبت. توقف إطلاق النيران ورأيت الطلاب متحلقين حول شيء في وجوم. أزحتهم جانبًا. وقعت عيني على جسدين ممددين مزقتهما شظايا قنبلة. ثدي شبه مقطوع يتدلى من صدر ممزق، سمعت مريم إلى جواري تردد في ذهول: اللهم اجعله ريوان. احتضنتها في عنف وبكيت.

٢٨ يناير

... طفنا بجثتي الشهيدتين حول الموقع ونحن نردد الأناشيد الثورية. في المساء أقمنا حفل تأبين.

... أعدم البعثيون في العراق ٤١ عراقيًّا بتهمة التآمر مع إيران.

٢ فبراير

... وقع بخيت في يد إحدى وحدات المنطقة الوسطى. كان كما شككت مختبئًا لدى قبيلته في المنطقة الشرقية، اعتذرت عن الاشتراك في محاكمته، حُكم عليه بالإعدام وشرحنا الأسباب في بيان تُلِيَ في كافة أنحاء المنطقة.

... حدثني رافع عن قصته. اختطف التجار العرب أباه من تنجانيقا، جاءوا به إلى عدن وباعوه إلى تاجر في شمال عمان. لكنه هرب وقطع الصحراء إلى ظفار، حيث عمل بالرعي وصار حرًّا. كثير من العبيد الآبقين يحمل أولادهم أسماءً مميزة مثل خميس وسعيد ونبيل.

... عرضت السعودية المساعدة العسكرية على السلطان لكنه رفض، رفض أيضًا نصائح الضباط الإنجليز بشن حرب نفسية وتقديم الخدمات للأهالي. اكتفى بأن يخيرنا بين الاستسلام أو الإعدام. يقوم بتخزين السلاح في قصره.

١٠ فبراير

... سألتها عما كانت تعنيه بعبارة «اللهم اجعله ريوان» فابتسمت في حزن وقالت: معناها اللهم اجعله حلمًا، روت لي أصل العبارة. بائع مدر، أي فخار، حمل كل بضاعته على ظهره إلى السوق بدلًا من أن ينقلها على دفعات. وبينما هو يهبط تلًّا انزلقت قدمه فسقط حمله وتدحرجت المدر وتكسرت واحدة بعد الأخرى وهو يصيح: اللهم اجعله ريوان. ران علينا صمت حزين ونحن نفكر في الشهيدتين، ثم التفتت إليَّ فجأة وسألت عن المستقبل. تذكرت ما قاله لينين قبل الثورة. أكد أن إقامة المجتمع الاشتراكي لن تغير كل شيء على الفور، ولن تحول البروليتارية بصورة أوتوماتيكية إلى قديس، على حد تعبيره. ستظل هناك سلبيات ومشاكل كثيرة، وسيكون من الضروري استمرار الكفاح من أجل ديموقراطية أكمل، ومن أجل مساواة أشمل، ومن أجل أخوة أشمل.

٢١ فبراير

... وجدتها تقوم بتمشيط شعرها وتتأمل المشط. تناولته منها قائلة: اتركيني أنا. جلست خلفها وأحطتها بساقيَّ، مشطت لها شعرها وأنا أدقق النظر بحثًا عن الحشرة اللعينة. قالت لي إن إحدى حسنات تركها لأسرتها أنها هربت من طريقتهم في تسريح الشعر. فهم يزيلون شعر مؤخرة الرأس كاملًا فيما عدا ثلاث أو أربع خصلات رفيعة، وأحيانًا ما

يؤدي ذلك إلى إزالة جزء من قشرة الرأس؛ مما يسبب ألمًا شديدًا وربما الوفاة، ولا ينقذ البنت من هذا العذاب سوى الزواج؛ إذ تستطيع بعده أن تصففه على هواها.

سألتها إذا كانت تحب فاحمر وجهها. قالت إنها لا تفكر إلا في الثورة. تحدثنا عن ظروف الزواج والمهور الجائرة. قالت: إذا قررت الزواج فلأني أريد رجلًا معينًا ولا ضرورة أبدًا لأن يدفع لي أو لأهلي المال لقاء ذلك. قبل الثورة كانت النساء تشترى وتباع ويجري التخلص منهن مثل الغنم. أما الآن فعلى المرأة أن تدرك حقوقها وتساهم في الثورة. لكن يجب تأجيل الزواج إلى ما بعد الثورة لأنه قد يؤثر على نضالنا. رقَّ قلبي لها وذابت مشاعري. احتضنتها فرفعت إليَّ وجهها في براءة وقبلتني في فمي.

٢٢ فبراير

... لم أنم جيدًا أمس. كنت أسمع صوت تنفسها وأشم رائحتها.

... أثرت موضوع الزينة مع نبيلة وزميلتيها. قالت نبيلة في السابق كنا خاضعات للرجال ونتجمل من أجلهم. الآن المرأة يجب أن تجذب بشخصيتها لا بالمساحيق. أن تكون الواحدة وطنية جيدة ومقاتلة جيدة، هذه هي زينتنا.

٢٣ فبراير

... اقترحت عليها أن نذهب إلى الاستحمام في البحيرة القريبة. اخترنا نقطة منزوية يغطيها نتوء صخري، سبقتني إلى خلع ملابسها وهي تضحك كالأطفال. تأملت جسدها أقرب إلى الصبية فيما عدا صدرها. شعرت بريقي يجف وبالعرق يبلل يدي. تركتها فجأة وعدت إلى المخيم. يجب أن أتحكم في مشاعري. الأمر واضح جدًّا: حرمت نفسي طويلًا من رغباتي الطبيعية. امتزجت عواطف الأمومة بالعواطف الأخرى. شيء طبيعي ويحدث حولي طول الوقت دون أن أنتبه. الآن فقط أراه بوضوح. سلمى وخولة. ليس هنا فقط. قبل ذلك في منزلنا بصنعاء، ومنازل الآخرين. مي. ظروفنا والأخطار التي نواجهها تقربنا بعضنا من البعض. لكن ليس بوسعي أن أستسلم. أنا قائدة وأكثر وعيًا. جيفارا قال: إننا يجب أن نتنسك. مرة أخرى أسأل نفسي: هل كان يقصد أثناء العمل السري في المدينة استعدادًا للحرب أم خلال الحرب نفسها؟ وماذا لو استمرت هذه الحرب عدة سنوات؟ ضحكت في مرارة: يجب أن أجد رفيقًا أتزوجه، مشكلتي أني لم أشعر حتى الآن بالرغبة في أحد ممن التقيتهم.

٢٤ فبراير

... غادرت المعسكر إلى رخيوت متذرعة بمهمة عاجلة وبقرب انتهاء الدورة. تجنبت وداع مريم.

مارس

... الفِرق المسلحة لحزب الكتائب اليميني الذي يتزعمه بيار الجميل وزير الأشغال اللبناني تهاجم الفدائيين الفلسطينيين في بيروت والجبل. كمال جنبلاط وزير الداخلية يتهم المكتب الثاني بالتواطؤ بالتعاون مع المخابرات الأمريكية.

١١ مارس

... اتفاق بين الأكراد والحكومة العراقية على الحكم الذاتي للأكراد. الكل متفائل بإمكانية إغلاق الجرح الكردي المزمن وتوحيد القوى الثورية.

٢٥ مارس

... عُثر على جثة أحد قادة الشيوعيين الأكراد في شارع ببغداد. أصابع الاتهام تتجه إلى صدام حسين.

... اعتقال قحطان الشعبي في عدن لتورطه في مؤامرة.

أول أبريل

اشتركتا في افتتاح مدرسة الشعب، أول مدرسة تقيمها الثورة. دائرة واسعة من الخيام المتوسطة الحجم. أربعون طالبًا وطالبة قادمين من مدارس مكافحة الأمية. صفان أول وثانٍ. الأخير يعادل الصف الرابع الابتدائي في المدارس النظامية العربية. يتعلم الأطفال أيضًا المهارات التقنية مثل البذار والزراعة والتطريز، وعمومًا كيف يعتمدون على أنفسهم.

... أتحرك بلا حماس. كلما تلفت طالعني وجهها.

... مجموعات من أولاد وبنات تقوم بكل شيء: الطهي والعجين والخبز للقضاء على عادات المجتمع التي أفرزتها الرجعية والفردية. طشت كبير توضع به محتويات علبتين محفوظتين. ولد يعجن الدقيق في طشت آخر. في إناء ثالث كرات الخبز البيضاء. تبسط بعد ذلك فوق صاج تحته نار. الأرز يصنع في حلل ضخمة صفت في طابور.

... يستخدم المدرسون أحدث الوسائل التعليمية رغم فقر الإمكانات. في درس التاريخ والجغرافيا كان الموضوع عن الخليج العربي. طلب المدرس من كل طالب أن يمثل بلدًا خليجيًّا.

المعلم صغير السن يبرز من جيبه طرف كتاب ماو الأحمر، جلسوا جميعًا متربعين فوق كنابل صوفية على الأرض في هدوء ونظام (هل وجودي هو السبب؟). كراساتهم فوق ركبهم وفي أيديهم أقلام الرصاص، خاطبهم المدرس قائلًا: باسم الثورة نفتتح الدرس السياسي. العلاقة بين الطالب والمدرس تقوم على أساس الاحترام المتبادل والتنفيذ الطوعي المسئول للواجبات والمهمات، الضرب والشتم ممنوع. جلسات نقد شهرية يشترك فيها الطلبة والمدرسون لتلافي الأخطاء وتلخيص التجارب والاستفادة منها. حضرت إحداها. طلب أحد الأطفال الكلمة، قال: بعض الرفاق ناموا بالأمس دون خيام في العراء، لجنة الطلاب مطالبة بأن توفر لنا خيامًا جديدة، انتقد تلميذ آخر لجنة الطلاب بسبب قذارة المطبخ. طالب بنقله بعيدًا كي تُلقى الأقدار في الوادي، ردَّ ممثل اللجنة بأن حنفية المياه مكسورة وإذا نقل المطبخ دون تصليح الحنفية سنضطر لنقل الماء إليه بالقِرب. لخص آخر النتيجة: الانتظار حتى تصلح اللجنة الحنفية. اتخذ هذا القرار بالأغلبية. رفع تلميذ صغير يده قائلًا: أريد عمل نقد ذاتي ... أمس بعد المظاهرة لم أراجع دروسي. رد عضو لجنة الطلاب: لجنة الأساتذة سمحت لنا بالنوم لأننا كنا متعبين. تدخلت قائلة: النقد والنقد الذاتي ليس لعبة. ولا يجب استخدامهما إلا في الحالات المهمة. في نهاية الجلسة أعلن ممثل الطلاب: باسم الثورة تُرفع الجلسة. هتف الجميع: «ثورتنا ثورة أحرار نفديها بالدم الحار».

اجتذبني طفل وسيم في السادسة من عمره. يحمل بندقية ويرتدي تنورة كاروهات وكابًا عسكريًّا، احتضنته وسألته عما يفعل بالبندقية. أجابني في اعتداد: أحمي رفاقي من الثورة المضادة. أومأت بجدية شديدة مغالبة الضحك.

... في العصر أقيمت مباراة لكرة القدم، وفي المساء حفلة سمر. غنينا أناشيد الثورة: «يا شهيد الدرب لن ننسى التراب»، «يا جبهتنا الشعبية لك منا تحية»، «يا شعب الخليج اتحد»، ثم قدم الطلاب رقصة تمثيلية تُصور طقوس السحر التي كانت تستخدم في العلاج قبل التحرير عندما كانت الأدوية ممنوعة بأمر السلطان.

أبريل

... مصر تحتفل بمرور مائة سنة على ميلاد لينين.

... شيخ البحرين وشاه إيران يدعوان إلى استبدال السلطان.

... استبدال وزير الدفاع السلطاني الميجور ووترفيلد وقائد الجيش بآخرين بريطانيين.

... صحف بيروت تؤكد أن السفير البريطاني في البحرين عرض على السلطان التنازل عن العرش والسفر إلى الهند إلا أنه رفض.

... قصفت الفانتوم الإسرائيلية مدرسة للأطفال في بحر البقر في مصر. استشهد ٤٦ طفلًا وأصيب ٣٩ آخرين.

... اعتقال عبد الخالق محجوب ونفيه إلى مصر.

مايو

... فرقة النساء تطالب بإلغاء المهور.

... الجبهة الشعبية (حبش) تدعو لتأسيس الحزب العمالي العربي.

... أول طاقم من المساعدين الطبيين للمراكز المتنقلة ...

٢٥ مايو

... إجراءات ثورية في السودان: تأميم خمسة بنوك أجنبية وبنك سوداني. إنهاء سيطرة الشركات الأجنبية على التجارة الخارجية. تأميم شركات التأمين الأجنبية وسوق القطن. نميري يعلن أنه يسعى إلى وحدة القوى الثورية وأن الاشتراكية العلمية هي الحل الوحيد للقضاء على مشاكل الشعب.

أول يونيو

... عقدنا اجتماعًا خاصًّا لدراسة الوضع القبلي والمشكلة الزراعية، حضر علي محسن عضو القيادة. درس ثلاث سنوات في كلية الحقوق المصرية، متوتر للغاية وعصبي. ما زال توطين القبائل في الإقليم العربي يواجه بالنفور رغم مزاياه.

... انضم عوض إلى الاجتماع، فوجئت بسلوك غريب من جانبي. أردت أن أريه بعض الأرقام فوضعت الورقة فوق صدري وأنا أقول: انظر جيدًا. استقرت عيناه فوق نهديَّ. ارتفعت الدماء إلى وجهي، عنفت نفسي بشدة.

... اتخذنا توصيات بتشجيع الفلاحة عن طريق إدخال المضخات وحفر آبار جديدة وتنظيم الري وتوزيع البذور وتوفير الحد الأدنى من الأدوات.

٥ يونيو

توحدت مجموعات صغيرة في شمال عُمان مشكِّلة «الجبهة الوطنية الديموقراطية لتحرير عمان والخليج العربي». الظاهر أن للمخابرات العراقية دورًا ما في هذا التشكيل. يعرب عضو في القيادة. أصدروا بيانًا اعتبروا فيه نضالهم امتدادًا لكفاح جبهة ظفار. وعدوا بالعمل على التحام المنظمتين.

... أول عمل لهم هو إغراق مسقط بمؤلفات ماو. ترك أحدهم عدة حقائب مليئة بهذه المؤلفات لدى بائع حلوى في مطرح. اكتشف البائع محتويات الحقائب وخاف، فألقى بها في الشارع وتطايرت محتوياتها.

٩ يونيو

... أصدرنا شهرية جديدة موسعة باسم «٩ يونيو» ...

وصلتنا مقالات عبد الخالق محجوب التي اعترض فيها على قرارات التأميم السودانية. اتهمها بالارتجالية والجزافية، قال إن المصادرة في هذه الفترة تعتبر عقوبة اقتصادية على أصحاب المال من الرأسماليين الذين ما زالوا مدعوين للإسهام في خطة التنمية.

١٢ يونيو

... شنت جبهة تحرير عُمان هجمات فاشلة على مراكز جيش السلطان والإنجليز في إزكي ونزوى على بُعد بضعة أميال من أنابيب النفط.

١٥ يونيو

... تم في إحدى هجمات نزوى أسر تسعة من الثوار بينهم أربعة قياديين، يعرب أحدهم.

١٦ يونيو

... حملة اعتقالات واسعة في مطرح طالت الكثير من رفاقنا. لا أنباء عن يعرب.

... ألف قتيل وجريح في الأردن. خلال الأسابيع الثلاثة السابقة نزلت القوات الخاصة التابعة للشريف ناصر قائد الجيش وخال الملك إلى الشوارع. نصبت الكمائن لرجال المقاومة واغتالت الكثيرين منهم، ثم هاجم الجيش بالمدفعية والدبابات مناطق السكن الفلسطينية ومكاتب المنظمات ومراكز المؤن. صمد الفدائيون أسبوعًا ثم طالبوا بإقالة الشريف ناصر فانصاع الملك. تم الاتفاق على وقف إطلاق النيران.

٢٠ يونيو

... هل اعتقالات مطرح نتيجة اعترافات أدلى بها المقبوض عليهم في نزوى.

٢٥ يونيو

... أوشكنا أن نصطدم في الظلام بوحدة من رفاقنا في طريقها من القطاعين الشرقي والأوسط إلى معسكر الثورة من أجل التدريب. ضمت ١٦ من المجندين الجدد الذين قاتلوا لمدة سنتين في الميليشيا وجرت ترقيتهم في الشهر الماضي إلى العضوية التامة لجيش التحرير. حكى لنا قائد الوحدة عن كمينين اشترك فيهما: فاجأ في الأول وحدة من قوات السلطان تحاول التسلل إلى المناطق المحررة. في الثاني هاجم دورية للعدو في طريقها من أم الجواريف إلى بئر سهلموت.

يوليو

... يعرب حر. الوحيد الذي أُفرج عنه.

... أقامت الجبهة مزرعة نموذجية، ستعقد بها دورات دراسية في التقنية الزراعية لمجموعات من عشرين كادرًا. مدة الدورة ثلاثة شهور.

... أسقط الدفاع الجوي المصري ست طائرات فانتوم وأخرى سكاي هوك. اقترح روجرز على الفور العودة إلى وقف إطلاق النار.

... عبد الناصر يعلن قبول مشروع روجرز. دار بيننا نقاش عنيف حول هذا الموقف. الأغلبية وأنا منها اعتبرته تهادنًا وارتماءً في أحضان الأمريكان. رافع قال إن من شأن وقف القتال إتاحة الفرصة لتدعيم جبهة القتال، كما أنه ينص على الانسحاب الكامل والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني.

... الإيكونومست في ١٨ يوليو: سعيد بن تيمور يمثل خطرًا على أمن المنطقة واستقرارها.

... الصحف الإيرانية تتحدث عن انقلاب وشيك في عمان بقيادة قائد الجيش.

١٤ يوليو

... اجتمعت بالرفيق علي (١٩ سنة) عضو وحدة رخيوت. يريد أن يتركنا. من يهرب من القتال يتعرض لعقوبة الإعدام، فلا يمكننا أن نسمح بفرصة اتصاله بالعدو. قال لي إنه يريد أن يسافر لجمع المال. قلت: نحن نسعى إلى تغيير نظام كامل وتحقيق فرص الكسب للجميع وأنت تريد أن تتركنا لتجمع بعض المال لنفسك؟ بكي، قال إنه يحب امرأة من نفس القبيلة كانت متزوجة من رجل لا تحبه ثم وافق على تطليقها. اشترط أن يرد والدها المهر (٤٠٠ ريال)، اتفق الرجلان أخيرًا على أن يرد الأب نصف المهر نقدًا. وعندما فاتحه الرفيق علي في الزواج من ابنته طلب ٤٠٠ ريال نقدًا ونصف إبل وعشرين رأس ماعز. بالإضافة إلى ذلك يحتاج إلى حوالي ١٣٠٠ ريال تكاليف ذبح بقرة عشية الدخلة وتقديم الأرز والشاي للمهنئين طيلة الأسبوع، وأخيرًا شراء الهدايا من ثياب وعطور وكحول وشالات للعروس وأقاربها. قال إنه يستطيع تدبير كل هذا بالاستدانة ليتزوج لكن لا بد أن يسافر بعد ذلك كي يتمكن من السداد.

... لا بد من إلغاء قانون المهر.

٢٣ يوليو

... أنباء متضاربة من صلالة.

٢٦ يوليو

... سقط الطاغوت.

... أعلن قابوس اليوم أنه استولى على السلطة من أبيه، قال بالحرف: «لاحظت في الماضي بقلق متزايد عجز أبي عن إدارة الأمور، والآن فإن أسرتي وقواتي المسلحة قد أدت قسم الولاء لي، وقد غادر السلطان السابق البلاد، وسأكرس نفسي للإسراع بإنشاء حكومة حديثة.»

الفصل العاشر

مسقط

ديسمبر ١٩٩٢

ارتدى فتحي سترة خفيفة فوق قميصه الصيفي بينما بقيت أنا بالقميص والبنطلون، وتخلَّفت شفيقة عن طقس الإشهار عند الباب لانهماكها في الصلاة.

قال وهو يدير محرك السيارة: هل سمعت عما حدث لسارة؟

قلت وأنا أثبت حزام الأمان: من هي؟

– شغالة فليبينية عمرها ١٦ سنة أحضرها مقاول عمال وألحقها بخدمة عجوز حاول الاعتداء عليها فقتلته، أطلقت عليه ٣٤ رصاصة، وأقر الطبيب الشرعي بحدوث الاغتصاب بطريقة وحشية. حكمت عليها المحكمة بالسجن ٧ سنوات ودفع ٤٠ ألف دولار لعائلة القتيل وأدانته في نفس الوقت وألزمت عائلته بدفع ٢٧ ألف دولار للفتاة كتعويض يتم خصمها من الـ ٤٠ ألف دولار.

قلت: ليس هنالك شيء في الصحف.

قال نحن نخرج إلى طريق الكورنيش ونتجه إلى مسقط: الصحف لا تنشر هذه الأنباء. مئات الفليبينيات يهربن كل يوم من أماكن عملهن ويلجأن إلى سفارتهن ويتم ترحيلهن. جئن هربًا من الفقر وتجنبًا للعمل في الدعارة فوقعن في العبودية، كالمستجير من الرمضاء بالنار. بالمناسبة ما هي الرمضاء؟

حاولت أن أتذكر بلا جدوى.

بلغنا منطقة منعزلة تطل على البحر مباشرة أُقيم فيها فندق أشبه بالحصن. تركنا السيارة وصعدنا سلمًا لم يلبث أن انقسم إلى جانبين. ارتقينا الجانب الأيمن وولجنا بابًا

في نهايته. كان ثمة حاجز خشبي مؤلف من مربعات فارغة بدت منها قاعة طويلة صفت بها الموائد.

قادنا نادل هندي إلى مائدة في طرف القاعة تتوسطها زجاجة ويسكي ويتصدرها رجل متوسط الطول، ممتلئ الجسم، يرتدي الملابس التقليدية وإلى جواره سالم.

نهض الاثنان لتحيتنا ومد الفندي يده لمصافحتي. كانت له بشرة بيضاء ولحية خفيفة تخللها الشيب، قال وهو يتفحصني بإمعان: مرحبًا بك. نوَّرت عمان.

صافحت سالم وجلست في جانب المائدة إلى جوار المضيف وجلس فتحي في الجانب المقابل. تولت خدمتنا فتيات شرق آسيويات يرتدين ملابس أوروبية تغطي أجسادهن تمامًا ويتحركن في حذر ورهبة. ولحظت أن المطعم شبه خالٍ، فلم يكن به بالإضافة إلى مجموعتنا سوى مجموعة أخرى من ثلاثة شبان عمانيين يحتسون البيرة وزوجين أوروبيين في ركن قصي.

خاطبني الفندي بابتسامة حرت في تفسيرها: أرجو ألا تكون قد انزعجت لما حدث في نزوى؟ فتحي أكد لي أنك لم تصب بأذًى.

لم ينتظر إجابتي وأشار إلى النادل كي يصب لنا الويسكي. اعتذر فتحي عن الشراب بسبب القيادة مكتفيًا بمياه بيريه. تبادلنا الأنخاب، ثم وضع الفندي كأسه على المائدة ووجه إليَّ السؤال التقليدي: كيف الأحوال في مصر؟

لفظت الإجابة التقليدية: ماشي الحال.

سألني: هل صحيح أن ليلى علوي ستتزوج؟

ضحكت: لا أعرف. لم أنتبه للأمر.

قال: نحن هنا نعرف عنكم كل شيء وقراء صحفنا يهتمون بأخبار الممثلات المصريات. هل تعرف ماذا حدث في مجلس الشورى عندنا منذ شهور؟ احتج عدد من الأعضاء من الشيوخ المتزمتين على أن الصحيفة اليومية التي تصدرها وزارة الإعلام تنشر صور الممثلات والفنانات إلى جوار صورهم. تعرف ماذا كان رد الوزير عليهم؟ قال لهم: من الغد لن ننشر صور الشيوخ الأفاضل بِناءً على طلبكم.

انفجر ضاحكًا وشاركناه فاستطرد: هل رأيت صحفنا؟ ليس عندكم في مصر صحف ملونة بعد. أما نحن فالصفحات ملونة من مدة. هل لاحظت شيئًا عند قراءتها؟

تناول صحيفة ملقاة فوق المائدة وقدمها إليَّ. أمسكت الصحيفة وبسطتها ثم قلبت صفحاتها الملونة وهو يتأملني باسمًا.

قال مبتسمًا: انظر إلى أصابعك.

رفعت يدي إلى أعلى وأدرتهما وأنا أتأمل أصابعهما.

قال: ألم تلحظ أنها نظيفة؟

تبينت على الفور ما يقصده، فلم تتلوث أصابعي من حبر الطباعة كما يحدث عادة بعد تصفح الجرائد والمجلات.

شرح لي: اشتكى سيدنا من تلوث يديه بعد قراءة الصحف، فاستحضرت الوزارة آلة خاصة غالية الثمن، لكن النتيجة تستحق كما ترى.

لم يتعسر عليَّ إدراك هوية السيد المقصود، فأطريت الإنجاز الحضاري.

وزع علينا النادل الهندي قائمة الطعام التي جاءت في مجلد سميك أشبه بالكتاب. وقلبت صفحات المجلد في عدم تركيز وأنا أتابع انضمام اثنين من الشبان إلى الجالسين الثلاثة. كانوا جميعًا في الملابس التقليدية التي تراوحت ألوانها بين الأبيض الأشهب والرمادي. وزودتهم الفتيات بزجاجتي نبيذ.

عاد النادل إلينا فطلبت كوكتيل روبيان وحساء البصل الفرنسي، وكنت على وشك أن أطلب روبيان مشوي عندما أصر الفندي على أن يطلب لنا جميعًا اللوبستر.

سألني: كيف وجدت عُمان؟

انتقيت كلماتي في عناية وأنا أصف له انطباعاتي عن نظافة مسقط بالمقارنة مع القاهرة، وعن نظام المرور.

أَمَّنَ على ملاحظاتي وأضاف: مشاكلنا كثيرة. أهمها أن عملية التحديث التي يقوم بها سيدنا السلطان تسير بسرعة أكبر مما يحتمل مجتمع ما زال أسيرًا للمعتقدات والعادات القديمة. هل رأيت أصحاب اللحى؟ رد فعل طبيعي.

رفعت عيني إلى مستنسخات الخرائط القديمة لساحل عُمان التي زينت الجدران في إطارات خشبية.

استطرد: نحن دولة حديثة بكل معنى. هل تعرف أننا لم نضع بعدُ نظامًا للتقاعد؟

حدق فيَّ منتظرًا استفسارًا عن السبب ففعلت.

بسط ساعديه وقال بلهجة من يملك حل اللغز: لأنه لا يوجد بين الموظفين من بلغ سن التقاعد.

رفع كأسه إلى شفتيه ثم أعاده قبل أن يحتسي محتوياته وقال: المشكلة أن عدد السكان قليل والإمكانات ضعيفة.

قلت: يمكننا أن نبعث إليك بمليون مصري.

تجهم وجهه ورفع الكأس إلى شفتيه متشاغلًا بالشراب، فتدخل سالم في الحديث: نحن الآن ندخل عصر الجامعة بسرعة. في العام الماضي تخرجت أول دفعة من جامعة قابوس. في الوقت الذي لا نملك فيه عددًا كافيًا من أصحاب الثقافات الوسطى التي تحتاج إليها في هذه المرحلة ...

قاطعه الفندي في حدة: العُماني يأنف من الأعمال اليدوية، وحلم الشاب منهم أن يحصل على شهادة جامعية ليجلس إلى مكتب في وظيفة حكومية.

ارتفعت أصوات النقاش الحاد من المائدة الأخرى، فلوى الفندي شفتيه ازدراءً وقال: شعراء.

وأضاف مخفضًا صوته: الذي يجلس في المواجهة لا مهنة له لكنه ينشر بعض القصص والمقالات بين الحين والآخر، ويعتبر نفسه مثقفًا كبيرًا. والصبي الذي إلى جانبه شاعر، والملتحي شاعر آخر، ويليه أردني يتولى تدريس الأدب في الجامعة، والذي في الطرف واحد من التعساء الذين خدعتهم الشيوعية وحصل على دكتوراه ما من إحدى جامعاتهم. وهو شاعر أيضًا. كل العمانيين شعراء إلى أن يثبت العكس.

لم أتمالك من الالتفات إلى سالم لكن وجهه ظل كعادته من غير تعبير.

أشار الفندي للنادل كي يصب لنا جولة أخرى من الويسكي واستطرد: ستجدهم هنا كل ليلة. وهم لا يكتفون بالشراب ونظم الشعر، فينتقدون ويتذمرون ويشكون ولا يعجبهم العجب.

والظاهر أن الشاعر الملتحي أفرط في الشراب أو أراد أن يؤكد مقولة مضيفنا، فقد نهض فجأةً واقفًا ووجه كلامًا لاذعًا في حدة بالغة إلى المثقف الكبير الذي لا مهنة له وهو يشير إلى طبق به حبات من الخيار.

تدخل الآخرون لتهدئته، لكنه أشاح بيده وأعلن أنه سينصرف. وقبل أن يبتعد صاح وهو يلوح بيده شاملًا إياهم جميعًا: أنتم لا تجيدون غير الكلام والخنوع ... كلكم ... كلكم ...

ران الصمت على المطعم والتفت الأوروبيان في فضول ثم استأنفا حديثهما. ورأيت النادل الهندي يقف على مبعدة بوجه أصم، وكالعادة لم يكشف وجه سالم عن شيء. أما الفندي فقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة.

قال: لا أعرف ماذا يريدون. إننا نتقدم بخطوات واسعة في مجال الديموقراطية وفي الشهر الماضي السلطان أعطى لمجلس الشورى صلاحيات واسعة في مجال التشريع

والرقابة، وبالفعل قدم أعضاؤه استجوابًا لوزير الإعلام عن أسباب إعاقة استقبال البث التليفزيوني من بقية الدول الخليجية.

سألت: وماذا كان رده؟

– قال لهم إن مهمته هي دعم الإرسال العماني ولا شأن له بإرسال الدول الأخرى.

انفجر ضاحكًا وهو يضيف: وزير دبلوماسي تمام.

انصرف الشاب في اندفاع ولم يلبث أصدقاؤه أن استأنفوا الحديث في هدوء. ووجه الفندي حديثه إليَّ مستفسرًا: هل ذهبت إلى مكان آخر غير نزوى والحمراء؟

أجبته بالنفي، فقال: لا بد أن تذهب إلى الجنوب. ظفار. إنها جنة على الأرض. جبال هائلة الارتفاع تغطيها الغابات وعيون الماء ودرجة حرارتها معتدلة طول السنة. هل يوجد مكان مثل هذا على ظهر الأرض؟ لا بد أن تراها. إنها منطقة الأحقاف التي جاءت في القرآن. وبها قبور الأنبياء هود وأيوب وصالح. كما أنها المنطقة التي عاش بها قوم عاد وثمود. أعرف أن هذه أمور لا تهمك (وابتسم في خبث) لكن لا بأس من معرفتها.

قلت بلهجة عادية: ألم تكن بها ثورة منذ سنوات؟

تغيرت ملامح وجهه، وأشاح بيده في حسم: مجرد عبث أطفال من عملاء الشيوعية. الأمن الآن مستتب هناك تمامًا كما ترى بنفسك. اسمع، سأدبر لك الزيارة. سيذهب معك سالم أو زكريا.

– لا داعي. يمكنني أن أذهب بنفسي.

قال: لا بد من أن تحصل على تصريح، سواء ذهبت بالبر أو الجو.

رأيت النادل يضع زجاجتين من النبيذ فوق مائدة الشعراء. ولمحت المثقف الكبير يضع ذراعه على كتف جاره الشاب ويتحسس خده بأنامله. لم يستجب هذا للمداعبة وأبعد ذراع رفيقه، ثم تناول إحدى الزجاجتين وصبَّ محتوياتها خلسة في علبة بيرة فارغة دسها في جيب دشداشته.

سألنى الفندي: ما هي آخر نكتة في مصر؟

رويت له نكتة توزيع الميزانية فضحك بشدة ثم قال: اسمع هذه النكتة عن العراقيين. داهم جنودهم بيتًا في الكويت ونهبوه، وبينما هم في طريقهم للخارج سألتهم سيدة البيت متعجبة: هادا بس ... وين الاغتصاب؟

ضحكنا فاستطرد: أثناء التدريب سأل ضابط عراقي جنديًّا: لو جاءك العدو من الأمام تعمل إيه؟ قال أضربه بالبندجة. طب لو جاءك من الجنب؟ قال أضربه بالبندجة. وإذا جاء من الخلف؟ قال الجندي: هادا ما عدو، هادا صديق.

استقر صحن اللوبستر أمامي فتأملته طويلًا. لم أكن على دراية بطريقة التعامل معه. انتظرت حتى رأيت الفندي يهاجمه بملعقة فحذوت حذوه.

لحظت أن محتويات زجاجة النبيذ الثانية على مائدة الشعراء انتقلت إلى علب البيرة. ولم أرَهم يأكلون شيئًا، وكنا نشرب القهوة عندما سمعت النادل الهندي يبلغهم بأن موعد الإغلاق حان فنهضوا متثاقلين، ورأيت بقعة حمراء كبيرة على ثياب الشاب الذي وضع علبة النبيذ في جيبه.

غادرنا المطعم بعد قليل. ولاحظت أن مضيفنا لم يدفع شيئًا أو يوقع فاتورة.

ووجدنا الشعراء بجوار الصخور المطلة على البحر ومعهم زميلهم الملتحي الذي انصرف ثائرًا قبلهم.

كان ما زال يغمغم في غضب. وعندما اقتربنا منهم التفت ناحيتي وبصق فوق الأرض.

تجاهلنا جميعًا الأمر وصافحني الفندي مودعًا وهو يقول: أنت تعرف أين تجدني إذا قررت الذهاب إلى الجنوب.

اتجه إلى سيارته برفقة سالم وتبعت فتحي إلى سيارته.

قال وهو يربط حزام الأمان: لا بد أن تذهب. هذه فرصة.

خطر لي فجأة أن كل من ألقاه يلح على ذهابي إلى ظفار. وكنت متأكدًا أن شفيقة ستحثني هي الأخرى على السفر كي تتخلص من وجودي بعض الوقت.

الفصل الحادي عشر

صلالة

ديسمبر ٩٢

١

وصلنا المطار بعد أن اكتمل صعود الركاب إلى الطائرة. وقال لنا أحد العسكريين: الطائرة أغلقت أبوابها وستقلع بعد نصف ساعة.

احتج زكريا بأن لدينا مواعيد في صلالة.

قال العسكري بحزم: تعالوا في الواحدة لطائرة بعد الظهر.

جرب زكريا كل أنواع التبريرات والتوسلات التي نعرفها في مصر، وعلم الرجل أني مندوب فوق العادة لوكالة الأنباء المصرية، وأني صديق شخصي للوزير، وأني ... وأني ... وتحداه زكريا أن يتصل مباشرة بوزارة الإعلام ليتثبت من مزاعمه. وعندما بدت عليه ملامح التردد عرفت أننا سنكسب الجولة.

طلبوا منا بعد قليل الذهاب إلى جناح الـ «في أي بي». استقبلنا قائد عسكري عند المدخل وبرفقته جندية سمراء في بلوزة رمادية وجوبة سوداء طويلة وغطاء رأس رمادي. طلب إلينا أن ننتظر قليلًا في قاعة مجاورة فاتجهنا إليها فوق سجادة حمراء، وبعد قليل انضم إلينا رجل وامرأة في الملابس الأوروبية وحدست أنهما عربيان. ظهر القائد بعد لحظة عند المدخل وأبلغهما أنه لا بد من التفريق بينهما؛ إذ يتعين أن تذهب المرأة إلى القاعة المخصصة للنساء.

احتج الرجل الذي ثبت من لهجته أنه لبناني بأن المرأة زوجته.

قال القائد في حرج: ولو. هذه هي الأوامر.

استنكر زكريا إصرار الرجل على بقاء زوجته معنا، وهمس لي وهو يتأمل حقيبة يدي: اللبنانيون ليست لديهم نخوة.

انفصل الزوجان ومرت دقائق ثم ظهر القائد من جديد وأشار لنا أن نتبعه. غادرنا المبنى إلى أرض المطار وتقدمنا من طائرة دي سي. كانت إلى جوارها سيارة مرسيدس سوداء هبط من مقعدها الخلفي رجل مهيب يرتدى الدشداشة البيضاء والخنجر والصندل والكمة، صافح اللبنانيين وانتظر حتى صعدا سلم الطائرة، وأنا وزكريا في أعقابهما ثم استقل سيارته وانصرف.

أُغلقت أبواب الطائرة بمجرد صعودنا إليها وأجلسنا المضيفون الآسيويون أمام جدار يفصلنا عن كابينة القيادة مباشرة، تطلعت خلفي إلى الركاب الذين تكدسوا في صفوف متلاصقة. كان البعض يرتدي سترات أوروبية فوق الدشداشة الوطنية. وأغلبهم ينوءُن بأحمال متنوعة من السلال واللفائف.

مسح زكريا دموعه وقال ونحن نربط الأحزمة: قبل الثورة كان السفر من مسقط إلى ظفار يتم فوق ظهور الدواب ويستغرق ١٨ يومًا.

تساءلت في سذاجة: أي ثورة؟ ابتسم ابتسامته الغريبة وقال: ثورة سيدي قابوس طبعًا.

انطلقت الطائرة فوق الممر المخصص لها استعدادًا للإقلاع، فشرع يحرك شفتَيه بسرعة، ثم أخرج من جيب دشداشته مصحفًا صغير الحجم قلب صفحاته حتى استقر على إحداها وانطلق يقرأ بصوت منخفض. قدرت أنه يقرأ سورة «يس»؛ إذ كان أبي يشيد بفعاليتها في الملمات.

حلقت الطائرة أخيرًا وبعد أن استقرت في مسارها بعض الوقت أغلق المصحف وأعاده إلى جيبه.

قلت في محاولة للتواصل: ما زلت لا أصدق أني أرتدي قميصًا صيفيًّا في نهاية ديسمبر.

قال: هل لاحظت أن ترتيب الفصول عندنا يختلف عنه عندكم؟ نحن الآن في نهاية فصل الربيع سيعقبه بعد أيام فصل الشتاء حتى مارس، ليبدأ الصيف مباشرة وبعده الخريف.

سألته عن موطنه الأصلي، قال إنه من صحار التي تعلو مسقط.

– وأين درست؟

– في البحرين، ثم باكستان.

بدا عازفًا عن الحديث؛ إذ أخرج مصحفه وانتقى صفحة مطوية الطرف واستغرق في القراءة بصوت هامس يعلو بين الحين والآخر.

وصلنا صلالة بعد ساعة ونصف، وجدنا في انتظارنا سيارة لاندروفر حكومية أقلتنا في طريق تحف به الأراضي الخلاء والقصور المسورة الغامضة، سرنا طويلًا بجوار سور مرتفع لا يكشف عما وراءه. كان أعلاه مزخرفًا بنسق هرمي يتدرج صعودًا إلى قمة بارزة ثم يهبط من جديد بنفس عدد الدرجات.

استفسر زكريا من السائق عن المكان، فقال إنه قصر لأحد الوزراء. مضت برهة وعندما لم نستزده انطلق يتحدث من نفسه عن القصر، وعلمنا أنه أعجوبة من الداخل وعمل به أكثر من ستين قاطع رخام وحجَّار. وبه نجف مستورد من مصر وحمامات كاملة مستوردة من إنجلترا وتكييف مركزي. وأن الأبواب الداخلية حفرت عليها نقوش دقيقة تولاها فنيون مخصوصون من الهند.

اخترقنا دوارًا رئيسيًّا واتجهنا يسارًا. مررنا بقصر السلطان وبعدة بيوت قديمة مبنية بالطوب اللبني المغطى بالجص ويتألف بعضها من عدة طوابق اختفت نوافذها المقوسة خلق ستائر خشبية على طريقة المشربية. ولحظت أثر العمارة الهندية في المصاريع الخشبية المحفورة بإتقان والمثبتة إما في الطرف الأسفل من النافذة أو في وسطها. وتجلَّى التأثير الأفريقي في الألوان الحمراء والصفراء الساطعة التي ميزت بعض المصاريع.

صحبتنا صفوف من أشجار جوز الهند حتى بلغنا فندق الهوليداي إن على شاطئ المحيط الهندي.

علق زكريا على الكرات الحديدية الضخمة البيضاوية الشكل التي زينت مدخل الفندق قائلًا: إنها أحجار من الجبل تشكلها الرياح.

حمل فتى هندي حقائبنا واحتفظت بحقيبة يدي معلقة في كتفي، تناولنا فناجين القهوة المعهودة في المدخل، ثم اتجهنا إلى مكتب الاستقبال. وكدت أعتقد أننا النزيلان الوحيدان؛ إذ كان الهدوء شاملًا ولوحة المفاتيح حاشدة.

أعطاني زكريا بطاقة الطائرة الخاصة بي، فدسستها في حقيبة يدي ووضعتها فوق سطح المكتب، ثم أخرجت منها جوازي وسجلت بياناته في أوراق الفندق.

قال لي زكريا وهو يبتسم ابتسامته العجيبة: المكالمة التليفونية هنا تكلف خمسة ريالات.

يحذرني من استخدام التليفون أم يتعمد إهانتي؟

حصلنا على مفاتيحنا من موظف هندي، وانحنيت لأحمل حقيبتي الكبيرة، فمد زكريا يده إلى حقيبة يدي ليحملها عني. جذبتها بعيدًا عن يده وأسرع الفتي الهندي فحمل الحقيبة الكبيرة إلى المصعد وتبعته إلى غرفتي بالطابق الأول.

ألقيت بحقيبة يدي فوق الفراش بعد انصراف الفتى وأجلت البصر حولي. كانت الغرفة رحبة يتكوَّن جدارها المواجه للباب من نافذة عريضة وشرفة تُطل على حديقة الفندق. وشغل الفراش مساحة كبيرة وسط الغرفة بجوار مقعد ثقيل بمسندين ومكتب. تفقدت الحمام المجاور لباب الغرفة وعدت إلى وسطها. أجلت البصر حولي مرة أخرى وتأملت جهاز التليفزيون المواجه للفراش، ثم تقدمت من المقعد وأزحته. استخرجت الكيس الذي يضم اليوميات من حقيبة يدي ورفعت حافة السجادة، ثم دسسته أسفلها وبسطت السجادة وأعدت المقعد مكانه.

كان حلًّا ساذجًا لن يصمد أمام محترف مسلح بالوسائل التكنولوجية، لكنه قد يفيد مع خادم فضولي.

اغتسلت واستبدلت قميصي وغادرت الغرفة. هبطت الدرج إلى ممر هادئ، ثم مضيت مسافة بجوار المطعم إلى البهو حيث ينتظرني زكريا.

ابتدرني قائلًا: لا بد أنك عطشان.

لمحت قاعة تدعى «الخريف كوكتيل لونج»، وتخيلت زجاجة بيرة مثلجة. لكنه قادني إلى قاعة أخرى تعلن لافتتها عن «الخريف كوفي شوب». وأحضر لنا النادل الهندي ثمرتين من جوز الهند. أزال قشرتهما الخارجية بسكين طويلة وأحدث في كل منهما ثقبًا دفع فيه بأنبوبة ماصة من البلاستيك الملون. استطعمت مذاق ماء الثمرة البارد.

علق: الظفاريون يزعمون أن من يشرب ماء جوز الهند مرة يعود إلى صلالة مرة ومرة.

قلت إننا نقول نفس الشيء عن ماء النيل.

أتيت على محتويات الثمرة واحتفظت بها بين يدي وتطلعت إلى لحمها الأبيض حائرًا. سألته عما أفعله بها. فقال: لا شيء. ارمها.

أعدتها إلى الصينية وأنا أتأمل لحمها الأبيض بإشفاق متذكرًا طعمه اللذيذ.

غادرنا الفندق وانطلق بنا السائق في طريق موازٍ للبحر يحمل اسم السلطان قابوس حتى مقر والي المدينة. ولجنا غرفة مخصصة لإدارة العلاقات العامة بها مكتبان يجلس خلفهما شابان بالملابس التقليدية. كان أحدهما أسود اللون والثاني طويل القامة نحيفها مكتئب الوجه يُدعى خلف. ورحبا برفيقي عن معرفة قديمة.

أخذنا خلف في جولة بالسيارة شهدنا خلالها مدينة متكاملة واسعة بمنازل متعددة الطوابق ومعارض سيارات ومطاعم وثلاث دور للسينما ومستشفى يحمل اسم قابوس ومدرسة داخلية ابتدائية تحمل اسمه أيضًا.

قال خلف: هذه المدرسة مخصصة لأبناء الشهداء، ويأخذ التلاميذ مصروفًا شهريًّا أثناء الدراسة.

انتبهت بعد قليل: أي شهداء؟

قال: شهداء المعارك التي دارت هنا في ظفار.

لم يكن من العسير تحديد الجانب الذي استفاد شهداؤه من المدرسة.

مررنا بمبنى الإذاعة والتليفزيون وبمصنع لتعليب الأسماك وآخر للأسمنت. وذكر خلف أن هناك مصانع أخرى لتعبئة الموز واللبن وبيبسي كولا وسفن أب.

موَّن السائق السيارة من محطة خدمة تابعة لشركة شل ثم أخذنا إلى السوق المركزي، ترجلنا في الخارج وطفنا بأنحائه. توقفت أمام منتجات جوز الهند ومشغولات الرعاة من أهل الجبل، وكان هؤلاء يتجولون شبه عراة كاشفين عن أجساد شديدة السمرة وعضلات بارزة ورءوس ذات شعر كث شديد السواد.

طلب زكريا أن نرى آثار ناقة النبي صالح، فغادرنا السوق وقادنا السائق إلى صخرة صلدة تحمل أثرًا واضحًا لخف غائر وأصابع مفلطحة.

وقال خلف: كانت هذه الصخرة سقفًا لإحدى المغارات ثم سقطت عندما سارت عليها الناقة.

سألت: متى كان هذا؟

قال زكريا: في زمن الأنبياء.

حاولت أن أتذكر ما يميز النبي صالح بين رفاقه. استفسرت من زكريا فقال: إنه النبي الذي عجز عن هداية قومه.

جذبني من ذراعي وابتعدنا قليلًا وأضاف بصوت هامس: خلف من الشحرة، وهم ينحدرون من نسل القبيلة التي عقرت ناقة النبي صالح. كانت تزود الناس باللبن والعسل والنبيذ، وعندما عقروها عاقبهم الله بإرسال جحافل النحل عليهم فالتهمتهم.

انضممنا إلى خلف وركبنا السيارة التي اتجهت غربًا. تجلت لنا مساحات خضراء شاسعة تتخللها شجيرات متناثرة، ولاحت من بعيد بضع غنمات وجمل يسير وحده في بطء.

بدأ الطريق يصعد ولم تلبث السيارة أن انحرفت إلى أجمة مليئة بالأغصان. توقفت إلى جوار شجرة تتفرع أغصانها رأسًا فوق سطح الأرض وترتفع حوالي ثلاثة أمتار بأوراق خضراء داكنة تشبه أوراق شجرة الزيتون. هبطنا من السيارة وأخرج السائق مطواة أزال بها جزءًا من اللحاء. ولم تلبث المنطقة العارية أن بدأت في إفراز سائل مثل اللبن.

قال: لو تركناها هكذا ستستمر في الإفراز وبعد أسبوع تكون لدينا كرية صغيرة من اللُّبان.

تنافس الثلاثة في تثقيفي بحضارة اللُّبان. فعلمت أن المصريين القدماء استخدموه في التحنيط، وكان له طريق بري يمتد حتى سواحل البحر الأبيض وآخر بحري حتى أطراف آسيا. وكان بخورًا مقدسًا في المعابد والكنائس، ولا زال يستخدم في البيوت لطرد الأرواح الشريرة والحشرات السامة.

قادنا خلف إلى خيمة كبيرة الحجم على بُعد خطوات جلس في مدخلها رجل أسمر خمسيني بلحية خفيفة وعينين تبرقان دهاءً. رحب بنا عندما رأى خلف وإن لم يبدُ إشارة إلى أنه يعرفه.

أشار لنا خلف أن نقتعد الحصيرة التايوانية الملونة التي جلس الرجل فوق طرفها محتضنًا راديو ترانزستور. تأملني بإمعان ولمعت عيناه المكحولة عندما ذكر له خلف أني مصري. قام على الفور إلى ناقة بركت على مقربة وملأ قصعة معدنية من لبنها ثم قدمها إليَّ. تأملت القصعة التي علتها الرغاوي مترددًا لكن خلف شجعني على الشرب، ففعلت.

قال الرجل موجهًا الحديث لي: اشرب، تحيا القومية العربية.

بدا الشعار غريبًا فلم يسمعه أحد من مدة طويلة. ونظر الرجل إلى خلف نظرة سريعة ثم استطرد موجهًا الحديث لي وهو يبتسم ابتسامة عريضة: صوت العرب من المحيط إلى الخليج يناديكم.

أبديت دهشتي فعلق: أي نعم. نحن نعرف كل شيء. جونسون حمار ونيكسون زعيم الإمبريالية وجمال عبد الناصر بطل العروبة.

تعجبت من جرأته، فهذه العبارات التي كانت مألوفة في الستينيات كفيلة اليوم — في كل مكان تقريبًا من المحيط إلى الخليج — بأن تقود صاحبها إلى السجن.

لم يعلق خلف أو زكريا بشيء بعد أن تركنا الرجل. ولاحظت أن خيمته تقع في بداية الطريق إلى الجبل. فهل وضع هنا على عمد ليكون في استقبال الزوار ويقدم لهم الدليل

الحي على سماحة النظام أم هو ملتاث يعيش على الذكرى ولم يسمع حتى بكارتر أو بوش؟

عدنا إلى السيارة وواصلنا الصعود في طريق وعر. ولاحظت تدرج الألوان في أغصان الأشجار: اللون الأخضر عند القواعد يليه اللونان الأصفر والبرتقالي في الوسط ثم البني الداكن في أوراق الأغصان العليا. وفي القمة تبدو الأغصان عارية من الأوراق التي تجمعت على الأرض حول الشجرة، كأنما جمعت الشجرة في غصونها كل فصول السنة الأربعة.

ولجنا ساحة ممهدة يتوسطها مبنى حديث عبارة عن مطعم سياحي يحمل اسم النبي أيوب. تناولنا الغداء على حساب التراث، ولهذا لم يعبأ أحدنا بالأسعار الباهظة. ركزنا أنا وخلف والسائق على السالمون الاسكتلندي المدخن والروبيان المشوي والمقلي، واكتفى زكريا بطبق غريب من قطع الدجاج مع الأناناس والأرز.

مضينا بعد الغذاء مشيًا على الأقدام إلى ضريح النبي أيوب الذي شُيِّد على شكل مستطيل طُليت جدرانه باللونين الأبيض والأخضر. خلعنا الأحذية ودخلنا قاعة فُرشت بالسجاد وعُلقت الآيات القرآنية بجدرانها وتوسطها جسد عملاق مغطى بقماش أخضر اللون. كان طوله ستة أمتار تقريبًا ويكاد يملأ المكان مخلفًا مساحات ضيقة في الجوانب امتلأت بخزانات صغيرة للكتب ومساند شرقية وحمالات خشبية للقراءة.

تطلعت في فضول إلى الجسد الأسطوري المسجى. وعلق خلف على ما دار برأسي من تساؤلات قائلًا: كان هناك في القديم عمالقة.

– بهذه الأحجام؟

– انتظر حتى أريك قبر النبي عمران الذي يبلغ طوله أكثر من ثلاثين مترًا بالتمام والكمال. تعرف قصة النبي أيوب بالطبع؟

كنت أعرفها بالتأكيد، فقد لقنونا إياها في الصغر. لكن التفاصيل ضاعت في زحمة قصص أخرى. ومضت برهة قبل أن أمسك ببعض الخيوط؛ بدأ الأمر بصاعقة أحرقت مخازن الغلال والأشجار ومزارع الكروم. وتبعها زلزال ثم ريح عاتية حملت الطاعون الذي قضى على الماشية. وأُصيب النبي فانتشرت القروح فوق جسده وتقيحت وامتلأت بالدود فنفر منه الجميع، زوجته وأقاربه وأصحابه. لكنه صبر على ما أصابه ولم يفقد إيمانه لحظة واحدة.

لم يسبق أن تمعنت القصة أو فكرت في مصداقيتها. ولم أملك أن أتساءل الآن: هل هو حقًّا المسجى أمامي؟ وهل تعرض حقًّا لكل هذا العذاب؟ وهل آمن فعلًا كل هذا الإيمان؟ وهل يجعل منه هذا إنسانًا أفضل؟

قال خلف ونحن نستدير نحو الباب: المتزوجون حديثًا يأتون دائمًا إلى هنا. المكان الملائم لبدء المسيرة.

انحنيت لأرتدي حذائي ولمحت رجلًا شديد السمرة يجلس مطأطئ الرأس أمام المسجد المجاور. كانت القروح والندوب تغطي صدره العاري.

ركبنا السيارة ومضينا صُعُدًا في الطريق المرصوف. امتدت الخضرة أمامنا إلى ما لا نهاية يخيم عليها الصمت. ولاحت من بعيد مجموعة من البيوت تتحرك حولها أبقار. وهنا وهناك انتصبت خيام متباعدة من ألوان مختلفة.

قال خلف بصوت رتيب مجرد من الحياة: حتى الثمانينيات كانت هذه الأراضي تزرع على أيدي الفلاحين، ومع انتشار الحياة المدنية وارتفاع الرواتب التي تدفعها الحكومة، هجر الفلاحون الوادي وتركوه للأعشاب البرية وقطعان الماشية، والقادر منهم استأجر هنودًا لزراعتها بل وللرعي أيضًا.

اقتربنا من انحناءة حادة في الطريق ولم يغير السائق من سرعته، لكنه ما لبث أن ضغط بقوة على الفرامل وأطلق صيحة استياء، فقد ظهرت أمامنا شاحنة بيك آب تتبع قطيعًا من الأبل يتقدم على مهل في عرض الطريق.

تبعنا القطيع في بطء حتى بدأ يستدير إلى طريق جانبي وسط الخضرة وتبعته الشاحنة.

دبت الحياة في سائقنا وضغط على المسرع وهو ينقل السرعة واندفع مواصلًا الصعود، أبديت دهشتي من احتكار القطيع والشاحنة للطريق. وعلق خلف: التفاهم مع رعاة الجبل صعب.

تساءلت: أين هم؟

قال وهو يبتسم لأول مرة: آه. وكنت تتوقع راعيًا يحمل عصا ويمشي على قدميه؟ لم يعد هذا الصنف موجودًا. الرعاة الآن يستخدمون الشيفروليه والتويوتا.

لاحت لنا خيمة كبيرة فوق إحدى القمم فاتجهنا إليها. وجدتها مكدسة بأكياس الأرز والدقيق والسكر وصناديق الشاي والصابون وصفائح السمن وغيرها. وعرفت من صاحب الخيمة الباكستاني أن طائرات الهليكوبتر الحكومية تنقل له هذه المواد من صلالة ليبيعها لأهل الجبل بنفس أسعار المدينة.

خطوت جانبًا وأخذت أتأمل الطبيعة الغنية من حولي. ولمحت في أعلى قمة جبلية مجاورة سورًا حديث البناء ظهر خلفه رجال في ملابس عسكرية خضراء. استفسرت من خلف فرفع رأسه إلى أعلى وتطلع إلى السور ثم قال: هذا واحد من المراكز الإدارية التي

أقامتها الحكومة فوق الجبال. كل واحد يضم مسجدًا ومدرسةً ومكتب بريد وعيادة طبية ومركزًا تجاريًّا.

وبدا لي ما وراء السور أقرب إلى الثكنة العسكرية، رمقت خلف بطرف عيني فلمحت في عينيه المشرعتين إلى أعلى شيئًا من الرهبة أو الخوف.

سألته: هل يمكنا أن نصعد إليهم؟

قال وهو يستدير متجهًا إلى السيارة: لا أظن أنهم يرحبون بالزائرين.

أضاف السائق وهو يدير السيارة في طريق العودة كأنما يعينني على الفهم: هذه المنطقة كانت مشتعلة بالفتنة والتمرد.

٢

نمت في عمق لأول مرة من زمن واستيقظت مبكرًا. استمتعت بحمام ساخن طويل وبمياه الدوش الدوار فوق أماكن الألم في عنقي وظهري.

لم أجد رغبة في أن أتناول إفطاري مع زكريا، فطلبت خدمة الغرف. لم يرد عليَّ أحد وتنقلت بينها وبين الاستقبال عدة مرات إلى أن جاءني صوت يتحدث الإنجليزية بلهجة هندية. كرر إحدى العبارات إلى أن فهمت أنه يستفسر عن نوع الإفطار الذي أريده؛ كونتيننتال أم شرقي أم أمريكي. اخترت الشرقي الذي يتألف من الجبن الأبيض والفول المدمس واللبنة.

سألني: شاي أم قهوة؟

أحب أن أشرب الشاي مع الإفطار ثم أتبعه بعد قليل بفنجان من القهوة. واختصارًا للوقت طلبت الاثنين معًا.

كرر: شاي أم قهوة؟

قلت: شاي وقهوة.

كرر بصبر نافد: تي أور كوفي سير؟

قلت: تي آند كوفي.

صمت برهة ثم قال: ثانك يو سير.

دق الباب بعد ربع ساعة وفتحته لشاب هندي يحمل صينية عليها عصير جريب فروت وكرواسون ومربى ودورق قهوة. قلت بالإنجليزية: ليس هذا ما طلبته.

قال: ييس سير.

قلت: خذه إذن وأحضر لي الإفطار الشرقي.

قال وهو يضع الصينية على المكتب: ييس سير.

قدَّم إلى الفاتورة لأوقعها كأنما لم أقل شيئًا. يئست من المجادلة فاستسلمت ووقعت.

نزلت إلى البهو بعد الإفطار. أعطيت موظف الاستقبال الهندي مفتاح الغرفة وانتظرت حتى أودعه مكانه في لوحة المفاتيح. كان الصندوق الخاص بي خاليًا من الرسائل. سألته عن زكريا فهزَّ رأسه بالحركة التقليدية وقال: «الرفيج» في السيارة.

هكذا أصبح الملتحي رقيقًا على يد الهندي بعد سقوط الاتحاد السوفييتي. وجدت زكريا ينتظر في سيارة داتسون. قال وهو يمسح دموعه: سنذهب أولًا إلى المكتب لنأخذ اللاند روفر. أمامنا رحلة طويلة إلى شيصور التي اكتشفوا تحتها مدينة أثرية منذ شهور. قلعة بسبعة أبراج يعود تاريخها إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. إنها مدينة إرم التي جاء ذكرها في القرآن ودفنها الله تحت الرمال عندما غلبت الشراهة والطمع أهلها نتيجة ثرائهم.

– ومن اكتشفها؟

– الأثري البريطاني المعروف سير فينيس. خدم هنا في القوات البريطانية أثناء ثورة ظفار.

قلت: عجيبة.

قال: أليس كذلك؟

قلت: أنا أقصد هذا السير فينيس، وقبله موشيه دايان وآخرون. ما الذي يجذب الجنرالات إلى الآثار؟

استقبلنا خلف في سترة أوروبية فوق دشداشته. وأبلغنا بأننا سنذهب إلى منطقة أخرى لأن المنطقة الأولى أُغلقت.

قال وهو يقدم إليَّ صحيفة اليوم: الاكتشافات الآن على قدم وساق. السنة الماضية اكتشفنا في جنوب ظفار آثارًا عمرها ٣٥ مليون سنة: أسنان وبقايا فيلة وقردة وتماسيح وأسماك وسلاحف وقوارض.

– معقول؟ هذا يجعلها أقدم من آثار الفيوم عندنا التي تعتبر أقدم حفريات في العالم.

ابتسم في سعادة: طبعًا. راحت عليكم كما تقولون.

ألقيت نظرة على الصحيفة فوجدت النصف الأعلى لصفحتها الأولى مخصصًا لمؤتمر قمة مجلس التعاون لدول الخليج تحت عناوين ترحب بالإدارة الأمريكية الجديدة وتشيد بدور بوش في تحرير الكويت. كانت هناك صورة ملونة للسلطان بلحيته البيضاء المميزة

في مقعد ضخم مذهب وأمامه العلم بألوانه الأزرق والأبيض والأحمر، وتجلى في صورة أخرى بعباءة زرقاء مذهبة الحواشي كشفت الخنجر الفضي في جانبه الأيمن وإلى جواره أمير بوجه ثعلبي وآخر قصير القامة علق خنجره الذهبي في منتصف البطن تحت السرة مباشرة.

تمعنت في عيني السلطان اللتين أوحت نظرتهما بالجدية والصرامة. قلبت الصفحة فطالعتني صورة ثالثة له مع رجل ممتلئ في عباءة تكشف عن الخنجر ونظارة سوداء عريضة بين حاجبين ناصعي البياض وشارب من نفس درجة اللون. بدا لي الوجه مألوفًا لكني لم أتذكر أين رأيته من قبل. وكان الاسم المذكور أسفل الصورة هو «الحارث بن عيشة».

تذكرت إشارة في موسوعة السلطان قابوس الأسماء التي تنتسب إلى الأم. وأوضح لي خلف أنها عادة قاصرة على بدو الصحراء.

قلت: لعلها كل ما تبقى من أيام السلطة المطلقة للمرأة.

انتهزت الفرصة وأضفت: ألا يوجد هنا نشاط نسائي؟ سمعت عن جمعية للمرأة.

قال خلف بصوت مجرد من الحياة: عندنا في مرباط مركز للتأهيل النسوي أنشأته السيدة الجليلة أم السلطان. إذا أحببت نأخذك لزيارته.

صحبنا زميله الأسود هذه المرة وانطلقت بنا السيارة إلى شارع قابوس ثم اتجهت يمينًا نحو المحيط. وبعد فترة أقبلنا على خليج صخري مهجور، تتوسطه أطلال مندثرة تمتد حوالي نصف كيلومتر، وتتألف من أحجار بناء أكسبها الزمن لونًا كابيًّا كئيبًا.

قال بلال: هذه المنطقة تسمى «البليد» باللهجة الجبالية ومعناها بالعربية البلد. كانت ميناءً زارها ماركو بولو في ١٢٩٥، وابن بطوطة بعده بثلاثين سنة، رحمه الله، فقد وصفها بأقذر مكان في العالم، وقال إن البعوض يغطيها، وأبدى دهشته من أن الحيوانات تتغذى على السردين.

كان الجزء الشرقي من المنطقة مشيدًا على شكل مربع يضم مسجدًا كبيرًا بأعمدة مستديرة وخماسية لها قواعد وتيجان منقوشة بآيات قرآنية.

أرانا بلال أساسات مبنى الجمارك القديم وقال: كانت الرياح التي تهب من الشمال الشرقي في هذا الشهر تحمل سفن التمر واللبان إلى شواطئ أفريقيا، ثم تعود مرة أخرى مع الرياح الجنوبية الغربية في أبريل محملة بالعاج والعسل وأصداف السلاحف التي تصنع منها مقابض الخناجر.

هل جاءت أيضًا بأسلافه مكبلين؟

كانت الشمس حارة وشعرت بالإرهاق فأبديت رغبتي في العودة. نزلت وحدي عند الفندق؛ إذ أراد زكريا الذهاب إلى المدينة. تأكدت من أن أحدًا لم يترك لي رسائل وصعدت إلى غرفتي. اغتسلت ونزلت إلى المطعم الخالي إلا من أسرة أوروبية. طلبت عدة سلطات شرقية وشيش كباب وزجاجة بيرة، فهزَّ النادل الهندي رأسه قائلًا إن البيرة غير متوفرة.

انتظرت حتى انصرف، وغادرت مكاني بهدوء وصعدت إلى غرفتي، فأخذت زجاجتي بيرة من الميني بار وعدت بهما إلى المطعم، وضعتهما أمامي فوق المائدة، وإذا بمدير المطعم الهندي يقترب مني هائجًا: نو، نو.

استغرق الأمر بعض الوقت كي أفهم أن تناول الخمور قاصر على الغرف والبار. وأصر على أن أعيد الزجاجتين إلى غرفتي.

حملت الزجاجتين وصعدت إلى الغرفة. أعدتهما إلى الميني بار وهبطت من جديد إلى المطعم.

أكلت بغير حماس ثم مضيت إلى الاستقبال، فألقيت نظرة على الصندوق الفارغ.

سمعت اسمي فاستدرت ووجدت سالم والفندي أمامي وخلفهما البلبوي يحمل حقائبهما.

قال الفندي: لم نشأ أن نتركك تستمتع بطبيعة ظفار وحدك.

لم أحر جوابًا. وانهمك سالم في ملء أوراق الاستقبال.

قال الفندي وهو يتطلع ناحية المطعم: هل أكلت؟ سأموت من الجوع.

قلت إني سبقته وفي طريقي للقيلولة.

قال: خذ قيلولتك ثم تعالَ إلى جناحي لتشرب كأسًا.

انضم سالم إلينا قائلًا: سنذهب بعد ذلك إلى أختي لنتعشى عندها، سأريك منازل الظفاريين.

صعدت إلى غرفتي وتمددت على الفراش بملابسي واستغرقت في النوم على الفور. وعندما استيقظت بحثت عن زكريا فلم أجده. كنت أرغب في احتساء فنجان من القهوة لكني لم أشأ أن أمر بمحنة الصباح فهبطت إلى البهو.

وجدت سالم في انتظاري. سألته عن زكريا فقال: بحثت عنه ولم أجده. على أي حال لن يأتي معنا، فهو لا يحب مجالس الشراب.

غادرنا المبنى إلى حديقة الفندق ومضينا أمام فيلات منفصلة تتكون كل واحدة في طابقين.

قال سالم دون أن يظهر أي تعبير على وجهه: الفندي له هنا شاليه محجوز طول السنة لا يأتي إليه غير بضعة أيام.

بلغنا الشاليه ذا الطابقين ودق سالم الباب ففتحه خادم فليبيني يتدلى قرط من أذنه ويتحرك برقة أنثوية. جلسنا في الصالة إلى جانب مائدة تحمل طبقًا كبيرًا من الفاكهة وزجاجة ويسكي في لفافة تحمل تحيات إدارة الفندق.

هبط الفندي بعد قليل من الطابق الأعلى، كان يرتدي دشداشة رمادية اللون ويضع على كتفيه عباءة مذهبة الأطراف. ألقى نظرة على طبق الفاكهة والويسكي بينما أحضر الخادم الفليبيني مائدة شراب صغيرة رصت فوقها أنواع الخمور المختلفة.

صب لي الفليبيني كأسًا من الجين والتونيك بينما أخذ الفندي وسالم الويسكي.

قال الفندي: خسارة أنك لم تأتِ في الشهر الماضي. كنا نصور رقصة الربوبة. وهي رقصة تشبه الفالس تشتهر بها ظفار وتؤديها فرقة شهيرة هنا اسمها فرقة بن توفيق. على فكرة التسمية من كلمة «ربابة» وهي نفس الآلة الموسيقية الموجودة عندكم في مصر.

قلت: تكفيني الرقصة التي شهدتها في نزوى.

ضحك وارتشف من كأسه ثم قال: كل الرقصات كوم وهذه الرقصة الظفارية كوم آخر. إنها الوحيدة تقريبًا التي تشارك فيها النساء. رقصة تقدمية. أليس كذلك يا سالم؟

نظر إليَّ وغمز بعينه ثم ضحك من جديد.

قال سالم: ربما هذا هو السبب في أنها رقصة صعبة.

خاطبني الفندي: ستتاح لك فرصة رؤيتها في المستقبل. فلا شك أنك ستأتي إلى عُمان وظفار مرة أخرى. من زار ظفار ...

أكملت: مرة ... زارها مرة ومرة.

انفجر ضاحكًا وهو يملأ كأسه من جديد: نحن نقوم بعملية تحديث ضخمة ونحتاج إلى الخبرات والمواهب من كل مكان.

قلت: عندكم كثير منها.

قلب شفتيه بازدراء: تقصد العمانيين؟ إنهم لا يصلحون لشيء.

نهض سالم واقفًا وهو يقول: سنذهب الآن لموعد العشاء.

قال الفندي: جيد فأنا عندي ارتباطات. خذ السيارة فلن أحتاج إليها.

غادرنا الشاليه وخرجنا إلى الطريق حيث تنتظرنا سيارة بويك بسائق باكستاني، قلت وأنا أضطجع في المقعد الخلفي الوثير: لم أكن أعلم أنك من هذه المنطقة.

قال: أبدًا أنا من عُمان الداخل. كان أبي يعمل بالتجارة، يحمل التمر والليمون إلى مسقط ويعود بالأرز والبن. تعلمت القرآن في الكتاب وحفظته هو وألفية ابن مالك ثم صرت أصحب أبي في رحلاته. رأيت الصغار في العاصمة بالزي المدرسي، فأحببت أن أكون مثلهم، لكن دخول المدرسة كان مقصورًا على أبناء العائلات. ونجح أبي في التغلب على الصعوبات وأدخلني المدرسة. وعندما حصلت على الشهادة الابتدائية أردت أن أواصل تعليمي، وكان هذا مستحيلًا لولا الجبهة.

– وما الذي جاء بأختك إلى هنا؟

– زوجها من المنطقة. تعرَّفت عليه في لندن.

أخذتنا السيارة إلى وسط المدينة. ولجنا شارعًا ضيقًا به منازل قديمة تجمع حشدًا من الهنود أمام جهاز التليفزيون في مدخل أحدها. توقفنا أمام منزل من طابق واحد زُخرفت نوافذه بمربعات متناسقة من اللونين الأزرق والأحمر.

فتح لنا الباب صبي في العاشرة من عمره. وتقدمني سالم بسرعة فتوقفت عند العتبة وما لبث أن عاد وأشار لي بالدخول.

وجدت نفسي في قاعة متوسطة المساحة أرضيتها في مستوى الشارع ومفروشة بالسجاد والخشيات. خلع سالم حذاءه عند الباب فاقتديت به. أقبلت علينا امرأة سمراء باسمة في مقتبل العقد الثالث من العمر هي أخته. كانت ممتلئة الجسم ترتدي ثوبًا حريريًّا ملونًا يغطي كل جسمها وتضع شالًا ملونًا فوق رأسها.

صافحتني في خجل. ولاحت الروج في وجهها والحناء في قدميها ويديها. جلسنا فوق الحشيات والتف حولنا عدد من الصبية والبنات المتفاوتي الأعمار يتأملونني في اهتمام وانفعال. وأدركت أني أمثل حدثًا هامًّا في حياتهم الرتيبة.

انضم إلينا زوج الأخت بعد قليل وهو شاب في مثل عمرها يُدعى فطوم، يرتدي عوينات طبية ودشداشة عادية. وانهمكت الأخت بمعاونة امرأة أكبر منها سنًّا في إعداد مائدة حاشدة فوق صينية وضعت على الأرض مباشرة وحوت الثريد والهريسة والأرز ومشويات اللحم والسمك والكبيبة الشامية والطعمية المصرية والسلطات وعصير البرتقال.

وقال سالم: كانوا سيعدون لك طعاما ظفاريًّا أصيلًا لكن خفنا ألا يعجبك.

أقبلنا على الطعام وانضمت إلينا السيدة الأخرى وجماعة الصبية والفتيات ودار حديث متشابك حول أرض يريد أحد الاستيلاء عليها، ثم عن قطعة قماش اشترتها الأخت بريال للمتر وتريد بيعها بثلاثة. كنت أجلس إلى جوار زوجها فعلمت أنه يستعد للسفر

إلى بريطانيا للحصول على دكتوراه في الاقتصاد. وتطرق الحديث إلى إمكانية التنسيق بين دول مجلس التعاون الخليجي، بحيث تتخصص كل دولة في شيء للاستغناء عن الاستيراد.

عارضني قائلًا: السوق ضعيفة، أبوظبي تعدادها ربع مليون، وقطر ٢٠٠ ألف، ولا يمكن الاعتماد على السوق العربي الكبير لأن تكلفة الإنتاج ستكون مرتفعة بسبب عدم توفر عمالة محلية وارتفاع مستوى المعيشة. ربما الحل هو إقامة الصناعات في مصر مثلًا.

من الطبيعي أني رحبت بهذا الحل وقلت: لو كانت الأموال التي أُنفقت في سفه استخدمت في إنشاء مصانع ومزارع في مصر مثلًا أو سوريا والسودان …

أمَّن على حديثي صامتًا.

غسلت يدي في حوض مثبت في حائط القاعة قرب الباب. وعدت إلى شرائح الفافاي التي تولت زوجته تقطيعها لنا، كان مذاقها يجمع بين المانجو والبطيخ.

قلت بصوت عادي: أظن كانت هنا ثورة منذ عشرين سنة تقريبًا.

أومأ برأسه وقال في يسر: كانوا جماعة الجبهة.

– وهل ما زالوا موجودين؟

قال وهو يرمق سالم بنظرة خاطفة: لا. انتهت القصة من مدة.

كان الآخرون مشغولين بحديث عائلي، فقلت بصوت خافت بعض الشيء: ألا تظن أنها تركت نتائج إيجابية؟

قال: الجبهة استولت على الجبال وأرسلوا الأطفال إلى اليمن الجنوبي للتعليم، ومنه إلى العراق وليبيا والبلدان الاشتراكية، وهؤلاء عادوا الآن أطباء ومدرسين وغيرهم. كانت الفكرة هي تحديث البلاد التي أغلقها السلطان سعيد بيدٍ من حديدٍ خوفًا من الأجانب.

علقت في حذر: فتخلصوا منه وفتحوها على آخرها.

قال ملتفًّا حول تعليقي: السلطان السابق كان جريئًا وشجاعًا وله كاريزما، لكنه كان عنيدًا. طلب منه الإنجليز أن يترك العرش فرفض، قابوس كان محبوسًا في قصره هنا لمدة ست سنوات. فتم الاتفاق معه.

تناول شريحة فافاي وأضاف: الإنجليز هم الذين نصبوا السلطان سعيد نفسه سنة ١٩٣٢ بعد أن خلعوا والده ونفوه إلى الهند …

قاطعه سالم الذي كان يصغي لحديثنا في انتباه: هناك شخص عند الباب.

طرق أحدهم الباب، فاندفع أحد الأطفال لفتحه لكن فطوم استوقفه بيده. خيم علينا الصمت وتكرر الطرق ثم توقف.

قال فطوم بعد لحظات: هذا خالي.

أبديت تعجبي فقال: لو فتحت له كان شافك. وهذا طبعًا أمر غير مقبول من الجيل القديم. فلا يمكن تصور غريب في جلسة مثل هذه. لو كانت أمي موجودة ما كان سمح لك أصلًا بالدخول.

علق سالم: ومع ذلك هناك أماكن في الجبل لا يصح فيها أن تطرق الباب، والمفروض أن تدخل مباشرة.

قال فطوم: أيام الجبهة كان وضع المرأة أفضل. الواحد هنا لا يرى زوجة صديقه، لكن إذا قابلها في لندن سهروا معًا.

تدخل في الحديث شاب صغير يدعى أمين لا يتعدى عمره الخامسة عشرة: أنا معك في أن هذا وضع غير طبيعي، لكن لا بد من تغطية وجه المرأة.

سألته عن المبرر.

قال: لأنها تثير شهوة الرجل، والرجل أكثر شهوة من المرأة.

شربنا شايًا أخضر ثم أعلن سالم أنه متعب من السفر. عرضت عليه أخته أن يقضي الليلة عندها بينما يوصلني السائق، فقال إن غرفته بالفندق على نفقة الدولة.

سألني ونحن نستقل السيارة: أنت كثير الأسئلة. والبعض هنا لا يحبون ذلك.

تأملته في حيرة عاجزًا عن تحديد أمره.

أضاف بعد لحظة: هل سألت عن صديقيك؟

أبديت دهشتي: هنا؟ لا.

كنا قد بلغنا الفندق، فتوقف الحديث ورافقني سالم إلى الاستقبال. وجدت رسالة تنتظرني في الفندق. كانت من شخص يدعى أبا عبد الله يدعوني إلى تناول طعام الغذاء في الغد بالمخيم الخاص به، واعدًا بإرسال سيارة تقلني عند الظهر.

عرضت الرسالة على سالم فقال: هذا شرف كبير. أبو عبد الله من أهم شيوخ بيت كثير. رجل متنور رغم أنه يرفض تعليم بناته.

– لكن لماذا يدعوني؟ أنا لا أعرفه.

– أي زائر غريب للمنطقة يعتبر ضيفًا عليه. لا بد أن تذهب. لكن احذر من الأسئلة الكثيرة.

سألت عن زكريا فبدا الارتباك على موظف الاستقبال الهندي وحرك رأسه بالطريقة المألوفة. تطلعت إلى رقم غرفته فرأيت المفتاح معلقًا بجواره.

اتجه سالم إلى المصعد ومضيت إلى البهو، لمحت أحد العاملين خلف مكتب قرب المدخل. كان أسمر البشرة ذا ملامح هندية، مضيت إليه وحادثته بالإنجليزية فضحك. سألته عن زكريا. استمر في الضحك، ثم قال فجأة بلهجة حواري القاهرة: متتكلم عربي يا أستاذ.

قلت: أنت مصري؟

قال: من الجمالية. الاسم متولي.

قلت في ارتباك: عاشت الأسامي. لا مؤاخذة. كل حاجة هنا ملخبطة.

وصفت له زكريا ففقد مرحه.

تطلع حوله ثم قال لي بصوت هامس: أخذوه في الفجر.

– مين اللي خدوه؟

– تفتكر مين؟

قلت: تعرف السبب؟

– الظاهر أنه من الجماعة.

– أي واحدة؟

قال: الدقون. الإخوان. يسمونهم هنا المطوِّعين.

٣

كانت السيارة التي أرسلها لي الشيخ أبو عبد الله من طراز شيروكي. وكان خلف في مقعد السائق.

قلت وأنا أعقد حزام الأمان: لم أكن أعرف أن أبا عبد الله شخصية هامة للغاية.

تشاغل بإدارة المحرك ولم يرد عليَّ، قاد السيارة بمهارة في الطريق المألوف إلى قبر النبي أيوب، ثم توغلنا في الطريق الجبلي وسط الخضرة.

أردت أن أنتزعه من صمته، فسألته عن نوع الدراسة التي حصَّلها. قال إنه درس في صلالة حتى الابتدائية ولزم البيت. وفي سنة ٧٠ حصل على منحة لدراسة الإعدادية والثانوية في قطر، ثم أكمل الدراسة الجامعية في مصر.

قلت: أراهن أنك مللت اصطحاب الزوار إلى نفس الأماكن في كل مرة. خصوصًا وأنهم رجال.

قال: ليس دائمًا. الأسبوع القادم ستأتينا أثرية دنمركية.

قلت: اسمها جوليا؟

قال: نعم. تعرفها؟

قلت: قابلتها في مسقط.

مررنا بأسرة نصبت خيمة كبيرة إلى جوار سيارة لاندروفر وبسطت أمامها سماطًا من البلاستيك. كان الواضح أن أفرادها في نزهة أو «بيكنيك» كما علق خلف. تمهل أمام حظائر حجرية قائلًا بصوت ملول: هذه ليست حظائر ماشية ... إنها حظائر نبات.

أوضح لي أن الجيليين يزرعون الشعير والذرة داخل هذه الحظائر ليصونوها من عدوان الماشية والجمال.

مررنا بعدة بيوت يتصاعد منها دخان الطهي، أغلبها دائري الشكل وسقوفه مصنوعة من القش أو ألواح البلاستيك السوداء. غادرنا السيارة أمام أرض مسورة واستخرج خلف من مؤخرتها صندوق كولمان كبير هرع إلينا عدد من الشبان بينهم سود وفليبينيون تعاونوا على إخراج لفافة من السجاجيد وصندوق من المياه المعدنية وآخر من السفن أب.

لمحت بلال راكعًا أمام دائرة من الأحجار يزيح جانبًا قطعًا من الجمر المشتعل وسط حصى كبير الحجم. وبالقرب منه تصاعدت النيران من حفرة جلست أمامها امرأة في ثوب ذي ألوان أفريقية بهيجة بورود حمراء كبيرة في خلفيات زرقاء وخضراء. كانت ترش بكوب بلاستيكي في يدها اليمنى الدقيق السائل فوق صحن من الخشب في يدها اليسرى التي تنتهي بأظافر منسقة مصبوغة. كان ظهرها لي فخطوت جانبًا لأرى وجهها وألفيته مغطًى بقناع مؤطَّر بزخارف نحاسية ينتهي أسفل الذقن فلا يكشف سوى العينين وجوانب الأنف من خلال فتحتين على شكل مثلثين.

خطونا في أرض فضاء متربة اصطفت في طرفها أشجار جوز الهند السامقة. اتجهنا إلى مبنى مستطيل من طابق واحد يتألف من عدة غرف متجاورة، بدا لي مثل عنبر في سجن أو مستشفى. وخرج من الغرفة الأولى رجل نحيل قوي البنية رغم سنيه التي تقترب من السبعين، يرتدي دشداشة رمادية بسيطة ويغطي رأسه بالغطاء الظفاري التقليدي الذي يشبه الحطة الفلسطينية، ويختلف عنها في لونه الأحمر وطريقة العقد فوق الرأس.

همس لي خلف: أبو عبد الله.

رحَّب بي وفي عينيه نظرة شاردة وخاطب خلف قائلًا: أره كيف نعد المضبَّى.

حمل أحد الخدم صينية امتلأت بكتل من اللحم واتجه الى حيث أقعى بلال فتبعناه. عاونه خلف في وضع اللحم فوق الحصى الذي بدا الآن بعد تعريته وتنظيفه من الرماد متوهجًا مثل الجمر.

قرفصت إلى جوارهما أتأمل الجمر وسمعتهما يتحدثان عن زميل لهما تلقى تعويضًا هائلًا بلغ ١٢٠ ألف ريال، أي حوالي مليون جنيه مصري أو ثلث مليون دولار أمريكي، مقابل ضم أرضه لمشروع حكومي.

استوضحت التفاصيل فقال بلال: كل واحد في سن السابعة عشرة يحق له التقدم لأخذ قطعة أرض مجانًا تتراوح مساحتها بين ٦٠٠ و٩٠٠ متر بالقرعة، ثم يبنيها على حسابه أو بواسطة قرض إسكان. وتأتي ضربة الحظ عندما تُضم إلى مشروع حكومي.

انهمك الخدم في نقل السجاجيد والوسائد وصناديق الكولمان والمياه المعدنية والغازية وترامس الشاي وصناديق المناديل الورقية والأطباق الخزفية إلى الداخل، وقلَّب بلال اللحم ونقل القطع الناضجة إلى صينية مخصوصة.

لاحظت أن أغلبها غير تامة النضج وقلت ذلك لبلال فقال: سيدي أبو عبد الله يفضلها هكذا.

نادى علينا أبو عبد الله فمضينا إلى الغرفة التي فرشت بالسجاد والحشيات واجتمع بها أكثر من ستة رجال بينهم الفندي، وكانت هناك مائدة عالية بجوار الجدار وقف أبو عبد الله خلفها مشرفًا على صينية ضخمة من الأرز.

وزع علينا الخدم الأطباق وأكواب المياه المعدنية والغازية، ثم ظهر بلال في المدخل حاملًا صينية اللحم المشوي فوضعها أمام أبي عبد الله، وأقبل هذا يمزق اللحم بيديه ويعطي لكل منا نصيبه.

ظل أبو عبد الله يوزع الطعام دون أن يأكل إلى أن فرغ طبق اللحم فرفعه الخدم ووضعوا مكانه طبقًا آخر من الفاكهة.

شربنا الشاي وبدأ البعض في الانصراف ووقف أبو عبد الله يودعهم في مدخل الغرفة. اقترب مني الفندي بصحبة رجل مهيب المنظر أسمر اللون في دشداشة بيضاء ويغطي رأسه بلفافة معقدة التكوين. قدمه إليَّ قائلًا: أبو عامر كان من قادة الثوار.

تأملت وجهه الحليق السمين الذي أطلت منه عينان كعيون النسور.

قلت: هذه فرصة لأن أعرف منك حكايتهم.

قال: تلفِن لي في أي وقت وتعالَ لزيارتي.

قلت إني سأفعل وتركته بحثًا عن خلف وبلال فوجدتهما يأكلان إلى جوار صانعة الخبز، ورآني الفندي حائرًا فعرض عليَّ أن أرافقه إلى الفندق. ركبت إلى جواره وقاد السيارة بنفسه في صمت ثم دعاني لاحتساء كأس في الشاليه.

صعدت إلى غرفتي فخلعت قميصي الذي وقعت عليه حبات الأرز وفتات اللحم واستحممت ثم استلقيت فوق الفراش. وبعد قليل قمت فارتديت ملابسي وهبطت إلى البهو فاحتسيت قهوة المدخل المجانية المرة وخرجت إلى الحديقة.

فتح لي الخادم الفليبيني باب الشاليه وأفسح لي الطريق إلى غرفة المعيشة السفلية. وجدت الفندي في رفقة صحفي لبناني معروف يصدر مجلة عربية من لندن. كان طويل القامة شديد بياض البشرة وبالغ الأناقة ذا صوت جهوري أحداث أثره بلا شك في مموِّليه. كان يعرض على الفندي كراسة ملونة يحمل غلافها اسم قاعة سوثبي الشهيرة للمزادات في إنجلترا.

وضع الفندي الكراسة جانبًا بمجرد دخولي وسألني عما أشرب. كان طبق الفاكهة وزجاجة الويسكي المهديان من إدارة الفندق في مكانهما على المائدة الجانبية. لكن الزجاجة كانت جديدة من نوع غير نوع الأمس، ومع ذلك لم يقربها أحد وتعاملنا مع محتويات الطاولة المتحركة.

صببت لنفسي كأسًا من الجين وناولني الفليبيني زجاجة التونيك. سألت الصحفي اللبناني عما إذا كانت هذه أول زيارة يقوم بها لعُمان فضحك. وقال الفندي إن له غرفة محجوزة على مدار السنة في شيراتون مسقط.

استأنف الصحفي حديثًا سابقًا عن جولة قام بها في الجمهوريات الإسلامية للاتحاد السوفييتي السابق. ومضى يستعرض الظروف الاقتصادية المتردية وفرص الاستثمار.

صببت كأسًا ثانية وتحول الحديث إلى الوضع العربي. سألني الفندي عما إذا كان ثمة مستقبل للعرب، ولم ينتظر إجابتي وإنما استطرد: القومية العربية مجرد وهم، اللغة العربية ذاتها سبب تفككنا، فهي لغة الركون إلى الماضي والنوم في أحضانه. الواقعي هو الشرق الأوسط.

سكت لحظة ثم لوى شفته في استنكار ومضى يقول: أعرف ما يقال عنا، أننا خضعنا لضغط الأمريكان وأعطيناهم قاعدة. الحقيقة أننا نحن الذين ذهبنا إليهم ورجوناهم أن يأخذوها. اسمع. عبد الناصر الظروف ساعدته على القيام بمواجهات حادة مع القوى الأجنبية فماذا أفادته المواجهة؟

أصابتني الكأس الثالثة بالاكتئاب وأدارت الرابعة رأسي، فاستأذنت في الانصراف، رافقني الفندي حتى باب الشاليه ومضيت في ممشى خافت الإضاءة. مشيت بين فيلات مظلمة واتجهت صوب الشاطئ وسرعان ما كنت أخطو فوق رمال ناعمة انتشرت فوقها أكوام مخروطية من صنع السراطين.

كان الظلام شاملًا يتخلله ضوء خافت غامض صادر عن المحيط، تعثرت في سيري وأوشكت أن أقع لولا أن يدًا أمسكت بي وانتشلتني.

سألت سالم: ماذا تفعل هنا؟

قال: أتمشى. الظاهر أنك شربت عند الفندي.

سرنا على الشاطئ في صمت في اتجاه الفندق. واعترض طريقنا سياج لملعب تنس يقع خلف المطعم. كان مغلقًا بإحكام ولم نجد مفرًّا من العودة من حيث جئنا.

تخبطنا في الظلام ونحن نبحث عن فتحة تؤدي بنا إلى الطريق العام. وأخيرًا جذبني سالم من ذراعي قائلًا: تعالَ من هنا أسهل.

قادني بين أشجار شوكية تخللها بصيص من الضوء حتى خرجنا إلى الطريق العام على بُعد مائتي متر من مدخل الفندق.

كان الطريق مهجورًا وهو أمر طبيعي فلم يكن هناك غير الفندق ثم حدائق مترامية مسورة تابعة للسلطان. مشينا في نهر الطريق صوب الفندق. ولم نكد نخطو قليلًا حتى ظهرت أنوار كشافي سيارة قادمة من ناحيته فصعدنا فوق الرصيف وظهرت خلفها سيارة أخرى، وفجأة بدأت مصابيح السيارتين تتأرجح يمنة ويسرة كأنما فقد السائقان سيطرتهما على عجلتي القيادة. وتقدمت السيارتان نحونا وهما تتراقصان.

أمسك سالم بذراعي وجرني بإلحاح وهو يصيح: أسرع. احتمِ بالعمود.

لم أفهم ما يعنيه إلى أن رأيته يلتصق بأحد أعمدة النور ويشير إليَّ أن أفعل مثله. جريت إلى العمود التالي واحتضنته. اقتربت منا السيارة الأولى على مهل وهي ما تزال تتراقص. ولمحت داخلها عدة رجال في دشداشات بيضاء. وجاءت السيارة الثانية خلفها غاصة بهم.

مرت السيارتان من أمامنا في بطء وتجاوزتانا، تابعتهما ببصري واسترخيت قليلًا في وقفتي استعدادًا لمواصلة السير، ثم رأيت أنهما توقفتا. وبدا كأنما يتداول ركابهما في أمر.

صاح سالم وهو يجري: أسرع.

اندفع في اتجاه الفندق ورأيت السيارة الأولى تدور وتعود من حيث جاءت في اتجاهنا تتبعها زميلتها. تطلعت حولي بحثًا عن شخص أو سيارة أو أي مصدر للعون. كان الشارع خاليًا تمامًا ولم يكن ثمة مدخل لمبنى أو فجوة في الأسوار الممتدة على الجانبين أو زاوية ما يمكن الاحتماء بها. كنا هدفين متاحين تمامًا.

احتمى سالم بعمود النور التالي وتجاوزته جريًا إلى العمود الذي يليه. اقتربت السيارة الأولى منا على مهل. كنا واضحين أسفل المصباحين القويين ورأيت بابها الخلفي يفتح وتبرز منه ساق كأنما يستعد أحد ركابها لمغادرتها. لكن السائق واصل السير وتصاعدت من نوافذها ضحكات صاخبة.

تجاوزتنا السيارة بينما توقفت زميلتها وسلطت كشافيها علينا، وأصبحنا بذلك محصورين بين السيارتين، تذكرت السلاح الفلسطيني فغامرت بترك مواقعي وانحنيت أجمع بعض الحصى والحجارة المتناثرة. صاح سالم: اجرِ.

جرينا إلى العمودين التاليين واحتمينا بهما. واصلت السيارة الأولى سيرها حتى تجاوزت الفندق وظلت الثانية مكانها. أحصيت عدد الأعمدة التي تفصلنا عن مدخل الفندق فوجدتها أربعة.

واصلنا الجري والانتقال بين الأعمدة بينما بلغت السيارة الأولى نهاية الطريق واستدارت عائدة. وحمل إلينا الهواء أصوات نقاش حادة صادرة منها.

بقي أمامنا عمود واحد وقدرت أن السيارة تستطيع اللحاق بنا قبل أن نبلغه. لكنها تباطأت كما أننا جرينا بأقصى ما نملك من طاقة وتمكنا من أن نسبقها إلى بوابة الفندق الخارجية.

لم يكن هناك أثر لسيارات التاكسي الثلاث التي كانت مرابطة دائمًا أمامه. ولا لأي إنسان.

عبرنا الباحة المؤدية للحجارة البيضاوية دون أن نلتقي بأحد في المدخل أو صدر البهو أو خلف المكتب الذي يستخدمه مواطني المصري. لم يكن هنالك غير موظف الاستقبال الهندي بوجهه الجامد وحركة الرأس المألوفة.

تناول سالم مفتاحه واتجه إلى المصعد قائلًا: إنهم شباب سكارى كانوا في بار الفندق، تصبح على خير.

ألقيت نظرة خلفي نحو المدخل والتقطت مفتاحي. تأكدت من أن صندوقي فارغ ولم تأتِني أي رسائل ثم صعدت إلى غرفتي أغلقت الباب خلفي بالسلسلة المعدنية ومضيت إلى النافذة المطلة على حديقة الفندق الخلفية، كانت ستائرها مسدلة لكن بها فرجة في الوسط تطلعت منها إلى الخارج، وقفت برهة دون حراك ودون أن ألمح أثرًا لحركة أو أسمع صوتًا، شددت طرفي الستارة محكمًا إغلاقها ثم أشعلت مصباح النور المجاور لسريري وأدرت التليفزيون.

ظهر لي شاب في ملابس عسكرية تبين بعد قليل أنه عميد ركن ويتولى قيادة السلاح الجوي السلطاني، كان يتحدث بمناسبة عيد القوات المسلحة العمانية عن تدعيم السلاح بطائرات هوكر الإنجليزية.

ظللت أحدق في شاشة التليفزيون إلى أن رحت في النوم.

٤

في هذه المرة اتجهنا شرقًا فوق طريق مرصوف، تشرف عليه من جهة اليسار جبال جرداء مليئة بكهوف فارغة لا تلبث أن تمتلئ بالأغنام والناس عندما تهطل الأمطار. كان الطريق نظيفًا للغاية ومع ذلك انتحت جانبه عربة صغيرة يقودها هندي في أوفرول ذي لون أصفر فوسفوري. وما أن لاحت له سيارتنا حتى انحنى متظاهرًا بجمع فضلات وهمية.

بدت في الجبال طرق رفيعة ملتوية ممهدة تصعد إلى القمم. وكان المحيط يتبدى بين الفينة والأخرى على يميننا، وانتشرت على شاطئه مساحات واسعة من أسماك السردين تحلق فوقها النوارس.

قال خلف: السردين مؤشر على انتهاء الخريف وبداية فصل جديد هو «الصرب». عن قريب تتكاثر الفراشات وتدر الأبقار لبنًا غزيرًا وتمتلئ المناحل بالعسل والنراجيل بماء جوز الهند.

وصلنا طاقة بعد ثلث ساعة واستوقفنا في مدخلها بدوي حافي القدمين يحمل بندقية في كتفه وتكلم مع خلف باللغة الجبالية. كان مكحول العينين ذا شعر أسود لامع مدهون ضمه برباط من الجلد الرقيق وتمنطق بحزام من الخراطيش فوق مئزر ملون.

أشار إليه خلف أن يركب في الخلف. وهمس لي أنه من جنود الفرق الوطنية التي تعسكر في الجبال. واصلنا السير دون أن ندخل البلدة وأشرفنا على مرباط بعد ثلث ساعة أخرى فترجل الجندي.

كانت البلدة تمتد على شكل هلال من البيوت الواطئة أسفل جبل يرتفع عدة آلاف من الأمتار وتطل على خليج من الرمال الناعمة والمياه الصافية وقوارب الصيد.

سألت خلف عما إذا كان ثمة علاقة بين اسمها وكلمة الرباط التي تحملها العاصمة المغربية. وافقني قائلًا إن سيف بن ذي يزن، كما يُروى، اتخذ منها رباطًا أي معسكرًا استقبل فيه الفرس الذين استنجد بهم.

فكرت أن القصة دائمة التكرار: الاستنجاد بأجنبي للتخلص من أجنبي آخر، ثم بأجنبي ثالث للتخلص من الأخير، وهكذا دواليك.

مررنا بقلعة قديمة لها ثلاثة مدافع ومسجد له قبة خضراء. ولجنا شارعًا عريضًا غير مرصوف به عدة فيلات وفي نهايته عمود عُلق فيه جهاز تليفون أصفر اللون.

قلت مستغربًا: تليفون عمومي؟

قال بزهو: دولي.

– وكيف يستخدم؟

– بالكارت الذي يمكن شراؤه من أي دكان.

توقفنا أمام مبنى حديث تعلن لافتته عن مركز للتأهيل النسوي، استقبلتنا سيدة بدينة في الثلاثين أو أكثر، قصيرة القامة سافرة الوجه ترتدي ثوبًا ملونًا. قادتنا إلى غرفة طويلة تضم مكتبًا بجوار الباب وآخر في الطرف تحيط به ثلاث فوتيات وأريكة من الجلد وخزانة. قالت: إن المركز يقدم خدمات متنوعة لنساء المنطقة مثل التوعية بمضار الرضاعة الصناعية وتوفير وسائل منع الحمل والمعاونة في رعاية الأطفال. كما تتعلم فيه النساء الحياكة وصناعة الخزف لكي يتحررن من الاعتماد على الزوج.

دعتني إلى جولة بالمبنى. واعتذر خلف عن مرافقتي قائلًا إنه قام بهذه الجولة عشرات المرات، وإنه سينتظرني في السيارة.

قادتني إلى ردهة طويلة تتصاعد ضجة من غرفة معلقة في نهايتها. اتجهنا إليها وسبقتني إلى الباب، ففتحته وهي تحرص على إبقائه مواربًا، ثم ابتسمت في خجل: إنهن يعملن سافرات. أتحرج من إدخالك عليهن.

أغلقت الباب وقادتني إلى قاعة في الناحية المقابلة تضم معرضًا للمشغولات التي تنتجها عضوات الجمعية؛ مباخر وأزيار وقرب مياه من الجلد وأوانٍ جلدية للحليب ومهاد أطفال تحمل على الظهر وحلي. وكان ثمة ركن خاص لغرفة العروس يضم سريرًا مرتفعًا ذا أعمدة ثبتت في أعلاها قطعة ملونة من القماش تسدل بعد الزواج لأن العروس لا تنكشف لغير أهلها طوال سنة كاملة.

سألتها عن وسائل تمويل نشاط الجمعية فقالت: السيدة الجليلة والدة السلطان ووزارة الشئون الاجتماعية.

– ومن الذي يُعَيِّن العاملات في الجمعية؟

– لا أحد. هناك لجنة قيادية تتشكل بالانتخاب، والعضوات كلهن متطوعات. الرئيسة أيضًا.

عدنا إلى القاعة الأولى فجلست إلى مكتبها بعد أن تركت الباب مفتوحًا. احتللت المقعد المجاور وأنا أقول: هل يمكنني مقابلة الرئيسة؟

تضوعت رائحة عطرية منعشة وظهرت عند الباب فتاة متوسطة القامة ترتدي عباءة سوداء ونقابًا أسود كثيفًا يغطي كل وجهها، بما في ذلك العينين.

توجهت إليها محدثتي قائلة: عندنا ضيف من مصر.

ذكرت اسمي وتحولت إليَّ قائلة: ها هي رئيستنا.

نهضت واقفًا ولم تنبس المقنعة بشيء.

كرهت دائمًا الحديث إلى الأشخاص الذين يرتدون عوينات سوداء تخفي تعبير عيونهم، فما بالك بنقاب كثيف يغطي الوجه كله ولا ينم عن شيء.

شعرت بالضيق وقلت: في بلدي من النادر أن تجد سيدة مقنعة مثلك. حتى المنقبات أغلبهن يكشفن العيون على الأقل.

تحركت وخطت إلى طرف الحجرة، تبعتها مترددًا بينما رمقتنا الأخرى في فضول دون أن تغادر مقعدها.

خلتها ستجلس إلى المكتب الآخر وتدعوني للجلوس في أحد الفوتيات لكنها بقيت واقفة، وفجأة فقدت السيطرة على أعصابي.

قلت في حدة: هل جربت أن تتحدثي إلى حائط؟

ظللنا متواجهين في صمت برهة ثم رفعت يدها ببطء ونزعت النقاب.

عدت إلى الوراء خمسًا وثلاثين سنة، نفس العينين الواسعتين والشفاه الرقيقة والبشرة الخمرية والنظرة المتحدية.

همست: وردة.

قالت في جفاء: بنتها.

قلت: كنت أعرفها.

لم تعلق.

– هل هي …

قاطعتني: لا أعرف.

استعدت توازني وقلت: قرأت جزءًا من يومياتها في مسقط، وقيل لي إنك تحتفظين بالجزء الباقي.

لم تسألني من قال ولا كيف حصلت على الجزء الذي قرأته كأنما الأمر لا يعنيها. أو لعلها كانت تعرف.

سألتني: هل يمكن أن أرى جوازك؟

كنت قد توقعت شيئًا من هذا القبيل فحملته معي. استخرجته من حقيبة يدي وناولته لها. قلبت صفحاته في هدوء وقرأت الاسم في روية وقارنت بين وجهي وصورتي ثم أعادته لي.

– إلى متى ستبقى في صلالة؟

قلت: يومًا أو يومين.

قالت: سأحضرها لك هنا في الغد. آه. غدًا الجمعة. إذن السبت. لا. الأحد. السبت لن آتي هنا.

قلت: بعيد.

فكرت قليلًا ثم قالت: اسمع. سأذهب بعد ظهر اليوم إلى طبيب الأسنان في صلالة. نلتقي عنده.

قلت: أنا لا أعرف المدينة جيدًا. وكل تحركاتي معروفة ولا أحب أن يدري أحد بالأمر.

قالت: لن يدري أحد بشيء. قل إن أسنانك تؤلمك أو تحتاج إلى حشو. واطلب من الفندق أن يدلك على طبيب أسنان. لا تطلب ذلك من جماعة مركز التراث، هؤلاء مخابرات.

– وكيف أضمن أنهم سيدلونني على نفس الطبيب الذي ستذهبين إليه؟ بدا على وجهها تعبير الاستنكار لغبائي، وشرحت لي: أغلب الأطباء هنا هنود ويمكنك أن ترفض الذهاب إليهم بحجة أنك لا تستطيع التفاهم معهم أو لا تثق بهم، اطلب طبيبًا عربيًّا. ليس هنا غير واحد سوري مجنون متزوج من فرنسية. هو الذي يعالجني. ستجدني لديه في الساعة السادسة.

صمتت لحظة ثم أضافت وهي تعيد القناع إلى وجهها: لو حدث أن التقيت بعمي فلا تذكر له شيئًا. كان ينوي دعوتك إلى منزلنا اليوم، لكنه اضطر لمغادرة مرباط وسيعود في المساء.

– من تقصدين؟

– أبو عامر.

صدفة أم مرتب؟

٥

هبطت إلى بهو الفندق في الساعة الخامسة وأنا أدعو الله ألا تضع الصدفة أحدًا في طريقي مثل سالم أو خلف. كان البهو خاليًا وموظف الاستقبال الهندي في مكانه الأبدي والمكتب الذي يجلس إليه مواطني المصري خاليًا.

تقدمت من الهندي وسألته عن كيفية الذهاب إلى طبيب أسنان. أعطاني دفتر التليفون وهو يقول بجفاء: عندك تليفوناتهم.

قلبت صفحات الدليل وتظاهرت بقراءة أسماء الأطباء وعناوينهم ثم قلت: لكن هؤلاء كلهم هنود.

نظر إليَّ في تحدٍّ.

قلت: ألا يوجد واحد عربي؟

هزَّ رأسه بتلك الطريقة الميكانيكية الزنبركية.

لمحت متولي متجهًا إلى مكتبه فحملت الدليل إليه، قلت له إن ضرسي يؤلمني وأريد الذهاب فورًا إلى طبيب أسنان غير هندي.

ابتسم: عندنا واحد سوري، ينفع؟

– لا بأس. على الأقل أستطيع التفاهم معه.

كتب لي اسم الطبيب وعنوانه في ورقة صغيرة وناولها لي: إنه في شارع النهضة. التاكسي سيأخذك في ثلث ساعة.

فقلت: وكم أدفع؟

– سيقول لك السائق حوالي ثلاثة ريالات.

كانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف، لكني لم أشأ الانتظار كي ألتقى بأحد وخرجت إلى الطريق.

أقلني سائق باكستاني إلى شارع قابوس ثم اتجهنا يسارًا ومررنا بمنطقة البليد الأثرية. وبعد عشر دقائق كنا في شارع النهضة الذي يشغى بالحياة والحوانيت والمباني.

هبطت أمام دار للسينما تعرض فيلمًا هنديًّا يصور ملصقه قتالًا شرسًا. وجدت عيادة الطبيب في بناية حديثة من طابقين ذات تكوين معقد. اجتزت مدخلًا مسورًا ومضيت في ممر متعرج يؤدي إلى درج مظلم. صعدت إلى الطابق الأول فوجدت بابًا مضاءً تعلوه لافتة باسم الطبيب. دفعت الباب وولجت ردهة خالية مضاءة بمصباح نيون وبها مكتب وتليفون. انتظرت لحظة ثم تطلعت إلى ساعتي كانت تقترب حثيثًا من السادسة.

انفرج باب من الزجاج الفييه والمعدن المدهون باللون البني عن وجه شاحب عصابي لرجل في الخمسين يرتدي معطفًا أبيض فوق قميص وبنطلون. اعتمد بيده على حافة الباب ومال برأسه نحوي: الأستاذ المصري؟

كان يتوقعني إذن. أومأت برأسي.

قال: الممرض ذهب يحضر شريط فيديو: تفضل.

ولجت غرفة كشف عادية بها الجهاز المعهود الذي بدا قديمًا بعض الشيء. أشار لي أن أقتعده ففعلت.

قال وهو يستند بقدمه على درجة أسفل الجهاز ويضع يده خلف رأسي فوق مسند المقعد: سمعت أنك تشكو من آلامٍ في ضرسك.

أملت رأسي إلى الوراء وفتحت فمي. أشرت بإصبعي إلى ضرس كان قد بدأ يؤلمني فعلًا.

قال وهو يضع الملعقة المعدنية في فمي: الكل هنا يشكو من تسوس الأسنان بسبب نقص الكالسيوم.

وضع الملعقة جانبًا وتناول واخزًا معدنيًّا: أنا من حلب. ولي هنا بضع سنوات. هذه العيادة فتحها لي أبو عامر. مقابل المشاركة في نصف الدخل. أنا أعمل وهو يقبض. أحيانًا ١٢٠٠ ريال، وأحيانًا ١٥٠٠.

مائة وعشرين ألف جنيه مصري في الشهر.

قلت: مبلغ جيد.

قال: ليس كما تتصور. على العموم أنا أفكر في المغادرة ... المنافسة صارت قوية من الهنود وغيرهم، هناك الآن طبيبات عمانيات.

بدأ يعبث في أسناني بالواخز المعدني. وتظاهرت بأني أتألم.

قال: هناك بعض الأجزاء العارية من اللثة وضرس يحتاج إلى حشو.

قلت إني أفضل الانتظار حتى أعود إلى مصر وكل ما أطلبه هو تسكين الألم.

مسد لي اللثة بزيت القرنفل، وكتب لي روشتة طبية بمسكن تم تناول مظروفًا أصفر اللون من فوق مكتبه وناوله لي: هذا لك.

ترددت ثم سألت: هل جاءت؟

قال: منذ ساعة.

أخذت المظروف وسألته عن الأجر.

قال: لا شيء.

قلت: كيف؟

قال: أنا لم أفعل شيئًا. ثم إنك من بلد جمال عبد الناصر وهذا يكفي.

شكرت هذا الحظ وغادرت العيادة، وقفت في الخارج أفكر. نزعت المظروف الأصفر وأخرجت منه كراستين أصغر حجمًا من الكراسات السابقة وأقل سمكًا شعَّت منهما روائح الرطوبة، وقدرت أنهما كانتا مدفونتين تحت الأرض. أعدتهما إلى المظروف ووضعته في حقيبة يدي وغادرت المبنى.

الفصل الثاني عشر

جبال ظفار

١٩٧٠–١٩٧٢

٢٨ يونيو ٧٠

... وصف أول بيان لنا الانقلاب بأنه مهزلة متوقعة.

... البيان الثاني أكثر قوة. انتقده رافع قائلًا إنه عصبي، ضم عبارات من قبيل «... هذا الولد المدلل الذي عاش حياة البذخ ... هذه الشخصية الهزيلة لا يمكنها على الإطلاق أن تقدم شيئًا للبلد ... وإن الثورة ترفض هذه التركيبة البشعة ...»

... السلطان الجديد ابن الزوجة الظفارية للسلطان السابق نشأ في صلالة. درس في إنجلترا، تخرج من كلية ساندهيرست العسكرية. خدم في الجيش البريطاني بألمانيا. تدرب على إدارة المحليات في إنجلترا، عندما عاد إلى صلالة كلفه أبوه بدراسة الشريعة الإسلامية. أرسله في رحلة حول العالم تميزت بالتقتير الشديد على نفقاته. رفض إشراكه في تحمل مسئوليات الحكم ولم يكن يراه إلا مرة أو مرتين في السنة. ظل محبوسًا في منزله بصلالة ست سنوات.

٣ أغسطس

... الصحف الإنجليزية تنشر صور عبيد السلطان السابق. بينهم من التزموا بالصمت الدائم، فأصبحوا خرسًا، وقف بعضهم محني الرءوس وعيونهم على الأرض.

... فاينانشيال تايمز في ٢٩ يوليو: شركة شل (مالكة ٨٠٪ من أسهم شركة د ب ؤ) طلبت من الحكومة البريطانية خلع سعيد.

... مجلس سري حاكم يرأسه السكرتير العسكري هوج أولدمان ويتألف من قائد قوات السلطان جون جراهام ومدير التنمية دافيد أو جرام وإنجليزيين آخرين من مكتب التخطيط والتنمية وثويني بن شهاب وقيس الزواوي.

١٠ أغسطس

... عرفنا تفصيلات الانقلاب. أشرفت عليه مجموعة مكونة من ابن والي ظفار «بيرق بن حمود الجافري» وأحد ضباط الاستخبارات الإنجليزية في سلاح الجو السلطاني، وهو زميل سابق لقابوس في ساندهيرست. اتصلوا بأنصارهم في مسقط بواسطة مسئول في «د ب ؤ». كان يقوم برحلات منتظمة إلى صلالة للاجتماع بالسلطان. تعاون معهم القنصل الإنجليزي العام في مسقط. رشوا حراس القصر وأدخل بيرق بن حمود مجموعة من أتباعه من قبيلة الحواسنة الشمالية. اقتحموا جناح السلطان ساعة القيلولة. تناول السلطان غدارته وصوبها نحوهم، فقال بيرق: أريد العرش لمولاي قابوس. حدث إطلاق نار. أصيب سعيد في ساقه. استسلم ووقَّع وثيقة بالتنحي، نُقل إلى قاعدة الطيران الإنجليزية ومنها إلى البحرين ثم إلى مستشفى خاص في إنجلترا.

... وصل صلالة فريق إنجليزي لحراسة السلطان يقوده السرجنت ماجور بوب سلاتر. يلازمون السلطان طول الوقت ويتناوبون النوم أمام مخدعه.

١٦ أغسطس

... صرح قابوس لجريدة كويتية أنه لا يعتقد أن الثوار شيوعيون حقًّا، وأنه يستطيع كسبهم إلى صفه.

... نبأ غريب من راديو عدن: إقالة محمد علي هيثم من كافة المناصب وتعيين علي ناصر محمد بدلًا منه.

... أصدرت الجبهة أول قانون من نوعه في العالم العربي بتخفيض المهور إلى مبلغ رمزي (١٢ ريالًا ونصف ريال). تشريع آخر يعتبر أن عدم التطابق في الآراء السياسية بين الزوج والزوجية يشكل سببًا كافيًا للحكم بالطلاق. يمكنني الآن أن أتزوج!

... أعلن قابوس إلغاء القيود على السفر إلى خارج الإقليم، وبقية القيود الصغيرة على الحريات الشخصية، مثل ارتداء النظارات وحيازة أجهزة الراديو. دعا العمانيين الذين غادروا البلاد إلى العودة والمساهمة في البناء.

... ناقشنا دعوة قابوس في اجتماع موسع للجنة المركزية وقادة الجيش. أجمعت الغالبية على أنها محاولة للتضليل، رافع يرى أن هناك تغييرًا ما وعلينا أن ننتظر لنحكم، قال إن الحرب الشعبية تكتيك. وإذا أمكن تحقيق مكاسب دون إراقة الدماء يكون هذا أفضل. وهدفنا في النهاية هو صالح الجماهير. هاجمه فهد بشدة، اتهمه بالانهزامية. هناك رفيق أو اثنان يشاركان رافع الرأي. قلت إن ما حدث هو انقلاب في تدبير الاستعمار، ونحن مجتمعون جاء النبأ اليقين: دعمت السلطة الحصار المفروض على الريف وتوسعت في سياسة قتل حيوانات ومواشي المواطنين بالغارات الجوية. اتخذنا قرارًا بالإجماع بمواصلة النضال وتصعيده.

٢٥ أغسطس

... منشورات حكومية على المناطق المحررة تدعو الناس إلى الاستسلام. واحد به رسم بدائي لأشجار ومنازل أسفله هذه العبارة: «يا مقاتلي الجبهة: أليست هذه الحياة أفضل من الكهوف والجور والقبور؟»

... أُقيمت محطة إذاعة في صلالة، وقيل للعبيد الذين حررناهم إنكم أحرار.

... خطة حكومية لتنمية ظفار قيمتها مليون استرليني. أقامت الحكومة في السهل المجاور لصلالة مزرعة نموذجية وأدخلت مضخات المياه، ثم شركة إنشاءات بريطانية. توسيع ميناء ريسوت. افتتح البنك البريطاني للشرق الأوسط فرعًا له في صلالة. مشروع بريطاني آخر لتطوير المدينة يتكلف ٨ ملايين استرليني. كل هذا بهدف تشجيع أهل الجبل على النزول منه والاستقرار في السهل.

٣٠ أغسطس

... منشور غريب وزعته السلطة: «يا أبناء ظفار. لقد اشترى السلطان قنبلة ذرية لكنه لن يستخدمها كلها، وإنما سيرمي عليكم ربعها فقط! لتدميركم الشيوعيون ... عملاء موسكو وبكين وتل أبيب وواشنطن! عملاء آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية!»

... استجاب البعض للعفو العام الذي أعلنه قابوس وهربوا إلى الجانب الحكومي.

... أعلنا من إذاعة عدن رفض العفو، وأصدرنا تكليفًا لكافة أعضاء الجبهة وجيش التحرير بعدم دخول صلالة. أبلغنا كافة المجموعات بأن من يريد الاستفادة من العفو سيتعرض لعقاب قد يصل إلى الإعدام.

٥ سبتمبر

... بدأ كثيرون يعودون من الخليج استجابة لنداء قابوس.

١٢ سبتمبر

... انقلب عدد من زعماء القبائل في شرق ظفار على الثورة، اعتقلوا قرابة ٤٠ من كوادرنا بهدف تسليمهم للسلطان، استولوا على أموال وممتلكات الجبهة. الشرق هو أكثر الأماكن سكانًا في الإقليم، لكنه شهد أقل قتال. يتميز بقوة النظام القبلي والقوى الاجتماعية المناصرة للاستعمار. علاوة على هذا فإن أم السلطان الجديد من إحدى قبائله.

١٥ سبتمبر

... نقلنا وحدات كبيرة من مقاتلي جيش التحرير من القطاع الأوسط إلى الشرق. تولى فهد القيادة.

... منشورات السلطان تتهمنا بأننا شيوعيون ملحدون، نساؤهم وبناتهم عاهرات منحرفات، لا يعترفون بالله ولا بالإسلام أو أية تقاليد وقيم وطنية أو دينية. طبعًا عندما تتعرض أراضيهم وملكياتهم للخطر تصبح في الحال قيمًا وطنية وتقاليد عريقة.

٢٠ سبتمبر

... مؤامرة أخرى: السعودية تنتهز الفرصة للقضاء على الثورة وضم شمال ظفار. دفعت الرواشيد لمحاولة احتلال أماكن استراتيجية هامة وسط وشمال ظفار. أفراد هذه القبيلة يحملون هويات سعودية كما يتلقى شيوخها رواتب منتظمة من المملكة.

٢٥ سبتمبر

... نجحنا في القضاء على المؤامرة السعودية.

... مذابح في الأردن. عشرون ألف قتيل وجريح. قُصفت عَمَّان بمواد متفجرة تزن ١٢٠ ألف طن.

٢٧ سبتمبر

... موقف بطولي لنميري. نجح في إنقاذ عرفات وتهريبه من العاصمة الأردنية.

... اتفاق في القاهرة بين الحكومة الأردنية والمقاومة الفلسطينية بحضور الملك حسين وياسر عرفات والملوك والرؤساء العرب، يتضمن وقف إطلاق النار وسحب القوات المسلحة الأردنية والفدائية من عَمَّان.

... فاز الليندي المرشح الماركسي بالرئاسة في شيلي.

... معارك ضارية في المنطقة الشرقية.

... انضم كثير من شيوخ القبائل ورجالهم بأسلحتهم ومعلوماتهم إلى الجانب الحكومي. يجرى تنظيمهم في تشكيلات عسكرية أسمتها السلطة بالفرق الوطنية، يتراوح عدد أفراد الفرقة من ثلاثين إلى مائة. وتتولى تدريبهم وحدة إنجليزية خاصة من سبعين رجلًا تحمل اسما حركيًّا هو «بات». الفرقة الأولى أطلق عليها اسم صلاح الدين. أعطوهم ملابس عسكرية نظامية يسمونها «دريس» لكنهم احتفظوا بملابسهم القبلية المعتادة (مئزر أسود مصبوغ بصبغة النيلة الزرقاء يلفونه حول بطونهم ويتمنطقون بصف الرصاص فوقه بينما تظل صدورهم عارية في الصيف).

٢٨ سبتمبر

... مات جمال عبد الناصر، قضينا ساعات حول الراديو نسمع القرآن وأخيرًا عرفنا النبأ. أذاعه أنور السادات. ذهول. انخرطنا جميعًا في بكاء متواصل. علق فهد بأن زعيم البرجوازية الصغيرة قد انزاح. ثرت في وجهه وقلت إنه لن يحلم بأن يقدم للشعب العربي شعرة مما قدمه عبد الناصر. سأطالب بأن تعلن وكافة الوحدات الحداد وتلقي المحاضرات عن مساهمته الثورية.

٣٠ سبتمبر

... جنازة هائلة لعبد الناصر في القاهرة، شيعته الملايين هاتفة من القلب «يا حبيب الملايين». قال كاسترو إن وفاته ضربة للحركات الثورية في العالم العربي.

١٢ أكتوبر

... كان عناصر من المنطقة الشرقية يدعى محمد زخينان قد تساقط وانتقل إلى العدو. حصلوا منه على معلومات عن نقاط الضعف. أرسلوا قوة كبيرة إلى موقع دوتشكا يقوده الرفيق مبارك حمد الكيتاني وحاصرته. رأى بعض رفاقه ضرورة الانسحاب لأن العدو في القمم والمجموعة في الوادي، رأى البعض الآخر أن تبقى المجموعة تدافع عن نفسها وعن سلاحها. كانت حجتهم أن عددهم قليل ولن يتمكنوا في حالة الانسحاب من حمل السلاح وعتاده. قال لهم مبارك: لن نمكن العدو منا أو من سلاحنا. سلاحنا غالٍ وأرواحنا غالية. سنسحب المضاد إلى مكان أمين ونبقى معه وإذا اقترب العدو منا سنقاوم. حمل المدفع على كتفه وشق طريقه وسط الرصاص يتبعه رفاقه، استطاعت المجموعة أن تفلت من الحصار وتنضم إلى مجموعات أخرى، تمكن الجميع من تطويق العدو وإجباره على الانسحاب. أسماء رفاقه اللامرتد، عمره ٢٢ سنة. ولد في صور، شمال مسقط. هاجر إلى الكويت في ٦٥ حيث التحق بتنظيم الجبهة العُمانية. شارك في عمليات الجبهة الشعبية في الأراضي المحتلة.

٥ أكتوبر

... نجحنا في سحق التمرد بالمنطقة الشرقية، تم تحرير الكوادر المعتقلين.

١٦ أكتوبر

... أثبتت الفرق الوطنية فاعليتها للعدو في عمليات الاستكشاف والكمائن والهجوم وجمع المعلومات، أصبحت رمزًا لوجود الدولة في الجبل. ضمنت التأييد الضروري من بقية أفراد القبيلة التي جندت منها. إعطاء السلاح للمتمردين المنشقين على الجبهة قوى شعورهم أنهم لم ينضموا إلى الجانب الخاسر. استوعبت أيضًا آلاف الشبان العاطلين. تستفيد العائلات من التموين الذي يحصل عليه أفراد الفرق فضلًا عن الرواتب العالية نسبيًّا التي تساوي مثيلاتها في الجيش. يعملون نصف شهر ليتفرغوا لعائلاتهم وماشيتهم في النصف الثاني.

١٨ أكتوبر

... انقسام في الحزب الشيوعي السوداني وفصل ١٢ عضوًا.

٥ نوفمبر

... قانون الإصلاح الزراعي الجذري في عدن: ٢٥ فدانًا الحد الأقصى. تتولى لجان الفلاحين الفقراء والمعدمين عمليات المصادرة والتوزيع وإنشاء التعاونيات.

٨ نوفمبر

... فصل جديد في الصراع على السلطة في سوريا. الأسد يستولي على السلطة كاملة.

١٦ نوفمبر

... اعتقال عبد الخالق محجوب ومطاردة الحزب.

ديسمبر

... عقدنا احتفالًا جماعيًّا لزواج ثلاث رفيقات وثلاثة رفاق، بينهم رافع وأمينة. العقد تم بإشراف مسئول الجبهة المحلي. اشترك في إحياء الحفل أبو السلاسل، فارس موسيقى الدان المشهور الذي التحق بالثورة.

... كتبت مقالًا لمجلة ٩ يونيو عن دور المرأة في ثورة الخليج، بدأته بملاحظة كارل ماركس أنه يمكن قياس درجة تقدم أي مجتمع بطريقة معاملته لنسائه، وبالمثل يمكن الحكم على الثورات. قلت: تتركز في المرأة كل أشكال الاضطهاد والاستغلال في أي مجتمع طبقي. فهي تتعرض لاضطهاد مزدوج: إلى جانب معاناتها من علاقات الإنتاج الإقطاعية والرأسمالية تعاني أيضًا من علاقة زوجية اتباعية ومن وضعها العائلي في أسرتها الأولى ومن اضطهاد المجتمع عامة بما يفرضه عليها من تقاليد وأعراف عتيقة تشل نشاطها. وتسلبها إنسانيتها. المرأة الظفارية بالذات كانت تعاني من أربعة سلاطين: السلطان السياسي في مسقط، القبلي وهو الشيخ، الديني وهو الإمام، العائلي وهو الأب والأخ والزوج. وتتنوع أشكال استغلال المرأة حسب النظام الاجتماعي، فقبيلة الماريا السودانية عند

عطبرة تضم وثنيين ومسيحيين ومسلمين، وجميعهم يقدمون للضيف زوجة الرجل أو ابنته. وفي كوكبان عند صعدة اليمنية قرب الحدود السعودية، وهي منطقة زيدية، تعلق المرأة في المحراث إلى جوار البقرة.

يناير ٧١

... احتفلنا بصعود صالح إلينا. عبد سابق عمل في الكويت، تعلم هناك القراءة والكتابة. انضم إلى تنظيم الجبهة الذي أرسله إلى بغداد في دورة سياسية وعسكرية. عاد إلى عُمان في سنة ٦٥، اعتُقل في نفس السنة ووضع في قلعة الجبالي. خرج من السجن في العفو العام، لم يطِق الحياة في صلالة فهرب إلى الجبل. يمشي بصعوبة من جراء القيود الحديدية التي لم تفارق ساقيه طوال خمس سنوات. سيسافر إلى عدن للعلاج.

... ثورتنا بدأت تجذب الاهتمام العالمي. لأول مرة يزورنا وفد إعلامي سوفييتي.

... لم أتمكن من المشاركة في لقاء الوفد السوفييتي. زار مدرسة الشعب الابتدائية في جبيلوت على مبعدة ٢٥ كيلومترًا من الحدود اليمنية.

... حققنا مع مدير المدرسة التي زارها الوفد السوفييتي. نظم مظاهرة من التلاميذ استقبلت الوفد بلافتات تحمل هذه العبارة: تسقط الإمبريالية الاشتراكية السوفييتية. دافع عن نفسه بأنه لا دخل له في الأمر، وأن ما حدث هو صوت الجماهير! المدير من المقاتلين الذين زاروا الصين. دافع غزال عنه. لا يخفي عداءه للتحريفيين كما يسمي السوفييت. هوَّن رافع من الحادث ودعا إلى تجاهله. وقلت إننا ملتزمون بالحياد في النزاع الصيني السوفييتي. قال فهد إننا لا يجب أن نسمح بأي تهديد لعلاقتنا مع الاتحاد السوفييتي الذي نتلقى منه مساعدات جمة. لزم الشيخ عمار الصمت ولم نعرف رأيه. اتخذنا قرارًا بالإجماع بإنذار مدير المدرسة بألا يتخذ أي مبادرات من هذا النوع في المستقبل قبل استشارة القيادة.

... الفرق الوطنية تكرس الانتماء القبلي. يجري تشكيلها من أبناء كل قبيلة على حدة، ويزعم قابوس أنه يبني دولة حديثة!

٥ فبراير

... قادة المقاومة الفلسطينية يمارسون النقد الذاتي لأول مرة بصوت عالٍ. أعلن أبو إياد الرجل الثاني في فتح أن المقاومة مصممة على عدم الخروج من الأردن، وأن قادتها

يعارضون إنشاء دولة فلسطينية من الضفة وغزة؛ لأنها ستكون كائنًا هزيلًا تحت رحمة إسرائيل، قال إن بعض الشعارات التي أُطلقت خلال أحداث سبتمبر كانت أكبر بكثير من الإمكانيات الحقيقية للمقاومة مثل (لن توقف المعارك قبل سقوط العرش). اعترف بأن المقاومة كانت تتمنى في اليوم الرابع للقتال وقف إطلاق النار.

١٢ فبراير

... المدفعية والدبابات الأردنية تشن هجومًا جديدًا على المقاومة الفلسطينية. اثنان وثلاثون قتيلًا ومائة جريح من الجانبين.

... نميري يهاجم الحزب الشيوعي ويدعو إلى ضربه وتمزيقه.

أول مارس

... أثار الرفيق فهد مشكلة. وجد مقاتلًا يصلي فسخر منه واتهمه بالتخلف والرجعية. تدخل الرفيق عمار إلى صف المقاتل. في اجتماع اللجنة انتقد فهد تصرف عمار. قال إنه ما كان يجب أن يعارضه أمام المقاتل وكان عليه أن يحتفظ برأيه إلى حين يعقد اجتماعنا، فيجب أن نبدو يدًا واحدة أمام المستويات الأدنى منا وأمام الجماهير. قال عمار بطريقته الهادئة وأسلوبه المنطقي إن هذه مسألة شكلية وإن الموضوع الرئيسي هو سخرية فهد من مشاعر وقناعات المقاتل. ثار فهد واتهمه بالتخلف والجهل. انسحب عمار من الاجتماع غاضبًا.

٢ مارس

... اختفى الرفيق عمار.

٣ مارس

... حالة ذهول. تبينا أن عمار تسلل إلى صلالة وانضم إلى قوات السلطة. واجهت فهد بأنه يتحمل المسئولية. قال غزال إن عمار عنصر رخو لم يتطور ولم يتخلص من تراث المعتقدات القديمة. قال رافع إنه في الغالب اتخذ القرار من مدة. اقترحت إصدار تعميم

يؤكد على احترام المعتقدات الدينية وعدم المساس بها. تكونت لجنة برئاستي لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بتلافي حدوث أضرار نتيجة هروب عمَّار.

٧ مارس

... لأول مرة تعرف صلالة الكهرباء بمحطة صغيرة من مولدين كل منهما ٥٥٠ كيلووات.
... بلغ عدد الذين هجرونا إلى صفوف العدو ٢٠٠ من المقاتلين.
... فدائيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يهاجمون ناقلة بترول إسرائيلية وهي في طريقها إلى إيلات. هل يحاولون إثبات أنهم أكثر ثورية من جماعة نايف حواتمة؟

٢٨ أبريل

... افتتحنا مدرسة ٩ يونيو الإعدادية (في الغيضة اليمنية التي تبعد عن الحدود ٣٠٠ كيلومتر وعن البحر ٧٥ كيلومترًا). تضم ٣٢٠ طالبًا في ٨ فصول و٩ مدرسين. الدراسة فيها من الصف الثالث إلى الخامس الذي يوازي الثاني الإعدادي في المدارس النظامية. شربنا الشاي في خيمة الإدارة، دكك ومناضد صنعت من أخشاب قديمة. أكد الرفيق عبد الصمد أحمد عضو هيئة التدريس أهمية التكوين الأيديولوجي للطلاب. قال إن النقد والنقد الذاتي خبز يومي للثورة. كل فصل في خيمة يضم ٤٠ طالبًا وطالبة. أفضلية الالتحاق بالمدرسة لأبناء الشهداء. يقتسمون الكتب مثل كتاب المطالعة العربية الذي يخصص لاثنين أو ثلاثة. بقية المناهج تطبع بالاستنسل وتوزع على الطلاب. الدفاتر والأقلام من البلدان الصديقة. ملابسهم متنوعة يغسلونها بأنفسهم. البنطلونات الطويلة والقصيرة والفوط أو المعاوز. أغلبهم يرتدي طواقي كاكية. يغتسلون مرتين في الأسبوع. المدرسون أغلبهم طلبة جامعات في اليمن والخليج ومصر قطعوا دراساتهم وبناء على طلب الجبهة. بعضهم من الخريجين مثل متطوع سوري. الفصل التعليمي ٨ شهور يليه الفصل الثاني مباشرة.

مايو

... استولينا على هاجليت آخر مركز للحكومة على الخط الأحمر. التقيت بالوحدة التي حققت هذا الانتصار. شعرت أن معنوياتهم منخفضة. اكتشفوا أنهم كانوا يقاتلون رفاقًا سابقين لهم انضموا إلى الفرق الوطنية.

... مظاهرات جماهيرية في الولايات المتحدة ضد الحرب الفيتنامية وضد الفقر وضد القمع.

١٣ مايو

... السادات يقوم بما أسماه حركة تصحيح ضد رجال عبد الناصر.

٩ يونيو

... بدأت أعمال المؤتمر الثالث للجبهة في رخيوت.

١٢ يونيو

... تقرير رافع، يكرر أفكاره الانهزامية السابقة. يدعو إلى عدم تجاهل ما أسماه بخطوات التحديث التي اتخذها قابوس، يطالب بالاهتمام بالعمل السياسي وأن العمل العسكري ليس هدفًا في حد ذاته، وإنما أداة لخدمة السياسة، مضمون رأيه التخلي عن هدف الاستيلاء على السلطة والاكتفاء بالمشاركة.

١٣ يونيو

... انتقدناه جميعا. طالبناه بالتراجع عن أفكاره، قدم نقدًا ذاتيًّا. قال إن خلفيته البرجوازية الصغيرة حرمته من رؤية الخط السليم وهو مواصلة النضال حتى النصر.

١٩ يونيو

... انتهى المؤتمر بعدة قرارات تاريخية: إعلان الملكية الجماعية لكل الأراضي في ظفار، تكوين مجالس شعبية لإدارة المناطق المحررة، الدعوة إلى الوحدة مع الجبهة العُمانية، وإنشاء حزب ثوري جماهيري يقود الثورة مسترشدًا بالنظرية الجذرية العلمية الماركسية اللينينية.

... ترتب على قرار تكوين المجالس إلغاء لجنة حل مشاكل الشعب. سأتولى مسئولية التثقيف.

٢٩ يونيو

... أنباء عن هروب عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي السوداني من معتقله.

٣ يوليو

... البعث العراقي يقوم بحملة قمع ضد الشيوعيين والأكراد.

... قواتنا تسيطر الآن على ثلثي ظفار، بينما تسيطر قوات السلطان على المنطقة الساحلية فقط.

١٣ يوليو

... أعلنت حكومة الليندي تأميم بعض مناجم النحاس الأمريكية. علق الرفيق فهد بأن الليندي إصلاحي وليس ثوريًّا، أيده غزال ورفيقان آخران. قال رافع إنه يستهدف التمهيد على المدى الطويل للاشتراكية عن طريق إقامة حكومية جبهة شعبية تعتمد على المؤسسات الدستورية التقليدية. قال فهد إن مثل هذه الحكومية لا يمكن أن تكون ثورية لأن المؤسسات التقليدية في يد الطبقات الرجعية. ولن تسمح بأي تغيير ولا بد من قلبها بالقوة. معه حق.

... شنت السلطات الأردنية هجومًا واسع النطاق على قوات المقاومة الفلسطينية اشتركت فيه الدبابات والطيران. الضحايا بالمئات. هناك ٢٣٠٠ فدائي معتقل في معسكرات الجيش الأردني.

١٨ يوليو

... نقاش حول نتائج إعلان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة.

١٩ يوليو

... قطع راديو أم درمان إرساله في الساعة السادسة والنصف مساءً وأذاع بيانًا من الرائد هاشم العطا أعلن فيه عن حركة عسكرية قام بها لتصحيح مسار ثورة ٢٥ مايو، كما أعلن اعتقال نميري.

... أنباء السودان في كل الإذاعات. مجلس ثورة من سبعة ضباط منهم شقيق عبد الخالق محجوب برئاسة المقدم بابكر النور الموجود في لندن. أعلنوا تكون جبهة وطنية ديموقراطية من تحالف العمال والزراع والمثقفين الوطنيين والجنود والضباط الأحرار والرأسمالية الوطنية. ألغوا الحظر المفروض على نشاط الحزب الشيوعي.

صباح ٢٠ يوليو

... اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني تعلن تأييدها للانقلاب.

٢١ يوليو

... قرر السادات تشكيل محكمة ثورة خاصة لمحاكمة مائة من رجال عبد الناصر على رأسهم علي صبري، شعراوي جمعة، سامي شرف، محمد فائق، ضياء الدين داود.

٢٢ يوليو

... عاد نميري إلى السلطة في السودان بمساعدة المخابرات المصرية والليبية والإنجليزية. اعتقل هاشم أبو العطا. احتجزت السلطات الليبية في الصباح طائرة الخطوط الجوية البريطانية التي كانت تقل قائد الانقلاب بابكر النور وزميله فاروق عثمان حمد الله. أجبرتها طائرتان ليبيتان على الهبوط في مطار بنغازي خلال رحلتها من لندن إلى الخرطوم. أنزل منها الضابطان السودانيان وأمتعتهما وعادت الطائرة إلى لندن.

... قبض على ٤٥ ضابطًا كبيرًا في العراق بتهمة التآمر على نظام البكر/صدام.

٢٣ يوليو

... جرت في الصباح بالخرطوم محاكمة سريعة للرائد هاشم العطا وعددًا من رفاقه، تم إثرها إعدامهم رميًا بالرصاص، أعلن نميري امتنانه للسادات والقذافي على العون الذي قدماه لإحباط المحاولة الانقلابية والقبض على زعمائها. وصل بابكر النور وفاروق عثمان اليوم إلى الخرطوم تحت الحراسة على متن طائرة خاصة.

٢٤ يوليو

... أعلن نميري أن الحكم على بابكر النور وفاروق حمد الله سيصدر وينفذ الليلة أو صباح غد.

٢٥ يوليو

... تم بعد الظهر تنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص في الرائد فاروق عثمان حمد الله. كما تم اعتقال عبد الخالق محجوب.

٢٦ يوليو

... تم تنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص في بابكر النور، وشنقًا في الشفيع أحمد الشيخ رئيس اتحاد العمال في السودان وأبرز قادة الحزب الشيوعي.

٢٧ يوليو

... أصدر المجلس العسكري السوداني الحكم بإعدام عبد الخالق محجوب.

٢٨ يوليو

... تم في الصباح إعدام عبد الخالق محجوب شنقًا.

٣٠ يوليو

... أعلن فاروق أبو عيسى وزير الخارجية السوداني وأحد زعماء الحزب الشيوعي السابقين أن الذين أعدموا لقوا محاكمات عادلة.

... مطاردات دموية لأعضاء الحزب الشيوعي السوداني وأنصاره.

١٣ أغسطس

... أنهى وفد من اتحاد العمال العرب زيارته للخرطوم ببيان أكد فيه براءة اتحاد عمال السودان ورئيسه الشفيع الشيخ من أي علاقة بمحاولة الانقلاب.

... نشرت مجلة نيوزويك الأمريكية صورة النميري في سيارته ليلة إعدام عبد الخالق محجوب، قالت إن نميري قضى الليلة بها متنقلًا من مكان لآخر دون أن تتخلى يده عن زجاجة الويسكي.

سبتمبر

... إضرابات في مسقط ومطرح بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة نتيجة مشاريع التنمية القابوسية، اعتمد إنشاء ميناء وطرق ومطار على العمال الأجانب المهرة. أدى ذلك إلى ارتفاع صاروخي لأسعار الطعام والسكن. اتجهت أعمال التمرد ضد الأجانب ثم توقفت عند القبض على قادة الحركة.

... السادات يتحدث عن عام الحسم.

... انضمت إلينا نبيلة سعيد (١٩ سنة). أُلحقت بوحدة من أربع فتيات و٢٠ جنديًّا ترأسها امرأة، أعلى منصب تبلغه امرأة في جيش التحرير هو قائدة دورية من ثلاث وحدات.

أكتوبر

... حضر قابوس احتفالات إيران بمرور ٢٥٠٠ سنة على عرش الطاوس في برسبوليس. كان السادات هناك أيضًا. لمَّ الشاه جماعة متناسقة.

... حملة إنجليزية باسم عملية «الفهد» تهدف إلى إقامة سلسلة من المواقع على حافة الصحراء لقطع طريق الإمدادات عن المنطقة الشرقية.

... استشهدت طفول في غارة جوية بريطانية. أصيبت أمينة إصابة بالغة في ظهرها.

٢٠ نوفمبر

... استقال رئيس الوزراء طارق بن تيمور (عم السلطان). تولى قابوس بنفسه رئاسة الوزراء. شاع أن طارق كان يدعو إلى قيام ملكية دستورية.

٢٨ نوفمبر

... البعث العراقي يطرح مشروعًا لميثاق العمل الوطني، أرجع أسباب الهزائم والنكسات التي منيت بها الحركة الثورية في العراق والعالم العربي إلى نزعة تغليب التناقضات الثانوية بين فصائل الحركة الثورية على التناقض الرئيسي الدائم بينها وبين الاستعمار والصهيونية والرجعية. يدعو المشروع إلى توفير كافة الأجواء الديموقراطية الثورية للجماهير وأحزابها الوطنية.

... بدأت محاكمة المناضلة الشيوعية الأمريكية أنجيلا ديفيز.

٣٠ نوفمبر

... إيران تحتل جزيرتي طمب الكبرى وطمب الصغرى التابعتين لرأس الخيمة وجزيرة أبو موسى التابعة للشارقة. سبق لحاكم الشارقة أن وقع اتفاقية بناءً على طلب بريطانيا تنازل فيها لإيران عن نصف الجزيرة لمدة تسع سنوات مقابل مليون ونصف مليون جنيه استرليني.

٢ ديسمبر

... اغتيال رئيس الوزراء الأردني العميل وصفي التل في القاهرة. منتظمة فلسطينية جديدة باسم أيلول الأسود تعلن مسئوليتها عن الاغتيال.

... قرار ثوري للعقيد القذافي بتأميم الشركة البريطانية للبترول وسحب الأرصدة الليبية من بنوك بريطانيا ردًّا على دورها في احتلال إيران للجزر العربية الثلاث.

... نجحت عملية الفهد في إقامة موقع إنجليزي جديد مركزه تافي عطار.

... قررنا تجنب أي مواجهات نظامية وشن هجمات مضادة عندما تقيم الحكومة قواعد ثابتة.

... إحصاء: وقع ٢٩٠ اشتباكًا خلال ثلاثة شهور ابتداءً من أول أكتوبر، منها ١٧٠ اشتباكًا في الشرق و٤١ في الوسط و٢٠ في منطقة هوشي منه ٥٩ في الغرب. فقدت قوات السلطان ١٣٦ قتيلًا مقابل ٣١ لنا. خسر الاستعماريون طائرتين وواحدة مروحية وعدة عربات عسكرية، لا أستبعد بعض المبالغة في هذه الأرقام.

... انعقد في أهليش بالمنطقة المحررة المؤتمر التأسيسي للجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي. تكونت من الوحدة بين جبهتنا والجبهة الوطنية الديموقراطية لتحرير عمان والخليج العربي. سار بعض المشاركين على الأقدام لمدة أسبوعين ليبلغوا مكان المؤتمر، لم يتمكن يعرب من الحضور، تم انتخابه في لجنة تنفيذية مسئولة عن منطقة الشمال العُماني.

٥ فبراير ٧٢

... استقبل نميري في الخرطوم مبعوث الخارجية الأمريكية جورج بوش، أحد كبار رجال سي أي إيه.

٢١ فبراير

... فشل حملة ضارية من ألفي مرتزق، ضد المحافظة الرابعة بيحان في الجنوب اليمني. قائد المرتزقة هو الشيخ علي بن ناجي الذي اصطدم به الجيش المصري سنة ٦٢. كان من ضحاياه في صرواح والعرقوب الضابطان المصريان نبيل الوقاد وعبد المنعم سند واليمنى علي عبد الغني.

١٣ فبراير

... تقرر أن أسافر مع وفد حربي إلى عدن على بعد ١٥٠٠ كيلومتر لحضور المؤتمر الخامس للجبهة القومية، لا أستطيع النوم. سأرى أخيرًا البلد الصغير الذي لا يتجاوز تعداد سكانه المليون ونصف المليون وصار قاعدة الثورة في العالم العربي.

١٧ فبراير

... قضينا ثلاثة أيام في اللاندروفر وبيك أب وفوق ظهور الجمال وعلى أقدامنا. أنا وغزال وآخر من بيت الغساني، مراعٍ فقيرة وعيون شحيحة، الممرات الجبلية تنسد دائمًا بسبب قوافل من عشرين إلى ثلاثين جملًا تنقل المؤن. بعض القصف العشوائي من جانب البريطانيين. صخرة رأس ضربة علي التي تطل على بحر العرب مباشرة. آخر نقطة على الحدود. ارتفاعها ثلاثة أمتار. تشبه رقم ٧، تقول الأسطورة إن علي بن أبي طالب شقها بسيفه إلى نصفين عندما اعترضت طريقه. سألت مقاتلًا على مدفع هاون عن مصدره. قال: غنمناه من الإنجليز، وجدت عليه عبارة «الجمهورية العربية المتحدة». أشرت إليها فقال: بريطانيا أخذته من مصر ونحن أخذناه منها. نزلنا أحد الأودية ثم صعدنا إلى جبل القمر. اجتزناه ليلًا على أقدامنا. هبطنا في الحوف، أول قرية بالمحافظة السادسة (المهرة). وجبة من السمك المسلوق مع التمر في مكتب الجبهة، قارب بموتور ٣ حصان لمركز الفتك، ثم لاندروفر إلى الغيضة عاصمة المحافظة السادسة. طائرة متداعية إلى مطار الريان في المكلا. منازلها متلاصقة ومحصورة بين الجبال والبحر في شريط ضيق. ترتفع إلى ست طوابق أحيانًا، بدت من الطائرة مثل صفوف من قطع الحلوى.

... التقطنا إذاعة عربية جديدة من مونت كارلو. لها إيقاع سريع.

٢٨ فبراير

... طائرة متداعية أخرى إلى عدن التي تبعد ٥٠٠ كم. تذكرت أيام الطفولة كان أبي يصحبني معه في جولاته التجارية بأنحاء المحمية الإنجليزية بسلطناتها ومشيخاتها وقبائلها، العوالقة المحاربون نسل معن عبدة القمر. تلمع صدورهم بمزيج النيلة الزرقاء والدهن، يربطون شعورهم بخرق. في حزام كل واحد منهم الخنجر المقوس الذي يحوي مقبضه إناء الكحل. أظننا زرنا لحج التي يحتفظ سلطانها بأسد أهداه له إمبراطور الحبشة. رأينا طوابير المصفحات الإنجليزية ترتفع منها ساريات اللاسلكي، المخافر يحرسها جنود يرتدون الشورت. وادي القتل في سلطنة الوحيدي، يمدون خنادق من البيوت إلى الآبار كي تتمكن النساء من نقل المياه دون أن يصيبها الرصاص المتطاير. صفوف طويلة من جذوع النخيل الذابلة بسبب الجاز الذي صبه منتقمون، حضرموت التي ترتفع فيها المنازل ثمانين قدمًا. قصر السلطان المهيب في سايون، صعدت مائة سلمة إلى طابق الحريم بينما كان أبي مجتمعًا بالسلطان. شبوة التي ترقد فوق واحدة من أعظم مدن مملكة سبأ. عندما اقتربنا من عدن تذكرت القيظ والرطوبة الخانقة من الصباح المبكر. سباقات النوق وطقطقة الطواحين الهوائية التي تجذب مياه البحر إلى أحواض الملح. ضجة الميناء. الصيادون يصلحون شباكهم المنشورة على الشاطئ. السفن العابرة بين المتوسط والمحيط الهندي تتزود بالبترول والفحم. يتسوق ركابها من السوق الحرة. الأوروبيون بملابسهم البيضاء والسفاري.

مطار عدن صغير. كنت أتوقعه أكثر نظافة. به طائرتان واحدة إثيوبية والثانية صومالية. استقبلنا رفيقان أحدهما من الجبهة القومية والآخر ممثل جبهتنا. حملنا حقائبنا بأنفسنا من الطائرة إلى جيب عسكرية متداعية. بعد هذه السنوات في البرية تبدو المدينة محيرة ومربكة. المباني الواطئة تبدو كالعمارات الشاهقة، السيارات تنطلق بسرعة مرعبة، الناس كثيرون. الأسلاك الشائكة في كل مكان. منطقة خور مكسر التي كانت بها ثكنات الإنجليز ومساكنهم. أصبحت الآن حي السفارات وسكنى الأجانب والمسئولين. فندق كريست. مبني كولونيالي من بقايا العهد الاستعماري، مراوح عاطلة في السقف. المصعد متوقف. الضوء ضعيف. العاملون من الفدائيين السابقين، أخذنا موسى مسئول الإعلام في مكتبنا إلى منزله. أعطتني زوجته شامبو للشعر وأخذت أروع حمام ساخن في حياتي. غسلت أسناني جيدًا بفرشاتها. شربنا بيرة صيرة، يشبه مذاقها مذاق ستلا المصرية. تعشينا لوبستر. الدولة هي التي تشرف على صيده بعد أن أممت مراكب الصيد

التي لم يزد عددها عن ثلاثين أو أربعين مركبًا، تصدره إلى ألمانيا الديموقراطية وروسيا. التليفزيون كله أحاديث ثورية ومسلسل مصري. الكهرباء والمياه تقطعان من الساعة العاشرة مساءً عدا الخميس وطيلة يوم الجمعة.

٢٩ فبراير

... أفطرنا فاصوليا بيضاء وعدسًا. جريدة ٦ أكتوبر والحرية وصحف الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني، لا توجد جريدة أجنبية أو كتاب أجنبي أو حتى عربي.

... خصصت الجبهة العدنية لكل منا عدة دينارات للنفقات الشخصية لكننا رفضنا أخذها. جولة في سيارة جيب عسكرية مخلعة. بيت كيكي الذي كان يتم فيه تجميع الأطفال المخطوفين من أفريقيا لينقلوا بعد ذلك إلى السعودية أو الخليج. اسمه الآن بيت السلطان. حي المعلا، الشريان الرئيسي الذي يلي الحي العربي في كريتر. مكاتب جبهتنا. عدد من المتدربين الظفاريين على الرعاية الصحية. الرفيق صالح الذي أصابه السجن بشبه شلل في قدمه. كنا قد قررنا إرساله للعلاج في ألمانيا الديموقراطية لكنه يرفض السفر ويصر على العودة للقتال، يعيش رفاقنا هنا في نفس المستوى الذي نعيشه في ظفار. يأخذون نفس الراتب (١٠ دنانير) للنفقات الشخصية. تتكفل الجبهة بالإعاشة. السكن والكهرباء على حساب الدولة اليمنية. بقايا فيلات الإنجليز مزخرفة بأشكال هندسية وألوان بهيجة. البنايات احتلتها جموع ريفية فقيرة. المدينة الجديدة حول الميناء: بلوكات المساكن الشعبية التي يبنيها الألمان. دور السينما الصيفية والكازينوهات والمقاهي. جلسنا في مقهى على البحر. أراد غزال أن يشرب بيرة لكني نبهته إلى أننا في مكان عام. غضب مني وصار يدعوني بالشيخة وردة. المرفأ خالٍ من البواخر، هامد الحركة. إغلاق قناة السويس ورحيل المستعمر أدى إلى بطالة عشرات الألوف من كوادر ومهنيين وعمال، تغدينا لوبستر وبريان أرز بالسمك. السيدات يتلفعن بما يشبه الثوب السوداني، البعض في جوب وبلوزة. رائحة الدلكة والصندل الزاعقة. النقوش على الأيدي والأقدام. أصوات الغربان السوداء المزعجة منتشرة في كل مكان. جلبها الإنجليز لتقوم بتنظيف المدينة كل صباح. حرموا اصطيادها أو قتلها. أكد لنا السائق أنه لو قتل أحد غرابًا هاجمته بقية الغربان هو ورفاقه. حوانيت الدولة قديمة وتكاد أن تكون خالية من أي بضائع. خمس تاكسيات في المدينة كلها. ما زالت هناك تقييلة من الساعة الواحدة حتى السادسة، تحارب الدولة تعاطي القات. قصرت بيعه على يومي الخميس والجمعة. يستورد من إثيوبيا بالطائرة.

أول مارس

... عرضت نفسي على طبيبة متخصصة تخرجت من مصر، فحصتني بدقة. لا تجد تفسيرًا لما أشعر به من آلام غامضة واضطراب في الدورة. نصحتني بأن أتزوج وأنجب أطفالًا، عجبت لأمرها. مهما بلغت المرأة من ثقافة لا تتحرر من تأثير المجتمع الذكوري. تظل تتصور لنفسها مهمة واحدة رئيسية في الحياة.

٢ مارس

... شهاب هنا. وفد لحضور المؤتمر. ابتهجت لرؤيته. احتضنني بقوة، لم يتغير كثيرًا. فقد الكثير من شعر رأسه، تزوج من رسامة لبنانية، قال إنه يفكر فيَّ كثيرًا. تحدثنا طويلًا. قال إن رشدي ينشر سلسلة من الدراسات عن الحركات الثورية في العالم العربي. وإنه التقاه في بيروت.

٣ مارس

... قابلت أعضاء الاتحاد النسائي اليمني. الناس تغني في الشوارع لسالمين، قيادة لا تتعالى أو تتطلع وليس لها امتيازات خاصة. النسبة بين الحد الأدنى والحد الأعلى للأجور والمرتبات كانت ١–١١ فنزلت بها القيادة الشعبية إلى ١–٤,٥ فقط. راتب الوزير ٧٥ دينارًا وأقل أجر للعامل ١٥ دينارًا (٤٥ دولارًا). أما راتب رئيس مجلس الرئاسة فهو ١٠٠ دينار في الشهر.

... حماس في المؤتمر يقوده سالمين نحو الإسراع في إقامة الحزب الطليعي ودكتاتورية البروليتاريا. رأى عبد الفتاح إسماعيل أن هذا الحزب لا يمكن إقامته نتيجة لضعف الأساس الطبقي والأيديولوجي.

... التقينا سالمين في قصر الرئاسة. بناء دائري كان مقرًّا للحاكم البريطاني، دخلنا دون موعد ودون أن يعترضنا أحد. يرتدي بذلة كاملة. الملابس الأوروبية تبدو لي غريبة. عيناه دائمتا الحركة. بسيط وشعبي.

... ذهبنا إلى عبد الفتاح إسماعيل في بيته فوق أحد التلال المشرفة على الميناء. هادئ ورزين. شعر رأسه غزير وناعم، حاد الذكاء. سألته عن الموقف من الشيوعيين، قال إنهم رفاق جيدون ثم أضاف مبتسمًا: يجيدون الكلام. تذكرت حديث جيفارا عنهم.

٦ مارس

... انتهى المؤتمر بانتخاب لجنة مركزية من ٣١ عضوًا بدلًا من القيادة العامة. انتخبت اللجنة بدورها مكتبًا سياسيًّا من ٧ أعضاء وأمين عام هو عبد الفتاح إسماعيل. سالم ربيع رئيس لمجلس رئاسة الجمهورية وأمين عام مساعد للحزب.

... انشقاق يساري جديد في الجبهة الشعبية يدافع عن خطف الطائرات. يصفه بأنه تكتيك نضالي. يرى أن الأنظمة التقدمية العربية ليست إلا أنظمة برجوازية صغيرة آخذة في التحول إلى أنظمة رجعية.

... اجتمع قابوس مع الملك فيصل في الرياض، قالت الصحف الإنجليزية إن الاجتماع دبره روبرت أندرسون وزير الخزانة الأمريكية الذي التقى الأول في لندن، اتفقا على وقف مساعدات السعودية للإمام غالب ومساندة قابوس.

... توقيع اتفاقيات تسهيلات بحرية بين البحرين والولايات المتحدة تتيح مرابطة ٣ سفن للأخيرة في ميناء جفير.

٧ مارس

... سهرنا أمس في بيت الرفيق موسى احتفالًا بانتهاء المؤتمر، أعدت، شغالة صومالية الطعام الذي مونه مكتب الجبهة. حضر شهاب، غازلني بجرأة رغم صدي له. أدركت أنه يريد أن يثبت سيطرته عليَّ فقاومته. لا أظن أن مقاومتي كانت جادة، ربما بسبب علاقتنا السابقة أو حاجتي إلى الشعور بخد خشن وساقين قويين ربما أيضًا أني من جانبي كنت أتلمس قدر ما لي من نفوذ عليه. وهو داخلي ابتسمت عندما تذكرت كلمات الطبيبة، الغريب أني استمتعت. ربما السبب هو الألفة القائمة بيننا. لكني تأكدت اليوم أني لم أعد أحمل له ذرة عاطفة. فنيتو.

١٠ مارس

... اللاندروفر من الغيضة وسط الجبال، الأغاني والأناشيد طول الوقت. اصطحبنا صالح الذي أصر على العودة دون علاج. مياه المحيط على طول النظر، هي والجبال. وصلنا دمقوت التي بدت مهجورة. بعد عناء عثرنا على دكان به نوع واحد من المعلبات، تركناها في صنبوك متداعٍ، شددنا على حوافه ونحن نغني «شعبية شعبية». قرش كبير أو دلفين

قذفه البحر كاد يقلبنا. صرخ صالح أنه لا يستطيع السباحة، ثم بدأت نغمة هوب، هوبل. هبطنا الشاطئ عند الحدود. استقبلنا الرفيق سعيد علي عضو اللجنة التنفيذية. تفقدنا المرحلة الأخيرة من أول مستشفى تبنيه الجبهة. استلقينا بعد العشاء فوق سطح منزله نستنشق الهواء الرحب الذي افتقدناه في الغيضة. الحديث عن مسلم بن نواف الذي انضم للحكومة. ومضات الضوء تنبعث من كشافات بحرية السلطان على طول الشاطئ بحثًا عن القوارب التي تنقل الأسلحة. فجأة انهالت علينا الصواريخ من بارجة بريطانية بعيدة. الدوي هائل لكن لم تحدث إصابات.

١١ مارس

... استأنفنا السير، في نهاية اليوم وصلنا قرب البريطانيين في صرفيت. رغم وجودهم قرب الحدود فإن «عنق» المناطق المحررة الذي تتسلل منه القوافل من اليمن ما زال مفتوحًا بسعة خمسة أميال.

٣١ مارس

... السودان يحصل من صندوق النقد الدولي على مساعدة مقدارها ٤٠ مليون دولار لمواجهة العجز في ميزان المدفوعات.

٢ أبريل

... أقامت الحكومة مراكز محصنة بالقرب من صرفيت. دعمت الرقابة على كافة الطرق المؤدية إلى الجبل من الساحل. أطلقت على هذه الخطوة اسم عملية سيمبا، شملت العملية هجمات جوية على اليمن الديموقراطي ذاته بما في ذلك قرية الحوف.

٨ أبريل

... نبأ صاعق. بعد أن تركني صالح وواصل الطريق إلى وحدته عرف أن محكمة الثورة أعدمت والده بتهمة التعاون مع العدو، جُنَّ وانهار، انضم للفرق الحكومية وأخذ يدلهم على أماكن قواتنا وأسلحتنا.

... المؤتمر الأول للاتحاد الاشتراكي العربي في ليبيا (٥٣٠ عضوًا بينهم ٤٠ امرأة). القذافي يقول إنه تنظيم جماهيري يجمع الرأسمالية الوطنية والفلاحين والعمال والمثقفين والجنود كي ينصهروا مع بعض. قال إن النظرية الثالثة التي ابتدعها تقوم على أسس ثلاثة: الاشتراكية والدين والقومية. وإن الاشتراكية التي يعنيها تختلف عن الماركسية والرأسمالية.

١٥ أبريل

... تقصيت أمر الحكم الذي أصدرته محكمة الثورة على والد صالح. كل ما فعله أنه قدم الحليب لدورية حكومية طبقًا لتقاليد الضيافة. هناك عشرات من الأحكام المماثلة التي تم تنفيذها في مناطق مختلفة. كتبت تقريرًا إلى اللجنة التنفيذية طالبت فيه بمنع تنفيذ أي حكم بالإعدام إلا بعد عرضه على اللجنة المركزية بكامل هيئتها. وطالبت أيضًا بتصحيح الموقف بالنسبة لوالد صالح.

٢٨ أبريل

... ما زال الهجوم الفيتنامي الكبير في أوجه، أربك خطط الولايات المتحدة العسكرية وأدخل الثور إلى المدن.

٦ مايو

... محاولة لضرب اليمن الديموقراطي. حشود عسكرية على حدوده. مشاريع أمريكية إسرائيلية للسيطرة على مداخل البحر الأحمر، استفزازات على الحدود بين الدولتين اليمنيتين.

... الثوار الفلسطينيون يختطفون طائرة ركاب بلجيكية ويهبطون بها في مطار اللد. طالبوا بالإفراج عن عدد من زملائهم المعتقلين في السجون الإسرائيلية. القيمة المعنوية للعملية تتمثل في الوجود الفلسطيني في قلب إسرائيل ذاتها.

٢٤ مايو

... أسقط العدو ٢٠٠ رجل فوق خال–أروط على مبعدة عشرة أميال شرقي حوف.

٢٥ مايو

... شنت الطائرات الإنجليزية هجومًا على الحدود اليمنية استمر طول اليوم قصفت أهدافًا مدنية: المدرسة والمركز الطبي ومركز مكافحة الأمية ومساكن الأهالي. قتلت خمسة من رجالنا ونساءً وأطفالًا أسقطنا طائرتي سترايكماستر.

... القذافي يعرض المساعدة على السلطنة ضدنا.

... افتتاح مستشفى الشهيد حبكوك في منطقة الحدود. يتكوَّن من ١٤ عنبرًا: عيادتين، ثلاثة كهوف، ثلاث خيم، أكشاك من الزنك والخشب. تشرف عليه لجنة صحية من الذين تدربوا في اليمن الجنوبي. العيادة صيدلية في نفس الوقت. يتردد عليه بين ستين وثمانين مريضًا من الرجال والنساء والأطفال. صافحتنا مريضة بالسُّل في السبعين تحمل الكلاشينكوف، تشارك في الحراسة.

النزلاء يفترشون الأرض فوق الكنابل والملاءات. قرب المستشفى أقيمت مزرعة خضراوات. يعمل بها القادرون من المرضى المساعدون الصحيون ينقلون إلى المناطق السكنية للعلاج والتثقيف الصحي. يتولون الإسعافات الأولية ثم تنقل الحالات الحرجة إلى المستشفى، الطبيب الوحيد وليد يبدو عليه الإرهاق. يحمل الكلاشينكوف على ظهره طول الوقت. حافي القدمين مثل مرضاه. انتدبته الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. فلسطيني في الثلاثين. أصيب في عملية بالأرض المحتلة نتج عنها تشوه وجهه. سألته إذا كان يشعر أن فلسطين تحتاج إليه أكثر منا. قال وهو يلف دخينة تبغ: المعركة واحدة في كل مكان. المشكلة هنا هي في درجة الوعي. له هنا عدة شهور. طوَّف بكثير من القرى. كان يعتمد طول الوقت على المسكنات البسيطة بسبب نقص الأدوية. يعطي للمريض بضعة أقراص ويقول له خذ اثنين منها ثم يصرفه. أغلب المرضى لم يفهموا أن المطلوب هو ابتلاع الدواء، فكانوا يربطونه بقطعة قماش فوق المكان الذي يعاني من الألم. الأغرب من هذا أنهم كانوا يشعرون بالتحسن.

... هاجم ثلاثة يابانيين مطار اللد تعبيرًا عن التضامن بين القوى الثورية العالمية.

أول يونيو

... وزير الإرشاد السوداني يزور أمريكا ويؤكد عودة العلاقات بين البلدين. المليونير السوداني خليل عثمان يقول: «رأس المال الأجنبي دلوقت بيقبل على الاستثمار في بلدنا.

بعد أربعة أيام سيصل رجال الأعمال من اليابان وأمريكا وبريطانيا علشان يشوفوا المشروعات الممكن يساهموا في تنفيذها».

٧ يونيو

... أصيب ١٢ ضابطًا إنجليزيًّا عندما أطلق مقاتلونا قذيفة مباشرة على ميس الضباط في صلالة، نُقل الجرحى بطائرة خاصة إلى قبرص.

٢٨ يونيو

... عندما بدأ موسم الأمطار كانت المبادرة في أيدينا. أجبرنا العدو على إخلاء مركز ثقبيت. تمركزوا في موقع سيمبا على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم، على مبعدة سبعة كم من الحدود اليمنية، هذا الموقع يتحكم في الطريق بين الجانبين. فشلوا في اختراق التلال إلى البحر، أصبحوا أسرى موقعهم. لديهم كتيبة واحدة ستضطر للبقاء طوال الشهور الخمسة التالية. دمر القصف المتواصل من جانبنا الممر الجوي الذي كانت تستخدمه طائرات سكاي فان وكاريبو، يعتمدون الآن كلية على إمدادات الهليكوبتر.

... في معركة استمرت ١٤ ساعة في وادي كوهوت تحت صرفيت، قُتل الشيخ محمد أحمد هاشيت خال قابوس.

... ارتباك في صفوف السلطة: تشكل مجلس للدفاع الوطني يضم وزير الخارجية، نائب وزير الدفاع الذي هو السلطان، القائد البريطاني لقوات السلطان، المدير البريطاني للمخابرات، والمستشار البريطاني لشئون الأمن، والمستشار الاقتصادي ورئيس البوليس وهو سيلاني يحمل جوازًا بريطانيًّا.

٤ يوليو

... أعلن الملك حسين عند استقباله لقابوس أنه سيرسل بعثة عسكرية أردنية من الجيش والطيران إلى السلطنة لمقاتلة الثوار. الشبه بين الاثنين غريب، تقريبًا نفس السن والقامة ونفس الدراسة في إنجلترا ونفس التاريخ في العلاقة بالأب ونفس الارتباط بالأجنبي.

٨ يوليو

... السادات يتخذ قرارًا بإنهاء مهمة المستشارين والخبراء العسكريين السوفييت في مصر. كشف بذلك عن عدم جديته في خوض معركة التحرير.

... اجتماع لمناقشة اقتراح فهد بالاستيلاء على بلدة مرباط. نتائج الاستطلاع: ٤٠ رجلًا في القلعة وبعض رجال الفرق القليلين في البلدة وثمانية ضباط من القوات الخاصة الإنجليزية ومدفعي عُماني في حفرة إلى جانب القلعة. القائد الإنجليزي اسمه الكابتن مايك كيلي، بمنزله رشاشان براوننج وهاون نصبت في دشم من زكائب الرمال، اقترحت على الفكرة على أساس قرارنا السابق بعدم الدخول في مواجهات نظامية. صاح فيَّ فهد حانقًا: نظامية إيه؟ سنفاجئهم وهم نيام، نوَّه بالأهمية السياسية لأن تتم العملية في ذكرى انقلاب قابوس.

٢٣ يوليو

... هجوم واسع النطاق على مرباط بقوة من مائة مقاتل يقودها فهد. بدأ في الخامسة والنصف صباحًا.

٢٤ يوليو

... احتفظت قواتنا بمرباط لمدة ١٤ ساعة.

٢٥ يوليو

... فقدنا سبعين مناضلًا في كارثة مرباط. استمعت إلى شهادات الناجين. تقدمت جماعة من عشرين رجلًا من السلك الذي يحيط بثلاثة جوانب من البلدة. خلفهم مجموعات من عشر إلى ١٣ رجلًا ملئوا السهل. جروا في خط متباعدين عن بعضهم البعض. رافعين أسلحتهم إلى أكتافهم. فاجأتهم زخات قصيرة حادة من النيران صادرة عن منزل القائد الإنجليزي. بلغ رجالنا السلك. شرعوا في تمزيقه. بعضهم فعل ذلك بيديه العارية. البعض الآخر ألقى بطانية فوقه واعتلاه. انفجرت فيهم الدانات ٧,٦٢ مم المنطلقة بسرعة أكثر من ٣٠٠٠ قدم/ثانية. قذفت بالبعض بعيدًا عن السور، اشتبك آخرون بالسلك وجعلوا يتأرجحون مثل الدمى. صرخ فهد في الناجين ولوح بيديه يحثهم على عبوره. تعرضوا

لدفعة نيران جديدة. تمكن البعض من عبور السلك وجروا صوب القلعة على مبعدة أربعين ياردة منه، بينما علق به آخرون. مقاتل تدلى فوق السلك مثل دمية من القماش. آخر تعلق به ورأسه إلى أسفل وأطرافه مبسوطة في كل الاتجاهات كالمصلوب. عبر آخران السلك. سقطا على الفور وساق أحدهما تتأرجح. اندفع رفيقان لإسكات المدفع. بعد مائة ياردة دوت بينهما زخة رشاش، ارتميا فوق الأرض، اندفع أحدهما في خط متموج نحو حفرة المدفع فقفز فوق جدارها. جرى الباقون نحو القلعة وهم يقذفون بالقنابل، ثم جاءت الطائرات.

... تخيلت فهد في بذلته الكاكية وقبعته المدببة وحزام الطلقات حول صدره، منتصبًا عند السلك يصرخ ويلوح بذراعيه، وبندقيته مرفوعة أفقيًا فوق رأسه. ربما تخيل نفسه مثل أبطال الملصقات الصينية!

وليد ومساعدوه يعملون ٢٤ ساعة لعلاج الجرحى.

٢٧ يوليو

... مقاتل فقد ساقيه. طارتا أسفل الركبة مباشرة نتيجة انفجار. روى لي كيف استشهد رفيق له يدعى مسلم. انسحب في اتجاه الشمالي حسب الأوامر. لحقت به مجموعتان من الجنود الإنجليز. خاض في الماء حتى خصره. نادوا عليه ليلقي بندقيته ويستسلم، استدار وأطلق عليهم النار فصرعوه.

... وزعت قوات العملاء منشورًا به صور الأسلحة التي غنمتها. جاء به: «إن القادة الشيوعيون توقعوا سهولة النصر في عملية مرباط الأخيرة، والحقيقة كانت هزيمة للشيوعيين منكرة وعظيمة. لقد هرب الشيوعيون تاركون في يد قوات السلطان المسلحة المنتصرة: تسعة وعشرين قتيلًا واثني عشر أسيرًا وكثير من الأسلحة. إن هذه الصورة ليست كل ما غنمناه ولكنها نموذجًا حيًّا للأسلحة التي خلفها الشيوعيون وراءهم». تحسن مستوى كتابتهم وإن ظلوا يرتكبون أخطاءً نحوية.

... منشور آخر بعنوان يد الله تحطم الشيوعية يصور قبضة ساذجة موسومة بعلم السلطنة تعتصر جسمًا بشريًّا ضئيلًا لا تبدو منه غير اليدين في أعلى القبضة ونجمة في أسفلها وتتساقط منه قطرات من الدماء!

... أخذوا بعض الأسرى إلى صلالة حيث تعرضوا للضرب والتحقير بواسطة الضباط الإنجليز أمام الجمهور.

أغسطس

... بمبادرة لم تعرض على القيادة، هاجمت مجموعة من المقاتلين بلدة طاقة. نجحت في احتلالها لمدة أربع ساعات. انسحبت بعد أن استولت من التجار على كميات كبيرة من الأطعمة وعوضتهم نقدًا.

... اتخذنا قرارًا حاسمًا بوضع حد لعمليات الهجوم على نطاق واسع.

الفصل الثالث عشر

صلالة

ديسمبر ١٩٩٢

دق جرس التليفون فوضعت أوراق وردة جانبًا وتناولت السماعة.

عرفت صوته على الفور: زيد!

ضحك: كنت تتوقعني؟

قلت: نعم. من أين تتكلم؟

قال: من مسقط. اسمع. إلى متى ستبقى عندك؟

قلت: حتى بعد غد.

قال: هل يمكن أن تنتظر يومًا آخر؟ أريد أن أراك.

ترددت. كنت قد بدأت أشعر بالضجر وأتلهف على العودة، لا إلى مسقط وإنما إلى القاهرة.

قلت: يمكنك أن تراني في مسقط.

قال: لا. أفضل عندك، سأتصل بك بمجرد وصولي.

وضع السماعة وأعدت سماعتي في ضيق. كنت قد طلبت من خلف أن يرتب لي حجز الطائرة وسأضطر الآن إلى طلب تأجيله.

مددت يدي إلى أوراق وردة لأواصل القراءة وإذا بجرس التليفون يدق من جديد.

جاءني صوت سالم: ماذا تفعل؟

قلت: أقرأ. ماذا هناك؟

قال: رتبت لك موعدًا. أيمكنك أن تنزل؟

قلت: الآن؟ أنا لم أتعشَ بعد.

قال: لا تقلق. ستأكل.

ارتديت ملابسي وأعدت الأوراق إلى كيسها. أزحت المقعد المجاور للفراش ودسست الكيس أسفل السجادة ثم أعدت المقعد إلى مكانه.

وجدت سالم ينتظرني في البهو وقادني على الفور إلى الخارج حيث كان زوج أخته ينتظر في سيارة مازدا قديمة مركونة على الناحية الأخرى من الطريق ومقدمتها في اتجاه وسط المدينة.

عبرت الطريق خلفه وأنا أتساءل: إيه الحكاية؟

قال وهو يفتح لي باب المقعد الخلفي: اركب أولًا.

جلس إلى جوار قرية الذي انطلق على الفور.

قال: هل تعرف أن لأخت صديقك ابنة هنا؟

تجنبت الرد بالإيجاب أو النفي ووجهت إليه سؤالًا بدلًا منه: هل نحن ذاهبون إليها؟

قال: لأ طبعًا. سنقابل شخصًا آخر. واحد من الجبهة كان في السجن.

التفت نحوي وقال: ألم تقابلها عندما ذهبت إلى جمعية المرأة؟

لا شيء يخفى هنا.

قلت: قابلت واحدة اسمها وعد لكني لم أعرف صلتها بوردة.

قال: إنها هي. كيف وجدتها؟

– لم أتوقع أن تكون مهووسة دينيًّا.

– كيف؟

– تغطي وجهها بنقاب أسود كثيف يخفي حتى عينيها.

– آه. هذا نقاب الأشراف ولا علاقة له بالدين.

مضى فطوم في شارع قابوس الموازي للشاطئ. وأدار الراديو فاستمعنا إلى نشرة أنباء تصدرتها إشارة إلى اغتيال أحد قادة الحزب الاشتراكي اليمني في عدن.

علق سالم: أظن هذا هو الحادث الخمسين من نوعه منذ الوحدة بين الشمال والجنوب.

قال فطوم وهو ينطلق بجوار محمية للطيور: الحمد لله أن العدوى لم تنتقل إلينا.

قال سالم مستنكرًا: هل نسيت سهيل؟

تدخلت في فضول: من هو؟

قال: أحد القادة الأوائل للجبهة، وتوفي أمس في حادث مرور في نزوى. حادث مريب. ترك زوجة وسبعة أطفال.

قال فطوم مهونًا: حادث واحد.

ردَّ سالم كأنما يستأنف نقاشًا سابقًا: وماذا عن الاعتقالات؟ أبو سكحة الذي تخرج من جامعة كييف وعاد في أواخر الصيف الماضي ما زال معتقلًا، مسلم بن نوفل أحضروه مكبلًا من الإمارات وسحبوا منه جواز سفره.

ولماذا لم يعتقلوك أنت أيضًا يا عم سالم؟

اعترض فطوم في حدة: مسلم قُبض عليه بسبب ما عليه من ديون.

قال سالم: أية ديون؟ منذ انضمامه إلى السلطة سنة ٧٠ وهو يحصل على مبالغ طائلة آخرها ٨٠٠ ألف ريال وقطعة أرض، بالإضافة إلى راتب مدير في الحكومة وألف ريال شهريًّا من الديوان السلطاني ومواد غذائية من مكتب محافظ ظفار، وأخيرًا بدأ يدخل في النفط، فوقع مع اليمنيين اتفاقية للتنقيب ممثلًا لإحدى الشركات.

تحول فطوم إلى طريق مترب شبه مهجور وتوقف أمام منزل قديم من طابقين تحيط به حديقة مهملة، كان بابها مفتوحًا على مصراعيه فاجتزناه بالسيارة.

صعدنا بضع درجات متآكلة وطرق سالم بابًا خشبيًّا. فتحه لنا رجل متوسط الطول عصبي القسمات عاري الرأسي، أشار لنا بالدخول وتقدمنا إلى قاعة واسعة كالحة الجدران فُرشت أرضها بالحصير وتوسطتها أريكة وبضعة مقاعد.

تبادلنا التحيات والسؤال عن الأهل والصحاب، وأحضر صبي مراهق زجاجة عرجي قادمة من الجنوب اليمني، وطبقًا من الزيتون، ثم تتابعت الأطباق: كبدة بالشطة وسمك مشوي وجبن أبيض.

قال سالم: أخ مسعود، الأخ المصري يريد أن يسألك عن وردة.

تحول إليَّ في حدة قائلًا: وردة ماتت.

قلت: متى؟

ظهرت نظرة ساهمة في عينيه.

قال: استشهدت أثناء معركة مرباط.

تساءلت: مرباط أم طاقة؟

بدا عليه الارتباك. وتطلع ناحية الباب. وفجأة تبدلت ملامحه وبدا عليه التوتر.

سألنا دون أن يرفع عينيه عن الباب: هل سمعتم؟

تبادلنا النظرات أنا وسالم.

قال فطوم: ليس هناك أحد.

تحول إلينا وما زال ذهنه عالقًا بالباب.

سألته: هل تعرف أخاها؟

هزَّ رأسه: لم يكن لها إخوة.

قلت: هل قابلتها؟

التفت مرة أخرى ناحية الباب وأومأ إلينا أن ننصت.

سمعنا صوت نباح كلب وتصلب جسده ثم همس: جاءوا.

احتسيت كأسي في صمت والتقطت حبة زيتون.

تكرر النباح ثم ابتعد. والتفت نحوي مائلًا بجسده إلى الأمام: الحقيقية لها وجهان.

لم أفهم ما يعنيه، واستطرد هو: سأحكي لك نادرة من نوادر جحا. جاء إليه رجل وأعطاه مصباحًا وطلب عشاءً، فأكرمه جحا، وفي اليوم الثاني أتاه رجلان وقالا له إنهما صديقا صاحب المصباح وتناولا العشاء، وفي اليوم الثالث أتاه ثلاثة وقالوا له إنهم أصدقاء الرجلين صديقي صاحب المصباح ويريدون عشاءً، فأكرمهم كذلك، وفي اليوم الرابع جاءه أربعة وقالوا إنهم أصدقاء الثلاثة أصدقاء الاثنين صديقي صاحب المصباح وطالبوا عشاءً، فقدم لهم جحا الماء فقط، وقال إن هذا الماء صديق ماء الثلاثة أصدقاء الرجلين صديقي الرجل الذي أعطاه المصباح. هل فهمت؟

اعترفت بأني لم أفهم، فقال: هذه نادرة عن الكرم الذي اشتهرت به القبائل العربية. لكنها تريك أيضًا ما يتصفون به من جشع وطفيلية، الحقيقة لها وجهان.

ملأ لنفسه كأسًا وأضاف: قبل أن تظهر الجبهة لم يكن الرجل يخرج من منطقته إلا بعد إبرام اتفاقيات هدنة مؤقتة مع القبائل التي يمر عليها، وذهب رجل ليأتي بزوجته من منزل أهلها، فأطال البقاء وانتهت مدة الهدنة، ثم نفد تبغه فخاطر بحياته ودخل قرية له عداوة مع قبائلها، فتعرفت عليه امرأة من قبيلته. من حسن حظه أنها لم تشِ به فأفلت بحياته.

تطلعت إليه حائرًا فابتسم: هذه حكاية عن القدر. فقد عاش ليُقتل في يوم آخر.

أدركت بعد حكايتين أخريين أنني لن أحصل منه على شيء، فاسترخيت وتركتهم يتبادلون الروايات.

الفصل الرابع عشر

جبال ظفار

١٩٧٢–١٩٧٥

أغسطس ٧٢

... مناقشات مستمرة حول مأساة مرباط. التفكير في تنشيط الجبهة الشمالية لتخفيف الضغط على الجنوب.

... قال السادات إن خطة العدوان الإسرائيلي في يونيو ٦٧ عُرضت على الرئيس جونسون في حضور مدير المخابرات الأمريكية، وإنه وافق وأعطى مباركته ...

وصلتنا نظارة طبية خصيصى لفهد. كان الرفاق قد نصحوه بأن يهتم بالقراءة وتثقيف نفسه فاحتج بضعف بصره.

٥ سبتمبر

... تصريحات صينية عن مؤامرة لين بياو لاغتيال ماو ثم هروبه وسقوط طائرته في منغوليا.

... احتجز الفدائيون الفلسطينيون (أيلول الأسود) سبعة من أفراد البعثة الرياضية الإسرائيلية في ميونيخ. طالبوا بالإفراج عن مائة معتقل فلسطيني في السجون الإسرائيلية. اتبع البوليس الألماني نصيحة الخبراء الإسرائيليين فانتهى الأمر بمقتل الفدائيين والرهائن.

٧ سبتمبر

... مناقشة حادة مع وليد. أبديت عدم ارتياحي لحادث ميونيخ وخطف الطائرات. لم أعرف كيف أصيغ أفكاري، كنت منزعجة للدماء المراقة. قلت إنه يتعين الامتناع عن القيام

بعمليات يعتبرها البعض سيئة كي لا نخسر الرأي العالمي. انفجر فيَّ: خرايا على الرأي العام العالمي! لقد كان مرتاحًا تمامًا لما يتعرض له الفلسطينيون من موت بطيء في معسكرات الاعتقال. ماذا فعل هذا الرأي العام العالمي عندما أباد الملك حسين ٣٠ ألف فلسطيني في عدة أسابيع؟ توقف النقاش عندما استدعته صرخة من أحد الجرحى.

٨ سبتمبر

... عندما رآني وليد هذا الصباح استأنف نقاش الأمس على الفور. قال لي بهدوء إن الهجوم الفلسطيني نجح في جذب أنظار العالم لمدة ٢٤ ساعة. قلت له إني تابعت الإذاعات الغربية وتركيزها كان على إدانة العمل الفدائي الفلسطيني ووصفه بالمغامرة والإرهاب. قاطعني: لكن نغمة جديدة ظهرت بعد مصرع الرهائن. أكثر من صحيفة أوروبية قالت إن الناس نسيت كيف قامت دولة إسرائيل وكيف استخدمت أبشع وسائل الإرهاب لتحقيق غاياتها لمدة ٢٥ سنة. بدأت العقلية الأوروبية تتساءل عن الدافع لقيام ثمانية شبان في ربيع العمر بهذا الهجوم الانتحاري. وجدت ثغرة في دفاعه. قلت: ها أنت مهتم بالرأي العام العالمي. فكر قليلًا في وجوم ثم قال: معك حق. ثم انفعل من جديد: لقد قتل الإسرائيليون في اليوم التالي في صمت ٢٠٠ فلسطيني بينهم نساء وعجائز وأطفال، ولم يتحرك أحد. اتجهنا إلى الكوخ الصغير الذي يقيم به. قلت: دعنا من الرأي العام العالمي، هناك نقطة جوهرية. في رأيي أن المقاتل في حرب تحرير شعبية لا يهاجم سوى الأعداء المباشرين للشعب. استنفرت هذه الكلمات عدوانيته فصاح: اسمعي ... أبي مات في خيمة أحقر من هذا الكوخ بينما كان لنا بيت كبير له حديقة من أشجار الزيتون ... هناك ١٨ ألف فلسطيني في سجون إسرائيل. العالم لا يهتم. ماذا يجب أن نفعل؟ خُيِّل إليَّ أن الدموع طفرت من عينيه، وجدت نفسي أمد يدي إليه. تحسست آثار الجراح التي تملأ وجهه. ما حدث بعد ذلك كان أمرًا طبيعيًّا سوى أنه أخذ يبكي في أحضاني. أظن أني ساعدته على أن يدخلني. لكنه قذف في الحال وضاعت اللحظة. لن يتكرر ما حدث.

١٥ سبتمبر

... غارات انتقامية إسرائيلية على المواقع المدنية في سوريا ولبنان.

... وفد فيتنامي في الحوف وغرب ظفار. رافقه حسين موسى من مكتب عدن. شارك في المباحثات عامر علي عضو اللجنة المركزية واثنان من أعضاء القيادة المحلية هما طلال سعد وعلي الحاج.

... فهد يرتدى النظارة طول الوقت رغم أنها للقراءة فقط.

٢٠ سبتمبر

... العدالة الأمريكية: أفرجت السلطات الأمريكية عن الضابط كالي بطل مذبحة ماي لاي. كان قد حُكم عليه في سبتمبر ٦٩ بالسجن مدى الحياة. التحق بالعمل في شركة تأمين على الحياة!

٢٦ سبتمبر

... بدأ الهجوم من الشمال اليمني على جنوبه بدعم من السعودية.

١٢ أكتوبر

... اندحار الهجوم على اليمن الجنوبي.

١٧ أكتوبر

... توفي أمس السلطان سعيد في فندق دورشيستر بلندن حيث أقام منذ خلعه.

١٨ أكتوبر

... افتتاح سفارة للولايات المتحدة في مسقط.

٢١ أكتوبر

... استشهدت خيار مسعود في مرتفعات ناشب شرق الخط الأحمر في معركة قتل وجرح فيها ١٠ من أفراد العدو.

٢٨ أكتوبر

... دمرت الطائرات مستشفى الشهيد حبكوك، مرت خمسة شهور على إنشائه. تقرر تحويله إلى ثكنات متنقلة.

... التوقيع في القاهرة على مشروع الوحدة بين اليمنين. انتهت بذلك الحرب غير المعلنة التي دارت بينهما طوال ثلاثة أسابيع. عجيبة!

نوفمبر

... استقبل كاسترو في هافانا اثنين من قيادة الجبهة في رفقة عبد الفتاح إسماعيل. بيان مشترك من راديو هافانا يدعم نضالنا.

... هانوي تذيع نص اتفاقية مع الولايات المتحدة. الاتفاقية تدشن الانتصار على أعتى إمبريالية في التاريخ. تتعهد الولايات المتحدة باحترام استقلال وسيادة ووحدة وسلامة أراضي فيتنام وبالانسحاب من أراضيها.

... أعلن ياسر عرفات أن المقاومة فقدت ٧١ ألف رجل خلال ٩ سنوات، منهم ٣٠ ألف شهيد و١٧ ألفًا بسجون إسرائيل و١٣ ألفًا معظمهم من النساء والأطفال في معتقلاتها و٧ آلاف بسجون الأردن.

ديسمبر

... فقدنا السيطرة الكاملة على مناطق شرق جبل سمباري.

... السلطات البريطانية تعتقل في مسقط الرفيق مبارك حمد اللامرتد.

... حملة اعتقالات لتسعين شخصًا. استولت السلطات على كميات من الأسلحة. لا أنباء عن يعرب. بين المعتقلين عضوات جمعية المرأة العمانية الرسمية في مسقط: رحيمة القاسمي، ثبات فليفل، زعيمة الكندي بالإضافة إلى مريم وفاطمة الحشار وغيرهن.

... الملك حسين يعدم ستة فدائيين من أبناء الشعب الفلسطيني المحتجزين منذ مجازر سبتمبر الأسود.

... جولدا مايير تشيد بشجاعة الملك حسين وفروسيته.

... تعيين خليل عبد الدايم، رئيس الأركان الأردني السابق، سفيرًا في مسقط.

يناير ٧٣

... وزعت السلطة منشورًا تتصدره صور ثلاثة رفاق وفوق كل صورة رقم: الأولى ٥٠٠٠ ريال والثانية ٣٠٠٠ ريال والثالثة ٥٠٠٠ ريال. يقول المنشور إنهم مطلوبون لعلاقتهم بتنظيم خلايا غير شرعية واستيراد أسلحة صينية من جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية، وهي الأسلحة التي استولت عليها قوات السلطان المسلحة الباسلة في ٢٣ ديسمبر، تحت ذلك بخط عريض: الشيوعية = اضطهاد = وحشية = موت.

... تعرض الرقيق مبارك اللامرتد ورفاقه (حمد ماجد ومحمد طالب وغيرهما) لتعذيب وحشي على يد المخابرات الأردنية والبريطانية. طال التعذيب المعتقلات، جرى التشهير بهن ومحاولة تجنيدهن في صفوف المخابرات.

... إنهم يتحدثون في مصر عن المتغيرات الدولية ليبرروا التنصل من التزاماتهم. أليس انتصار فيتنام من هذه المتغيرات؟ لكنهم حريصون على التقليل من شأنه.

... جولدا مايير تتحدث عن حدود جديدة، وأنها لا يمكن أن تنسحب من القدس وشرم الشيخ.

٢٧ يناير

... توقيع الاتفاق على وقف إطلاق النار في فيتنام.

... أقامت الحكومية شبكة تليفونية في صلالة (٢٥٠ خطًّا).

... أعلن الماجور راي بار كرسكوفيلد رئيس الجندرمة الظفارية في حديث تليفزيوني: عُمان هي آخر مكان في العالم ما زال الإنجليزي يلقب فيه بالصاحب (السيد).

٢ فبراير

... المناطق المحررة تتعرض للقصف. السكان يهربون منها. بعضهم اضطر إلى الحياة في كهوف بعيدة عن خطوط النيران. كل من قابلته فقد حيواناته في القتال الأخير. الكثيرون فقدوا أقاربهم. انتقل عدد متزايد من اللاجئين إلى الجانب اليمني من الحدود. بالإضافة إلى ذلك أدى الحصار الاقتصادي إلى سوء تغذية بالغ نتيجة لقطع الواردات من الشاطئ والحرق المنتظم للمحاصيل.

... صحيفة هاعولام هازية الإسرائيلية تقول: احتلال إيران للجزر العمانية أمَّن استمرار تدفق النفط الإيراني إلى إيلات.

١٥ فبراير

... وصلتنا من عدن النشرة المركزية للجبهة ٩ يونيو. على صفحتها الأولى صور المعتقلين في عمان: يحيى محمد الغساني، مرشد الشحي، أحمد حميدان، سيد محمد السليم.

... ذكر الرفاق العائدون من كوبا أن جيفارا ذهب إلى الكونغو في نوفمبر ٦٥ لتدريب الثوار وفشل في قيادتهم. اصطدم بمعتقداتهم العجيبة. كانوا يؤمنون بأن الطائرات البلجيكية لن تؤذيهم إذا ما سكبوا على أجسادهم سائلًا مشفوعًا من الأعشاب المنقوعة يسمونه الداوا ورسموا بعض العلامات القبلية بالفحم على وجوههم. تحدثوا أيضًا عن اتهام بعض الشيوعيين له بالتهور والاندفاع. وأنه رفض الاستماع إلى نصيحة الحزب الشيوعي البوليفي الذي كان يرى أن الظروف السياسية في بلاد غير ناضجة لحرب العصابات، اعتبر جيفارا الحزب متخاذلًا فاقد الثورية، ثم غير قادة الحزب موقفهم وأيدوا حركته متوقعين أن تكون تحت قيادتهم. لكنه أصر على الانفراد بالقيادة.

مارس

... كوَّنا لجنة للتحقيق في ضربة مطرح. اعتذرت عن عضويتها بسبب علاقتي بيعرب. تبين أن محمد بن طالب أحد القادة الرئيسيين للجبهة العمانية كان مراقبًا قبل أسابيع من حملة الاعتقالات. كان يقيم مع يعرب في منزل واحد.

٥ أبريل

... تسلم رتشارد هيلمز رئيس المخابرات الأمريكية مهام منصبه سفيرًا للولايات المتحدة في طهران.

... تأكدنا أن يعرب لم يعتقل. لكنه اختفى. هل هو مطارد؟

١٠ أبريل

... اغتالت مجموعة إسرائيلية ثلاثة من قادة المقاومة الفلسطينية في قلب بيروت. تحركت القوة الإسرائيلية بحُرية لمدة ساعتين ونصف ثم اختفت في السفارة الأمريكية.

... قال شاه إيران لمجلة نيوزويك إنه مسئول عن حماية وحراسة منطقة الخليج العربي التي يوجد بها ٦٠ بالمائة من احتياطي البترول العالمي، والجوهرية بالنسبة الأمن الغرب. اعتمد ٣ مليارات دولار لشراء الأسلحة.

... الاحتفال بذكرى إقامة المدرستين. جرى الاحتفال في مخيم المدرستين داخل حدود اليمن الديموقراطي، هناك الآن ألف طالب وطالبة (الربع إناث). ألقى الرفيق سعيد عسكري كلمة الجبهة القومية اليمنية. طالب الأخ سيد عضو مكتب فتح في عدن بوحدة الفصائل الفلسطينية. ألقت أمينة محسن كلمة اتحاد نساء اليمن. أكد سعيد دبلان ممثل الجبهة ترابط النضال والمصير بين ثورتي ١٤ أكتوبر و٩ يونيو. في المساء أغانٍ وأناشيد (يا نجمة أكتوبر الحمراء يا موقد الفاس والمنجل) وفيلمان عن الثورة في الخليج والثورة الفلسطينية. قدمت الطالبات أغنية باللغة الحميرية تميزت برقة وعذوبة ووقع حزين تتحدث عن محاولة العدو السيطرة على الممر الذي يصل المنطقة الغربية بالمناطق الداخلية: «بالدم سنروي كل التلال/ وكل خطوط المعارك/ سنجعله يشق طريقه في الوديان/ والقمم/ لننتزع الحياة من العملاء بالعنف». توافدت جماهير القرى المجاورة على الساحة الرملية الواسعة. أعلام الثورة واليمن الديموقراطي على بوابة الساحة والتلال المحيطة بها، مجموعات الحراسة في مواقعها، هتافات: بالروح بالدم الأبي، نفديك يا خليج العربي، القومية والشعبية ثورة مبادئ فكرية. الجميع حفاة الأقدام ما عداي.

أحضر رفيق من عدن مسجلة وضعنا فيها شريط «النانا»، وهي الأغنية الشعبية في ظفار التي تُغنى بالحميرية. يضم أيضًا مناظرة بين سالم العطار وأحمد جلال يقول فيها الأول ما معناه بالعربية: لا يوجد تهرب من الصراع القائم بيننا وبين الاستعمار. يتابع الثاني: لذلك تهب كل طبقات الشعب وفئاته الوطنية لتناضل ضد الاستعمار. وفي أغنية ثانية مناضل من جيش التحرير يقول لجندي من العدو: ماذا ترى كل صباح؟ ... نحن نتحداك أن ترفع رأسك من المتراس فجيش التحرير لك بالمرصاد.

وأنا أتصفح وجوه الطلبة والطالبات أفكر أنهم سيتأهلون للثانوية العامة قبل نهاية العام القادم، بعد ذلك سيلتحق بعضهم بمعسكرات الثورة أو يواصلون الدراسة في الخارج بمنح.

٢٥ أبريل

... وصول قائد حلف الأطلنطي إلى إيران.

... منشور حكومي بخط يد ركيك تتوسطه نجمة داخلها رسم بدائي لرجل يرفع يديه مستسلمًا وآخر ملقًى إلى جواره على الأرض والعنوان: إن حكومة جلالة السلطان تمنح مكافآت مقابل إحضار قادة الإرهاب الشيوعي أحياءً أو أمواتًا.

أول مايو

... احتفلنا بعيد العمال العالمي.

... الحكومة توزع منشورات تباع كاليانصيب. الواحد بريال سعيدي: ادفع ريالًا واربح خمسة آلاف هي قيمة الثائر. القائد العسكري قيمته ٤ آلاف ريال والمرشد السياسي ٢٥٠٠ ريال، قلت للرفاق إني سأطالب بالعودة إلى الجيش حيث ثمني أعلى.

٣ مايو

... مشاكل في التموين. القوافل القادمة من عدن تناقصت إلى ستة جمال في الأسبوع.

... هناك علامات استفهام عديدة بشأن سلوك يعرب قبل حملة الاعتقالات.

١٠ مايو

... انضم إلينا أحد رجال سلاح الطيران السلطاني اليمنيين، الرقيب محمد عامر (٢١ سنة). مهاجر من سقطرى إلى السعودية في ٦٨ وعمل في الدمام ماسحًا للأرض في مطعم أمريكي لموظفي أرامكو. في ١٩٧٠ أُجبر على الانضمام إلى الجيش السعودي وأُرسل مع ثمانين سقطريًّا إلى قاعدة الشارورة قرب الحدود اليمنية، في بداية ٧١ أرسلت المجموعة السقطرية إلى تمريت شمال ظفار. كانوا يحصلون على رواتب سعودية بينما يرتدون الملابس العسكرية العمانية. أراني جوازًا عمانيًّا رقم (٠٠٧٧٩٦) أُصدر له ليسافر في العطلات إلى دبي والبحرين. جلب معه مجموعة أوامر موقعة بحروف عربية ركيكة من ضابط إنجليزي يُدعى ماكنيل.

١٧ مايو

... يتكوَّن المستشفى المتنقل الجديد من عدة أكواخ. به أربعون مدنيًّا من الإقليم الغربي وبعض العسكريين، قلة الأدوية أدت إلى سياسة تقوم على علاج عدد قليل من المرضى علاجًا سليمًا بدلًا من محاولة توزيع الإمكانيات المحدودة على عدد كبير.

٢١ مايو

... نيوزويك تقول إن شاه إيران يبني في بلوخستان بواسطة مقاولين أمريكيين أكبر قاعدة عسكرية في المحيط الهندي. سيتم البناء خلال سنتين.

... صدامات بين الجيش اللبناني والمقاومة الفلسطينية.

٢٢ مايو

... الموند تنشر تصريحًا للناطق الرسمي باسمنا قال فيه: إذا استبعدنا الصحراء فنحن نحتل سدس السلطنة، مساحة السلطنة ثلاثة أضعاف مساحة الكويت والبحرين وقطر والإمارات، وعدد السكان عندنا يبلغ أربعة أضعاف سكان هذه البلاد مجتمعة، وعندما تسقط عمان في أيدينا لن يستطيع أحد في الخليج أن يقف في وجهنا.

يونيو

... شرع العدو في إقامة سلسلة مخافر من المخسيس حتى وادي قيم شمالًا تربطها الأسلاك الشائكة والألغام وأجهزة التنصت الإلكترونية. ستمكنهم من مواصلة مطاردتنا خلال موسم المطر، ولن نستطيع استخدام غطاء الضباب والمطر لإعادة تموين قواتنا.

... قررنا الرد بهجوم على صلالة بالصواريخ.

... نتيجة للهجوم أقام العدو مخافر جديدة في عدامى وحتال وعتبات الشيخ. أصبح من العسير علينا مهاجمة صلالة.

٢٨ يونيو

... أسقطت الطائرات الإنجليزية منشورًا بعنوان تحذير أسفله رسم بدائي لتلال بين وادي تحيز إلى اليمين ووادي تمرين إلى اليسار. ومنطقة محددة بمدفع هاون تعلو رسمًا بدائيًّا لمجموعة بيوت بين سهمين كُتب فوقها صلالة. أسفل ذلك الكلمات التالية: «تشير الأسهم في الصورة العليا إلى الطرق الآمنة التي يمكن للمواطنين ومواشيهم أن يسلكوها إذا أرادوا الوصول إلى صلالة. وعلى المواطنين عدم الاقتراب من النقطة الممنوعة الواقعة بين السهمين؛ لأنه يوجد بهذه المنطقة مواقع لمدفعية الهاون المستعدة لإطلاق النار دائمًا ليلًا ونهارًا. تذكر هذا التحذير دائمًا. من أجل سلامتك وسلامة أغنامك وإبلك وأبقارك».

... تصريحات غريبة لوزير الخارجية الصيني في طهران. أعلن تخليه عن مساندة جميع الحركات التخريبية التي تحاول تعكير السلام في الخليج!

... كونسرتيوم دولي للنفط تقوده سن أويل وإلف كويتيان يحصل على امتياز تنقيب في مضيق هرمز.

يوليو

... القذافي يقول إن الثورة الليبية تمثل اليسار العالمي الجدي الذي يقف ضد الرأسمالية وضد الشيوعيين الرجعيين الذين يتمسكون بقوالب جامدة من القرنين ١٨ و١٩.

١٧ يوليو

... الرئيس العراقي البكر يوقع مع عزيز محمد سكرتير الحزب الشيوعي العراقي ميثاق العمل الوطني وقواعد العمل في الجبهة الوطنية والتقدمية. إلى متى؟

... ظهر يعرب في بيروت. سنحاول الحصول على شهادته بالنسبة لاعتقالات مطرح.

١٨ يوليو

... تأكدنا من مصرع الشهيد مبارك حمد اللامرتد (٢٥ سنة) من جراء التعذيب الوحشي. رفضت السلطات تسليم جثته لأهله. دفنته مع رفاقه في مكان سري ومنعت أهله من استقبال المعزين.

٥ أغسطس

... على عكس السنة الماضية تمكن العدو من الحفاظ على المراكز التي أقامها على طول حدود الإقليم الغربي عدا طاوي عطار، تمكنوا أيضًا من الاستيلاء على كثير من الأسلحة والمستودعات التموينية. ارتفع معدل الاستسلام. بدأت أشعر بالقلق.

... ناقشنا في اجتماع للجنة المركزية سلبيات التشكيل العسكري الحالي، حيث تقسم الكتيبة إلى سرايا وتوضع كل سرية في منطقة ثم يوزع أعضاء القيادة على السرايا. تقرر اعتماد تشكيل جديد يضمن تركيز القوات تحت سيطرة قيادة واحدة مباشرة. عارض فهد عندما شعر أنه لن يكون القائد الأعلى في التشكيل الجديد.

٢٩ أغسطس

... أدان المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الصيني طغمة لين بياو المعادية للحزب. وصفه بالطماع البرجوازي والمتآمر والمنافق المعادي للثورة والمرتد والخائن للحزب إلى الأبد.

طرد أيضًا السكرتير الخاص لماو الذي وصف بالكومنتانجي المعادي للحزب الشيوعي والتروتسكي والخائن وعميل العدو والمحرِّف.

١١ سبتمبر

... انقلاب عسكري دموي في شيلي ومصرع الليندي.

٦ أكتوبر

... انهارت أسطورة السوبرمان الإسرائيلي. الساعة الثانية عبر المصريون خط بارليف. صواريخ سام أسقطت فانتوم. في البداية رفضنا أن نصدق ثم توقعنا أن يفشل الهجوم المصري كالعادة. بعد ساعات تأكدنا أن الأمر جد. اللهجة الرصينة للمذيعين المصريين تختلف عن هستيريا ٦٧ وتوحي بالثقة.

٧ أكتوبر

... خسرت إسرائيل ٣٠ طائرة و٢٢ دبابة.

٨ أكتوبر

... تحرير القنطرة. خسائر إسرائيل في ٣ أيام ٨١ طائرة و١٢٨ دبابة، ١٢٣ أسيرًا، استولى المصريون على الضفة الشرقية كاملة. راديو إسرائيل يقول إنها تخوض حربًا دفاعية، القوات السورية تتقدم داخل الجولان.

٩ أكتوبر

... تدمير لواء إسرائيلي مدرع في سيناء. استسلام قائده وتدمير ١٢٠ دبابة.

١١ أكتوبر

... أمريكا تبدأ في شحن طائراتها بالصواريخ والقنابل لإرسالها إلى إسرائيل. أعلن رئيس إسرائيل أنها حصلت على ٤٨ فانتوم جديدة.

١٢ أكتوبر

١٥٠ طيارًا أمريكيًّا من طياري الفانتوم مروا بمطار مدريد في طريقهم إلى إسرائيل.

١٤ أكتوبر

... القوات المصرية تشن هجومًا شاملًا على طول الجبهة وتشتبك في معارك مدرعات ضخمة تستمر ١٢ ساعة تدمر خلالها ١٥٠ دبابة. دايان يقول: إننا نقاتل بقلوب كسيرة ولا نعرف إلى متى يستمر هذا. سفير إسرائيل في لندن يدعو إلى وقف إطلاق النار.

١٧ أكتوبر

... وزراء البترول العرب يقررون خفض الإنتاج فورًا بحد أدني ٥ بالمائة تزيد بنفس النسبة كل شهر إلى أن يتم الجلاء عن الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ٦٧.

١٩ أكتوبر

... قوات إسرائيلية تتسلل ليلًا عبر البحيرات المرة.

٢٢ أكتوبر

... السادات يصدر قرارًا بوقف إطلاق النار استجابة لقرار مجلس الأمن.

... سأرأس وفدًا إلى موسكو لحضور الاحتفال السنوي بذكرى الثورة البلشفية في ٧ نوفمبر، قال الرفيق أمين اللجنة التنفيذية: نريد أن نريهم أننا مثلهم نقدر المرأة. داعبني الأمل أن نتوقف في بيروت خلال الطريق كي أري يعرب وعماد.

٧ نوفمبر

... ما زلنا في ظفار. تأخرت إجراءات سفرنا.

... بدأ بث إذاعة الجبهة من المكلا بين السادسة والثامنة مساءً بتوقيت عدن. تبث على موجة طولها ٢٥,٤٩ مترًا أي بذبذبة قدرها ١١٧٧٠ كيلوسايكل/ثانية.

١١ نوفمبر

... ركبنا طائرة اليوشن من مطار عدن. أحمل جواز سفر يمنيًّا. أنا واثنان من أعضاء اللجنة التنفيذية. عاملاني برقة واهتمام ثم نسياني تمامًا عندما ظهرت المضيفات الروسيات الشقراوات، تسلحت بملابس ثقيلة (معطف صوفي بيافة وكاب من الفرو الصناعي وكوفية طويلة) أخذتها من زوجة أحد الدبلوماسيين. توقفنا ساعتين في القاهرة. لم نخرج من الطائرة استقبلنا الرفاق السوفييت في المطار وأخذونا إلى فندق روسيا قرب الميدان الأحمر، معنا مرافق شاب وسيم اسمه بوريس يتكلم اللغة العربية بلهجة سورية.

١٢ نوفمبر

... الدنيا برد. لكني لم أرَ ثلجًا كما توقعت. المباني الحديثة في كالينين بروسبكت. الطوابق الـ ٣٢ لجامعة موسكو فوق تلال لينين، منتزه جوركي. قال لنا عمدة العاصمة أمام خريطة كهربائية إن هناك خطة لتطوير موسكو لتكون عام ٢٠٠٠ نموذجًا للمدينة الحديثة. يجري بناء نصف مليون شقة جديدة سيسكنها مليونان من أهالي المدينة. يسكنها حاليًّا ثمانية ملايين. خطة أخرى تتكلف حوالي ٣٠٠ مليون دولار لمباني مرتبطة بدورة ١٩٨٠ الأولمبية. مترو الأنفاق الهائل. كل محطة تحفة فنية رائعة. يربط أنحاء العاصمة بخطوط طولها مائة ميل. ستتضاعف بحلول عام ألفين. زرنا ضاحية جديدة جنوب المدينة بها بنايات سكنية ترتفع ١٢ طابقًا مجتمعات متكاملة من مدارس وأسواق وساحات رياضية وفندق. سينتقلون خلال سنوات إلى بناء عمارات من ١٦ طابقًا. في المساء دخلنا البولشوي أعظم مسرح في العالم. شاهدنا باليه بحيرة البجع لتشايكوفسكي. روعة الاحتفاء بالفن والثقافة، بوريس شاب ظريف، يقيم معنا في نفس الفندق.

١٣ نوفمبر

... الأطفال هم ملوك الاتحاد السوفييتي. كل شيء متوفر لهم. الرعاية الصحية المجانية والكتب واللعب. يلتحقون بأكثر من ألفي دار للحضانة في موسكو وحدها، ثم ألف مدرسة ابتدائية وثانوية، بينها عشرات من المدارس المتخصصة. قال لنا رئيس الإدارة التعليمية إن المناهج تغيرت ويجري إدخال الرياضيات الحديثة والفيزيا الجديدة. لكن مناهج الماركسية اللينينية لم تتغير. تستمر عشر سنوات من الدراسة، يذهب الطلبة الموهوبون

إلى مدارس خاصة في الموسيقى والعلوم والرياضة البدنية وغيرها. في المدرسة المتخصصة للتربية الرياضية رقم ١ (من ١٧٢ مدرسة رياضية) شاهدت كيف يتم إعداد الأبطال العالميين. فتيات سن ١٢ و١٣ سنة. قالت لي مديرة المدرسة عندما رأت انبهاري: الجمباز نصفه رياضة ونصفه فن، لا بد أن يكون هناك إحساس بالجمال، ولهذا نعمل دائمًا بمصاحبة بيانو ... صورة لينين في كل مكان. في المكاتب والمدارس والمنتزهات ومحطات المترو. يبدو أحيانًا مثل عم عطوف وأحيانًا أخرى كأب صارم. ضريحه من الجرانيت الأحمر في الميدان الأحمر قرب سور الكرملين. طابور طويل من الزوار تقدمنا في بطء مرورًا بنصب الجندي المجهول، شرطي بميكروفون يحافظ على نظام الطابور. تركنا الكاميرات وحقائبنا في غرفة مخصوصة بالمدخل. مسحنا أقدامنا في قاعدة خشبية. خلع الروس الذين يتقدموننا قبعاتهم وأغطية رءوسهم. دخلنا الضريح ثم تحركنا بسرعة. دورة إلى اليمين ثم إلى اليسار. عدة درجات إلى أعلى ثم أسفل ثم وجدنا أنفسنا في الخارج نحاول أن نتذكر الجسد المسجى في تابوته الزجاجي، بعد الظهر متحف بوشكين للفنون الجميلة. في المساء مسرحية كوميدية لم أفهم منها شيئًا. عند العودة ليلًا رأينا زحامًا في الشارع. طابور طويل أمام مكتبة! سينتظرون حتى تفتح أبوابها في الصباح ليشتروا طبعة جديدة من كتاب قديم. هناك ٣٥٦٠ مجلة و٣٠ صحيفة تنشر في موسكو.

١٤ نوفمبر

... قضينا الصباح في متحف الثورة في شارع جوركي. زرنا مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي. استقبلنا مسئول عجوز حدثنا طويلًا عن التاريخ. قال: جيلي يعرف ما هو الجوع. كانت هناك الحرب وبعدها كانت الظروف صعبة جدًّا. حتى سنة ٥٨ كنت أعيش في غرفة واحدة مع زوجتي وابني وأمها وأشارك ٣٠ شخصًا في المطبخ والتواليت والحمام. كان الجميع هكذا. الآن الوضع مختلف. ربما تكون المنازل غير متقنة البناء لكن غالبية الناس الآن لديها شقة لكل عائلة. والكثيرون يملكون سيارات أيضًا. كما أننا نساعد بلدانًا كثيرة. مشكلتنا الآن هي إنتاجية العمل فنحن متخلفون عن الولايات المتحدة في هذا المجال وفي نوعية السلع المنتجة أيضًا. بعد المحاضرة الطويلة بدا عليه التعب. تركنا لزميل له أصغر سنًّا. شرحت الوضع السياسي والعسكري في عمان والخليج. درست استراتيجيتنا في مناوشة العدو وملاحقته بهدف استنزافه وإرهاقه. قلت: سيجدون أنهم يبددون موارد طائلة للاحتفاظ بأراضٍ لا تعطيهم ميزة عسكرية فينسحبون. سألني

مبتسمًا: هل تظنين أنكم ستطردونهم تمامًا؟ أجبت إن الفيتناميين يفعلون ذلك الآن. قال: هذا وضع مختلف، وجدت فرصتي أخيرًا فقلت: طبعًا. فهم يحصلون منكم على أحدث الأسلحة وخصوصًا صواريخ سام المحمولة، هذا هو السلاح الوحيد الذي يُمَكِّن الفدائيين من مقاومة الطائرات والهليكوبتر. كما أننا في حاجة إلى شبكة اتصالات حديثة.

١٥ نوفمبر

... سلسلة لقاءات مع ممثلي اتحاد النقابات، اتحاد النساء، قدامى المحاربين، مجلس السلام، منظمة التضامن الآسيوي الأفريقي، محرري الشئون العربية في جريدتي أزفستيا وبرافدا، موسكو نيوز، وكالة نوفوستي للأنباء، القسم العربي في الإذاعة. عندما غادرنا الفندق في الصباح رأيت مشهدًا غريبًا، شرطي ينقضُّ على شاب طويل الشعر ويقيد يديه خلف ظهره في وحشية. استفسرت من بوريس عن الأمر فأشاح بيده قائلًا إنه من «الهوليجان». عرفت من رفيق يمني يدرس في جامعة لومومبا أن هذا التعبير يطلق على المتشردين والأفاقين والشبان المتأثرين بالموسيقى والزي الغربيين والمعارضين السياسيين.

١٦ نوفمبر

... صحبني بوريس إلى المستشفى الخاص باللجنة المركزية في الضواحي. فخم مزود بأحدث الأجهزة وحديقة هائلة. مناضلون عديدون من أماكن مختلفة في العالم يعالجون من مختلف العلل. صادقت شيوعيًّا عجوزًا من فنزويلا مهددًا بالعمى. ارتبك عندما حدثته عما سمعت من خلاف بين الشيوعيين وجيفارا، تهرب من التعليق. فحصني طاقم كامل من الأطباء. أجروا عديدًا من التحليلات والأشعات. تدخل بوريس لنحصل على النتائج بعد ساعات قليلة. أكدت لي طبيبة عجوز ذات ملامح صارمة أن صحتي جيدة وأن الاضطرابات والآلام التي أشكو منها تعود إلى أسلوب حياتي. نصحتني بالزواج والإنجاب. قالت إن العمل الثوري لا يتنافى مع تكوين أسرة. أضافت في حزن، ربما يعوض ذلك إحباطات الحياة، لعلها فقدت عزيزًا في الحرب أو معسكرات الاعتقال الستالينينية. في المساء تعشينا في مطعم أوزبكستاني. جاريت بوريس في الشراب. أردت أن أثبت له أنني متحررة. عندما عدنا إلى الفندق دعاني إلى غرفته. ابتسمت المناوبة العجوز التي تحتل مقعدًا في نهاية الطرقة في عطف وتواطؤ. حصل منها على زجاجة فودكا وحبتين من

الطماطم والخيار، قطع الخيار بالطول وقسم الطماطم إلى أربعة أجزاء، ثم رش عليها الملح. اكتفيت بكأس واحدة بينما كان يجرع من الزجاجة. احتقن وجهه وأخذ يتلعثم. روى لي نكتة عن لينين وكيف أنه استيقظ في قبره وخرج منه وعندما رأى ما حوله عاد إليه ثانية قائلًا: ليس هذا ما كنت أعنيه. لم أرفع عيني عن شفتيه الحسنتين، قال إنه معجب بي ويريد أن يقبلني. لم أمانع. تمنيت فعلًا أن يحتضنني. مال ناحيتي فوقع على الأرض. كان ثملًا تمامًا، تركته ممددًا على السجاد محتضنًا الزجاجة الفارغة. سأزور غدًا الطلبة اليمنيين والعمانيين في جامعة لومومبا.

٢٣ نوفمبر

... بمجرد وصولي إلى المعسكر في ظفار شعرت كأني عدت إلى بيتي. الغريب أني هنا في أقصى الدنيا أكثر اتصالًا بالعالم الخارجي عن طريق الراديو مما كنت في موسكو.

أول ديسمبر

... تعيين قيس الزواوي صاحب توكيل مرسسيدس وزير دولة للشئون الخارجية. مسقطي من أصل سعودي تعلم في الهند.

... حصلت الحكومة على نصيب ٢٥ بالمائة في ب د أو. الحرب تستهلك جانبًا كبيرًا من ميزانية عُمان: ٣٠ مليون ريال (حوالي ثمانين مليون دولار) في العام الماضي.

... طوال الأسابيع الماضية عمليات ناجحة في كافة المناطق استهدفت قواعد العدو في صرفيت والممر، نجحنا في تدمير ممر وعدة أبراج مراقبة في قاعدة صلالة الجوية. قاد العملية الأخيرة مناضل صلب يُدعى دهميش.

١٣ ديسمبر

... احتفلنا في المنطقة الوسطى بعودة عدد من الإخوة إلى صفوف الثورة: دامس سالم جعبوب، أحمد سهيل سالم، أحمد سهيل شرح، سالم أحمد مجحيد، مسلم أحمد يطيشوت، سالم أحمد مكيعاف البرعمي. كانوا في الفرق الوطنية. فروا من مركز العدو في المعمورة وبحوزتهم لاندروفر وأربع آليات وسبع بنادق أيفن.

... حددت السلطة سبعة آلاف ريال ثمنًا لرأسي!

٢١ ديسمبر

... كيسنجر يلوح بعلامة النصر عند وصوله إلى مكان انعقاد مؤتمر الشرق الأوسط في جنيف.

... العدو يعمل بنشاط في بناء خط هورنبيم غرب صلالة. يمتد شمالًا بطول ٨٥ كيلومترًا في محاذاة الخط الأحمر. عبارة عن أسلاك شائكة مكهربة وملغومة ودوريات ليلية.

٣٠ ديسمبر

... يتتابع وصول القوات الإيرانية. وضعت في جزيرة حلانيا الخالية من السكان. حظر على أفرادها الظهور في شوارع صلالة ومسقط. قُدرت الدفعات الأولى بثلاثة آلاف ضابط وجندي. عهد إليها بإعادة فتح الخط الأحمر، الطريق الاستراتيجي (٧٢ كيلومترًا) الذي يربط صلالة بتمريت ويصلها بمسقط.

... أعلنا حالة طوارئ قصوى.

... نجح خط هورنبيم في وقف هجماتنا على صلالة والمناطق المحيطة بها، وفي وقف مرور الأسلحة الثقيلة والذخيرة إلى المناطق الشرقية.

... بدأنا تحقيقًا حول اتهامات تبادلها رفيقان بشأن التبرعات التي تأتينا من لجان المناصرة في الخارج. تقرر أن نعقد مؤتمرًا داخليًّا في بداية العام الجديد.

يناير ٧٤

... صوت «الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي» من عدن بين الساعة ٧,٥٦ والساعة ٧,٤٥ كل يوم. ضمن البرنامج اليومي الموجه إلى منطقة عمان والخليج العربي الذي يبدأ الساعة السادسة وينتهي في الثامنة.

... العدد الجديد من ٩ يونيو التي تصدر الآن كل شهرين به قوائم تبرعات لجان المناصرة في أوروبا وأمريكا وقصيدة لبريشت:

أيها الجنرال، إن دبابتك قوية،
تسحق الغابة وتقتل مائة إنسان.
لكن بها خطأ،

إنها تحتاج إلى سائق.
أيها الجنرال، إن قاذفة قنابلك هائلة،
تسبق العاصفة وتحمل أكثر من فيل،
لكن بها خطأ،
إنها تحتاج لمن يصلحها.
أيها الجنرال، إن الإنسان عظيم الفائدة،
يستطيع أن يطير وأن يقتل،
لكن به خطأ.
أنه يستطيع أن يفكر.

فبراير

... نجحت القوات الإيرانية في فتح طريق تمريت. هاجموا في وقت واحد من صلالة في الجنوب وتمريت في الشمال.

... أنشأت السلطة محطة كهرباء جديدة قوتها ٨٤٩٧ كيلووات وفرت لأهالي جيبجات ومدينة الحق آبار وعيادات ومدارس وحوانيت.

... قال شواين لاي أمام المؤتمر العاشر للحزب الصيني في أغسطس الماضي إن لين بياو وزير الدفاع السابق استلهم أفكار كونفوشيوس كما فعل ليو شاوتشي رئيس الجمهورية السابق وسعى مثله إلى إعادة الرأسمالية، لكنه يختلف عنه في أنه كان يردد دائمًا أقوال ماو تسي تونج. قال أيضًا إن بياو منذ البداية كان متشائمًا من مستقبل الثورة ... قبل المؤتمر التاسع للحزب كتب بالاشتراك مع شن بوه دا سكرتير ماو تسي تونج تقريرًا سياسيًّا، عارضا فيه مواصلة الثورة في ظل دكتاتورية البروليتاريا وأكدا أن المهمة الرئيسية هي تنمية الإنتاج. وبذلك كان التقرير صورة طبق الأصل للسفسطة التحريفية التي درسها ليو شاوتشي في قرارات المؤتمر الثامن وزعمت أن التناقض الرئيسي في الصين ليس بين البروليتاريا والبرجوازية، وإنما بين النظام الاشتراكي المتقدم والقوى المنتجة المتخلفة. اتهمه بأنه هاجم إفراط النضال ضد التحريفية وهاجم اشتراك كوادر الحزب في العمل الجماعي المنتج باعتباره بطالة مقنعة، وافترى على ذهاب الشباب والمثقفين إلى المناطق الريفية باعتباره نوعًا من الأشغال الشاقة.

مارس

... زار السلطان إيران. وعند عودته أمر بإنشاء قاعدة جوية تضم ممرًّا طوله ٤٠٠٠ متر في تمريت تكون جاهزة في نهاية العام مهما كانت التكاليف التي بلغت أكثر من ٥٠ مليون ريال، أي ١٤٥ مليون دولار.

... تكفي دقيقة من وقت السلطان عقب اجتماعات مجلس الوزراء للترخيص بمشاريع هائلة. أعد عبد الحفيظ سالم رجب وزير المواصلات مشروعًا لتحلية المياه وتوليد الكهرباء بتكلفة ٥٧ مليون دولار. وفي الدقيقة الثمينة أشار الوزير إلى أن المشروع سيزود حديقة السلطان في السيب بمليون جالون مياه في اليوم، وأنه سيفتتح في العيد الوطني القادم الذي يوافق عيد ميلاد السلطان. حصل على الموافقة دون مراجعة أو دراسة. ارتفعت تكلفة المشروع على الفور إلى ٣٠٠ مليون دولار.

٢٧ مارس

... تستفزني سلاطة لسان المعلق الشعبي في إذاعة صلالة المدعو أبو نبيل.

أبريل

... السادات يقرر تنويع مصادر السلاح. عيب السلاح السوفييتي أنه غير مصحوب بعمولات!

مايو

... تم استبدال القوات الإيرانية بعد ثلاثة أشهر. الغرض هو تعميم الخبرة القتالية. لم يثيروا عداء الأهالي؛ لأنهم لا يحتكون بهم. تأتيهم احتياجاتهم من مياه الشرب والوجبات الثلاث من إيران بالطائرة يوميًّا.

يونيو

... قصفت الطائرات العراقية ١٤ بلدة و٢٠٤ قرى في المناطق الكردية، الضحايا ألف وخمسمائة قتيل. تم اعتقال مجموعة من العسكريين الشيوعيين. لم تمضِ غير شهور قليلة على اتفاقية الجبهة والحكم الذاتي.

٧ يونيو

... نستعد لعقد المؤتمر الرابع.

... استشهد الرفيق البطل أحمد مسلم قيعي (٢٦ سنة) في مرتفعات ذقرضيت بالمر أثناء معركة استمرت ساعة ونصف ساعة. خسر العدو ٩ من جنوده بين قتيل وجريح، كان الشهيد عائدًا لتوه من دورة تدريب في الاتحاد السوفييتي على صواريخ سام، ولد في ظفار لأب من الرعاة. سافر في ٦٤ بحثًا عن عمل واستقر في الكويت لمدة ست سنوات وانضم إلى الجبهة الشعبية. عاد سنة ٧٠ والتحق على الفور بقوات الثورة.

١٣ يوليو

... انقلاب عسكري في اليمن الشمالي. المقدم إبراهيم الحمدي يستولي على السلطة. حركة برجوازية عسكرية ضد تحكم الإقطاع والقبلية وضد عقلية القرون الوسطى التي لم تتغير بعد قيام الجمهورية. كانت للحمدي في الماضي علاقة بتنظيم «القوميون العرب».

... أخذَنا الحنين وطغت علينا الذكريات والكآبة. نفذنا من الهضاب والقمم والوديان. انتهينا من الغابات، انبسط أمامنا الأفق الواسع الرحب، استنشقنا نسيم الشمال النقي. توزعت مجموعتنا على ديار المواطنين لتأخذ قسطًا من الراحة قبل الاجتماع. جاء نصيبنا أنا ودهميش وعوض في كوخ عجوز وحيد. أشعلنا النار لنتدفأ ونجفف ملابسنا. قدَّم لنا العجوز لبنًا محلوبًا في قربة، ثم ناولني قدرًا معدنية قائلًا: اغليه. عندك النار. سكبت الحليب في القدر ووضعته على النار. هل قال ذلك على اقتناع بأهمية الغلي أم مجاملة لنا؟ في كلتا الحالتين نكون قد حققنا شيئًا. قال إنه قادم لتوه من المدينة. سألناه عن أخبارها. قال إنه عجوز ولا توجد عنده أي أخبار. سأله عوض عما إذا كان لديه تبغ. أشار إلى ركن قائلًا إن به قليلًا من التمباك. تناول عوض العلبة وسحق قطعة من التمباك. ناوله العجوز غليونه الكبير المصنوع من الطين. عبأ الغليون ووضع فيه قطعة من الجمر. تبادلاه عدة مرات في صمت. دهميش لا يدخن. يتابع ما يجري في صمت. يتطلع نحوي كثيرًا. يتضرج وجهه مثل الصبية إذا التقت عيوننا. هناك شيء في عينيه يثير فيَّ الحرج. بعد قليل قال العجوز مشيرًا إلى أسلحتنا: هذا الكلاشن الذي في أيديكم يا أولادي أمسكوا به جيدًا واحذروا أن تنزلوا به إلى المدينة. إذا عجزتم عن حمله في الثورة اتركوه هنا في الريف. هذا السلاح لم يخلق للذين تحت. لقد رأيته مع أنذال كانوا معكم هنا من قبل. سألناه عما شاهد أيضًا في المدينة. قال: أنا عجوز ولا أدخل في السياسة. ليس لي أهل ولا

مال هنا ... على الرغم من أني لا أسمع فأنا أرى وأعرف كل شيء، ما يجري هنا وما يجري هناك ... أوصيكم لا تسلكوا مسلك الأنذال ... الشعب كله معكم ... اصمدوا. عندما هممنا بالانصراف ودعنا قائلًا: الله ينصركم.

... دهميش ظفاري صميم من مرباط. من بيت كثير، يصغرني بخمس سنوات. هرب إلى الكويت وعمره ١٨ سنة. اشتغل عاملًا في شركة النفط بالخافجي: كان هناك آلاف من العمانيين ولا حديث لهم إلا تردي الوضع في بلدهم. تكونت منهم مجموعة للدراسة والتثقف. كانوا يقرءون بِنَهَمٍ كل ما تقع عليه أيديهم من كتب ومجلات، ثم تعرفوا بالدكتور الخطيب وجماعته من القوميين العرب. كان يتردد عليهم أو يذهبون إليه في عيادته. قال لهم إن مهمة الظفاريين هي إشعال حريق العنف الثوري في جنوب الجزيرة وإنه وجماعته كفلاء بشمالها. بعد سلسلة من اللقاءات تم تجنيدهم للعمل المسلح. حمل رسائل الأشخاص في البحرين وقطر ودبي وبعدها جاء إلى ظفار وقام بتجنيد أخيه وعدد من أقاربه. أخوه كان يقاتل في المنطقة الشرقية ثم نزل إلى صلالة. سألته عن تفاصيل حياته في الكويت وعن تجاربه النسائية. ضحك هازًّا رأسه بالنفي. لا أعتقد أنه بريء إلى هذا الحد.

... انعقد الاجتماع الموسع للقيادات المحلية والمركزية في المعسكر المؤقت للكتيبة التاسعة. قال الرفيق رافع إن الثورة تملك ملكات عسكرية، تمرست من خلال الممارسة العملية، ولديها بعض المعلومات العامة حول الحرب التقليدية حصلت عليها من عملها السابق داخل الجيوش المرتزقة في الخليج. إلا أن فهم القوانين العامة للحرب التقليدية محدود. وغياب هذا الفهم يجعلنا غير قادرين على رسم خطة عسكرية صحيحة لمواجهة خطط العدو وتكتيكاته. والحل هو إرسال مجموعة من كوادرنا الأساسية المجربة للدراسة العسكرية الأكاديمية في الخارج. اعترض فهد بأننا أرسلنا فعلًا العديد من المجموعات إلى الاتحاد السوفييتي. قال رافع إن كل هذه المجموعات كانت تتدرب على الأسلحة. ما نريده هو كادر من الدارسين في الكلية العسكرية يتخرجون ضباطًا. أيد دهميش هذا الاقتراح بقوة.

يوليو

... أراد التليفزيون البريطاني أن يصور تلاميذ مدارس السلطات فطلب منهم أن يغنوا، وإذا بهم يرددون نشيد الجبهة: دقت ساعة التحرير!

... منحت الكويت خمسة ملايين دولار لليمن الديموقراطي. طرد قابوس القائم بالأعمال الكويتي.

... انتقد البرلمان الكويتي المساعدة العسكرية الإيرانية لقابوس. اعتبرها أحد المتحدثين تهديدًا للعالم العربي كله.

... عقدنا المؤتمر الرابع للجبهة في بلدة الحوطة اليمنية التي تبعد سبعين كيلومترًا شمال عدن، لم يتمكن عدد من أعضاء اللجنة المركزية من الحضور. اثنان منهم اختفيا تمامًا وفي الغالب انضما إلى السلطة. ثلاثة محتجزون في مسقط بين هارب ومعتقل. لم يحضر يعرب. لعله خشي إثارة أمر اعتقالات مطرح. استعرضنا تقريرًا عن عدد الفارِّين إلى الجانب الحكومي وآخر عن نقص الإمدادات وانقطاع الاتصالات. ثالث عن معاناة الجماهير بعد إغلاق قطاعات كبيرة من الحدود مع اليمن الديموقراطي نتيجة المعارك والقصف والألغام. عجزت جماعات بدوية كثيرة عن الوصول إلى مراعيها الطبيعية في الأراضي اليمنية. توقفت واردات السردين المجفف كعلف للماشية خلال فصل الجفاف مما أدى إلى نفوق أعداد كبيرة منها. اضطر الجباليون لأن يأكلوا حبوب البذار بعد تعذر الحصول على الحبوب من السهل الساحلي.

... ذكر التقرير العسكري أن قوات العدو متفوقة في الطيران والمدفعية وسرعة التحرك والإمدادات في كل المناطق وكل الظروف بما في ذلك فترة الأمطار. أما نحن فلم يتم تركيز القوات الذي تقرر منذ سنة إلا من الناحية الشكلية بسبب التنافس بين القادة العسكريين. أشار التقرير إلى ضعف التخطيط العسكري ونقص الأعتدة والذخيرة، ندد بالأسلوب القتالي فطابعه العام هو القصف المدفعي الذي لا يؤثر كثيرًا بسبب نوع المدافع ونقص الخبرة والذخائر. أقر الوثيقة التي وضعتها الكتيبة التاسعة. دعا إلى تركيز القوة في ثلاث كتائب تكون غالبيتها في خط عسكري رئيسي يمتد من المنطقة الغربية إلى غرب الممر مع بقاء مجموعات صغيرة متنقلة تشن حرب عصابات على المراكز الحكومية. الهدف هو الاحتفاظ بالمنطقة الغربية ومركزها الرئيسي رخيوت كقاعدة ثابتة للثورة محرمة على العدو.

... ثارت مناقشات طويلة حول الاستراتيجية السياسية السليمة. أكد رافع استحالة تحقيق انتصار عسكري. دعا إلى التركيز على العمل السياسي وتجنب الاصطدام المباشر بقوات السلطان. عارضه فهد بشدة بتأييد من الظفاريين وأحمد سعيد سليمان الأمين العام السابق. يخشون أن يؤدي ذلك إلى التخلي عن المقاتلين المعزولين في الجبال، تبادل

الطرفان الاتهامات. صدرت تلميحات من تصرفات مالية غير سليمة، تصاعد الخلاف عندما ذكر الأمين العام أن القذافي وافق على فتح مكتب تمثيلي لنا في ليبيا بعد أن تم إقناعه بأن الجبهة ليست ماركسية في الأساس، أبدى استعداده لتقديم المساعدات المالية. قال الأمين العام إننا في أشد الحاجة إلى هذه المساعدات بالنظر إلى الصعوبات الاقتصادية التي تعانيها عدن والضغوط التي تتعرض لها. (اشترطت أبوظبي لمساعدتها أن تقلل من مساندتها لنا)، اقترح إسقاط عبارة «تحرير الخليج العربي» من اسم الجبهة وبرنامجها. فاز الاقتراح بأغلبية ضئيلة. كنت بين المؤيدين. لم يشترك دهميش في المناقشات وتابعها باهتمام. انتظر حتى رفعت يدي مؤيدة ففعل مثلي. أظن أنه يؤيدني أنا.

... استفسرت من الرفيق عوض عن رجال فرقته. لم يغادرها سوى عدد قليل. فقدت ستة مقاتلين في معارك مختلفة. قال إنه قلق بشأن عبد الله وسويد. الأول شديد الانطواء لا يتحدث عمليًّا مع أحد غير سويد. الاثنان متلازمان طول الوقت حتى أثناء النوم. ألمح إلى وجود ما أسماه علاقة غير طبيعية بينهما. قال إن انهيار المقاتل يبدأ عادة بالانطواء والاكتئاب. استعدت ملامح عبد الله الوادعة المستكينة وذكورة سويد الطاغية. هل هو انهيار فعلًا؛ ذعر من الموت والهزيمة يدفع كلًّا منهما إلى أحضان الآخر؟ يتلوه فرار أو استسلام؟ أم تحقيق طبيعي لمشاعر طبيعية تبحث عن متنفس لها؟ يتمخض عن قدرة أكثر على المقاومة والاستمرار؟ هل يفقد الإنسان ثوريته عندما يستجيب لأسمى وأروع غريزة لديه؟ قارنت بين شراسة فهد الذي لم تُعرف عنه أية علاقة بامرأة أو رجل وبين وداعة رافع الذي ترافقه زنزبارية سوداء منذ إصابة أمينة، من منهما أكثر ثورية؟ من منهما أكثر فائدة للثورة؟

... أقمنا حفلة سمر في ختام المؤتمر. اقترح عوض رقصة ظفارية تسمى الربوبة. كونا مجموعتين متقابلتين. صفق الباقون ودقوا على الأواني. تحرك الصفان الواحد تجاه الآخر. مرَّ كل واحد من صف بين اثنين في الصف المقابل. استدرنا وكررنا الحركة، ارتفع صوت عوض بشعر جمعان:

بعدت يا صولي ... قرب حمران بشوية
تعبت ما معي قدرة ... م السير والجية
مسا قلبي نتحول ... إلى الديرة الشرقية
لعمامي وصهوري ... كل واحد جنبيه

بدلًا من الفرح ساد الوجوم. لم يكن الشعر مناسبًا، واضح أن المعنويات منخفضة.

أغسطس

... اتفق نميري مع قابوس على تزويده بخبراء سودانيين في مكافحة الشيوعية!

... حصل لورد بزويك رئيس ايروسبيس البريطانية خلال زيارته لمسقط على عقد توريد بطاريات رابير لصواريخ الدفاع الجوي و١٢ طائرة جاجوار من أحدث طراز، بالإضافة إلى شبكة اتصال وإنذار مبكر.

سبتمبر

... انقلاب عسكري في إثيوبيا بعد حركة جماهيرية واسعة. عزل الإمبراطور هيلا سلاسي بعد حكم دام ٤٤ سنة.

أول أكتوبر

... تقرر إعادة فتح الجبهة الشمالية، ما زال يعرب في عدن.

... أعلن الرئيس سالم ربيع علي في العيد السابع للاستقلال أن اليمن الديموقراطي يسعى لإقامة علاقات دبلوماسية مع الإمارات وقطر والبحرين. قال في خطابه: «ما هي إمكانياتنا المادية؟ ماذا خلف لنا الاستعمار من منشآت اقتصادية أو زراعية أو صناعية حتي نوفر منها المبالغ من أجل التنمية الاقتصادية؟»

٢٩ أكتوبر

... ضربة جديدة لنا في الشمال. اعترضت الشرطة سيارة لاندروفر عند حاجز قرب بلدة الحزم. جرى تبادل لإطلاق النار أسفر عن مصرع أحمد علي زاهر المياحي عضو اللجنة التنفيذية. أصيب الرفيقان سعيد المرزوقي عضو القيادة المركزية وسرحان بجراح عميقة وتمكنا رغم ذلك من الهرب. عثرت عليهما السلطات في اليوم التالي في حالة إغماء. تبين أن السيارة تحتوي على أسلحة وكمية ضخمة من النقود، بينت التحقيقات أن الجبهة نجحت في التغلغل داخل الجهاز الحكومي للسلطنة.

... جرحت الرفيقة نبيلة سعيد (٢٠ سنة) في فخذها في عملية قرب الحدود اليمنية، نقلت هي وزوجها إلى الميليشيا.

نوفمبر

... السلطان يعلن في احتفالات العيد الوطني إدخال التليفزيون الملون.
... أعادت الحكومة احتلال الجبل. أنشأت فرقة «أبو بكر الصديق» في كفتاويت.
... المجلس العسكري الحاكم في إثيوبيا يعلن تبني الاشتراكية.
... ثوار فيتنام يقتربون من سايجون.

ديسمبر

... نجحت الحكومة في إقامة مواقع فرق في زيك، أيوم، بورج، كشعات، أشينهيد.
... بدأت العمليات الإيرانية الرئيسية في المنطقة الغربية. ركزنا قواتنا في رخيوت. تكونت لجنة قيادية للبلدة من فهد، عوض، أنا. انهمك الاثنان على الفور في توزيع مدافع الهاون في الأماكن الاستراتيجية. أتولى العمل السياسي والدعائي.
... بلغ عدد المنضمين للحكومة أكثر من ٧٠٠ مقاتل.
... كنت وسط درس سياسي للسكان في مسجد البلدة عندما سمعت دهميش يناديني بانفعال. وأسرعت إليه، قال وهو يسبقني جريًا إلى مقر القيادة: أسرعي. فهد يريد إعدام ثلاثة رفاق. شبان صغار. صحت: أين عوض؟ قال وهو يسبقني: في الجبل. جريت إلى المقر، وجدت فهد واقفًا أمام ثلاثة مراهقين رُبطت أيديهم خلف ظهورهم بالحبال. كان يوجه إليهم السباب ويبصق على وجوههم. شعرت أنه في أقصى حالات التوتر والانفعال، عيناه محتقنتان، سيطرت على مشاعري، سألت وأنا ألهث من أثر الجري: حصل إيه؟ نظر إليَّ لحظة مستهجنًا تدخلي ثم قال: هؤلاء الكلاب يريدون الهرب. سأجعلهم عظة لكل الخونة والمنهارين. نظرت إليهم، يرتعدون من الذعر. لا يزيد عمر الواحد منهم عن ١٦ سنة. واحد منهم لم ينبت له شارب بعد. لا بد أني التقيت بهم من قبل في مدارس الثورة. ربما أكون قد تحدثت معهم. قلت إن هناك قرارًا سابقًا من اللجنة المركزية بعدم إصدار حكم بالإعدام إلا بعد عرض الأمر عليها. قال: نحن في ظروف استثنائية. البلد مهددة بالسقوط وأنت تقولين لجنة مركزية؟ هؤلاء الكلاب سيبيعوننا للعدو بحفنة سردين عفن. قلت: القرار واضح. رأيت من ملامح وجهه أنه متشبث بموقفه. قلت: على الأقل ننتظر عوض ونناقش الأمر. قال: لا أعرف أين هو، وليس لديَّ وقت. قلت: نحن مناضلون ولسنا جزارين. هؤلاء كل جريمتهم أنهم استسلموا للخوف. قال: أنا أتحمل المسئولية. قلت: ليس في أمر يمس الحياة. قال: لن يجرؤ أحد على منعي. قلت: أنا سأمنعك. دهشت أنا نفسي

من لهجتي ومن الحركة التي قمت بها. وضعت يدي على الكلاشينكوف وأنزلته من فوق كتفي. تطلع إليَّ غير مصدق، ثم نظر إلى سلاحه الملقى على الأرض. سمعنا صوتًا فالتفتنا إلى الباب. كان دهميش قد أعد سلاحه للإطلاق. نقل فهد بصره بيننا ثم تناول سلاحه وغادر المكان. التقطت أنفاسي. كنت أرتعش. أمرت دهميش أن يفك وثاق الشبان. كانوا مذهولين. خاطبتهم بصوت هادئ: الثورة ليست نزهة. هناك لحظات يبرز فيها معدن الرجال، نحن نمر الآن بفترة عسيرة. لكن النصر محتوم. إذا أردتم تركنا لن أعترض. فقط تعدونني بألا تنضموا إلى العدو ولا تتصلوا به أو تزودوه بأي معلومات. قال أكبرهم سنًّا فيما يبدو: لن نتخلى يا رفيقة، أنا أنقد نفسي على ضعفي. انضم إليه زميلاه في أجمل نقد ذاتي سمعته في حياتي. صافحتهم في قوة. أمرتهم بأن يلتحقوا بوحدتهم في الحال. قلت لدهميش: لماذا اعتقدت أنني سأقف ضد الإعدام؟ هربت عيناه من مواجهتي. قال: لأنك وردة. ربما كانت لهجته هي التي جعلت الدم يندفع إلى وجهي كأني عذراء تسمع كلمة غزل. قلت في ارتباك: لولا وجودك معي ما أمكنني أن أفعل شيئًا. خطوت نحوه وقبلته في فمه.

... الشبان الثلاثة من قبيلة الشحرة. أبناء هذه القبيلة يستسلمون بسهولة لأعدائهم أو يفرون أمامهم دون مقاومة. لا يدافعون حتى عن أنفسهم. قال لي عوض إنهم لا يحبون رؤية الدماء، ولهذا السبب لا يمكن أن يسفكوا دم إنسان. هل يدمغهم هذا بالجبن؟

أول يناير ٧٥

... نجح احتفالنا بالعام الجديد. قدمنا رقصة عمانية. كوَّنا دائرة واسعة توسطها رفيق يجيد الغناء. تحركنا: خطوة بالقدم اليسرى إلى الخلف ثم دورة كاملة بالجسم وانحناءة بسيطة إلى الأمام ثم التصفيق بالكف أربع مرات متتالية. كنا نرد على المغني بعبارة «يا عين سهرتيني»، ثم جاء دور الشبان الثلاثة. دخلوا الحلقة وقد تقمص اثنان منهم شخصيتي نمر وغراب. ومع الغناء دار الصراع بين الطرفين. انتهى بانتصار الخير على الشر والعقل البشري على قوة الحيوان الوحشي.

... قابوس يزور الولايات المتحدة. ينوي شراء قاذفات صواريخ ثمنها مليون ونصف مليون دولار. الأمريكان يطلبون حق الهبوط في القاعدة البريطانية في مصيرة.

... يتجنب دهميش الانفراد بي، لكنه يلاحقني بنظراته، تشعرني هذه النظرات بالدفء، يحمر وجهه كالعذارى إذا التقت عيوننا صدفة.

٣ يناير

... نجح الرفيق سعيد المرزوقي في تسريب القصيدة التالية من سجنه:

أنت شيوعي
أنت كافر
أنت ملحد
سنحرقك
سنعدمك
لتنتهي وتستريح
وتنتهي القضية
هيهات ...
لن تنتهي القضية.

٥ يناير

... الساعة الخامسة صباحًا أيقظتنا طلقات الرشاشات دوشكا، اندفعت طائرتان إيرانيتان من البر وأطلقتا صواريخهما على مبعدة كيلومترين شرقًا. تصايح الجميع. لجئوا إلى الكهوف، أصبح الأهالي خبراء في تحديد أنواع الطائرات من كثرة الغارات اليومية؛ هذه استطلاعية والأخرى ناقلة والثالثة قاذفة. جريت إلى مقر القيادة. لا أحد. فهد وعوض يشرفان على إطلاق مدافعنا وتغيير أماكنها باستمرار. دهميش معهما. صرخت فيمن كان حولي: بين دخان الطائرة وانفجار الصاروخ عشر ثوانٍ. تكفي لكي تلتصقوا بأقرب صخرة. بدأ قصف مدافع الهاون. صحت من جديد: ١٧ ثانية بين دوي إطلاق الهاون وانفجاره. القنابل تتساقط بالعشرات. لو سقطت رخيوت ضاعت المنطقة المحررة. بل ضاع كل شيء. الطائرات تقترب على علو منخفض. نحتمي بالجدران. يسقط جدار على أربعة مقاتلين احتموا خلفه. أصابت قذيفة علم المستشفى المتنقل. جريت وسط القنابل المتساقطة. صراخ الأطفال وعويل النساء. صيحة: إنزال. صحت بأعلى صوتي: أطلقوا النار على أي شكل غريب. توقف القصف. جثث تحت الأنقاض، امرأة ميتة على شجرة. طفل في الثالثة من عمره ينادي أمه، الجرحى يزحفون نحو المستشفى، ناداني صوت باسمي. أحد الشبان الثلاثة الذين أنقذتهم من الإعدام يئن من جرح في بطنه. بكاء وعويل. الإنزال

سحابة من المظلات ثم سحابة من الرجال ثم سحابة من دخان البنادق والرشاشات ثم أكوام من الجثث.

... أصدرنا الأمر بإخلاء البلدة والانسحاب نحو الحدود اليمنية.

الفصل الخامس عشر

صلالة

١٩٩٢

كان ثمة شيء محير في الجزء الجديد بين يوميات وردة. لم يكن لديَّ شك في أنها الكاتبة، فهو نفس الخط الذي طالعني في الكراسات السابقة: الكلمات الكبيرة الحجم الحروف الواضحة التي تنطق بالجرأة والتحدي، العبارات المقتضبة، الدقة في نقل المشاهدات والسماعيات، التمحيص الصارم لسلوكياتها وعالمها الداخلي، المتابعة الواعية لما يجري في العالم من تطورات، التساؤلات المستمرة حول كل شيء. ومع ذلك خالجني شعور بأن شيئًا ما ينقصها.

أغلقت الكراسة ودققت النظر في غلافها المهترئ ثم عدت أقلب الصفحات. رغم غياب الترقيم لم يبدُ أن شيئًا اقتطع منها أو أضيف إليها، فقد كان الانتقال من صفحة إلى أخرى سلسًا ومنطقيًّا ومتفقًا مع التواريخ المثبتة في بداية كل فقرة. كما أن دبوس الوسط كان في مكانه وليست حوله أية علامة تشير إلى أن أحدًا عبث به أو حاول انتزاعه من مكانه.

أعدت قراءة بعض الفقرات وتوقفت عند السطور الأخيرة ثم استعرضت في رأسي الأجزاء السابقة. وأخيرًا أودعتها مخبأ السجادة وغادرت الغرفة.

بحثت عن مواطني المصري فوجدت أنه يؤدي صلاة الجمعة في إحدى غرف الطابق الأول، انتظرته في البهو حتى جاء، فلجأت إليه: هل تعرف أبو عامر؟

ضحك: الغميري؟ من هنا لا يعرفه. إنه من شيوخ الأفخاذ. وأغلب بقاليات صلالة وصيدلياتها ملكه.

قلت: هل يمكن أن تحصل لي على رقم تليفونه؟

– غالي والطلب رخيص.

مضى إلى الاستقبال وفتش في أحد الأدراج ثم نقب في بعض الدفاتر وعاد إليَّ بالرقم. تذكرت زكريا الذي حذرني من سعر المكالمة التليفونية، لكن لم يكن هناك مفر من التهور.

ردَّ عليَّ صوت ذو لكنة غريبة: بيت الغميري.

قدمت نفسي، فطلب مني صاحب الصوت الانتظار. مضى وقت طويل حسبته بالريالات ثم جاءني صوت فخم عميق القرار: معك أبو عامر.

ذكرته بأننا التقينا في مخيم أبي عبد الله وأنه وعد بمقابلتي.

قال على الفور: أهلًا بك وسهلًا في كل وقت. هل أنت حر الليلة؟

لم أتمكن من إخفاء اللهفة في صوتي: نعم.

قال: إذن سأبعث إليك بسيارة في السابعة مساءً. يناسبك الموعد؟

قلت: عظيم.

كنت أعرف أن سالم مع أخته واستبعدت مقدم خلف في يوم العطلة الأسبوعية، ومع ذلك تجنبت المطعم واستطعت أن أحصل من خدمة الغرف على طبق من الاسباجيتي بصلصة الطماطم والجبن وبضع سلطات.

استرحت قليلًا بعد الغداء ثم استحممت وغامرت بطلب القهوة. وقضيت الوقت بين الشرفة والتليفزيون إلى أن دقَّ التليفون في الساعة السابعة.

وجدت في انتظاري سائقًا هنديًّا أو باكستانيًّا أو بنجلادشيًّا، فلم أتمكن بعد من التمييز بين الجنسيات الثلاث، ربما لأنهم في الحقيقة عنصر واحد. انطلقنا إلى مرباط، وفي هذه المرة تمهلنا في الجزء القديم من البلدة حيث يسكن صيادو السمك ورجال الفرق الوطنية. ومررنا ببضع بيوت مهجورة تركها أصحابها إلى منازل حديثة متواضعة بنيت بشكل عشوائي برزت من سطوحها المزاريب المتعددة شاهدة على ما تفعله الأمطار.

توقفنا أمام منزل قديم من طابقين محاط بسور حجري مرتفع به بوابة حديدية تزينها كتابة قرآنية. انفرج باب صغير إلى جانبها عن هندي اقتادني في صمت عبر ردهة مبلطة بالسيراميك إلى باب آخر مفتوح على باحة غير مسقوفة. اجتزناها وولجت قاعة واسعة عبقت برائحة زكية وتكدست بها الفوتيات الضخمة فوق سجاجيد سميكة. وتصدرها جهاز تليفزيون كبير الحجم داخل قطعة أثاث خاصة به يعلوه جهاز فيديو.

جلست في إحدى الفوتيات أمام مائدة صغيرة مذهبة الحواف تحمل صينية مدورة عليها إبريقان من العصائر أحدهما لجوز الهند والآخر للبرتقال، وأطباق عديدة لسلاطة الفاكهة والموز والفافاي والفستق والبومبون والفطائر والبسكويت والكعك.

أقبل عليَّ أبو عامر بعد لحظات، فاحتضنني وقبل كتفي الأيمن ثم اتخذ المقعد المواجه مستندًا بذراعه اليسرى إلى المسند ومسلطًا عليَّ عيني النسر.

علقت على الرائحة فأبدى دهشته: ألم تشم خشب العود من قبل؟ إنه بخور نادر. قطعة صغيرة في حجم الليمونة يمكن أن يصل ثمنها إلى مائة ريال.

هززت رأسي متعجبًا، فمائة ريال تعني ثلاثمائة دولار بسعر ما قبل حرب الخليج، أو ٨٠٠ جنيه مصري، أي راتب شهر لموظف محترم.

أشاح بيده في غير مبالاة: هذا لا شيء. في قصر سيدي السلطان يحرقون كميات هائلة منه كل يوم.

دخل الهندي الذي استقبلني وصبَّ لي كوبًا من عصير جوز الهند. شربت جانبًا من الكوب ثم وضعته جانبًا.

قال: جرب هذه الفطائر.

قلت: إني لست جائعًا.

أطرق برأسه ولاحظت خاتمًا ذهبيًّا كبيرًا في بنصر يده اليسرى التي طوقتها ساعة ذهبية كبيرة الحجم.

استجمعت شجاعتي وقلت: أمس زرت مركز التأهيل النسوي والتقيت بابنة أخيك.

قال وهو يجمع ثوبه تحت فخذيه ويعتدل في جلسته: سمعت.

كنت حائرًا بشأن الأسلوب المناسب لطلب رؤيتها. وأغناني هو عن المحاولة.

نهض واقفًا وهو يقول: سأدعوها لتنضم إلينا.

غادر الغرفة فجلت ببصري في أنحائها، كانت لها نافذة تشرف على الباحة التي تتوسط المنزل ولا يوجد بها منفذ يطل على الشارع. ولمحت عدة مجلدات في خزانة مجاورة للتليفزيون فنهضت ومضيت إليها. تصفحت العناوين: تاريخ البوسعيديين لابن زريق، البداية والنهاية لابن كثير، والموسوعة العتيدة التي تخبرك بالسبب في تسمية ابنك زيد أو علي.

عدت إلى مقعدي واضطجعت فيه ورفعت عيني إلى السقف المرتفع الذي توسطته مروحة كهربائية. كانت هناك كتابة بماء الذهب حول السقف ميزت فيها آية قرآنية.

وهبطت عيني إلى صورة قديمة للسلطان في مقتبل شبابه تختلف تمامًا عن صوره الحالية. فقد بدا شابًّا نحيفًا قصير القامة عديم الثقة بالنفس يبتسم في خجل.

عاد أبو عامر بعد قليل واستقر في مجلسه وجمع ثويه تحت ساقه التي ثناها أسفله ومدَّ يده إلى أصابع قدمه العارية.

قال: ابنة أخي تعتذر لأنها متعبة.

نظر إليَّ في دهاء فأخفيت خيبة أملي.

قال: لم تشرب العصير. لعلك تود شيئًا آخر؟

لم ينتظر إجابتي وقال: سأصلي أولًا.

أحضر له الهندي سجادة الصلاة وفرشها في ركن القاعة بزاوية تواجه القبلة وتجعله قادرًا على رؤيتي بطرف عينه، هكذا تجمدت في مكاني حتى انتهى من الركعات الأربع وختم الصلاة بالسلام الموجه إلى ملاكي الكتفين.

التقط الخادم الهندي السجادة وطواها ثم خرج وعاد يحمل صينية فوقها زجاجة ويسكي وإناء ثلج.

قال: نشرب كأسين قبل أن نتعشى.

قلت: لا أريد أن أثقل عليك.

قال وهو يصب كأسين ويناولني أحدهما: إننا لا نلتقي بأحد من مصر الشقيقة كل يوم. حدثني عنها. لقد زرتها مرة واحدة منذ ثلاثين عامًا.

قلت: لقد تغيرت كثيرًا.

قال: نحن أيضًا تغيرنا.

لم أفهم هل يشير إلى تقدمنا أنا وهو في السن أم إلى أوضاع بلاده، فاخترت تعليقًا دبلوماسيًّا: التغيرات واضحة في كل مجال.

– قل لي، هل جربت لحم الضبع؟

فوجئت بالسؤال ولعل بعض التقزز بدا عليَّ، فضحك وأشار إليَّ بأصبعه: أنت منهم إذن.

قلت: من هم؟

– بعض سكان الجبال عندنا يحرمون قتل الضبع لأنهم يعتقدون أنه فرس الساحر ومن يعتدي عليه يصاب بنوع من القصاص. والبعض الآخر يؤمن بأن الضبعة هي فرسة النبي وأنه عاقبها مرة بضربها على رجليها الخلفيتين فالتوتا وبعد ذلك أصبح لحمها

حلالًا. صدقني إنه شهيٌّ جدًّا. وله فوائد جمة: فمن يشكو من ألم في ظهره عليه أن يأكل من لحم ظهر الضبع، والذي يشكو من ألم في القدم اليمنى عليه أن يأكل من لحم القدم اليمنى، وهكذا.

قلت: كان لدى أبي نفس الاعتقاد. لا بالنسبة للضباع، وإنما بالنسبة لحكاية الأجزاء المتماثلة. عندما بلغ سني الحالية كان يحرص على أكل بيض الغنم.

ضحك وصب لي كأسًا ثانية.

أحضر الهندي تنورًا مشتعلًا وضعه على الأرض بالقرب من قدمي أبي عامر ثم غادر الغرفة وعاد بمائدة صغيرة تحمل صينية بها عدة لفافات من الورق المفضض وإناء زجاجي كبير به مادة سوداء لينة. وضع المائدة أمام أبي عامر مباشرة وجلس على الأرض بينها بين التنور.

– لا تخف. أعفيناك من أكل الضباع. سنأكل أكلة ظفارية معتبرة.

شمَّر عن ساعديه وفك غلاف إحدى اللفافات كاشفًا عن كومة من أوراق الموز. واحتوت اللفافة الثانية على قطع من اللحم المُتبل. تناول قطعة وأزال ما علق بها من بصل ثم لفها بعدة طبقات من أوراق الموز، ومدَّ إصبعه إلى الإناء فغمسه في المادة السوداء ودهن بها أوراق الموز. كرر هذه العملية عدة مرات حتى أصبحت قطعة اللحم المغلفة جسمًا غليظًا أسود اللون، ثم ناولها للهندي الذي وضعها في النار.

أشار إلى المادة السوداء قائلًا: هذا الطين يتصلب في النار فينضج اللحم داخله.

تناول قطعة جديدة من اللحم وشرع في تغليفها بأوراق الموز وهو يتكلم: هذه المنطقة لم تكن شيئًا أيام السلطان السابق. كانت لقبيلتنا أراضٍ واسعة لكننا كنا نجد صعوبة في الحياة. ذهب أخي إلى الكويت وعند عودته انضم إلى الثوار وانضممت إليه.

غلف القطعة بالطين في عناية وناولها للهندي الذي وضعها في النار.

– في صيف ٧٠ جاء سيدي قابوس إلى السلطة وبدأت عملية البناء. نزل شباب كثير من الجبهة إلى صلالة وبعد أن تأكدت الحكومة من حسن نواياهم سلمتهم وظائف في المؤسسات الجديدة. وبدأنا نجني ثمرات التغيير، فأبناؤنا يذهبون للمدارس في مراكز الجبل وإبلنا ومواشينا يصلها الماء بعد أن كنا نسير عدة كيلومترات حتى نصل إليه، والمؤن تصلنا ونتسلم مخصصات من الكساء تقينا الحر والبرد. وبدأت مطالبنا التي كنا نحاول تحقيقها من خلال الكفاح المسلح تجاب. فماذا تبقى أمامنا؟

انتهى من دهن القطعة الأخيرة فأعطاها للهندي الذي وضعها في التنور ثم ثبت فوقه الغطاء الفخاري ورفع الصينية وما تبقى بها من أوراق الموز والطين وحملها إلى الخارج.

عاد بصينية أخرى تحوي إناء الأرز المحتوم وطبقين وأدوات مائدة لاثنين وضعها فوق المائدة الصغيرة. اقتعد الأرض تحت أقدام أبو عامر وتحول إلى تمثال جامد ثبتت عيناه على التنور المغطى.

رآني أنظر إلى الهندي فقال: أسميناه طاغور على اسم الشاعر العظيم، فهو يتمتع بالحكمة. لا يفتح فمه أبدًا.

أعدته إلى الموضوع: لكن الثورة استمرت مدة بعد ذلك.

ملأ لنفسه كأسًا وصب لي: هؤلاء كانوا نفرًا قليلًا من الشيوعيين آواهم اليمن الجنوبي. ظلوا يرفعون شعارات العنف الثوري والمجتمع اللاطبقي وحكم البروليتاريا. الناس هنا قوم بسطاء لا يفهمون إلا ما يحسونه ويلمسونه.

سكت لحظة وهو يتأملني بتركيز ثم وضع يده على صدره عند القلب: أما أنا فما في القلب يظل في القلب.

فكرت في مغزى العبارة الأخيرة. وجرع هو كأسه ثم التفت إلى الهندي وأومأ برأسه. كشف هذا غطاء التنور وكانت النار قد همدت وبرد الجمر. مدَّ الهندي أصابعه والتقط إحدى القطع بسرعة وكسر الطين المتحجر حولها ثم ألقى بها في الصينية.

قلت: في نهاية الخمسينيات تعرفت في القاهرة بمجموعة من الطلاب العُمانيين كانت أم وعد بينهم. هي وأخوها. كان اسمها شهلا، وكنا ننادي أخيها باسم يعرب.

ظل يحدق في محتويات التنور دون أن يعلق.

استطردت: ماذا جرى لهما؟

تناول قطعة اللحم وأزال أوراق الموز التي تغلفها ووضعها في أحد الطبقين ثم قدمه إليَّ دون أن ينظر ناحيتي. تناولت الطبق وأمسكت اللحم بأصابعي ثم أسقطته على الفور من فرط سخونته.

استغرق في نزع أوراق الموز عن قطعة ثانية ثم قال: هناك الكثيرون الذين فُقدوا في الحرب وضاعت آثارهم. لا أعرف ماذا حدث لوردة. فهذا هو الاسم الذي اشتهرت به. كنت تعرفه؟ أنا نفسي لم أقابلها مطلقًا. أما أخي فقد ركب رأسه وظل مع الجبهة إلى النهاية.

– استشهد؟

– في الغالب. اختفى معها.

– وخال وعد ... يعرب؟

– لا أعرفه.

– لم تسمع عنه؟

تردد لحظة ثم قال: وردة أصلًا من الباطنة في الشمال ثم نزح أهلها إلى صنعاء، وعندما جاءت إلى ظفار كنا نقاتل في منطقتين مختلفتين فلم نلتقِ، ثم تركت أنا الجبهة وافترقت عن أخي ولم أرَه بعد ذلك أبدًا.

أمسك بإصبع اللحم ووضعه في فمه وحذوت حذوه. كان اللحم طريًّا شهيًّا طيب المذاق.

انهمكنا في الأكل وهو يحدثني عن طفولته والحياة في مخيمات الجبل. وأحضر لنا الهندي الحلوى، لكني اكتفيت بكوب من الشاي الأخضر، وعندما فرغت من احتسائه تطلعت إلى ساعتي فوجدتها تقترب من الحادية عشرة.

قلت: الوقت تأخر ويجب أن أرحل.

قال دون أن يتحرك من مكانه: ستقضي الليلة عندنا. الوقت تأخر فعلًا والسائق نزل صلالة وسيقضي الليلة هناك. سيعود في الصباح ويأخذك إلى فندقك.

قلت: ليس هذا ضروريًّا، يمكنني أن آخذ تاكسي.

– ليس في هذا الوقت.

– ألا يمكن أن نستدعي واحدًا بالتليفون؟

قال: لم يدخل عندنا هذا النظام بعد.

داخلني قلق مبهم، فأصررت على الانصراف.

قلت وأنا أنهض: لا أريد أن أسبب الإزعاج.

نهض بدوره وهو يقول: عندنا غرف كافية وكل ما تحتاج إليه.

قادني من ذراعي إلى الخارج والهندي من خلفنا. قال ونحن نجتاز الباحة: قبل عصر التكييف والمراوح كنا نفترش الأرض هنا بالليل.

توقف أمام غرفة مغلقة ففتح بابها ومد يده فأشعل النور الكهربائي، ثم استدار وأشار إلى باب مجاور: هذا هو الحمام. إذا احتجت إلى شيء نادِ على طاغور، تصبح على خير.

انتظر حتى ولجت الغرفة ثم انصرف والهندي في أعقابه. أغلقت الباب ووضعت حقيبة يدي بجواره على الأرض وأجلت النظر حولي. كانت الغرفة متوسطة الحجم يشغل طرفها القصي فراش مثل الذي رأيته بين معروضات جمعية المرأة، يرتفع عن الأرض بحوالي متر ونصف متر ويعلوه لحاف سميك بألوان مشرقة وملاءة من نفس النسق اللوني مطوية برقة بالغة وبجوارها دشداشة بيضاء مكوية ومطوية.

خلعت حذائي وجوربي عند الباب بجوار خف من القماش وصندوق مزخرف كبير الحجم استقر فوقه دورق مياه وكوب. خطوت نحو مقعد متحرك من الجلد بمسندين من النوع الدوار الذي يوجد في مكاتب الشركات الأجنبية. جلست وأسندت مرفقيَّ ثم حركته في نصف دائرة وأنا أتفحص الغرفة.

كانت الأرض مغطاة بموكيت بني اللون وبجوار الجدران أقيمت وسائد بصورة عمودية. ورصت بعض الملابس في فتحة خلفها في الجدار تعلوها فتحة أخرى على شكل مصباح زيتي ضمت أواني خزفية موحدة النقوش. وكانت هناك فتحة مماثلة فوق الفراش صفت داخلها أكواب زجاجية مذهبة. وبين الفتحات علقت أكثر من عشرين صورة تايوانية لحيوانات وطيور في إطارات صغيرة. وتدلت من مسمار بارز عباءة بنية اللون لمس طرفها جهاز تكييف مغلق.

نهضت واقفًا وخلعت قميصي وبنطلوني وعلقتهما فوق العباءة، ثم ارتديت الدشداشة. انتعلت الخف وفتحت الباب وخرجت إلى الممر المطل على الباحة.

كان المنزل غارقًا في ظلام لم تنجح في تبديده إضاءة خافتة صادرة عن مصباح كهربائي صغير فوق باب الحمام. وكان بوسعي أن أتبين جانبًا من الطابق العلوي الذي يدور به سياج خشبي. وقفت أنصت لكن السكون كان شاملًا.

دفعت باب الحمام ودخلت. وكأني انتقلت من قرن إلى آخر. فقد كان مجهزًا بكل الأدوات الحديثة من السيراميك إلى صندوق طرد المياه والسخان الكهربائي، اغتسلت واستخدمت منشفة نظيفة وردية اللون وعدت إلى غرفتي. أردت أن أغلق الباب بإحكام فاستعصى عليَّ. كان له رتاج خشبي بلسان عريض ميزت منه جزءًا ثابتًا به عدد من الثقوب، وآخر منزلقًا به أصابع خشبية متحركة مطابقة لها. وكان ثمة عصًا منحنية بها أصابع خشبية بارزة تشبه المفتاح.

عجزت عن استخدام المفتاح وإغلاق الرتاج فتركته موصدًا دون قفل. أخذت أدوية المعدة والضغط التي أحملها معي دائمًا وابتلعتها بقليل من مياه الدورق، ثم أطفأت النور وانتظرت حتى ألفت عيناي الظلام. تقدمت من الفراش وثنيت ركبتي واعتليته بحذر خوفًا من تمزق العضلات الذي تعرضت له عدة مرات في الآونة الأخيرة. تمددت وأغلقت عيني ثم فتحتهما من جديد. كنت قلقًا بشأن الباب المفتوح وكان في مجال رؤيتي فثبَّت عينيَّ عليه وعلى الشعاع الخفيف الذي تسرب من بين مصراعيه. بدأت أسمع أصواتًا غامضة فحبست أنفاسي حتى ميزت نباح كلاب في الخارج وطقطقة أخشاب وهسيسًا

غامضًا. قدرت بعد لحظة أنها أصوات الليل العادية في أي منزل قديم، ولا بد أني غفوت؛ إذ تنبهت على حركة خفيفة عند الباب، ورأيت مصراعه ينفرج في بطء بالغ. وظهر في ضوء الممر جسم غامض انفلت داخلًا.

ربما كانت الرائحة هي التي نبهتني، وعلى أية حال فقد أنبأني لا شعوري بهوية الزائر قبل أن يشع نور المصباح الكهربائي فجأة، ثم تركز اهتمامي على الكيفية التي أغلقت بها وعد الباب متعجبًا من بساطتها، فلم تستخدم المفتاح وإنما حركت الجزء المنزلق من القفل، فسقطت الأصابع المتحركة في ثقوب الجزء الثابت.

اعتدلت جالسًا واستدرت مدليًا ساقيَّ وأنا أسوي الدشداشة لأغطي فخذيَّ وواجهتني على بعد ثلاث خطوات بعينين ناريتين جامحتين. كانت سافرة الوجه عارية الرأس، ينساب شعرها فوق رداء حريري ملون بنقوش صينية يبلغ قدميها الحافيتين.

خاطبتني في حدة: ماذا جاء بك؟

وجدت لساني أخيرًا فقلت: لأراكِ.

– لماذا؟ ألم تحصل على اليوميات من الطبيب؟

– أخذتها. جئت من أجل البقية.

وضعت يدها اليمنى في وسطها متحدية.

– ماذا تعني؟

– ما زال هناك جزء آخر.

رفعت يدها إلى عنقها وأخذت تعبث بفتحة ردائها في عصبية.

– من قال لك؟

– المنطق. ما قرأته حتى الآن لا يجيب على أسئلة كثيرة، ثم إنك لم تترددي في إعطائي اليوميات. لماذا؟ لأن وردة أوصت بذلك في يومياتها. لكن ما قرأته منها حتى الآن لا يشير إلى ذلك بكلمة. إذن لا بد أن تكون هناك بقية.

امتدت أصابعها إلى الزر الأعلى من الرداء وأخرجته من عروته دون أن ترفع عينيها عن وجهي، استقرت عيناي على أصابعها وهي تنتقل إلى الزر التالي. وكل ما فكته انحسر الثوب عن صدرٍ عارٍ لا يستره شيء، بسطت ذراعيها جانبًا فتجلى نهداها في كامل بهائهما.

قالت: كانت أجمل مني؟

– من هي؟

قالت: وردة.

كيف يمكن الرد وأنا لم أرَ من وردة غير وجهها.

– ألا تتذكرينها؟

خطت نحوي دون أن ترفع عينيها عن وجهي أو تغطى نهديها المشرئبين اللذين انتفخت حلمتاهما.

– لم أرَها، لا هي ولا أبي.

لمس ثوبها ركبتي ومدت يدها فجذبت يديَّ في عنف ووضعتهما فوق نهديها.

– قل لي.

لم أقل شيئًا لا لأنه لم يكن لديَّ ما أقوله، وإنما لأن الفرصة لم تتَحْ لي. ففي لحظة كالحلم كانت قد تخلصت من الرداء وتجلت بكل عريها دون ساتر، ثم دفعتني على ظهري واستقرت فوقي. كانت هناك ملاءة داكنة اللون مثبتة في السقف تحجب منظر قضبانه الخشبية، لكن وجهها حجب كل شيء.

أحاطتني بذراعيها وأخذتني بين فخذيها ومضت ترجني، وقنعت بأن أبقى معتقلًا دون أن أفكر في اقتحامها مستسلمًا لهدهدتها كطفل متخففًا من الدفاعات التي قضيت عمري في بنائها لأثبت ماذا؟ محلقًا على مبعدة ملايين السنين الضوئية من هنا والآن. وشرعت أتأوه مدركًا أني لم ألتذ إلى هذه الدرجة من قبل، واعيًا بأن أبتعد عنها في اللحظة المناسبة.

هل كنت أضاجع وردة؟ أم أضاجع نفسي؟

ظلت فوقي تتأملني بتركيز، وشعرت بضغط ردفيها الثقيلين، فأنزلتها برفق إلى جواري واستدرت أواجهها متغاضيًا عن آلام الرقبة: أي بارفان هذا؟

ابتسمت في بهجة طفولية وهي تقلد لهجة الأفلام المصرية: بارفان إيه يا أستاذ؟ دا زيت للشعر. غالي جدًّا، خشب صندل مطحون ومسك وزعفران مع زيت ورد.

بالإضافة إلى عبير فواح لا يضارعه عطر آخر في الوجود.

مررت بيدي على جسدها أستكشف طياته، وبعد لحظة همست في أذنها: ما هو الاسم بلغة الجبل؟

دفنت رأسها في صدري بخجل: حُب.

أهناك تعبير أكثر دقة ورقة؟

أبديت دهشتي لأنها غير مختونة، فضحكت قائلة: حظ.

واصلت أصابعي رحلتها ورأسها مدفون في صدري ورائحتها تحف بي وتسكرني إلى أن انتفضت مرة أخيرة وأزاحت يدي.

– هل ستعود إلى مصر؟

– نعم.

– حدثني عنها. هل تشاهدون التماسيح في النيل؟

– ونركبها أيضًا.

– خذني معك. أنا أموت هنا كل يوم.

– كيف؟ عمك رجل معقول. أوحى لي أنه ما زال على مبادئ الجبهة. ولم يجد بأسًا في أن يدعوك للجلوس معنا.

ضحكت ساخرة: لا يوجد من هو أكثر منه رجعية. إنه لا يسمح لبناته بالخروج من المنزل. ومنعني من مواصلة تعليمي بالجامعة الجديدة في مسقط. أنا التي انتزعت حق العمل في جمعية المرأة يومين في الأسبوع. وافق كي يكسب ودِّي ويحصل على اليوميات. وعدا ذلك نبقى في البيت بجوار زوجته. هناك في الطابق الأعلى قاعة طولها ٣٥ مترًا مفروشة بالسجاد ومحاطة بالوسائل. هل تعرف كم عددها؟ أنا أحصيتها في لحظات الملل: ٦٥ وسادة. تغلق النوافذ ويضاء النور الكهربائي في عزِّ النهار. كل يوم تجلس بها زوجة عمي في فستان واسع طويل من القطيفة محلى بورود ذهبية صغيرة وفصوص من الفضة يستغرق تطريزها باليد شهرًا كاملًا.

ووضعت يدي على فمها إذ خيل لي أني سمعت صوتًا بالخارج. أنصت برهة وعندما لم أسمع غير دقات قلبي قفزت إلى الأرض واقتربت من الباب ووقفت عنده أتنصت.

كان هناك حفيف ما في الخارج بالتأكيد. التفت ناحيتها فوجدتها قد توارت تحت اللحاف. توقف الحفيف وعادت الأصوات المألوفة، مددت يدي فأطفأت النور ودققت النظر في شعاع الضوء الخفيف القادم من الخارج، ظل ثابتًا دون أن يعترضه شيء.

عدت إلى الفراش واندسست إلى جوارها. استدرت على جانبي الأيمن ووضعت يدي تحت رأسها واحتضنتها بالذراع الأخرى. انكمشت في حضني وألصقت حُبها المبتل بفخذي وهمست: لعلها القطة.

– أو عمك؟

فكرت ثم قالت: لا أعتقد. إنه ينام في جناح بعيد.

ضممتها إليَّ وقبلت رأسها.

كأنما أضم ابنة لي.

– كنت أحكي لك عن المجلس اليومي. تدعو زوجة عمي بناتها فيجئن جميعًا في نفس لباسها. مطلوب أن يبقين هكذا طوال اليوم مهذبات مؤدبات ثم يرقدن في أي مكان، تصيح فيهن: الكنادر. فيخلعن أحذيتهن. لكنها لا تتركهن فلا بد أن تؤنبهن: يا عيب

الشوم، يتربعن على الأرض. هل لاحظت أن قدميَّ ليستا مشوهتين؟ جميع الأقدام هنا مشوهة نتيجة التربع على الأرض، ثم تقود السمر ونحن نقدم إليها الفاكهة أو المرطبات والمكسرات. كلما قدمنا لها شيئًا قالت إنها صائمة لأننا في يوم ١٣ أو١٤ أو ١٥ من رجب أو شعبان أو يوم اثنين أو خميس ... هل رأيت التليفزيون والفيديو؟ نحن لا نشاهد إلا صلاة الجمعة والبرامج الدينية. تعرف ما هي تسليتنا الوحيدة؟ عندما تمرض واحدة ويتعسر شفاؤها يأتون بعرافة بدينة تتكلم من بطنها، تقول إنها حامل منذ عدة سنوات وإن الجنين هو الذي يتكلم. يتجمعن في غرفة مظلمة امتلأت بدخان البخور وتجلس المريضة وسطهن ويبدأن في هزِّ رءوسهن وهن يرددن ألغازًا وطلاسم حتى تدوخ المسكينة وتهذي بكلام غير مفهوم وتتلوى على الأرض.

اعتدلت على ظهرها ودفعت ساقها اليسرى بين ساقي ثم قالت: احكيلي عنها.

حكيت لها كيف تعرفت بوردة. طلبت مني أن أصفها ففعلت، وبعد لحظات اكتشفت أني لا أعرف عنها حقًّا شيئًا ذا بال.

سألتني: هل كنت تحبها؟

قلت بعد تردد: أظن ذلك.

جاء دورها في التردد: هل ... هل نمت معها؟

أجبت بالنفي.

شعرت بها تهز ساقها في عصبية.

– تعرف أني كنت أكرهها إلى أن قرأت يومياتها؟ تصورتها امرأة بلا قيم ولا شعور بالمسئولية. كنت أعتقد أنها تخلت عني.

سألتها عن يعرب فقالت: لم أرَه ولم يأتِ إلى هنا أبدًا، وإن كنت أعتقد أن عمي على اتصال به. أظن أنه في مسقط.

– واليوميات؟

– وقعت في يدي بالصدفة. منذ سنة. جاء بها واحد من البدو وأعطاها لطاغور الذي أحضرها لي وأخفيتها بعد أن انتزعت منه وعدًا ألا يقول لعمي. لكن عمي عرف، ربما منه أو من البدوي. طلبها مني وفي البداية أنكرت، كنت أريد الاحتفاظ بها لنفسي، ثم ضغط عليَّ فأعطيته جزءًا وأخفيت الباقي. لكنه شك في الأمر، ومن لحظتها وهو يراقبني بدقة ويفتش حاجياتي باستمرار. لكني كنت أشطر منه.

– ولماذا حجبت عني هذا الجزء؟

– السبب الأول هو ما جاء به حول ظروف ولادتي. أبي وأمي لم يتزوجا رسميًّا. كثيرون تزوجوا وقتها على قانون الجبهة، أي أمام مسئول سياسي. حتى هذا لم تفعله. وبعد انتهاء الثورة تم توثيق زيجات الجبهة لتكسب الشرعية. وتمكن عمي بنفوذه من إدراجي في هذه العملية، لكني ما زلت أشعر بالحرج. كثيرًا ما يصمني بأني ابنة حرام.

– والسبب الثاني؟

– السبب الثاني أني أريد استخدام هذا الجزء للحصول على حريتي. أشعر أن به شيئًا يتحرقون لمعرفته. لا أعلم ما هو. ربما استطعت إجبار عمي على إرسالي للتعليم في بيروت أو مصر أو لندن.

– من هم؟

– لا أعرف، حاولوا معي بشتى الوسائل، لم يتركوا ثقب إبرة دون أن يفتشوه. تخيلات وأوهام؟ هستيريا؟

– قال لي شخص في مسقط إنك ترفضين تسليم هذا الجزء لأحد غيري، فكيف عرف؟

– صديقة لي أخوها في الجبهة. قالت إنهم قرءوا الأجزاء الأولى ويريدون الجزء الأخير، قلت لها إني لن أسلمها إلا لك أو لواحد لبناني. صرت أنت محور حياتي لفترة طويلة. كنت واثقة من مجيئك.

تجمدنا فجأة فقد تكرر الصوت الغامض. أزاحت ذراعي واللحاف وهي تقول: يجب أن أذهب الآن.

قفزت إلى الأرض في خفة واستدرت أتابع حركتها في الظلام وهي تبحث عن ردائها حتى وجدته. عبثت لحظة بطياته ثم التفتت نحوي وطوحت بيدها. استقرت الكراسة الصغيرة على صدري، فالتقطتها بينما ارتدت ثوبها وسوت شعرها ثم اقتربت مني وانحنت فوقي فقبلتني.

قلت: كيف سأعيدها إليك؟

قالت: لا تقلق. عندي صورة منها.

هبطت من الفراش ورافقتها حتى الباب. عبثت قليلًا بالمرتاج وأظنها أدخلت فيه المفتاح وفي النهاية سحبت المزلاج.

همستُ: سأشعل النور لأكتب لك تليفوني في مسقط وعنواني في مصر.

– لا. هات قلمًا. يمكنني أن أكتب في الظلام.

تذكرت أني وضعت حقيبة يدي بجوار الباب فالتقطتها وبحثت داخلها حتى وجدت قلمًا من الحبر الجاف. ناولتها القلم فسجلت التليفون والعنوان فوق راحة يدها ثم جذبت المصراع وتسللت خارجة.

أوصدت الباب خلفها في رفق ووقفت أتنصت. وعندما لم أسمع صوتًا غير عادي أضأت النور وتفحصت الرتاج. حركت المزلاج حتى انزلقت أصابعه في الثقوب الثابتة وتأكدت من إحكام الغلق، ثم مضيت إلى المقعد الدوار وأنا أقلب صفحات الكراسة الصغيرة ذات الغلاف الأسود وأتأمل الخط المتحدي المألوف.

الفصل السادس عشر

الربع الخالي

١٩٧٥

٧ يناير

... نسير ونسير. الحقائب على الظهور وفوق الإبل. الكلاشينكوف في الكتف. الترانزستور رفيق لا يقدر بثمن. الهضاب الشاسعة تلونها الخضرة والزهور. طيور الجنة صائدة الذباب بألوانها البنية الحمراء والسوداء والخيوط البيضاء الطويلة على ذيولها. الطرق الجبلية غير المطروقة بها علامات عبارة عن أكوام من الأحجار في جانب. آثار قبيلة كانت تنصب خيامها على السفوح. انتقلت منذ شهر إلى أسفل الجبل وجمعت ماشيتها في حظائر كبيرة. هل هبطت هربًا من القصف أم استعدادًا لموسم الأمطار؟ يا رفاق ... يا رفاق. التفتنا نبحث عن مصدر الصوت. صبي في العاشرة يحمل إناءً نحاسيًّا بين يديه يمده لنا لنشرب الحليب الطازج. تأمل ملابسنا وأسلحتنا باهتمام. سألني في انفعال: وردة؟ احتضنني وقبلني في خدي، قال يزهو: اشربي. الحليب مغلي. عندما ابتعدنا رفع أصابعه في خجل بعلامة النصر. لم يضِع إذن كل شيء. فلن ينسى هذه اللحظة. ماذا لو عرف أننا ننسحب؟ عند العين نشرب ونغتسل. أزيز الطائرات، يتفرق الموجودون بين الجذوع العالية للوبيا. عيون الماء هدف دائم لقصف الطيران المعادي، بعد الغارة يعود الجميع لذبح الماشية المصابة قبل أن تنفق، كالعادة اشترينا كمية من هذه اللحوم لمساعدة أصحابها والتخفيف من خسارتهم. امرأة عجوز تغطي رأسها برقيقة من المعدن داخل قماش خفيف أحمر، حلقة من الذهب في أنفها. قدمت لنا الطماطم. أصرت أن نأخذها وهي تضحك في ودٍّ. إلى متى سيستمر هذا التعاطف؟

٨ يناير

... شاه إيران في القاهرة. دبر له السادات استقبالًا حافلًا. لم يرتفع صوت معارض، وهبة ٧ يناير انطفأت على الفور. المصريون هكذا: يصبرون طويلًا ثم ينفجرون في فورة حماس سرعان ما تنطفئ، ويعود كل شيء إلى ما كان عليه. ترى ماذا يفعل رشدي الآن؟

١١ يناير

... نجحت القوات الحكومية غرب خط هورنبيم في الاستيلاء على مقر قيادة وكمية كبيرة من الأسلحة والذخيرة.

... قضينا الليلة في مغارة زوج من المقاتلين محاطين بقطيع من الأولاد. لم أتمكن من النوم، ظل أحد الأطفال يتقلب ويسعل ساعات طويلة. في الصباح ألفينا عينيه ملتهبتين بحمى السل. لجان المناصرة في أوروبا تجمع الأدوية والأموال والأدوات الطبية والجراحية. هل يمكن الآن أن تصل إلى هنا؟

١٥ يناير

... القذافي يتحدث عن كتاب أخضر سيسهم به في إقرار نظرية متكاملة للعمل الثوري العربي.

... أنباء عن خط دفاعي مكهرب جديد يقيمه الإيرانيون غرب خط هورنبيم وفي موازاته. أطلقوا عليه اسم دامافاند. يمتد من رخيوت في اتجاه الشمال. الهدف منه حصرنا في منطقة الحدود اليمنية.

... التقدير المبدئي لضحايا رخيوت قرابة الألف قتيل.

٢٠ يناير

... استضافنا أحمد مسلم، من رجال الميليشيا وله ابن من المقاتلين. أشعلت زوجته نارًا في الداخل لإعداد الأرز لأن ذلك في الخارج يمثل خطرًا شديدًا. فمن البحر تلتقط السفن الإيرانية أضأل ضوء وتنقله إلى الطائرات التي تغير مع مطلع اليوم الجديد. في أحد الأركان صناديق الذخيرة الروسية الخضراء. فوق الأرض شبكات من البلاستيك ومصباح عاصفة.

... انتقلنا إلى كهف كبير تجمع به قرابة ثمانين امرأة وطفلًا. الرجال في مكان ما يقاتلون. أنصتنا للبلاغات العسكرية للجبهة من إذاعة صوت الثورة التي تغير نقطة إرسالها يوميًّا. شرحت لهم التطورات الأخيرة. أعقبني سعيد زينان المسئول الإقليمي للميليشيا. أبلغهم قرارات المجلس الشعبي بشأن الإعاشة والكهوف المختارة للتخبئة وكيفية إخفاء المزروعات عن الطائرات. في النهاية هتف: عاشت حرب التحرير الشعبية والنضال من أجل الديموقراطية. ردَّ الجالسون وأنا معهم: عاش. عاش نضال الشعب العربي في فلسطين، عاش، تسقط الإمبريالية والرجعية. تسقط. تسقط الصهيونية. تسقط. يسقط الخدم والمرتزقة. يسقط. عشت طويلًا أيها الشعب والحياة الطويلة لك أيها الشعب! كيف؟ لو كانت الشعارات تتحقق بسهولة! تفرق الجميع بسرعة دون أسئلة أو استفسارات. التجمعات الآن إذا طالت تصبح خطرة. صواريخ. قذائف مدفعية. قنابل وألغام. كل أسلحة الدمار عدا النابالم، فهل هو قادم؟

٢٤ يناير

... واصلنا السير حتى المساء. قادنا أحد الرفاق إلى كهف قريب لنتعشى لدى أسرة. دخلناه على أربع لأن ارتفاع المدخل لا يتجاوز نصف المتر. جلسنا نشرب الشاي الأحمر. نيران الموقد تبعث فينا الدفء بانتظار العشاء. حضر الجيران للترحيب وشاركونا الأكل وأكواب الشاي والحليب. قرصات الناموس. أعدوا لي مكانا مريحًا. غلبني النوم بسهولة.

٢٨ يناير

... نهبط نحو السهل الساحلي. الكوفيات تحمينا من النسيم الرطب الذي يهب من البحر، لا يخلو بيت أو كهف هنا من بعض المقاتلين يرتاحون بضع ساعات. غارات جوية طول اليوم يتخللها قصف مدفعي وقصف بحري ابتداءً من المساء.

أول فبراير

... الحوف. اللاجئون العمانيون يعيشون في الكهوف المحيطة بالبلدة. حصيرة على الأرض وعدة حقائب أو صناديق للأشياء الشخصية. ترموس وأحيانًا راديو ترانزستور. نتجمع في المساء للإنصات إلى إذاعة الجبهة من عدن التي تستمر ٤٥ دقيقة. يتعين المشي أحيانًا

عدة ساعات للوصول إلى مصدر ماء للإنسان والحيوان. أقيم مع أسرة من ١١ شخصًا كانت تعيش داخل ظفار ممتلكة ٢٥ جملًا و٥٠ من الماعز. قتلهم القصف البريطاني ودمر قريتهم. سأبدأ من الغد في إعادة تنظيم القوات والأهالي المنسحبين. فهد في المكلا ينتظر طائرة إلى عدن ليعالج من إصابة خطيرة في العمود الفقري. دهميش في الغيضة. يعرب إما في عدن أو ذهب إلى بيروت.

٢ فبراير

... في المعسكر الذي يحمل اسم الشهيد بخيت بن حيجلا. أربعون رجلًا يقودهم علي. ينامون في كهف ضخم يتسع لـ ١٢٠ إنسانًا. الذخيرة والأسلحة وبضع علب من التونة. علي ثائر بسبب اختفاء بعض المعلبات. نظر إليَّ وقال: ما زال بيننا برجوازيون صغار! فوق قماش رقيق قطع من لحم الإبل تجف في الشمس. الجمل ذُبح في الصباح. يتم التهام القطع الممتازة: الأقدام والكبد والقلب والأوراك. يؤكل لحمه مسلوقًا مع أرز مطبوخ بسمن هولندي. جربناه مرة في القاهرة وكرهت رائحته القوية التي تتسلل إلى الأيدي والملابس. الآن لا أعبأ. نحن محظوظون، الجمل مقطع وموزع باقتصاد يسمح بإطعام الجميع لمدة يومين، الأرز حمَّرته صلصة الطماطم، بعد ذلك إطفاء كافة النيران. فقط أطراف السجاير المتوهجة.

... تحدثت عن الموقف العسكري وضربت مثالًا من مسيرة ماو. عندما حوصر جيشه الأحمر سنة ١٩٣٤، لم يجد مفرًّا من الانسحاب، فتراجع مع مائة ألف من أتباعه إلى الشمال. ساروا مسافة عشرة آلاف كم، واجهوا خلالها الجوع والعطش والمعارك والأمراض، انتهت المسيرة الطويلة بعد سنة وقد تبقى من رجاله خمسة آلاف فقط. وبعد ١٤ سنة حقق النصر التام وأسس الصين الشعبية. وأنا أتحدث بدت لي الأرقام غريبة: ١٥ سنة أخرى؟ مائة ألف يبقى منهم خمسة آلاف؟ عددنا كله لا يبلغ هذه الآلاف الخمسة، نزل منهم أكثر من ألف وخمسمائة إلى صلالة، ثم أين نذهب؟ الشمال هو الربع الخالي. اليمن الجنوبي بلد آخر. العدو في الشرق والبحر من ورائنا. فضلت مثال كاسترو. دخل هافانا بعد ثلاث سنوات من فشل ثورته الأولى.

... أهم شيء الآن هو رفع الروح المعنوية للمقاتلين. لا بد من مواصلة العمليات العسكرية داخل ظفار.

٣ فبراير

... توفيت أم كلثوم. خسارة كبيرة، عبرت عن عصرها بكل ما فيه من جوانب. من تطريب إقطاعي إلى أناشيد ثورية، لعبت دورًا هامًّا في تعبئة المقاومة بعد هزيمة ٦٧.

... وضعنا نظامًا صارمًا للتدريب العسكري.

١٣ فبراير

... وفد عسكري أردني برئاسة زيد بن شاكر رئيس الأركان في مسقط.

... أقنعت الرفاق بأن أقود هجومًا على الموقع البريطاني الإيراني في صرفيت.

١٥ فبراير

... نهضنا في الفجر. تجمعنا حول إناء الشاي فوق نار الحطب، تناولنا بالتناوب أكواب البلاستيك والألومنيوم. قمت بتوزيع الكمية الضئيلة المتوفرة من أكياس التتن وعلب الكبريت. كنا نوزعها في السابق بواقع كيس وعلبة كبريت كل صباح. يصنعون سجائرهم اللف. تركت عشرة رفاق بالمعسكر بقيادة علي. سيتناوب بعضهم الحراسة بينما يطوف البعض الآخر على المدنيين القلائل في المنطقة للتوعية وتعليم الأبجدية والتأكد من الأمان. عندما غادرنا المعسكر غنينا: «جيش تحرير الشعب هو أطفال الشعب». أحد المقاتلين حمل على ظهره مدفع هاون ٨٢، صناعة سوفييتية، حمل آخر الحامل. توزعت القذائف على الباقين. لم يعد هناك لاندروفر أو نصف نقل تيوتا أو قوافل الجمال. الطابور يتسلق نحو الهضبة. اثنا عشر مقاتلًا يقفزون من صخرة إلى صخرة في خفة وبراعة الماعز. مرت بنا سيارة عسكرية كبيرة بها عشرات المواطنين في طريقهم لزيارة أبنائهم في المدارس والمعسكرات عبر الحدود. السائق يلتقط المواطنين في الطريق. أكوام السردين على الساحل. ننتظر قاربًا يقلنا إلى نقطة قريبة من صرفيت. لم يعد من الممكن الوصول بغير البحر. نتأمل السماء باستمرار، نرهف السمع لأزير الطائرات. ينتظر معنا عدد من النساء والشيوخ والأطفال يحملون السلال والأكياس. أستطيع أن أفهم ما في عيونهم. هل يحملوننا مسئولية المشقة التي يعانونها؟ نمشي خطوات في المياه لنصل إلى القارب. أكثر من أربعين شخصًا يحملهم القارب القديم. القاعدة تبعد عشرة كيلومترات عن الحدود. مساحة هائلة مربعة يحتلها ٨٠٠ جندي إيراني وبضع عشرات من الإنجليز، تحميها أربع

بطاريات مدفعية مسنودة بالهليكوبترات. من هذه القلعة المحمية يتم القصف المنتظم والأعمى للأهداف المدنية والعسكرية في غرب ظفار. قام الرفاق بتركيب الهاون فوق حافة نتوء مجوف في الصخر، وزعنا أنفسنا بحيث نشرف على الموقع من عدة جهات. كان بوعارف بجانبي ومعه اللاسلكي والمنظار. سيتولى توجيه قذائف المدفعية. ناولني المنظار. شاهدت تحصينات الموقع. دشم عسكرية من الحجارة والأسمنت لا يبين شيء من خلفها. بدأت العملية بقذيفة آر بي جي مباشرة في أكبر الدشم، ثم اختلطت النيران من الرشاشات المختلفة، ظل العدو يتلقى القذائف دون ردٍّ. كان بو عارف يشعر بالنشوة كلما أعطى إشارة صائبة. يجد متعة في التحدث باللاسلكي مع موقع الهاون، بعد إطلاق قذائف الهاون الـ ١٦ استلقينا تحت سفح عمودي لصخرة، وزع مسالم علينا محتويات صندوق من البلح المضغوط. بعد نصف ساعة ظهرت طائرتا ستراكمايستر وألقتا بقذائفهما. ظللنا في مواقعنا والطائرات تروح وتجيء فوقنا بينما جلس حسين في العراء فوق كومة من الحجارة مرتديًا قميصًا أحمر. رفض الانضمام إلينا تحت الصخرة، قال إن الطائرة لا ترى الأشياء الثابتة. عندي شك أني السبب في هذا الاستعراض من جانبه. لا يستطيع أن يحول عينيه عن صدري. بعد رحيل الطائرات بدأنا رحلة العودة. تناثرت القذائف حولنا. بدأت القاعدة ترد علينا. أعددت تقريري في رأسي: قصفنا القاعدة لمدة ساعة. الهدف هو إرهاق العدو وإجباره على إخلائها كما حدث في ثقبيت منذ عامين. هذه المرة أتساءل: من يرهق من؟

١٧ فبراير

... أهدت الأردن لقابوس ٣١ طائرة هوكر هنتر.

٢٠ فبراير

... دخلت القوات الحكومية لأول مرة منطقة وادي ريشم بعد مقاومة خفيفة.

... تصاعد القتال بين الحركة الوطنية الإريترية والنظام الإثيوبي الجديد. المجلس العسكري يطلب من أمريكا إمداده بالسلاح لمواجهة متطلبات القتال. من يقع في فخ قمع المطالب المشروعة للشعوب والقوميات لا بد أن ينتهي به الأمر في أحضان الإمبريالية.

٢٢ فبراير

... الغيضة داخل اليمن بـ ١٠٠ كم، على الطريق الترابي سارية تحمل علم اليمن الديموقراطي. جنود يمنيون. منطقة المدارس، استقبلنا المدير وبعض المقاتلين/المدرسين. المدير القديم الذي نظم مظاهرة الأطفال ضد الإمبريالية السوفييتية استشهد منذ فترة. تلاميذ المدرسة الابتدائية يقفون في سبعة صفوف والكراريس تحت سواعدهم. بعضهم مشي ٥٠٠ كم حتى وصل إلى هنا. فجأة تركوا الكراريس تقع على الرمل وتفرقوا، أسرع المدرسون والبالغون من التلاميذ إلى الآليات المنصوبة حول المدرسة. جاجوار إيرانية تطير على ارتفاع منخفض للغاية. الفناء تغطى بالأطفال الذين انطرحوا أرضًا، كان من الممكن أن تحدث مذبحة لكن الطائرة لم تقصف. أتردد الطيار عندما رأى الأطفال؟ أم أنه في طلعة استكشافية؟

... أقمت مع أسرة عرجون أحد أعضاء المجلس الشعبي اليمني.

... دهميش في مهمة على الحدود ويعود غدًا. لم أرَه منذ سقوط رخيوت. اشتقت إليه.

٢٣ فبراير

... في الغيضة ثلاثون امرأة تجتمع لتزرع سنويًّا عدة مئات من الهكتارات، يتم اقتسام الناتج حسب الحاجة. لا شيء يخضع لقواعد التجارة: اكتفاء ذاتي اقتصادي تام. يتولى رجال الميليشيا تقديم الإرشادات الزراعية وتوفير الأدوات اللازمة. قال لي أحد مسئولي التعاونية: مشكلتنا الآن هي الأمان. العدو يقصف حقولنا أثناء البذار والحصاد بقنابل حارقة.

٢٤ فبراير

... عاد دهميش ظهر الأمس. سألته إذا كان استوحشني. ابتسم في خجل لا يعبر عن مشاعره بحرية. استحممت وغسلت شعري بالشامبو. أعطتني زوجة عرجون قليلًا من الطيب وهي تبتسم في تواطؤ. دهنت جسدي. أقرضتني بلوزة بيضاء بكمين قصيرين وجوبة ملونة وصندلًا. تعشى دهميش معنا ثم سحبته إلى الخارج. تمشينا في الطرقات

المتربة المظلمة، طاردتنا الكلاب، حكيت له مغامرتي في صرفيت، تحدث عن محاولات تجميع المنسحبين على الحدود. ناقشنا الاحتمالات. أصبحنا خارج البلدة. توقفنا بجوار بستان صغير بلا سياج. التفت إليه وسألته: ألا تريد أن تقبلني؟ بهت. شعت عيناه السوداوان بضوء غامض. كشف عن قلة خبرة بالتقبيل. ترك شفتيه فوق فمي فقط. التهمتهما التهامًا. امتصصت لسانه وأعطيته لساني. احتضنني. تعثرنا وسقطنا فوق العشب. عندما أردت أن أركب فوقه أصر على أن يجعلني تحته. شل حركتي بساعديه. نفرت من القيد. قاومته لحظة ثم استرخيت. وجدت متعة في أن أكون امرأة، رقيقة وخاضعة ومتلقية. لكني كنت قادرة على أن أعتقله بين ساقي في قوة تمنعه من الحركة. ساعدته على أن يدخلني بعد محاولات مرتبكة كشفت لي نقص خبرته ودفعت بي إلى الذوبان. وضع يده على فمي ليكتم تأوهاتي.

أول مارس

... عمليات جديدة للعدو في المناطق المركزية والشرقية. لم نعد قادرين على مواجهة الحكومة شرقي خط هورنبيم. القوات الحكومية تتمتع الآن بحرية تامة في الحركة.

... وافقني دهميش على أن الوضع أكثر من حرج وربما ميئوس منه.

١٠ مارس

... ضربة قاصمة: الاتفاق الإيراني العراقي.

... تحدثت مع بعض الرفاق عن الوضع. قلت إن حرب العصابات حرب شعبية أي حرب الجماهير، ادعاء القيام بها دون تأييد الأهالي يؤدي إلى كارثة محققة. العصابات في طليعة الشعب المقاتلة المتمركزة في مكان معين والمستعدة للقيام بسلسلة من العمليات الحربية بهدف استراتيجي ممكن هو الاستيلاء على السلطة، لكنها يجب أن تكون مؤيدة طول الوقت من جماهير الفلاحين والعمال في المنطقة. أضفت أن جيفارا أشار في كتاب منهج لحرب العصابات سنة ٦٣ إلى أن العصابات ليست الصيغة الوحيدة لانتزاع السلطة في كل أمريكا، وإنما واحدة من الصيغ الممكنة للكفاح. أيدني محمد أحمد عضو اللجنة المركزية بطريقة غير مباشرة. قال: الصراع العسكري محدود بظفار. في بقية

عُمان تخوض الجبهة معركة سياسية. الشعب العماني بأكمله ليس مستعدًّا للكفاح ضد قابوس نتيجة الإصلاحات. هناك أيضًا تناقص التأييد العالمي.

ردَّ سعيد مسعود بحدَّة: لقد قلنا دائمًا إننا يجب ألا نعتمد على أحد. تساءلت: هل تكفي بطولة وتضحيات المقاتلين؟ إنها ليست فيتنام أخرى، أضفت: علينا أن نفهم مطالب الجماهير ونبلورها ونقود من خلف وليس من أمام، فإذا غيرت الجماهير رأيها لسبب ما يجب الانصياع لها. عارضني سعيد مسعود: علينا أن نقود من أمام ولا نكون ذيليين وإذا غيرت الجماهير رأيها يجب ألا نكف عن محاولة توعيتها بخطئها، لا بد أن نظل دائمًا متقدمين من الجماهير بخطوة. انفعل وصاح: ماذا نفعل بالمقاتلين الموجودين في الجبل؟ هل تطلبين الاستسلام؟ قلت إني أطلب تقديرًا موضوعيًّا للوضع ومواصلة الكفاح بالشكل المناسب. قال إنه مفاجأ بموقفي.

١٥ مارس

... وصل يعرب من عدن، أحضر لي تفاحًا وسفن أب وشامبو للشعر. قال إن سلعًا كثيرة تدخل من اليمن الشمالي مع الانفتاح في العلاقات مع دول الخليج. علم أن العقيد القذافي سيتولى تمرير الصواريخ السوفييتية إلينا. أحضر معه العدد الجديد من مجلة ٩ يونيو. بها نص الرسالة التي بعث بها القذافي إلى قابوس. تضمنت سطورًا طريفة: «... واستغربنا يا أخي كيف تسمح لنفسك وكرامة شعبك وشرف أمتك أن تحمق إلى درجة السماح لجيوش أجنبية نظامية باحتلال مسقط أولًا ثم ظفار ثانيًا. إننا نهيب بك لآخر مرة أن تطلب سحب الجيوش الأجنبية فورًا، وإذا رفضَت طلبك فبلغنا برفضها لنقاتلها معك جنبًا إلى جنب، وإذا لم تفعل فننذرك بحرب قد تكون أنت فيها في صف الأجانب الغزاة ونحن في صف شعبنا العربي هناك ... أرجو أن تعود إلى رشدك ... وإلى حظيرة أمتك قبل أن تجد نفسك مذمومًا مدحورًا. إننا ننذرك ونعطف عليك في نفس الوقت، ننذرك لأنك أتيت شيئًا فريًّا، ونعطف عليك لأن مصيرك سيكون مصير البعير الأجرب، وما كنا نتمنى لك هذا ولا ذاك».

... سألته عن اعتقالات مطرح. ثار في وجهي. وجه إليَّ السباب، قال إنه لم يتوقع هذا مني أنا بالذات، هل أتصور أنه خان رفاقه وسلمهم إلى السلطة؟ هدأت روعه، قال إنه ربما أهمل بعض الشيء في احتياطات الأمان. لكن هذا هو كل شيء.

١٦ مارس

... حال يعرب تذكرني بأيام القاهرة عندما عاد من مسقط بمعنويات منخفضة. تحدث عن الوضع في عدن. هناك صراع مكتوم بين اليمين واليسار داخل الجبهة. شوكة اليمين تقوى بسبب المصاعب الاقتصادية. رغم إلغاء الاتحاد السوفييتي لديونه (٥٠ مليون دولار في يوليو ٧٤) ورغم المعونة التي تقدمها كوبا. يتطلع كثيرون في السلطة إلى أموال البترول. البعض يعتبر كفاحنا في ظفار عقبة في سبيل ذلك.

... وزعت السلطنة منشورًا به اسمي ومكافأة عشرة آلاف ريال لمن يأتي بي حية أو ميتة. قلت ليعرب: ارتفع ثمني ثلاثة آلاف ريال. تأمل المنشور طويلًا. قال: لم يحددوا لرأسي ريالًا واحدًا. يبدو أني بغير قيمة عندهم. شعرت بعدم الارتياح. كأنما ضايقه أن تكون لي كل هذه الأهمية.

١٨ مارس

... يعرب لا يستريح لدهميش. يعامله بجفاء. لم أحدثه بشيء عن علاقتنا. لكنه لا بد لاحظ أن هناك شيئًا بيننا. تذكرت موقفه من شهاب.

٢٥ مارس

... اغتيال الملك فيصل. لا أستبعد يد الموساد أو المخابرات الأمريكية في الأمر. هل لأنهم فقدوا السيطرة عليه عندما ركبته فكرة تحرير القدس؟

... بلغت عائدات البترول العربي في العام الماضي أربعين ألف مليون دولار وضعت في مصارف أوروبا وأمريكا واليابان.

٢٦ مارس

... أقامت السلطنة مراكز جديدة غرب خط دامافاند. هناك الآن خط من هذه المراكز بين صرفيت والبحر تربطها أسلاك شائكة. مما أدى إلى إغلاق غرب ظفار في وجهنا تمامًا.

... عددنا يتناقص. كل يوم نكتشف اختفاء أحد المقاتلين.

... أعددت تقريرًا طالبت فيه بإعلان وقف العمل العسكري والتركيز على العمل السياسي.

٣ أبريل

... أصدرنا بلاغًا عسكريًّا هذا نصه: «بتاريخ ٢ أبريل ٧٥ انفجر لغم أرضي في سيارة عسكرية من نوع بيدفورد على متنها حوالي ٢٠ جنديًّا أردنيًّا في الطريق من صلالة إلى الخط الأحمر على الشريط الساحلي على مسافة ٨ كم من صلالة وذلك في تمام الساعة الثامنة صباحًا» ... ابتهج دهميش وارتفعت معنوياته. لم أشأ إحباطه. لا أظن ما حدث عملية جديدة. في الغالب لغم قديم.

٥ أبريل

... المناقشات مستمرة حول تقريري. هناك تردد كبير بين زملاء اللجنة التنفيذية. لا يستطيعون اتخاذ قرار. هل ينتظرون رأي الرفاق العدنيين؟

... توصلنا إلى حل وسط، هو إعادة بناء الحركة في الشمال على أساس العمل السياسي. سنتولى أنا ودهميش ويعرب المسئولية.

... ملاحظات على الوضع في عمان: انتقلت السيطرة التامة على أموال الدولة من يد السلطان إلى أوليجاركية من رجال الأعمال. برزت مجموعات رئيسية من رجال الإدارة العليا استبعدت المستشارين الأوروبيين من كل مكان عدا الجيش:

- أعضاء الأسرة الحاكمة الذين حصلوا على أهم المناصب بصرف النظر عن مؤهلاتهم.
- كبار الموظفين التقليديين من أسرة بوسعيد كالولاة والسكرتيريين ذوي الخبرة.
- أعضاء المؤسسة القبلية.
- التجار العمانيون العرب. استبعد من السلطة.
- الزنزباريون بسبب عجز الكثير منهم عن معرفة اللغة العربية بالإضافة إلى لغتهم الأصلية السواحلية والإنجليزية والشك في ولائهم السياسي، حيث تعلم بعضهم في تنزانيا.

- البلوشيون بسبب وضعهم التقليدي كمواطنين من الدرجة الثانية وندرة المتعلمين بين صفوفهم.
- العمانيون من أصل هندي (خوجة وهندوس) الذين يشكلون العمود الفقري التجاري للبلاد. أتاح لهم ثراؤهم تعليم أطفالهم في الخارج، لكن الدين والعرق وقفا في طريقهم.

هذه هي الفئات التي سنبدأ منها.
... أشعر بالقلق والرهبة. المرحلة القادمة مختلفة وربما أكثر خطورة.

٦ أبريل

... كان فوقي. كنت قد شرحت له مواعيد الأمان لكنه لم يستوعبها أبدًا. ترك لي الأمر. سألني لاهثًا: هل أنت آمنة؟ عددت على أصابعي: اليوم الثالث عشر. أخطر يوم. البويضة تتحرق شوقًا للنزول. في أوج حيويتها واستعدادها للالتقاط. كنت على وشك أن أقول هذا. فجأة أمسكت لساني، التقطت أنفاسي في قوة. لمَ لا. لقد حان الوقت. قلت وأنا أبتسم في الظلام: نعم آمنة، وأحطته بذراعي.

٧ أبريل

... يقول يعرب إن الطريق الساحلي مستبعد. بالمثل الطريق البري الذي يمتد من صلالة إلى نزوى ثم مسقط والذي استعملته عند مجيئي لأول مرة. الاثنان تحت سيطرة الحكومة والقبائل الموالية لها. لم يبقَ إلا عبور الصحراء. أحضر خارطة قديمة للجزيرة العربية. تحتل الصحراء الجنوبية زهاء نصف مساحتها. تمتد لمسافة ألف وخمسمائة كم من حدود اليمن في الغرب إلى سفوح جبال عُمان في الشرق، وثمانمائة كم من الساحل الجنوبي إلى الخليج العربي وحدود نجد في الشمال. الجزء الأكبر صحراء داخل صحراء هي الربع الخالي. لم يعبرها أحد سوى بعض المستشرقين الإنجليز. برترام توماس في ١٩٣٠ من الجنوب إلى الشمال، ثم جون فيليبي في نفس السنة من الشمال إلى الجنوب، وأخيرًا ثيسجر في ١٩٤٦ و١٩٤٩. في رأي يعرب أنه الطريق الأمثل أمامنا.

قال دهميش إن التفكير في عبور الربع الخالي هو الجنون بعينه، اقترح أن نذهب إلى عدن ومنها بالطائرة إلى بيروت، ثم ندخل عمان عن طريق الإمارات. تراءت لي شوارع بيروت وشعرت بالحنين. توقعت أن يرحب يعرب بالفكرة لكنه فاجأني بمعارضة حادة

لها. قال إن الأمر لم يعد كما كان في الستينيات. كل أجهزة الأمن في الخليج الآن تعرف بأمرنا ولديها صورنا. حتى العراقيين لا يمكن الاطمئنان إليهم بعد اتفاقهم مع الشاه.

٨ أبريل

... احتددت على دهميش. سألته ماذا ينتظر؟ أن نتسلل إلى ظفار ونقوم بعلميات صغيرة بائسة مثل عملية صرفيت؟ نطلق عدة قذائف أو صواريخ ثم نجري؟ هذا إذا تصورنا إمكانية التسلل نفسها. أو نبقى هنا نأكل ونشرب ونقوم بتدريبات في انتظار اليوم الموعود؟ نلقي المحاضرات بينما عددنا يتناقص والصعوبات تتزايد؟ أم نذهب إلى عدن لنعمل في مكتب نوزع نشرات وبلاغات عن عمليات وهمية؟ لقد وهبنا حياتنا لقضية ظفار وعمان وعلينا أن نواصل بالشكل المناسب.

... أقر المؤتمر السادس للجبهة القومية في عدن نظامها الداخلي. تنص المادة السابعة عشرة منه على احترام حقوق المرأة. تم الاتفاق على تكوين الحزب الواحد من التنظيم السياسي للجبهة والحزب الشيوعي وحزب الطليعة (البعثي). اعتبر المؤتمر أن الدعوة الحالية لوحدة اليمنين تمثل انتكاسًا للثورة لأنها تغفل اختلاف المراحل. لو تحققت الآن ستؤدي إلى تغليب أوضاع الشمال.

٩ أبريل

... عدنا إلى مشروع الربع الخالي وشرح لنا يعرب أن الرحلة ستستغرق بين ثلاثة شهور وأربعة في أحسن الأحوال. هناك طريقان: الأول عبر جبال القرا شمال صلالة ثم نتجه يمينًا إزاء حافة الربع الخالي حتى ندخل السعودية في وادي موقشين المجاور لأرض جدة الحراسيس ثم رملة الغافة. لا بد من دخول السعودية لتجنب الرمال المتحركة، ثم ندور حول عروق الشيبة والسبخات، وعند واحة ليوا نعود إلى الشرقي وندخل عمان تحت نزوى. الطريق الثاني من حضرموت إلى منوخ ويعبر مسافة ٦٠٠ كيلومتر تقريبًا داخل الربع الخالي بلا ماء. قطعها ثيسجر في ١٦ يومًا. بعدها نصبح في السعودية فنتجه شمالًا ثم يمينًا حتى أبوظبي.

واضح أن يعرب درس المشروع جيدًا. دهميش ما زال مترددًا، يقول إن الصحراء ليست سهلة. المياه الآسنة المرة. الرياح المحملة بالرمال. البرد القارس. القيظ الملتهب. الوهج الذي يعمي الأبصار في أرض لا ظل فيها ولا غيوم، ثم العزلة والمفاجآت.

... هناك دائمًا مشاكل وتحالفات بين القبائل. وعداء تاريخي بين الرواشد والدروع، كل القبائل بين حضرموت وعمان تنتمي إلى إحدى الفئتين المتصارعتين، بعض القبائل تستضيف الغريب لثلاثة أيام ثم تضمن له يومًا إضافيًّا من الأمان. لكن هناك دائمًا حاجة إلى ربيع أو مرافق من إحدى القبائل يكفل الحماية للمسافرين معه. المشكلة هي في العثور على من يقبل مرافقتنا في هذه الظروف، ثم إننا نحتاج إلى دليل خبير بأودية ودروب جبال القمر والقرا.

١٠ أبريل

... وافق دهميش أخيرًا على عبور الربع الخالي، اتفقنا على استبعاد طريق حضرموت–منوخ؛ لأنه يضعنا في يد السلطات السعودية التي لن ترحمنا، لم يبقَ إلا طريق موقشين. صحيح أننا سنخترق الأراضي السعودية لكن ذلك سيجري في مناطق غير مأهولة. وعلى العموم أقل ضررًا.

... يجب أن أتنكر. إما أن أصبح رجلًا بشعري القصير وأرتدي الفوطة بدلًا من البنطلون الكاكي، أو أتحول إلى امرأة بدوية ترتدي قناعًا من القماش الأسود به فتحتان للعينين. قررت أن أكون الشخصيتين.

يعرب لا يستقر في مكان. دائم التجوال. يختفي أحيانًا اليوم بطوله.

١١ أبريل

... تبينا أننا أغفلنا شيئًا هامًّا. المفروض أننا سننطلق من شيصر على حافة الربع الخالي ونقطع مائة وخمسين كم حتى موقشين. هذا الطريق موازٍ لطريق صلالة–مسقط البري ويبعد عنه بحوالي ثلاثين كيلومترًا، صحيح أن المنطقة بعيدة عن العمليات العسكرية إلا أن الطريق كله أصبح تحت سيطرة الحكومة، ولا يستبعد أن تكون به دوريات. كما أن موقشين نفسها تقع عليه ولا بد أن يكون بها موقع حكومي، لم يبدُ على يعرب أنه فوجئ بهذا الاكتشاف. أجمعنا أنا ودهميش على عدم المغامرة باجتيازه على عكس يعرب. قال إنه يوفر علينا السير في الربع الخالي مسافة مائة وخمسين كيلومترًا، أصر على موقفه فلم نجد مفرًّا من الإذعان.

... بدأنا استعداداتنا.

١٤ أبريل

... هاجمت أمس ميليشيا الكتائب اللبنانية في بيروت باصًا يقل عددًا من الفلسطينيين واللبنانيين، قُتل في الهجوم ٢٩ راكبًا أغلبهم من الأطفال.

... لدينا الآن مائتا رطل من الطحين وكمية كافية من الأرز وقليل من الذرة والسمن والقهوة والشاي والسكر والمعلبات (تونة، ماكريل، خضراوات، عصائر، كمبوت). هذه الكمية يجب أن تكفي مجموعة من خمسة أشخاص لمدة شهرين على الأقل.

... يحتاج الفرد لربع جالون من الماء في اليوم بين شرب وطهي. لا بد أن يكون معنا في المرحلة الأولى ما يكفي لمدة شهر على الأقل.

١٧ أبريل

... اتفقنا مع اثنين من الرفاق من بيت كثير. كانا معي أثناء الانسحاب من رخيوت. سيرافقاننا حتى شيصر ثم يعودان إلى الغيضة بعد أن يزورا قريتيهما. لم نصارحهما بوجهتنا الحقيقية. قلنا إننا ذاهبون إلى المنطقة الشرقية لتنظيم المقاومة، تمكنت من تدبير رشاشات جديدة ما زالت في لفافاتها. تفقدتها ثم أعدت لفها في الورق المشحم الذي يحفظها من الرطوبة.

١٨ أبريل

... سألته ماذا يفعل عندما لا تكون معه امرأة. قال لا شيء، قلت إن هذا مستحيل. أصر على إجابته. أبديت عدم اقتناعي، تحداني: وأنت؟ قلت: يمكنني أن أقول لك، أنا لا أخجل من شيء طبيعي. قلت له فاحمر وجهه.

٢٠ أبريل

... إذاعة بيروت الساعة ٥ مساءً: الملك حسين يقول إنه تفقد في صلالة قواته التي تقوم بحراسة الطريق إلى تمريت.

... أكملنا استعداداتنا. خيمتان صغيرتان. ذخيرة احتياطية. بطاطين. كوفيات ثقيلة. بطاريات للراديو. كراسة فارغة. كتب لينين وماو. رواية الفولاذ سقيناه لاوستروفسكي. الهزيمة لفادييف. الدون الهادئ لشولوخوف. صندوق أدوية صغير، حلتان للمطبخ. خمس قرب ماء. حبل طويل. كرة خيطان. دزينة كبريت. مطواة. مصباح ببطارية. كمية من الريالات السعيدية في كيس خيش.

٢٢ أبريل

... السادات في طهران. الساعة الخامسة والربع تعليق لإذاعة القاهرة يقول: «موقف إيران موقف مشرف من القضية العربية منذ ٦٧، وكان لها خط عربي واضح من إسرائيل ... ودور مشرف في حرب أكتوبر». يا للعار! نسوا كيف هرع الشاه لنجدة إسرائيل بالنفط في الأيام الأولى للحرب، السادات يسيل لعابه في حضرة الملوك والأباطرة.

... دهميش في قرية مجاورة، يبحث عن نياق جيدة نشتريها أو نستأجرها. المفروض أن نستأجر الجمال من أهالي قرًّا ثم نستبدلها كلما اجتزنا واديًا إلى آخر لأن كل وادٍ يملكه بطن مختلف من القبيلة.

٢٥ أبريل

... استأجرنا خمس نياق من قبيلة المهرة. سنستبدلها في حبروت. اقترحت أن نبدأ السير في الحال كي لا يعوقنا موسم الأمطار، قال دهميش إننا سنكون ساعتها بموازاة السفوح الشمالية وقريبًا من حافة الربع الخالي، وتكون القبائل في الكهوف والحركة محدودة تخليت عن البنطلون الكاكي، تخلصت من السوتيان ولففت قطعة من القماش حول صدري وضغطتها بقوة لكي تخفي بروزه. وضعت معوزًا كبيرًا حول وسطي فغطاني حتى القدمين. ابتسم دهميش في خبث عندما اقتعدت الأرض وانحسر طرف المعوز كاشفا فخذيَّ.

٢٩ أبريل

... أشعر بالدوار والغثيان. أعتقد أني حامل.

أول مايو

... استولت جبهة التحرير الفيتنامية على سايجون. أصبح النصر النهائي على الإمبريالية الأمريكية على الأبواب.

... أعددت كيسًا من الجلد يتسع لدفاتر يومياتي. ثبت قميصي عند الخصر بزنار جلدي بحيث صنعت جيبًا وضعت فيه الكيس، حملنا أسلحتنا، معي أيضًا مكاروف ٩ ملم. تضم خزانته ثماني طلقات. فائدته قاصرة على الأهداف القريبة المحدودة العدد، انطلقنا في الفجر على أقدامنا الحافية خلف الجمال، سرنا ثلاث ساعات. النباتات الشوكية تلقي خيوطًا من الظلال على الصخور. الجمال لا تسير دائمًا في خط مستقيم وإنما تنحرف في اتجاه موطنها. لا بد من توجيهها بالعصا. ناقتي مطيعة لكن خطواتها قصيرة. اخشوشنت الأرض فأمسك كل واحد بمقود ناقته، ربطت ناقتي في ذيل ناقة دهميش. اشتدت الحرارة فارتقى الجميع نياقهم. فضلت أنا المشي. في المساء توقفنا بجوار عين ماء صغيرة، طرحنا الأمتعة بين الأشواك والحجارة، أطلقنا النياق لترعى. اشتركنا في إعداد الأرز. شربنا الشاي بعد العشاء. نصبنا خيمة واحدة لي. فضل الرجال النوم في العراء، قررنا أن نقتصد في تشغيل الراديو ونقصر الاستماع على الأخبار. رتبنا نوبات الحراسة. لجأت إلى دفتري.

٣ مايو

... يعرب غارق في التفكير، لا يتكلم كعادته.

... أتحرق شوقًا إلى جسد دهميش. لكننا اتفقنا على أن نحرص على المظاهر أمام الرفيقين ويعرب.

٤ مايو

... حبروت. عائلات كثيرة من المهرة تسقى نياقها من الآبار الضحلة بالقرب من بستان النخيل. النساء في هذا الجزء غير محجبات ويرتدين أثوابًا زرقاء قاتمة تضع واحدة خاتمًا فضيًّا في أنفها، أكل الأطفال معنا. قضينا المساء في تنظيف أسلحتنا.

... انضممت أمس إلى دهميش في نوبة حراسته. قضيت الوقت كله جالسة في حضنه.

٦ مايو

... استبدلنا الجمال. وجدنا صعوبة في الحصول على ناقة احتياطية لتحل مكان أي ناقة تتعرض لحادث. يمكن أن نذبحها عند الضرورة ونأكلها، وجدنا ناقة سوداء اللون. اشتريناها بثمن بخس. القوم هنا لا يحبون اللون الأسود. الأفارقة مساكين حقًّا. الناقة صغيرة السن ذات خطوات طويلة جدًّا وحبلى في شهرها الرابع. تلد بعد ثمانية شهور أخرى.

... قلت لدهميش إني أعتقد أني حامل، أنبني. كان يجب أن نحتاط، قلت إني لن أتمكن من التخلص منه في الصحراء. كنت أختبره. بهت وصاح بي: هل جننت؟ احتضنني وقبلني، سألد في نزوى أو الجبل الأخضر أو مسقط. سنكون هناك بعد شهرين أو ثلاثة على الأكثر.

٧ مايو

... ألحَّ على أن أعتلي ناقتي، يُبدي نحوي رقة شديدة. أناخها لي، ثم خفض رأس ناقته واعتلاها. ركع فوق السرج جالسًا على بطن قدميه وسلاحه تحت ذراعه في موازاة الأرض، لم أتمكن من تقليد هذه الطريقة التي تعتمد على التوازن.

٩ مايو

... صعدنا من حبروت إلى منبسط حصوي. عدد من أبناء قبيلة المهرة يسقون الجمال. امرأة منهم صبغت وجهها باللون الأخضر، أخرى رسمت خطوطًا زرقاء وخضراء على أنفها وذقنها. الهضاب فقدت خضرتها وكشف الجبل عن وجهه المتجهم.

... لم أذكر شيئًا عن الحمل ليعرب، ساورني شعور بأني يجب ألا أفعل.

١٠ مايو

... اعترضتنا جماعة من بيت جداد. طلبوا منا مالًا ليسمحوا لنا بالمرور. رفضنا. قررنا أن نعود مسافة قصيرة ثم نسلك الطريق المحاذي للحدود. سنتجنب بذلك اختراق جبال القمر، سنعبر الحدود عند سفوحها الشمالية.

١٢ مايو

... يسير الرفيقان في المقدمة يتبعهما بعرب، يحرص على الانفراد بنفسه. يتيح لنا هذا الترتيب أن نكون أنا ودهميش متجاورين. لا نكف عن الحديث. وجدت نفسي قادرة على التعبير عن أفكار كنت أتهرب من صياغتها في كلمات أو البوح بها لأحد، قلت له: كنا نقول دائمًا إن القوتين المحركتين للثورة هما العمال والفلاحون، لم تسأل أنفسنا أبدًا أين هم العمال معتبرين أننا الطليعة ووجودنا نحن كافٍ.

١٣ مايو

... حكيت له عن شهاب ووليد. كنت أرقب ملامح وجهه. أثارتني الغيرة التي بدت عليه.

١٤ مايو

... مررنا بعدة نياق ترعاها امرأة عجوز مع صبي صغير، سألناها قليلًا من الحليب فهتفت بالصبي: أسرع. أسرع. أحضر بنت السنتين. أهلًا أهلًا بالضيوف. قدمت لنا طاسة حليب تغطي سطحها بالرمل البني. جلسنا القرفصاء الواحد بعد الآخر. نفخنا الرغوة جانبًا وشربنا، سألتنا عن وجهتنا، أجبناها إجابة غامضة مشيرين إلى الجبال، قالت بحماس: الله ينصركم، هل تدرك هويتنا؟ منذ سنة فقط كنا سنقول لها إننا من الثورة. أصرت أن تهب لنا حليبًا في قربة صغيرة وقالت إننا نستطيع مزج القليل منه كل يوم مع مياه الشرب لتحسين طعمها. اكتشفنا أن إحدى قربنا ترشح فصبت بها قليلًا من الحليب لوقف تسرب المياه.

١٥ مايو

... اتجهنا يمينًا نحو الشرق مقتفين أثر بعض الأودية التي تتخلل الهضاب.

... سألني يعرب عما أكتب بالضبط كل ليلة. قلت له إني أحرص على تدوين يوميات الثورة، وإني تعودت على كتابة يومياتي من أيام بيروت. قال: هل تذكرين كل شيء؟ قلت: بقدر الإمكان. فكر برهة ثم قال: هل تذكرين الأشخاص بأسمائهم؟ قلت إن أغلب الأسماء مستعارة. تساءل عما إذا لم تكن هناك خطورة في ذلك. لم أجبه. كثيرًا ما داعبني هذا الخاطر وتجاهلته.

١٦ مايو

... قال لي اليوم: سنتزوج بمجرد وصولنا إلى العمران. قلت: بدأت تفكر مثل البرجوازيين، نحن متزوجان فعلًا ولا نحتاج إلى ورقة تثبت ذلك. قال إننا مقبلون على مرحلة مختلفة تتطلب الحياة طبقًا للقواعد القديمة. علينا أن نفكر في الجنين، ابتسم ابتسامته الماكرة التي أحبها، قال: المفروض حسب تقاليد بيت كثير ألا يكون الزواج في شهر صفر وأن يقوم أبوك بالإنفاق على الزفاف والإعداد له. رددت عليه أنه حسب هذه التقاليد نفسها يجب عليه أن يقدم مهرًا يذهب نصفه لأبي والنصف الآخر ليعرب.

٢١ مايو

... شعرت بالغثيان في الصباح. لاحظت أن حلمتي صدري ملتهبتان وأن فخذيَّ منتفخان.

٢٣ مايو

... عبرنا وادي غودون بعد أسبوعين من مغادرة حبروت. استرحنا ظهرًا على مقربة من بستان نخيل تقطفه قبائل بيت كثير في شهر سبتمبر، مرَّ بنا عدد منهم مسلحون بالبنادق الإنجليزية ٣٠٣، منهم اثنان يحملان رشاشين روسيين. زعيمهم عجوز قصير القامة بعينين براقتين وذقن تتدلى منه بضع شعيرات بيضاء. ممتلئ حيوية ويتحرك بخفة. من بيت موسان. تعرفوا على عائلة دهميش. انزويت داخل الخيمة وأعطيتهم ظهري، لم يُبدوا أي فضول، سمعت دهميش يخبرهم بأننا ذاهبون إلى المنطقة الشرقية، قالوا إن المعارك هدأت بها. تجنبوا أن يكشفوا عن موقفهم من الصراع لكن هذا في حد ذاته كان يعني أنهم في جانب السلطان. كان موعد صلاة المغرب قد أزف فتوضئوا وصلوا، كل واحد في مكانه بعد أن وضع سلاحه أمامه، قرءوا سورة الفاتحة التي لا تعرف أغلب القبائل غيرها. يكتفون بصلاة الفجر والمغرب ويهملون باقي الصلوات. يصلون وهم يتلفتون حولهم بالطبع كي لا يفاجئهم الأعداء من القبائل الأخرى. واصلوا السير بعد الصلاة مباشرة، عندما امتطوا نياقهم تعمد زعيمهم أن يلتفت نحوي متفحصًا. شعرت بالقلق.

٢٤ مايو

... انتقلنا شمالًا ببطء متتبعين وادي غودون، وهو واحد من خمسة مجارٍ نهرية جافة تنحدر من جبال القرا. كانت كتل الصخور المتساقطة من الجرف تملأ الجانبين، فاضطررنا للسير بصعوبة في قعر المجرى.

٢٥ مايو

... قضينا الليلة لدى عائلة أحد الرفاق من بيت كثير تقيم أسفل شجرتين دون خيام، ذبحوا لنا عنزة رغم تواضع إمكاناتهم. الزوجة مكشوفة الوجه نحيفة جيدًا تسعل باستمرار. ممتلكاتهم: بضعة قدور وطاسة ماء وبعض القرب وكمية من سمك السردين منثورة على قميص ممزق وبعض الخرق. كيس من جلد الماعز مليء إلى منتصفه بالطحين. سألتهم عن الربع الخالي. تطلعوا إليَّ في استغراب، قال الرفيق: تعنين الرمال؟ سألته: هل صحيح أنها خالية من البشر تمامًا؟ قال إن ابن عمه سافر فيها مرة أربعين يومًا دون أن يشاهد أحدًا، سألته إذا كان من الممكن عبورها. قال ممكن ولكن لا بد من وجود ربيع. احتد دهميش عليَّ فيما بعد. قال إن الأخبار تنتقل في الصحراء بسرعة البرق. كلما التقى أعرابي بآخر كان السؤال الأول عن الأخبار، والإجابة تشمل أي شيء والجميع ينصتون بانتباه ليعرفوا ماذا يجرى وأي القبائل تحركت من أماكنها وفي أي اتجاه.

٢٧ مايو

... غادرنا الرفيقان على مشارف شيصر. خيمنا بعيدًا عن طريق القوافل، عندما تأكدت من رحيلهما استبدلت ملابسي. تحولت إلى بدوية في رداء أسود سابغ وضعت على وجهي قناعًا أسود من الجلد لا تبدو منه غير العينين. انزويت في خيمتي مضى يعرب ودهميش يستكشفان القرية. هناك كهف يحتوي على تماثيل قديمة على شكل طيور. آثار حصن حجري قديم. لا بد من تحويل هذا المكان بعد النصر إلى متحف. هناك أيضًا بئر ماء نقي على عمق ١٥ قدمًا بين الصخور، حمل كل منا قربة وذهبنا لمائها. الرجال والنساء يسحبون الحبال معًا وهم يغنون. يفرغون الدلو المليء في حوض جلدي كبير فتتدافع النياق إليه. صفوف من القرب المليئة بالماء. عندما جاء دورنا كانت البئر قد جفت فانتقلنا

إلى أخرى على مقربة. تبادلنا الحديث في اقتضاب مع الأهالي، فاجئونا بسؤال عن بقية جماعتنا. قالوا إنهم كانوا يتوقعوننا. مرت بهم جماعة بيت موسان التي التقيناها عندما عبرنا بوادي عودون. حدثهم زعيمها عنَّا. قال لهم إننا أربعة رجال وامرأة، لم ينطلِ عليه تنكري إذن. قلنا للأهالي إن رفيقينا تخلفا لمرضهما. سألنا عن الاتجاه الذي مضت فيه جماعة بيت موسان. قالوا إنهم اتجهوا إلى موقشين. لم أسترِح لهذه المعلومات.

... أعربت عن رأي بضرورة تغيير طريقنا. قلت إن اهتمام جماعة بيت موسان بأمرنا مريب. قال يعرب إنها عادة القبائل. قلت إننا لن نخسر شيئًا إذا اتخذنا الحيطة. عاد إلى حجة المائة وخمسين كيلومترًا التي يوفرها طريق موقشين. كررت الإشارة إلى خطر الدوريات الحكومية. انضم دهميش إليَّ في الرأي، اضطر يعرب إلى الموافقة. قلت إننا لن نتمكن من إخفاء عزمنا على عبور الصحراء. لكننا نستطيع تضليل من يفكر في مطاردتنا. سنذيع أننا ذاهبون إلى موقشين ثم نغير طريقنا بمجرد خروجنا من شيصر.

... بعد العشاء أعلنت أني سأنام مع دهميش في خيمة واحدة. لم يبدُ على يعرب أنه فوجئ، لكنه لم يكن سعيدًا. رتبنا مواعيد الحراسة. اشتركنا أنا ودهميش في نوبتنا، عندما رقدنا عرَّى بطني وأغرقها في القبل، استسلمت للنوم ورأسي على صدره، أشم رائحة عرقه النفاذة.

٢٨ مايو

... ذهب دهميش يبحث عن ربيع، لزم يعرب الصمت واستغرق في التفكير. هل هو غاضب مني؟ هل أحدثنا أصواتًا بالليل؟

... عاد دهميش قبل الغروب يائسًا، لا أحد يرغب في عبور الرمال كما يسمونها، جماعات كثيرة ضلت طريقها فيها وهلكت. عددنا أيضًا قليل ويمكن أن نقع وسط معارك بين القبائل أو نتعرض للاعتداء.

٢٩ مايو

... اختفى يعرب طول اليوم، دهميش ما زال يبحث عن نياق وأدلاء، نحتاج إلى أكثر من مرافق لدافع الأمان والدفاع.

٣١ مايو

... أحضر يعرب دليلين: شابًّا في الثامنة عشرة من عمره يُدعى ابن نجم. شعر رأسه طويل وشفتاه مكتنزتان وأسنانه ناصعة البياض، يحمل بندقية إنجليزية. الثاني خشعت أكبر منه في السن والحجم. لم تعجبني نظرات عينيه التي تحوم طول الوقت حول حاجياتنا. معه كلاشينكوف، سألته من أين حصل عليه، ضحك ولم يجب. ازداد نفوري منه، اتفقنا على أن نكمل استعداداتنا في الغد وننطلق بعده.

أول يونيو

... عوضنا النقص في إمداداتنا، معنا من الماء ما يكفي لعشرين يومًا إذا خصصنا ربع جالون في اليوم للطهي والقهوة والشاي، بالإضافة إلى ربع آخر لكل واحد من أجل الشرب. هناك كمية أخرى ستتبخر أو ترشح. قررنا أن نعتمد على الرمال في غسيل أيدينا أو تنظيف أجسامنا. سقينا النياق لآخر مرة. شرب كل جمل بين عشرة واثني عشر جالونًا من الماء. كلما توقفت الناقة عن الشرب نحك بين ساقيها الخلفيتين ونتحدث إليها مشجعين. عشرون يومًا بلا ماء هو أقصى ما يمكن أن يتحمله الجمل بشرط توفر المراعي، وإلا فيومين أو ثلاثة. معنا أيضًا صندوق تمر، انضم إلينا مرافقانا بناقتيهما وحاجياتهما البسيطة.

٢ يونيو

... استيقظنا في الفجر. صباح قارس. رياح باردة تهب من الشمال الشرقي. ستمحو آثار أقدامنا إذا استمرت، أكلنا بقايا الطعام المتبقي من أمس. شربنا الشاي والقهوة المرة. بدأ تحميل النياق. ثارت وعلا رغاؤها. هل تشعر بأنها مقبلة على رحلة خطرة! كممنا أفواهها بلا فائدة. شد خشعت ناقته من عقالها إلى أسفل قائلًا: خر ... خر. ناخت على ركبتيها، ربط ساقيها بنهاية عقالها لمنعها من النهوض أثناء التحميل. حددنا الاتجاه على البوصلة. هتف: توكلنا على الله. انطلقنا في اتجاه الصحراء، رددت نشيد دقت ساعة التحرير، انضم إليَّ دهميش. فجأة ارتفع صوت مرافقينا بأغنية قبلية قديمة: «القبائل تهدر بالصوت العالي». أعادتنا إلى أرض الواقع.

... توقف خشعت بعد ساعة أمام كومة من الأحجار على يمين الطريق. أشار جهة اليمين وقال إنه الطريق المؤدي إلى موقشين. أبلغناه بأننا لن نأخذه وسنتجه شمالًا في خط

مستقيم. كنت قلقة بشأن رد فعله فربما رفض لأننا لم نتفق معه على ذلك في البداية. دهشت لأنه لم يعترض، مشينا حوالي سبع ساعات. الأرض منبسطة وسهلة. حططنا الرحال عند الغروب بجوار بعض الأعشاب. نصبنا الخيام وأشعلنا نارًا، أنخنا النياق حولها. غرف خشعت رطلًا من الدقيق أضاف إليه كميات قليلة من الماء ثم عجنها إلى أن أصبحت سميكة. قسم العجين إلى كتل متساوية رققها بيديه ثم وضعها على مفرش، تولى ابن نجم إشعال النار. استعان بطرف من كوفيته. صنع من بعض الجمرات موقدًا متوهجًا وضع عليه أقراص العجين. قلبها مرتين ثم دفنها في الرمل تحت الجمر ووضع الرمل والحجر فوقها. راقبنا الفقاقيع تخرج من طبقة الرمل والرماد إلى أن نضجت الأقراص. رفعها ونظفها من الرمال ووضعها جانبًا لتبرد. كان طعمها كنشارة الخشب. بعد الأكل كان دوري في تنظيف الأواني، دعكتها جيدًا بالرمال، ثم جلسنا حول النار، شربنا الشاي، استخرج خشعت تبغه من كيس جلدي صغير يحمله تحت قميصه، حشاه في غليون حجري ثم أشعله. سحب نفَسين ثم قدمه إلى زميله. أنزلت سرج ناقتي وأنا أتأمل موضع قدمي في حذر خوفًا من أن أدوس على عقرب أو أفعى من ذوات القرون. حملته إلى خيمتي وبسطته فوق الرمال. استخدمت الخرج وسادة. وضعت حزام الذخيرة تحته. والرشاش إلى جانبي. حفرت مكانًا في ركن الخيمة القريب يتسع لكيس دفاتري حتى الصباح.

٣ يونيو

... ظل الرجال أمس يتحدثون ساعات طويلة وهم جلوس حول النار، مع ذلك سمعتهم في الفجر وأنا شبه نائمة ينقلون النياق من مكان رقودها وهي ترغي. استيقظت تمامًا عندما بدأ أحدهم يطحن البن في هاون نحاسي، ثم ارتفع صوت أحدهم بالأذان. أخرجت رأسي من الكيس فلمحت خشعت يتوضأ. قفزت من مرقدي عندما رأيته يغسل وجهه ويديه وقدميه بالمياه التي عانينا في ملئها وحملها. سألته لماذا لا يتيمم بالرمال كما هي العادة. قال من الأفضل أن نصلي على أن نشرب. بذلت مجهودًا للسيطرة على غضبي.

... مشينا على أقدامنا ساعتين. شعرت بالتعب فشددت رأس الناقة إلى أسفل ووضعت قدمي على رقبتها. ارتفعت إلى السرج. لم أتمكن من تقليدهم بفتح رجلي على السرج أو الركوع فوقه. لذلك كنت أشعر طول الوقت بطرف السرج يخز فخذي. بعد مسيرة قصيرة شاهدنا رمال الربع الخالي ممتدة أمامنا كحائط وردي. توقفنا مبهوتين نحدق في المشهد

في رهبة. بدأنا السير في بعض الرمال الناعمة عسيرة على الجمال بعكس السطح الصلب المتلئ بالحصى الذي كنا تسير عليه حتى الآن. عند العصر نصبنا خيامنا بجوار بعض أشجار الغاف: شجرة كثيفة الأغصان عميقة الجذور. تبعثرت النياق ترعى، فجأة صاح واحد محذرًا. لمحنا مجموعة من البدو تقترب منا بسرعة فوق نياقهم، بنادقهم في وضع الاستعداد. التقطنا أسلحتنا وانبطحنا أرضًا. صاح خشعت إنهم ليسوا من دهم أو سعر بسبب سروجهم ولا من العوامر بسبب ثيابهم. نهض واقفًا وتقدم منهم ببطء ويده على زناد بندقيته. فجأة أرخى بندقيته بينما أسرع إليه واحد منهم. تعانقا ... نهضنا واقفين ونحن نتنفس الصعداء. رحبنا بهم وقدمنا إليهم القهوة. قالوا إنهم بحثوا عنا في الطريق إلى موقشين. سمعوا في شيصر أننا ذاهبون في هذا الاتجاه. تبادلت النظرات مع دهميش، يريدون سفاد جملهم. كان الجمل متهيجًا يجلد نفسه بذيله ويصر على أسنانه وينفخ من فمه فقاعات كبيرة ذات لون وردي ثم يمصها مغرغرًا. قدمنا إليهم ناقة صغيرة السن. أناخوها على الأرض وفرشحوها. ركع أحدهم بجوارها ليساعد الجمل. الجمل لا يستطيع العثور على المكان الصحيح بمفرده.

... سألني دهميش بالليل عندما انضم لي في فراشي: أتعرفين الفرق بين الإنسان والجمل؟ قلت: التفكير، قال إن الجمل يفكر أيضًا. انقلب فوقي ثم أضاف هامسًا: الفرق هو أن الإنسان يعرف طريقه ولا يحتاج إلى مساعدة. ابتسمت في الظلام وأنا أذكر المرة الأولى.

٤ يونيو

... شرح لي ابن نجم في الصباح كيف يتم التعرف على القبيلة التي ينتمي إليها الغريب في الصحراء: طريقة شد حزام الرصاص، وضع الكوفية (مدلاة على الصدر أو ملفوفة حول الرأس)، قراب البندقية، النقوش التي تزين السرج، طريقة المشي والكلام. كان يقوم بتحميل النياق. وكان شعره الطويل ينسدل على عينيه فيدفعه إلى الوراء بيديه، استقرت عيناي على صدره العاري. أبعدتهما بصعوبة. لمحني دهميش. رأى شيئًا ما في عيني أغضبه، خاصمني.

... لففنا أنفسنا بالعباءات وتلثمنا بالكوفيات بحيث لم يعد يظهر من وجوهنا سوى العيون. الملابس الإضافية تمنع العرق من التبخر فتشكل طبقة باردةً من الهواء بين الجسم والملابس.

... أتأمل التغيرات التي تحدث لجسدي، معجزة الحياة واستمرار النوع.

... ليس هناك أروع من مشهد الصحراء ساعة الغروب عندما تكسوها الشمس بغلالة وردية.

٥ يونيو

... عندما هجعنا بالأمس كان دهميش ما زال غاضبًا. أعطاني ظهره. داعبته. استدار نحوي واحتضنني بعنف. شعرت في عناقه بشيء من الغضب، لماذا يفترض الرجل أن مشاعر المرأة يجب أن تقتصر عليه وحده دون غيره؟ إذا أعجبني جسد رجل أو شيء ما فيه فليس معنى هذا أني وقعت في غرامه أو أريد أن أنام معه. وحتى لو داعبني الخاطر. المعنى الوحيد هو أن جسدي عواطفي حية ومتوقدة ومتوهجة. أني أحيا. لا بد من إعادة تثقيف دهميش في هذا المجال ... استمتعنا جيدًا ببعضنا البعض. تمنيت لو كانت هناك بحيرة قريبة لأغطس فيها ... أليس ابن نجم هو السبب بشكل ما في درجة المتعة التي حصلنا عليها؟ أمامنا وقت كافٍ نستكشف فيه كل المسارب اللذيذة الخفية لأحاسيسنا ورغباتنا ومتعتنا.

... التقاط الإذاعات صعب بعض الشيء. نبأ جيد لرفاقنا في عدن: إعادة فتح قناة السويس للملاحة الدولية، نبا آخر يبعث على الأسى: تكوين لجنة مصرية أمريكية لتنمية الاستثمار في مصر تضم روكفلر رئيس بنك فيرست ناشيونال، رئيس موبيل أويل، رئيس يونيون كاربيد، فؤاد سلطان، زكي هاشم، عادل جزارين، وغيرهم.

... تحدثنا عن شخصية ستالين وعبادة الفرد. أبدى يعرب إعجابه بستالين. قال إنه استطاع أن يقود بلاده في فترة صعبة وواجه الغزو الألماني ووضع أساس البناء الاشتراكي. قلت إن جرائمه لا تغتفر فقد قضى على مئات الكوادر الحزبية والعسكرية المخلصة وزرع الخوف في نفوس أبناء الشعب. وهو المسئول عن قرارات المؤتمر التاسع للحزب السوفييتي الذي اعتبر أن إعلان موقف مخالف لمواقف القيادة يعتبر سلوكًا انقساميًّا. اعترض دهميش على كلامي قائلًا: ماذا يحدث لو أعلن فهد مثلًا على الملأ معارضته لقرار مركزي بالدخول في معركة أو الانسحاب منها؟ قلت إن هذه لحظات خاصة تخضع لمنطق العسكرية، وهو منطق استبدادي مطلق بحكم الضرورة وغير إنساني. فكرت أن الموضوع أعمق من ذلك وله علاقة بالفلسفة. هل يمكن أن يحتكر أحد الحقيقة المطلقة؟ المادية الجدلية تقول لا. العلم أيضًا. لكن كيف يمكن إقناع مقاتل بأن يعرض صدره للموت إذا كانت القضية

التي يحارب من أجلها ملتبسة أو تحتمل وجهتي نظر؟ وهل الموت في سبيل القضية أمر ضروري؟

٦ يونيو

... صادفنا بئرًا صغيرة مطمورة. قضينا ساعتين في تطهيرها، الماء تتصاعد منه رائحة الكبريت الكريهة، عندما ذقتها بصقتها في الحال. رفضت النياق الشرب منها. كمَّمناها وصببنا الماء في أفواهها بالقوة. كنت أتلهف على الاغتسال لأزيل لزوجة العرق. ملأنا قربة وحملناها بعيدًا. بسط بطانية بين ذراعيه ليحجبني عن الأنظار. عندما أصبحت عارية أدار وجهه بعيدًا في خجل.

... سقط مني الكيس الذي أحتفظ فيه بدفاتري. انحنيت واستعدته. عندما اعتدلت لمحت خشعت يرقبني في تركيز. لم أسترح لنظرة عينيه، اقترح عليَّ يعرب أن أعهد إليه بدفتر يومياتي كل ليلة. ربما ظن خشعت أن الكيس به مال وحاول الاستيلاء عليه. قلت إني أعرف كيف أعنى بنفسي وبيومياتي.

٧ يونيو

... قبيل الظهر لمحنا عاصفة ترابية تقترب منا من الجانب الأيمن، ثم تكشفت عن جماعة من البدو الراكبين يتجهون نحونا بسرعة. وضعنا أيدينا على أسلحتنا. أطلق خشعت طلقتين في الهواء. لوحوا بكوفياتهم وقفز أحدهم من فوق ناقته وقذف رملًا في الهواء فاطمأننا. أوقفوا نياقهم على مبعدة وأناخوها بعصيهم. اقتربوا منا وهم يصيحون بالسلام. رددنا السلام. تبادلوا التحيات بلمس الأنوف. تقدم خشعت ودهميش منهم. أعددت لهم إناءً كبيرًا من القهوة. وضع دهميش صحنًا من التمر أمامهم. بعد أن شربوا وأكلوا التمر قدمنا لهم القهوة مرة أخرى، ثم بدأ تبادل الأخبار: الزيجات والطلاقات والمواليد والوفيات، ثم سألونا عن سعر الطحين في صلالة. هل كانوا يستشفون هويتنا؟ كانوا يجلسون دون حركة وعيونهم السوداء اليقظة تدور في كل اتجاه تسجل كل شيء. قالوا إنهم في طريقهم إلى شيصر دون أن يذكروا شيئًا عما جاء بهم إلى هذا المكان، مضوا في الطريق الذي جئنا منه. تابعناهم بنظراتنا حتى اختفوا. قال دهميش إن أحدهم كان يتطلع نحوي طول الوقت، وإنه ليس من هذه الأنحاء. استدل بشكل قدميه. أقدام البدو لم تتعود صعود الجبال وتميل إلى التقوس من كثرة الركوب، بينما الأقدام المائلة للخلف

هي أقدام سكان المرتفعات الجبلية. كما أن البدو يمشون منتصبي القامة بخطى قصيرة. لكن صاحبنا كان يمشي مثل الجباليين بخطى طويلة منحنيًا إلى الوراء.

٨ يونيو

... أضعنا اليوم عدة ساعات في البحث عن صيد، نريد أن نحتفل غدًا بمرور عشر سنوات على اندلاع الثورة. اصطاد الربيع غزالًا بمساعدة دهميش. شوينا نصفه. وضعنا الباقي فوق سطح خيمتنا لحمايته من الرمل. طها ابن نجم أرزًا.

٩ يونيو

... لم نجد اللحم عندما استيقظنا في الصباح، دلت آثار الأقدام على أن ثعلبًا سرقه فحزنا، تتبع خشعت آثار الثعلب حتى وجد المكان الذي دفن فيه ما تبقى من اللحم. نظفناه من الرمال وسلقناه.

... تذكرت شجرة اللبان التي زرعتها في أول معسكر لنا وسط ظفار منذ عشر سنوات. ستبدأ الآن في الإدرار. قلت لدهميش إنها رمز نجاحنا، ما خرجنا من أجله يتحقق جزء منه الآن. فهل خرجنا من أجل أنفسنا؟ أم من أجل تحقيق حياة أفضل للجماهير؟ نحن منتصرون وسنواصل الكفاح بالوسائل المتاحة. داعبني بأن هناك شجرًا لا يعطي وإذا أعطى فبكميات ضئيلة ونوعية أقل جودة، وهو الشجر الذكر الذي يقوم بعملية اللقاح ويسمونه التيس.

... نجحنا في التقاط إرسال من عدن. أذاعوا عدة كلمات بهذه المناسبة من أبو إياد، جورج حبش، نايف حواتمة، أحمد جبريل، الحزب الشيوعي اللبناني، الجيش الأرميني السري، الجبهة الشعبية في البحرين وأريتريا والأهواز (عربستان)، منظمة فدائي الشعب الإيرانية، جبهة تحرير بلوجستان الغربية، منظمة مجاهدي الشعب الإيرانية، شعب الساقية الحمراء ووادي الذهب، الحزب الشيوعي الكوبي، لجان التضامن الأفروآسيوي، لجان المناصرة في أوروبا وكندا وأمريكا وغيرها. سعدت عندما قرءوا رسالة من ميشيل كامل باسم الحزب الشيوعي المصري بعنوان «النهج الثوري في المنطقة يكتسب قوة متعاظمة والطبقة العاملة تنتزع استقلاليتها وتحقق نهضة عارمة والطاقات الكامنة للحركة الثورية العربية تنبئ بتحولات جذرية».

... دارت بيننا مناقشة طويلة بدأها يعرب، قال إن ماركس تنبأ باندلاع الثورة البروليتارية من أكثر البلدان تقدمًا في النظام الرأسمالي، ثم ابتدع لينين عشية اندلاع ثورة أكتوبر مقولة انطلاق الثورة من أضعف الحلقات ليبرر انطلاق الثورة من أطراف النظام الرأسمالي مثل روسيا المتخلفة اقتصاديًّا. تساءل عما إذا كانت التجارب قد أثبتت صحة هذا الرأي. قلت إن تروتسكي ساند عملية حرق المراحل وأكد أن البلد المتخلف ليس عليه بالضرورة أن يتبع نظامًا متسلسلًا كالذي سارت عليه البلدان الأكثر تقدمًا. بوسعه أن يتبنى الأنباء الجاهزة وأن يقفز بذلك عددًا من المراحل الوسطية. أعربت عن شكي في هذه المقولة. تذكرت عشرات المواقف التي بدت فيها صعوبة تقبل المجتمع القبلي الظفاري لأفكار الثورة. ضربت مثلًا من واقع الخليج، فقد بدأنا نسمع عن مشروعات عمرانية ضخمة من أموال النفط بنظام تسليم المفتاح. تساءلت عن الآثار السلبية لمجتمع الخيمة عندما ينتقل فجأة إلى مبنى عصري لم يشيده بنفسه أي لم يأتِ من خلال تطور طبيعي لحياته.

١٠ يونيو

... توقفنا لنطعم الجمال من نبات يابس يسمى زهرة. قال خشعت إن قليلًا من المطر سيحول هذا النبات الجاف في خلال شهر إلى الخضرة ويغطس سيقانه بالزهور. لا تموت هذه النباتات بسهولة فجذورها طويلة جدًّا. فكرت أن الثورات أيضًا كذلك.

... الراديو لا يعمل. هل عبث به أحد؟ هل تم تخريبه عن عمد؟

١١ يونيو

... قال خشعت إنه اجتاز الصحراء منذ سنتين. وصف عروق الشيبة الهائلة في أقصى الشمال الشرقي بأنها جبال متتابعة من الرمل تليها الرمال المتحركة في الشرق، إذا استطعنا اجتيازها فإننا نصل بعد قرابة شهر من الآن إلى واحات ليوا الغنية بالنخيل والتي تمتد مسيرة يومين على ظهور الجمال. أعرب عن قلقه بشأن الجمال. قال إنها في حالة سيئة. لن تتمكن من اجتياز العروق. سألته إذا كان هناك طريق حول هذه الرمال فقال لا إلا إذا ذهبنا بعيدًا في الغرب، على طريق دكاكة لأن الرمال هناك سهلة. سألته عن المسافة إلى دكاكة. أنصت إلى حكاية طويلة استغرقت حوالي نصف ساعة عن تجربته في عبورها. احتوت الحكاية على أسباب سفره والأماكن التي توقف فيها والولاة الذين

صادفهم واسم الناقة التي كان يركبها وتاريخها وتاريخ أمها وممن اشتراها وأين هي الآن والسلاح الذي كان يحمله ساعتها ومن أين جاء به والطعام الذي كان يأكله وكيف كان يخشى الالتقاء بأحد من قبيلة سعر القوية الملقبة بذئاب الصحراء والذين ينسبون أنفسهم إلى النبي ولا يصلون زاعمين أنه أعفاهم من الفرائض. لم نصل أبدًا إلى المسافة.

... نتجه شمالًا إلى رمال غانم. لاحظت أن مرافقينا يتباطآن في السير. أمس قابلنا بعض العشب فتركا النياق ترعى، تكرر هذا عدة مرات. النتيجة أننا قطعنا مسيرة ساعة في يوم كامل. بدأت أشك في أنهما يتعمدان إطالة أمد الرحلة. هل يخشيان التوغل في الصحراء أم هناك سبب آخر؟

١٢ يونيو

... رأيت اليوم مهاة لأول مرة. لم أتصورها أبدًا بهذا الجمال. كانت في حجم غزال سمين ولها قرون طويلة وجسمها أبيض نقي. لكن أجمل ما فيها عيناها. أدركت لماذا تغنى بهما الشعراء القدامى. أراد يعرب أن يصيدها. منعته. لا بد أننا قريبون من أراضي قبيلة الحراسيس، لهم لغتهم الخاصة غير المدونة وأدباء وشعراء. اكتسبهم قابوس إلى صفه منذ ثلاث سنوات. اختار أرضهم لتكون محمية مساحتها ١٤ ألف كيلومتر مربع. أعيد توطين حيوان المها المنقرض فيها.

... قلت لدهميش إني أتمنى بنتًا بعينين مثل عيون المها. قطب حاجبيه ولم يعلق. ظل شاردًا مدة طويلة. سألته عندما شرعنا في إنزال حمولة النياق عما به. لم يجب.

١٣ يونيو

... أظن أني أفهم مشاعر دهميش. هو ببساطة يفكر في الجنين على أنه ولد. ليس من السهل التخلص من ميراث قرون من تميز الذكر.

... بنت أم ولد؟ سمعت مرة أن الحامل يمكنها أن تعرف على وجه اليقين لو كان رأس الجنين في الجانب الأيسر يكون ولدًا ولو كان في الجانب الأيمن فهو بنت. متى يتكون الرأس داخل الرحم؟ لا أعرف شيئًا تقريبًا عن أروع عملية في الوجود. لم يخطر الأمر على بالي من قبل. لم أتصور نفسي أمًّا. لا بد من الحصول في أول فرصة على كتب حول الحمل والولادة والرضاعة والتربية.

... مررنا بآثار غريبة في الرمال. ارتبت في أنها آثار أقدام حديثة شوهت الرياح معالمها. قال دهميش إنها آثار جمال فنفى خشعت ذلك بقوة. قال إنها لضبع. بدا يعرب مقتنعًا بقول الربيع على العكس مني. قال دهميش إن البدو يعرفون من نظرة واحدة نوع الأثر، عمق أثر خف الجمل يدل على ما إذا كانت محملة وعما إذا كانت حاملًا. من الروث يمكن تحديد المرعى الذي أكلت منه ومتى شربت آخر مرة. بالتالي من أين جاءت وإلى أين هي ذاهبة. وأين هي الآن.

أشعر بالقلق.

١٤ يونيو

... أشرفنا على كثبان قرميدية اللون ترتفع إلى أكثر من مائة متر. اضطررنا للالتفاف حولها لصعوبة تسلقها على النياق. الكثبان التالية كانت سهلة فصعدتها. فوجئنا بمنحدر شديد عند النزول، ترددت الناقة السوداء وفجأة سقطت على جانبها، أسرعنا إليها. رفعنا عنها حمولتها، قامت بصعوبة على ركبتيها، بدأت تعرج. جهزنا بعض فروع الأغصان الصلبة وقوينا ساقها. جلسنا إلى جوارها نطرد الذباب عنها. قال خشعت إنها لم تعد بذات فائدة ولا يمكن أن نبقى إلى جوارها. ذبحناها وقطعنا لحمها شرائح. ثبتنا بضعة عصي في الرمال وعلقنا فوقها شرائح اللحم كي تجف. وضعنا عظام النخاع في معدتها التي ربطناها بشريط من الجلد ودفناها في الرمال. أشعلنا النار فوقها.

... الصحراء مرعبة. يعتقد البدو أن الكثبان موئل للجان، يتلفت رفيقانا حولهما طول الوقت ويرددان أن الله وحده هو الدائم.

... كنا نتحدث عن التدخل الإيراني عندما ذكر دهميش أنها المرة الثانية خلال قرنين التي توجد فيها قوات إيرانية على أرضنا. في الأولى نجح جد قابوس الأكبر في طردهم. قال يعرب إن قابوس قلق بشأن أهداف الشاه. سألته كيف عرف، قال إن له علاقة بابن عم السلطان الذي يكره الإنجليز ويحمل أفكارًا تقدمية. وهو مرشح لأن يكون وليًّا للعهد، وأنه يطمح إلى تجنيده لمبادئ الثورة. عندئذٍ يمكن أن يحل محل قابوس بسهولة. بذلك نحقق أهدافنا بضربة واحدة. استنكرت هذا القول. نحن ضد انقلابات القصور. الثورة عملية تتم من أسفل لا بد أن يشترك فيها الناس ولا يمكن فرضها عليهم وإلا كانت العواقب وخيمة. لم يجادلني.

... العناكب منتشرة ويبلغ عرض الواحد منها عشرة سنتيمترات. أرجلها حمراء مكسوة بالشعر وليست مؤذية.

١٥ يونيو

... نبشنا معدة الناقة. وجدنا مزيجًا من الدم والدهن عائمًا بين العظام الفارغة، صبه خشعت في قربة فارغة. تناولنا الطعام عند الغروب أكلنا وشبعنا رغم أن اللحم كان كريه الرائحة وقاسيًا للغاية.

... قضيت ساعات طويلة أتخيل مصائر مختلفة لطفلتي. أفكر في الجنين دائمًا بصيغة المؤنث. هل هذه نرجسية مني؟ هل ستكون مناضلة ثورية مثلي؟ أم ستكون الحاجة لأمثالي قد تلاشت وحل محلنا المهنيون وأصحاب المهارات؟ اتفقت مع دهميش على أن أسميها ثائرة، وثائر إذا جاءت ولدًا.

... معنويات يعرب في هبوط. يتحامل على نفسه، يتخلف عنا معظم الوقت. كأنما يبغي العودة؟ اشتكى من ألم في بطنه فنصحه خشعت بشرب بول الناقة. يغسل يديه ببولها عندما يهم بحلبها. يعتقدون أن الناقة يجف حليبها إذا حلبت بيد قذرة أو في إناء ملوث.

... حكى لنا خشعت عن قريب له قتلته قبيلة أخرى ... حمله أبوه وركب بجثته إلى خيمة القاتل وجد بها صبيًّا في الرابعة عشرة. حاول الصبي الفرار لكن الرجل لحق به. وضع الصبي إبهاميه في فمه علامة الاستسلام. توسل الرأفة دون جدوى، ترجل الرجل واستل خنجره. غرزه بين أضلاع الطفل الذي سقط وهو يصرخ: يا أبي يا أبي. ظل الرجل واقفًا فوقه إلى أن لفظ أنفاسه.

... قال خشعت إن النياق منهكة ولا بُدَّ من استبدالها. كيف؟

١١ يوليو

... دار بيننا نقاش طويل حول الإصلاح أم الثورة في تغيير المجتمع؟ قلت إنه ليس من الضروري وضع الاثنين في مقابل بعضهما. الإصلاح يمكن أن يتراكم إلى أن يصل إلى درجة التغيير الجذري بما يعني الثورة. لينين كتب عن إمكانية التحول إلى الاشتراكية سلميًّا ولم يقل إطلاقًا حتمية أن تصبح الثورة عملية عنف وصراع دموي، الصراع الدموي في تاريخ الثورات بدأته القوى الرجعية. ليس من الضروري أن تعني الثورة العنف. (هل أنا الذي أقول ذلك؟) لكن ليس كل الإصلاحيين ثوريين. بعضهم يكتفي بعملية ترقيع ولا يبغي تغييرًا جذريًّا. تطرقنا إلى طبيعة التغيير الذي ننشده، قال يعرب إنه قطيعة تامة

مع الماضي. لا أظن أنه يؤمن حقيقة بذلك. الماضي ليس سيئًا كله، لينين قال إن النفي الجدلي لظاهرة ما لا يعني إلغاءها كلية، وإنما تطويرها والارتقاء بها إلى وضعية جديدة تحتفظ بكل ما هو إيجابي فيها.

... سألني دهميش عن طفولتي، لا أتذكر من بيتنا في عُمان سوى سقوط سن لبنية. ألقى بها أبي في وجه الشمس قائلًا: يا عين الشمس خذي سنة الحمار وأعطيني سنة الغزال. أتذكر جيدًا بيتنا في صنعاء، بيت قديم في حي برجوازي هادئ تظلله أشجار السرو. الدور متباعدة لكل منها بستان من الكروم والمشمش واللوز والخوخ والرمان. لا يقطع الهدوء سوى صرير الآبار وعجلاتها وحبالها. في الحديقة بركة مربعة ونافورة أمامها حجرة المفرج أو قاعة الاستراحة. في الطابق الأسفل المظلم سكن الخدم. الحريم في الطابق الأوسط. الحمام واسع مفروش بالبلاط المربع. فيه حوض وموقد فحم لتسخين الماء، في واجهة البيت فتحات صغيرة تنصرف منها المياه المستعملة إلى بالوعة الشارع، الحجرات مفروشة بالحصير وخالية من الأثاث. هناك رف يتسع لكل الأغراض. النوافذ تتيح للجالسين على الفرش والمساند النظر إلى الخارج. العقود الزجاجية الملونة تعكس ضوءًا مبهجًا.

١٧ يونيو

... الماء يوشك على النفاد. قررنا استخدام المياه المرة بعد خلطها بالحليب، خفضنا نصيب كل واحد من الشرب إلى النصف. قال خشعت إن الأمطار يمكن أن تسقط في أي وقت. وقد لا تسقط على الإطلاق. لا بد من سقي الجمال كل يومين أو ثلاثة إلا في الأودية. يمكنها أن تبقى أسبوعًا دون ماء إذا أتيحت لها فرصة الاستظلال بالشجر. سألته عما إذا كان يعتقد أننا سنعثر على مراعٍ قال: علم الله. سمعنا عواء ذئب بالليل، الصوت مخيف في هذا الفضاء.

١٨ يونيو

... هبت نسمات باردة عبر الصحراء حاملة معها قليلًا من الرمال، النجوم ساطعة جدًّا. نبشنا بضع جذور جافة وأشعلنا نارًا. بعد العشاء كنت لا أزال جائعة. طلبت من دهميش شايًا. انهمكت في تنظيف رشاشي، انشغل يعرب بإعداد عصا جديدة للناقة، أخذ خشعت

ينقب بطن قدميه الصلبة بطرف خنجره بحثًا عن شوكة. يثرثر طول الوقت. تحدث عن كيفية مداواة جرب الجمال وعن غارات القبائل والفروق في أسعار الحاجيات بين العهد الحالي وأيام السلطان سعيد. وعن مشروعات آبار البترول في شرق جدة الحراسيس. شارك دهميش بقصة عن شيخ واحد من بيوت كثير المعروفين أصيب بطعنة خنجر في بطنه، قال إنه صرخ كالنساء. غضبت من التشبيه وخاصمته. فكرت وأنا أتطلع إلى رأسه أنها مليئة بميراث معقد تحتاج معالجته إلى مدة طويلة. أول خصام بيننا.

١٩ يونيو

... نمنا أمس منفصلين. أمكنني أن أتقلب كما أشاء. استغرقت في نوم عميق. لم يوقظني صحن البن كالعادة ولا حركة مرافقينا بين النياق. عندما أخرجت رأسي من تحت البطاطين في الصباح شعرت أن هناك شيئًا غير عادي. قفزت واقفة. ناديت على دهميش. قام متثاقلًا، لم نجد أثرًا ليعرب والمرافقين ونياقهم. لم تكن هناك سوى ناقتنا. اختفى سلاحانا أيضًا. أين ذهبوا؟ الآثار تتجه إلى اليمين. إلى جدة الحراسيس؟ هل يعرفون بئرًا قريبة أم خرجوا يبحثون عن واحدة؟ لماذا إذن لم يقولوا أو يتركوا إشارة ما؟ ولماذا يأخذون السلاح والمؤن؟ حتى الراديو العاطل؟ نسوا بعض التمر والشاي وحسب، هل اختطفوا يعرب؟ لم نجد أية آثار تشير إلى عراك أو مقاومة. نبشوا الأركان التي تعودت أن أدفن فيها دفاتري. لا بد أن أحدًا منهم رآني وأنا أفعل، لحسن الحظ أني وضعتها أمس تحت رأسي بدافع الكسل. هي والمكاروف والخنجر. لم يقتربوا منا خشية إيقاظنا. كان في وسعهم القضاء علينا. انتظرنا على أمل أن يعودوا. فكرنا أن نتتبع آثارهم. لكن على فرض أن الرياح لم تزلها فسنكون معرضين للضياع. أخذوا كل القرب عدا قربتي وبها مياه قليلة، هل نسوها أم تعمدوا تركها؟ لتبقى في مكاننا حتى يعودوا؟ لتر واحد من المياه المرة التي يتعين علينا الاكتفاء بها ... حتى متى؟

... بقينا في مكاننا حتى بعد الظهر ثم واصلنا السير، حددنا لكل منها أربع بلحات ونصف كوب من الماء في اليوم، البلح يضاعف عطشي. عند الغروب نصبنا خيمتنا خلف جبل من الرمل، يحمينا قليلًا من الرياح الشمالية الباردة. أشعر بالوحشة التامة مع تراجع ضوء النهار. الصحراء تمتد إلى ما لا نهاية منذرة بالخطر.

... لا نكف عن مناقشة ما حدث. تذكرت عدة مواقف ليعرب. استعدت التفاصيل الخاصة باعتقالات مطرح. معقول؟ استيقظت شكوك دفينة، عبر دهميش عن اتجاه

تفكيري بطريقته الخاصة. حكى لي قصة بطل أمهري في نجد. كان أعداؤه يبحثون عنه فدلهم أخو زوجته على خيمته. نجح في الفرار إلى مكان مرتفع. قتل عددًا منهم بكرات من الرصاص، نفذت ذخيرته فصعدوا إليه. طعن أحدهم بخنجره الذي انكسر. أمسك بزعيمهم من خصره وقفز به من القمة ليموت الاثنان. عرفت زوجته أن أخاها هو الخائن. بحثت عنه في معسكر الأعداء وقتلته بمسدس.

... قررنا أن نتناوب الحراسة بالليل.

٢٠ يونيو

... خلال نوبتي بالليل غفوت. نهضت ناقتي فجأة فاستيقظت. لمست دهميش، انتصب واقفًا في حركة واحدة وخنجره في يده. وقفنا ظهرًا لظهر. درنا حول أنفسنا مدققين النظر. لم نرَ شيئًا في الظلام. أو نسمع صوتًا. هززنا عقال الناقة إلى أن ناخت. استلقينا ثانية. سيطر علينا الخوف والتوتر.

... عثرنا في الصباح على آثار ذئب بالقرب من خيمتنا. نقطع خمسة كيلومترات في الساعة. أما في الرمال كثيرة الكثبان، شديدة الانحدار فنقطع كيلومترًا واحدًا فقط. ربطنا ناقتي في ذيل ناقة دهميش وانضممت إليه فوق ناقته. كثيرًا ما تمنيت أن نحب بعضنا فوق ظهر الجمل بإيقاع حركته المتمهلة. لم يكن هذا ممكنًا في وجود الآخرين، الآن نحن وحدنا في الكون الفسيح وأنا في حضنه فوق الجمل. مع ذلك لا توجد لديَّ رغبة. عند العصر شعرت بالجوع والغثيان. الكثبان العالية تبدو بالليل أعلى منها بالنهار. القمر يضيء المنحدرات، الظلال في ثناياها حالكة السواد. ماذا سنفعل إذا لم نتمكن من الصعود بناقتينا فوقها؟ يمكن أن تنهار في أي لحظة إذا لم نسقها في أقرب وقت. المسافة الباقية أكثر من التي قطعناها حتى الآن. بدأت أرتعش من البرد. تمنيت شرابًا ساخنًا. خيمنا. أشعلنا نارًا صغيرة وتدفأنا عليها. لحسن الحظ أنهم لم يأخذوا الكبريت. ماذا يحدث لو مرض أحدنا أو أصيب بلدغة عقرب أو أي شيء؟

٢١ يونيو

... أيقظني دهميش قرب الفجر. نهضت الناقتان وهما ترغيان. أكلنا بعض التمر وتجاهلنا الشاي والقهوة. اتجهنا نحو الكثبان. عندما اقتربنا منها كانت الشمس قد ألهبت الرمال، ارتعشت ناقتي بشدة. رفضت متابعة المسير شعرت بالدوار. غابت قدماي حتى الركبتين

في الرمل. عدت بصعوبة وأنا أجرها خلفي. بدأ قلبي يخفق وعطشي يزداد. وجدت صعوبة في الابتلاع. شعرت بانسداد أذني، أحاول إيجاد لعاب أرطب به فمي. أردت أن أستلقي على الرمال ناداني دهميش. قلت في نفسي: لن نستطيع العودة وليس من مكان نلجأ إليه ولا يمكن أن أصعد كثيبًا آخر من هذه الكثبان المفزعة. لقد انتهينا. لو تهنا غربًا وقعنا في يد السعوديين وشرقًا في يد الحراسيس. وطول الوقت معرضان للوقوع في شباك قبيلة ما أو حيوان ما. هذا فضلًا عن العطش. قال دهميش إننا يمكن أن نفعل مثل البدو، نضع عصي في حنجرة الجمل ونشرب قَيأه. وربما صادفنا ناقة تائهة ما زالت تدر لبنًا.

... طول الوقت نشعر أننا مراقبان!

٢٢ يونيو

... حلمت أمس بأني أفتح براد منزلي في بيروت، قفز منه قط متوحش. درت الناقتان أقل من نصف لتر بدلًا من اثنين في العادة. السبب هو الإجهاد وقلة الطعام. كانت الشمس شديدة الحرارة والتهبت الرمال. لم يتأثر باطنا قدمي اللذين تكونت عليهما قشرة شديدة الصلابة. لكن الجلد الناعم على الجانبين هو الذي كاد يحترق. امتطيت ناقتي.

... أحاول التغلب على الجوع بالقراءة لكني أجد نفسي أفكر في الشاورمة واللبنة والحمص والطعمية والفول المدمس والكباب، أتذكر بيت أبي في صنعاء. كنت أستيقظ قبل الفجر على نداء المؤذن. عندما تشرق الشمس ينثر الخدم روث البهائم على السلالم والممرات بدلًا من نشارة الخشب حتى لا يثور الغبار أثناء الكنس. تنتشر رائحة قوية لكنها غير كريهة إلى أن يتم الكنس بحزم من الأغصان. بعد الإفطار تقوم النساء بأعمال المنزل. ينفضن المفارش. يلمعن الأواني النحاسية بالليمون والرماد. يغسلن الملابس وينشرنها بعد ذلك في الشرفات وعلى السطح. يقمن بإعداد الطعام فوق فرن فخار تشعله أقراص السباخ. تضع عجوز العجينة على جدران التنور، تتولى أخرى تحضير الشعيرية. ثالثة تسحق الخضرة فوق صخرة. رابعة تهز اللبن في الجرة لصنع اللبن الرائب. يأكل أبي بمفرده ثم يصعد إلى المفرج. فتجلس النساء مكانه. بعد الظهيرة يخرج الرجال إلى مجالس القات يحملون ربطها وصناديق التنباك تحت أكمامهم، تظهر النساء في الشوارع وقد تغطين كاملًا بملاءات هندية متشابهة ذات ألوان حمراء وزرقاء وخضراء. على الوجه حجاب أسود شفاف تزينه دوائر بيضاء وحمراء فيبدو كرأس إحدى الحشرات. تشد الأنيقة منهن الملاءة حول جسدها وتسير متهادية فوق أحذية ضخمة ذات كعب منبسط. أو يخلعن الأحذية ويضعنها على رءوسهن.

... عند منتصف النهار استرحنا إلى جوار كثيب، ظهر بدويان على كثيب بعيد وأخذا يراقباننا. تراوحت مشاعرنا بين الأمل والخوف. لوح لهما دهميش بيده فاختفيا. سرنا نحوهما ... لم نجد لهما أثرًا. هل هو سراب؟

٢٣ يونيو

... استيقظت اليوم متلهفة على الأكل. استلقيت على معدتي وضغطت عليها فشعرت بشيء من الارتياح والدفء. في بيت صنعاء كان الإفطار يتكون من بيض وزبادي وخبز أو فطير بالعسل والسمن. شعرت بحركة أخرى في بطني. أمامنا سلسلة مشابهة للتي اجتزناها بالأمس لكن قممها أكثر انحدارًا. سقنا الجمال المرتعشة المترددة إلى أعلى كثيب. سمعت فجأة أزيزًا منخفضًا ثم ازداد قوة إلى أن بدا كصوت طائرة على ارتفاع منخفض. شدت الناقتان عقاليهما في خوف. التفتتا إلى الخلف. توقف الصوت عندما وصلنا إلى أسفل، طمأنني دهميش أن الصوت ينتج عن انزلاق طبقات الرمل بعضها فوق بعض.

... حتى الآن أراه متماسكًا. لكن عندما لجأت إلى دفتري سخر مني، قلت له إن جيفارا كان حريصًا على تدوين يومياته حتى اللحظة الأخيرة من حياته؛ لهذا نعرف ماذا حدث له بالضبط والعناصر التي وشت به ومن قتله. اليوميات هي الطريقة الوحيدة للمحافظة على الوقائع ودراستها واستخلاص الدروس منها. سلاحنا ضد الغدر والهزيمة. قال إنها ستفنى معنا. قلت إننا يجب أن نصونها بأي شكل. من سيحول دون يعرب وإحداث مزيد من الأضرار؟ طلبت منه أن يعدني بالمحافظة عليها إذا ما حدث لي شيء. قال مقلدًا لهجتي: وإذا حدث شيء لنا نحن الاثنين؟ تطلعت حولي في الصحراء الخالية. قلت إني سأجد طريقة لإخفائها. خطر رشدي على بالي. يمكنه أن يصنع منها شيئًا مفيدًا. هو أو عماد. أتمنى ألا تقع في يد أحد غيرهما.

٢٤ يوليو

... يوم مغبر كئيب ومثقل بكتل من الغيوم. هل ستسقط الأمطار هنا أم على سفوح الجبال في ظفار وحدها؟ غطيت وجهي بالكوفية. مشينا إلى جانب الناقتين بمعنويات واهنة. ماذا يحدث لو لم نقابل مراعي؟ لا الجوع ولا العطش يخيفان البدو. يستطيعون البقاء فوق ظهور الجمال سبعة أيام دون ماء أو طعام. ما يخيفهم هو انهيار الجمال نفسها. إذا حدث هذا كان الموت مؤكدًا. شعرت أن ناقتينا لن تعيشا ليوم آخر.

الفصل السابع عشر

صلالة

١٩٩٢

١

أقلني السائق الباكستاني أو الهندي في الصباح. كنت متوترًا، عاجزًا عن التركيز من قلة النوم، ومن ملاحقة عيني أبي عامر لحقيبة يدي وهو يودعني. ولم أطمئن إلا عندما غادرت السيارة أمام الفندق.

أخذت مفتاحي من الاستقبال ولم أجد غير رسالة من خلف يطلب فيها أن أتصل به. صعدت إلى غرفتي متشوقًا إلى الفراش الذي ينتظرني. وجدت عربة النظافة أمام بابها المفتوح وشابًّا هنديًّا في ملابس عمال الفندق داخلها. وعندما شعر بي أسرع يغادر الغرفة وهو يتمتم معتذرًا.

أغلقت الباب خلفه وثبته بالسلسلة المعدنية. ألقيت بحقيبة يدي فرق الفراش ونظرت إلى التليفون. قهوة أم شاي؟

لمحت زجاجة بيرة فوق المكتب. بدت مثلجة يلتمع زجاجها وبجوارها كوب وفتَّاحة. بيرة في الصباح ولمَ لا؟ أزلت غطاءها وأنا أنزع حذائي بقدميَّ ورفعت الزجاجة إلى شفتي، عندما فتحت عيني ألفيتني راقدًا فوق الفراش بملابسي وصداع حاد يمزق رأسي.

نهضت بصعوبة وخلعت ملابسي وألقيت بها فوق الأرض، دخلت الحمام وملأت حوض الاستحمام بالمياه الدافئة وغصت فيها. أحسست بشيء من التحسن لكن الصداع ظل كما هو.

غادرت الحمام بعد أن جففت جسدي وطلبت قهوة من خدمة الغرف وكررت الطلب كي لا يأتيني عصير. ولم أكد أنتهي من ارتداء ملابسي حتى طرق الباب وفتحته لنادل هندي جديد يحمل القهوة التي طلبتها.

تناولت حقيبة يدي ورفعت غطاءها وأخرجت الكيس الذي أحتفظ فيه بأدويتي، استخرجت حبة بنادول وأعدت الكيس مكانه، وهنا اكتشفت اختفاء الكراسة.

أفرغت محتويات الحقيبة فوق الفراش؛ قلمين، علبة مناديل ورقية، جواز السفر، مفكرة لأرقام التليفون، خريطة لعمان وأخرى لظفار وحدها، برنامج لشركة سياحية، قطعة من اللبان المتحجر أخذتها من خلف، ورقة دونت بها بعض الملاحظات، كيس الأدوية. لا كراسة.

انتفضت واقفًا وقلبت أغطية الفراش. نظرت تحته وفوق المكتب وفي أدراجه وفوق جهاز التليفزيون وتحته.

جلست على حافة الفراش أستعيد حركاتي منذ دخلت الغرفة. كانت الكراسة في حقيبة يدي إلى أن ألقيت بها فوق الفراش. تذكرت الكراسات الأخرى فأزحت المقعد ورفعت طرف السجادة فلم أجد أثرًا لها.

وقفت وسط الغرفة حائرًا ووقعت عيناي على المكتب، لم يكن هناك أثر لزجاجة البيرة التي شربتها ولا للكوب الذي كان إلى جوارها. بحثت عنهما في سلة المهملات القريبة وفي تلك الموجودة في الحمام دون جدوى.

حلم؟

لكن الفتاحة التي استخدمتها في فتح الزجاجة كانت في مكانها فوق المائدة شاهدة على ما حدث.

نقلت البصر بين النافذة الموارية والباب. كانت السلسلة المعدنية مدلاة بجوار القفل وتذكرت أني ثبتها بمجرد دخولي، تذكرت أيضًا أني لم أنزعها عندما فتحت الباب للهندي. كانت مدلاة وقتها كما هي الآن.

اشتد صداع رأسي فأخذت حبة بنادول ثانية واستلقيت فوق الفراش وأغمضت عيني.

دقَّ جرس التليفون فلم أتحرك، استمر الرنين فرفعت السماعة. لم يرد أحد.

ألاعيب السيد زيد؟

بقيت ممددًا أحدق في السقف ثم حانت مني نظرة إلى الباب فرأيت ورقة صغيرة مطوية أسفل حافته.

أسرعت إلى الباب وفتحته وتطلعت إلى الممشى. لم يكن هناك أثر لإنسان أو حركة. من وضع الورقة لا بد فعل ذلك قبل فترة.

هل هو النادل الجديد؟

أغلقت الباب وتناولت الورقة وبسطتها. كانت بتوقيع زيد.

٢

ألقيت بالكنزة الصوفية فوق كتفي وهبطت إلى البهو الشاغر في الساعة السادسة. خرجت إلى الحديقة واتجهت إلى ملعب التنس في خطوات متمهلة كأني أتريض. مررت بحوض السباحة الذي انفردت به أسرة أوروبية تضم عدة أطفال. كان ملعب التنس خاليًا فمضيت بجوار سياجه في اتجاه الشاطئ، ثم انحرفت إلى اليمين وقمت بدورة واسعة لأتجنب شاليه الفندي.

عثرت على أجمة الأشجار الشوكية فنفذت بين أوراقها وخطوت في حذر إلى أن وجدت الفتحة المؤدية إلى الطريق العام.

لم يكن هناك أحد من المارة بالطبع وبدا الطريق مهجورًا. امتدت حدائق السلطان المسورة أمامي على الناحية الأخرى ... تطلعت جهة اليمين حيث يقبع مدخل الفندق على مبعدة مائتي متر، كان متواريًا خلف الأشجار التي حجبت عني سيارات التاكسي الثلاث المتوقفة أمامه باستمرار كما حجبتني أيضًا عنها.

استدرت يسارًا وانطلقت بنفس الخطوات المتمهلة حسب التعليمات.

ظهرت سيارة مرسيدس حديثة الطراز قادمة بسرعة من ناحية المدينة. لمحت داخلها رجلين يرتديان الملابس الأوروبية. تابعتها ببصري حتى تلاشت في الانحناءة المؤدية لمدخل الفندق.

ألقيت نظرة على ساعتي وواصلت السير. سمعت صوت موتور سيارة قادمًا من خلفي. غالبت نفسي كي لا أنظر ورائي واحتفظت بنفس إيقاعي حتى حاذتني، وجدتها سيارة أجرة تقل زوجًا أوروبيًّا، ومرت عشر دقائق قبل أن تظهر سيارة أجرة قادمة من المدينة تقل عدة رجال في الدشداشات البيضاء، وعندما قاربوني تطلعوا إليَّ في دهشة واهتمام، بادلتهم النظر وظلوا ينظرون ناحيتي إلى أن ابتعدوا في اتجاه الفندق.

انتهى السور المقابل بناصية شارع. عبرت الطريق ومضيت على الرصيف الأيمن للشارع العمودي. رأيت سيارة قديمة من طراز فورد مركونة قرب الناصية التالية العمودية على شارع قابوس.

اقتربت من السيارة وأنا أدقق النظر إلى سائقها. كان عمانيًّا بحكم ملابسه وظفاريًّا ببشرته السمراء وملامحه الجبلية. تابعني في المرآة المعلقة فوق رأسه وعندما حاذيته تمامًا مد يده وفتح لي الباب الخلفي دون أن ينبس بكلمة.

كانت الخطوات تخرق كل القواعد. في العمل السياسي السري لا يتم لقاء بين غريبين دون ثالث يتولى تعريف أحدهما بالآخر، وفي قصص التجسس والمغامرات يتبادل الغريبان كلمات معينة — ساذجة للغاية — عن الجو أو يحمل أحدهما وردة حمراء في عروة سترته بينما يحمل الثاني صحيفة مطوية، فإذا حاد أحدهما عن النص افتضح زيفه. وها أنا أركب سيارة مجهولة دون نص على الإطلاق.

أدار السائق الموتور بمجرد أن أغلقت الباب خلفي وانطلق نحو الناصية. كانت هناك لافتة تعلن أن امتداد الشارع طريق خاص. عبر التقاطع واستدار يسارًا في شارع قابوس، تذكرت موقفًا مشابهًا عرض لي منذ سبع وثلاثين سنة بالضبط. كان الموعد ليلًا في ساحة نائية بأطراف حي العباسية، وعندما وصلت تبينت في الظلام سيارة فيات سوداء مركونة ومظلمة. وفجأة أضيئت أنوارها واستقر كشافها المبهر على وجهي فأعماني بينما تقدمت مني وتوقفت إلى جواري. وسمعت صوت قائدها الذي أعرفه يحييني ويناولني لفاقة المنشورات التي سأتولى توزيعها. لم تكن هناك بالطبع حاجة إلى كل هذه التصرفات المسرحية، وعلى العكس فقد كان من شأنها أن تجذب إلينا الأنظار.

لم يفُهْ سائقي بكلمة وقاد السيارة بسرعة عادية في الطريق المعهود الموازي للشاطئ. بلغنا محمية الطيور، فخلت أننا ذاهبون إلى صديق سالم المغرم بالنوادر والحكايات. لكنه انتقل إلى طريق رئيسي واتجه يمينًا ثم يسارًا وبعد قليل بدأ الطريق يصعد إلى أعلى وأدركت أننا نتجه إلى الجبل.

خاطبته لأول مرة: إلى أين؟

لم يرد ولم يلتفت نحوي وظل سؤالي معلقًا في الهواء فلزمت الصمت.

أخذ الضوء يتلاشى وروائح الريف تتكاثر. تجاوزنا جرارًا زراعيًّا ومررنا بقرًى صغيرة. اضطجعت في مقعدي وقررت أن أستمتع بالهواء المنعش. وبعد عدة كيلومترات انحرف يمينًا في درب وعر وسقطت أنوار السيارة المبهرة على هضبة شديدة الانحدار. ارتقاها ببطء بعد أن انتقل إلى السرعة الأولى. وأقبلنا على منعطفٍ حادٍّ فصنع دورة واسعة لأقصى ما استطاع. تمنيت أن يكون سائقًا جيدًا وأن يحتفظ بنفس سرعته ولا يقلل منها كي لا نسقط إلى الوراء. وصلنا قمة الهضبة فقررت أن أحييه. خاطبته قائلًا: أحسنت.

للمرة الثانية لم يرد.

أصم أم حكيم؟

أبطأ السير حتى توقفت السيارة. رفع الكابح اليدوي واستند بمرفقيه إلى المقود متطلعًا أمامه، ثم أطفأ النور المبهر وأوقف المحرك وفتح الباب المجاور له وترجل. ودون أن يوجه إليَّ كلمة عبر الطريق إلى أجمة من الشجيرات واختفى خلفها.

وقدرت أنه ربما يتبول ومرت دقائق تحولت إلى ربع ساعة ثم نصف دون أن يظهر. فتحت بابي وترجلت ثم درت حول السيارة. كانت المفاتيح في مكانها أسفل المقود. مددت يدي وضغطت البوق وأنا أتلفت حولي. ضغطته مرة أخرى وتركت يدي فوقه طويلًا ثم وقفت أنتظر.

سئمت أخيرًا من الانتظار ففتحت الباب وجلست أمام المقود. تأكدت من تحييد عصا السرعة وقبضت بأصابعي على مفتاح المحرك.

تعودت أن أفعل شيئين متزامنين قبل أن أدير المحرك: تحييد عصا السرعة وإضاءة النور الدائري. لكن النور الدائري كان مضاء فعلًا فحركت ذراع النور المبهر بشكل آلي، سقط الضوء المبهر فوق فضاء غير محدد المعالم على مبعدة. أدرت المحرك وحركت الذراع لأرى المسافة الأقرب قبل أن أقوم بتحرير الكابح اليدوي، وكانت هذه الحركة هي التي أنقذت حياتي.

فتحت الباب بيد مرتعشة وغادرت السيارة، وقفت إلى جوار الإطار الأمامي أتأمل الهوة السحيقة التي كانت مقدرة لي والتي استقرت مقدمة الإطار فوق حافتها.

درت حول السيارة في حذر ثم ضغطت البوق مرة أخرى. فكرت أن أنادي على السائق واحترت ماذا أقول: هو. أنت. يا ريس! أو ربما هالو كما في الأفلام الأمريكية.

خطر لي أن أحاول قيادة السيارة إلى الخلف ثم تراجعت عن هذه الفكرة. فلا بد أن أخفض الكابح اليدوي أولًا، وفي هذه الحالة تتعرض السيارة للانزلاق أمامًا قبل أن أسيطر عليها.

أطفأت كشاف السيارة وأضأت النور المتقطع ثم أوقفت المحرك. تركت المفاتيح مكانها وأغلقت الباب. تلفت حولي دون أن أتبين أية معالم في الظلام المخيم، شعرت بلمسة برد خفيفة فالتقطت كنزتي ووضعتها فوق كتفي. أعانني الوهج المنبعث من ضوء السيارة على اقتفاء أثر السائق إلى الأجمة ولم تلبث الشجيرات أن تحولت إلى أشجار عالية وتلاشى أي أثر للضوء، تلمست طريقي في صعوبة بينها وهاجمني البعوض

بوحشية. كانت الروائح منعشة والأشجار متقاربة تكاد أغصانها تتعانق، وتموج بأصوات غامضة عجزت عن التمييز بينها. حاولت أن أتذكر الحيوانات التي ورد ذكرها في يوميات وردة، ثم تذكرت الضبع الذي أراد أبو عامر أن يطعمني لحمه. أسرعت السير وأنا أتلفت حولي. شعرت بالتعب بعد فترة فاستندت إلى جذع شجرة ثم ابتعدت عنها عندما تذكرت الثعبان العظيم. ولم أجرؤ على اقتعاد الأرض المعشوشبة. فكرت في العودة إلى السيارة واكتشفت أني لن أتمكن من العثور على مكانها، ثم ماذا سأفعل هناك؟ أنام بها حتى الصباح؟ وما يدريني أنها لن تنزلق بي في الهوة دون أن أشعر.

قررت أن أواصل السير حتى أصل إلى طريق عمومي أو قرية أو أصادف خيمة منعزلة. قابلتني شبه تلة أو هضبة فارتقيتها، لمحت ضوءًا خفيفًا على مبعدة فاتجهت نحوه. مشيت من قمة إلى أخرى ومن سهل صغير إلى آخر دون أن تقصر المسافة التي تفصلني عنه، شعرت بالتعب فتوقفت وتبينت فجأةً أن الضوء على يساري بدلًا من أن يكون على يميني كما كان في البداية. واكتشفت أني أمضى من نقطة لأعود إليها ثانية مهما اتجهت يمينًا ويسارًا بسبب تشابه الأرض والمرتفعات والمنحدرات.

شعرت بالعطش وتمنيت أن ألتقي جبليًّا يعطيني بعض الحليب، ثم فكرت في الطعام والأشجار التي يمكن التغذي على أوراقها وتلك التي لا تصلح لذلك بسبب سميتها.

هل مرت وردة من هنا؟

جرجرت أقدامي بصعوبة نحو هضبة مستوية وشممت رائحة روث حيوانات. أقبلت على عدة بيوت حجرية تكشفت عن حظائر للماشية. كانت خالية فواصلت السير وسط قش بلغ ارتفاعه خصري أعقبه صف من الأشجار العملاقة. أشرفت على كوخ صغير مهجور فولجته، كانت أرضه وجدرانه عارية بلا أثر للحياة، لا نيران تبعث الدفء أو وجبة دسمة من لحم الماعز أو حتى الجمل. ومع ذلك قررت أن أستريح به قليلًا.

قفز جسم ما في الهواء واصطدم برأسي فتراجعت وكدت أقع. لم أتبين شيئًا في الضوء الخفيف الغامض الذي أحاط بي. شعرت بحركة في أحد أركان الكوخ فأصخت السمع متوترًا. فأر أو حيوان مشابه؟ ماذا لو كان عقربًا أو الثعبان العظيم بنفسه؟ هل سيدور حول رقبتي ويفعصني أم يعضني ويمضي؟ حاولت أن أتذكر ما أعرفه عن الحشرات والزواحف وكيفية التعامل معها، لكن ذهني بدا عاجزًا تمامًا عن العمل.

شعرت بالإعياء فاقتعدت الأرض في الوسط مبتعدًا عن الجدران. وجدتني عرضة لتيارت الهواء فارتديت كنزتي وانتحيت جانبًا. تقت إلى كوب من الشاي الساخن يتصاعد

منه البخار، هاجم البعوض وجهي ويدي فتسليت بمحاولة اصطياده ووجهت اللطمات إلى صدغي وجبهتي دون جدوى، ثم شعرت بالقرصات الحادة تحت ملابسي، براغيث؟ توترت حواسي وبدأت أتتبع التحركات الغامضة في أنحاء جسمي، ثم حاولت أن أشغل نفسي بأمر آخر ففكرت في وعد وما جرى لي معها.

دور في فيلم سينمائي أم بحث عن بابا؟

عندما أيقظتني أصوات الطيور في الفجر وجدتني منكمشًا من البرد إلى جوار الجدار. تحاملت على نفسي ووقفت. كان كل جزء في جسمي يؤلمني وخاصة ظهري. استقبلتني طيور بيضاء وملونة عندما غادرت الكوخ. ألفيتني فوق هضبة مغطاة بالعشب والأدغال الخضراء ولمحت عدة أبقار على مبعدة، فقررت أن أتجه نحوها. لكن الضوء المتزايد كشف عن وادٍ عميقٍ يفصلني عنها. تطلعت حولي فلم ألمح أثرًا للبحر الذي كان يتجلى لوردة من أي نقطة في الجبل.

هل مرت من هنا؟

قررت أن أواصل السير ملتزمًا الأماكن المنحدرة إلى أسفل كي أتجنب التوهان. ألقيت نظرة أخيرة حولي ثم بدأت رحلة العودة.

الفصل الثامن عشر

مسقط

ديسمبر ١٩٩٢–يناير ١٩٩٣

١

قلت: رجعت ريمة لعادتها القديمة.

كنت أعلق على ملابس الحجاب التي استقبلتني بها شفيقة.

لوحت بيدها في ضيق وقالت: أهو ده اللي أنت شاطر فيه.

وضعت حقيبتي بجوار الباب وقلت: إيه الحكاية؟

قالت: لا حكاية ولا رواية.

تناهى إليَّ صوت البيانو. فأومأت ناحية غرفة الأوركستر وقلت: بتهوفن يعمل؟

كانت منهمكة في وضع العشاء على المائدة. تركتها وذهبت إلى الحمام فاغتسلت ثم عدت إلى الصالة.

قلت: احكيلي.

قالت: هل سمعت بما حدث لسارة؟

– سارة من؟

– الخادمة الفليبينية التي قتلت مخدومها بـ ٣٤ طلقة عندما حاول اغتصابها. كانت المحكمة قد حكمت عليها بالسجن سبع سنوات ودفع مبلغ لعائلة المجني عليه.

– وتظلم ابنه أمام محكمة أخرى طالبًا إعدامها.

– تمام. المحكمة الجديدة حكمت عليها بالإعدام.

– على أي أساس؟

– قالت إن واقعة الاغتصاب مختلقة.

– ألم يكن هناك تقرير طبي؟

– نعم. استبعدته المحكمة الجديدة على أساس أن القتيل عمره ٨٥ عامًا.

– هل سيعدمونها؟

– الله أعلم.

توقف صوت الموسيقى وتعالى صوت فتحي ينادي عليَّ.

انطلقت إلى الغرفة ودفعت الباب. كان يجلس أمام البيانو.

عزف بضع ألحان وهو يتطلع إليَّ كأنما يتلمس رأيي، ثم أزاح يديه بعيدًا وقال: لقد قررت اتباع نمط السوناتا كخطة للبناء، طبعًا حضرتك مش فاهم. السوناتا هي أرقى الأشكال الموسيقية.

أطرقت برأسي مؤمنًا على المرتبة الرفيعة التي تحتلها السوناتا.

استطرد دون أن يعبأ بِرَد فعلي: السيمفونية التي أؤلفها تصويرية. لا علاقة لها بالشكل الكلاسيكي، ولا حتى بالكلاسيكية الحديثة. لم يكن من الممكن الاقتداء بأمثال سترافنسكي وشوينبرج وبارتوك الذين بدلوا النغم الصوتي بصورة كاملة. ولا كان بإمكاني أن أستخدم النغمات شديدة التنافر، ومع ذلك لجأت في بعض الفقرات إلى أسلوب تتعدد فيه النغمات.

شردت أفكر في وعد وفى نهديها. وانتبهت عندما ساد الصمت بيننا وتبينت أنه شرد هو الآخر.

أشرت بإصبعي إلى الصالة: ما الذي أعادها إلى الجاهلية؟

قال: لله في خلقه شئون.

مرَّ بأصابعه فوق مفاتيح البيانو بسرعة ثم أضاف: أخبرها مدير الإذاعة أمس أنهم لن يجددوا عقدها.

– لماذا؟

أجال البصر حوله في حيرة ثم استقرت عيناه على وجهي، لمحت فيهما اتهامًا فشعرت بانقباض.

استطرد: قيود العمل هنا صارمة ومن الصعب أن تحصل على عمل آخر بسرعة، كما أن فرصه تقلصت بعد حرب الخليج. وأنا ما زال أمامي سنة يمكن أن تمتد إلى سنتين. فإما أن تعود وحدها إلى مصر أو تبقى معي بدون عمل وكلا الخيارين صعب.

قلت: لماذا؟

قال: لمن يحتمل أي منا الحياة بمفرده. ولو بقيت هنا بدون عمل ستجن. أنت تعرفها. وسأجن أنا أيضًا. وهناك أيضًا أقساط شاليه الساحل الشمالي وشقة هبة.

اغتصب ضحكة لكني لم أستجب لها.

– وماذا ستفعل؟

– سألجأ إلى الفندي. وإذا فشل في مساعدتي سألجأ إلى السلطان نفسه. المشكلة فيما يجب دفعه من ثمن.

٢

لم تكن هناك أخبار بارزة في الصحيفة العمانية. ذكر أحد الوزراء أن أول إحصاء للسكان في تاريخ عُمان سيجرى في نهاية العام، وتوقع أن يتجاوز عددهم رقم المليونين، ربعهم من الأجانب. وفي أسفل الصفحة وجدت إشارة إلى الـ ٤١٥ فلسطينيًّا الذين أبعدتهم إسرائيل قبل تسعة أيام إلى الحدود اللبنانية وقد غطت الثلوج الخيام التي ما زالوا بها. ورفض رئيس الوزراء اللبناني علاج المرضى والجرحى في مستشفيات لبنان قائلًا إن مسئولية علاجهم تقع على إسرائيل. وأعلنت حماس وعرفات التأييد لهذا الموقف وأن المبعدين يجب أن يبقوا في أماكنهم إلى أن يعودوا إلى وطنهم.

أطلَّ فتحي برأسه من فرجه الباب وأشار إليَّ أن أنتظره لأنه لم ينتهِ بعد من مشاغله. التفت إليَّ سالم وهو يضع شريطًا في جهاز الفيديو وقال: سأريك رقصة عمانية تشبه الزار عندكم. تؤدَّى في ساحة القرية للأشخاص الذين أصيبوا بلوثة ويريدون الشفاء.

ضغط زر التشغيل فظهر على شاشة التليفزيون صف من الرجال بجوار بضع نساء جالسات غطين رءوسهن بطرحات سوداء شفافة. اعتمد أحد الرجال بيديه على طبل طويل يصل إلى منتصف صدره وعلق آخر طبلًا أصغر في رقبته بصورة عرضية وراح يضربه بالكف من الناحيتين. ودار الطبالان حول الميدان بينما تقدم الرجال من النساء يدعوهن للرقص.

أدار الشريط إلى الأمام مسافة ثم أوقفه: هذه رقصة أخرى قد تهمك يلقي فيها الشاعر قصيدة ألفية يبدأ فيها كل مقطع شعري بحرف من حروف الهجاء من الألف حتى الياء.

– من تأليفه؟

– طبعًا. كل شاعر وشطارته.

ظهرت على الشاشة دائرة كبيرة من رجال رفعوا سيوفًا ذات نصال رفيعة وساروا خلف واحد منهم يحمل سيفه في يده اليمنى. كان يلقي شعره أثناء السير وعند كل وقفة في الإلقاء يهز السيف هزَّة مستعرضة في رعشة مرعدة بينما يردد تابعوه: «الملك لله يدوم»، ممددين حرف الألف في لفظ الجلالة.

لم أتبين لهجة الشاعر فردد لي سالم ما يقوله: الألف ألفت الكلام، الباء بذكرك يا إله، الثاء ثاروا للسلام، الجيم عجمة في الزمان، الخاء خلقهم في البلاد، الدال دايم كل دار، الزاي زماني اليوم عاد، السين سنوا المرهفات، الشين شاعت لهم علوم، الواو وردة لكل زمان.

أوقف الشريط وهو يقول: الفندي سيدعوك لسهرة رأس السنة.

قلت: أنت لم تحدثني عنه أبدًا.

قال: أنت لم تسأل.

سكت برهة ثم قال: هل تذكر تحقيقات الكونجرس الأمريكي سنة ٧٧ التي كشفت دور شخصيات مثل الملك حسين في خدمة المخابرات الأمريكية؟ كانت هناك شركة تكرير للنفط تدعى اشلاند أويل وأقر رئيسها اتكينز أمام الكونجرس بأنها عملت واجهة للمخابرات الأمريكية في عدة بلدان منها إيران، وبعد سقوط الشاه بدأت تبحث عن عقود نفط عربية وظهر في الصورة ليبي يدعي يحيى عمر وكندي له علاقات قوية في مسقط والثالث هو صديقنا. والنتيجة عقد شراء نفط عماني مقداره عشرون ألف برميل يوميًّا. كان نصيب الليبي من الصفقة ٥ ملايين دولار. لك إذن أن تتخيل نصيب صاحبنا.

قلت: عادي.

أخذت أقلب صفحات الجريدة وتوقفت عند صفحة مخصصة للشعر. قرأت في أعلاها حكمة بخط كوفي: ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب.

– الشائعات رشحته أخيرًا لرئاسة الوزارة ثم تردد أن ابن عم السلطان هو الذي سيتولاها، لو تحقق هذا سيتم تحجيم الفندي لأن المرشح الجديد صديق شخصي للحارث بن عيشة عدو صاحبنا اللدود.

– من هو؟

– بن عيشة؟ مستشار للسلطان يعمل من وراء ستار.

وضع شريطًا جديدًا في الجهاز وقال دون أن يرفع عينيه عنه: هل علمت بما حدث بعد مغادرتك صلالة؟

– ماذا حدث؟
– عثروا على جثة في الجبل لشخص عُماني من أصول أفريقية.
بذلت جهدًا خارقًا لكي لا يبدو على وجهي شيء: مقتول؟
– الظاهر أنه سقط من ارتفاع كبير. فقد توازنه ربما.
سألت بعد لحظة: هل هناك أخبار عن زكريا؟
أجاب دون أن يرفع رأسه: لا.
قلت: هناك أمور كثيرة لا أفهمها.
ابتسم وكرر كلمتي السابقة: عادي.

٣

كانت توقعاتي عن منزل الفندي رغم مظاهر ثرائه مستمدة من كل ما سمعته وشاهدته: موكيت ومروحة في السقف أو جهاز تكييف، حصير ملون، كولمان للماء البارد، دلاية القهوة المرة، ترمس الشاي، إناء التمر، جلسة رجالية أو في أحسن تقدير بمشاركة نسائية محدودة ومحجبة. لهذا لم أكن مستعدًّا بالمرة لما واجهني.

وقفنا أمام بوابة حديدية في سور حجري، مرتفع. فتح لنا خادم هندي واقتادنا عبر ممشى رصفت أرضيته بالرخام الفاخر يؤدي إلى جاراج كبير. انتقلنا إلى ممشى آخر بجوار حمام سباحة كبير الحجم، توقف الهندي أمام باب سميك من الخشب الثمين وفتحه بالريموت. ولجنا ردهة مزدحمة بمناضد صغيرة أنيقة محملة بالتحف وتشرف عليها ثريات ضخمة. صعدنا الدرج إلى الطابق الأول ثم ولجنا قاعة واسعة دارت بها الأرائك الجلدية الوثيرة.

خطوت فوق طبقات سميكة من السجاد وجلست في مقعد وجلست شفيقة بجوار فتحي فوق الأريكة الملاصقة.

همست وهي تتحسس السجاد بطرف حذائها: تبريزي.

استخرجت نظارتها الطبية الفاخرة التي أحضرتها خصيصى لهذه المناسبة فارتدتها ورفعت عينيها إلى الثريا التي تعلونا مباشرة ثم أضافت بنفس الصوت الهامس: تشيكي.

أدارت عينيها في أنحاء القاعة وبدت على وجهها علامات التقدير والإعجاب. كانت — للحق — تتمتع بذوق رفيع في الملابس والأثاث والديكور المنزلي والأعمال الفنية من لوحات ومنحوتات وخلافه وتحتفظ بمجموعة قيمة منها بمنزلها في القاهرة. دققت النظر

حولي دون أن يخالجني الشك في رقة كل قطعة وفداحة ثمنها. لكني لم أشاركها الشعور بجمالها. فقد كان هناك الكثير منها.

ظهرت عند المدخل فليبينية عريضة البنيان تتحرك بثقة المعلمة وقالت بإنجليزية ركيكة إن المدام ستنزل بعد دقائق.

كانت إلى جواري خزانة من الخشب الثمين تكدست القطع الفنية داخلها وفوق سطحها. وجدت فرصة لأحد التمارين التي أقوم بها بين الحين والآخر عندما أشعر بصدأ أدوات المهنة. بدأت أتأملها واحدة واحدة وأسعى إلى إيجاد الكلمة المناسبة لتسميتها ووصفها. كان من السهل وصف حصان صغير من الذهب أو النحاس (فلم أنجح أبدًا في التمييز بين المعدنين) في حجم قبضة اليد، وصوانٍ من الفضة وبعض التحف الخزفية ذات النقوش اليابانية أو الصينية. لكني لم أتمكن من تحديد هوية المادة أو الأشكال التي صنعت منها قطع صغيرة الحجم استقرت في أمان خلف المصراع الزجاجي المحكم.

أنقذني ظهور المضيف وزوجته من شعور الإحباط. كان يرتدي دشداشة داكنة اللون وكمة من نفس اللون نجحتا في إبراز بياض بشرته. وكانت زوجته سمراء أنيقة في العقد الثالث من عمرها عنصرية المظهر والملابس، منتصبة القامة في اعتداد، ترتدي ثوبًا أسود جميلًا محلى بالورود ينتهي أسفل ركبتيها بقليل.

كانت السهرة شبه عائلية؛ إذ اقتصرت علينا وعلى شقيقة صغرى للزوجة، في حوالي الخامسة والعشرين، ترتدي بنطلون جينز، درست الهندسة وتعمل في شركة أجنبية، ثم انضمت إلينا فتاة عراقية أكبر سنًّا تدعى سعاد ابنة صديق للفندي الذي أوجد لها عملًا في شركة النفط. كانت ترتدي ثوبًا خفيفًا مشجرًا بنصف كم يتألف أعلاه من شقين منفصلين ينداح أحدهما فوق الآخر دون زراير أو كباسين محتضنين صدرًا ممتلئًا.

سألتنا خديجة، زوجة الفندي، عما نريد أن نشرب، طلبت شفيقة على الفور عصير البرتقال، تساءلت في تردد عن الخيارات المتاحة. فقالت خديجة: كل شيء موجود.

قال زوجها: خذ جين تونيك إذا كنت تريد لونج درينك.

وجهت شفيقة نظرة صارمة إلى فتحي فتردد. خففت إلى نجدته قائلًا: خُذ كأسًا من الويسكي، شفيقة يمكنها أن تقود السيارة.

أومأ موافقًا وهو يتجنب النظر إليها، وشاركه المضيفان الاختيار بينما انضمت الفتاتان إلى جانب شفيقة.

أحضرت المعلمة الفليبينية مائدة صغيرة عليها صحون الفستق الإيراني والزيتون الأخضر والروبيان المسلوق والبذر السوري، ثم مرت علينا بكئوس الشراب التي أعدتها في الصالة الخارجية.

تناولت كأسي الذي زينته قطعة ليمون معلقة فوق حافته وقلبت محتوياته بعصا بلاستيكية ثم رفعته إلى شفتي وأنا أنظر إلى شفيقة من فوقي حافته شامتًا.

شعرت أني مدعو للقيام بقليل من المسامرة، فأبديت إعجابي بالمنزل وتركت لصاحبيه أن يشرحا لي مميزاته وكيف أنه يطل على البحر من ناحية وعلى الجبال من الناحية الأخرى. وعندما استهلكنا الموضوع عاجلته بسؤال عن الكيفية التي يبدأ بها يومه. وجد متعة في الإجابة: عند الاستيقاظ كأس مياه معدنية مستوردة من عيون ماء سويسرية لتنظيف الكلى ثم تمارين سويدية في حجرة الألعاب مع الأجهزة الضرورية يعقبها الاستلقاء في حمام جوكوزي بفقاعاته الدافئة المعطرة وعشر دقائق في حمام السونا، تليها أخرى في حمام البخار، ثم جلسة تدليك خفيفة يعقبها حمام بارد. وأخيرًا يرتدي روبًا قطنيًّا ويشرب كأسًا من عصير البرتقال ثم يسترخي في مقعد الحلاقة لتتولى فليبينيتان حلاقة لحيته وقص أظافره وتضميخ وجهه بالعطور. أغرته عملية الجرد بأن يستعيد ذكرى البدايات: كان أبي صائد سمك من الباطنة، أما أمي فلا أذكرها لأنها ماتت بالسل وأنا طفل، كنا نعيش في كوخ من السعف. يوقظني أبي في الفجر لنتناول مزودة التمر وجرة الماء ثم أسير خلفه إلى الشاطئ وأعاونه في دفع الزورق إلى البحر، في الليل نتعشى سمكًا مغليًّا من بقايا صيد الصباح، ثم مرض أبي ولزم بستانه الصغير وعاونته فيه أيضًا. كنت أقوم في الفجر وأذهب إلى البستان لأملأ حوضه بالماء مستعينًا بثور هزيل.

قاطعته متسائلًا: متى إذن كنت تجد الوقت للمدرسة؟

– مدرسة؟ لم يكن في القرية كلها من يعرف القراءة والكتابة، والأطفال حفاة وشبه عراة. لا طبيب ولا مستشفى. والجميع يموتون صغارًا من سوء التغذية والأمراض. أين كنا؟ آه. اضطر أبي إلى رهن بستانه لدى أحد التجار بمبلغ مائتي قرش، وقبل أن تنقضي المدة مات بالسل. ووجدت صعوبة في بيع القت والبطيخ والخيار ولم أجد مفرًّا من بيع البستان، فأخذه التاجر بمائة قرش خصم منها ما تبقى من الرهن ومقداره عشرون قرشًا. وأخذ القاضي عشرة قروش مقابل كتابة صك نقل الملكية.

فرغت محتويات كأسي، فأشرت إلى الفليبينية الواقفة عند المدخل أن تحضر إلى واحدًا ثانيًا.

استطرد: كان شبان آخرون قد نجحوا في التسلل إلى السعودية والكويت. وسمعنا أن بهما مدارس ومستشفيات تعالج الناس مجانًا، خرجت ليلًا في حذر دون أن أخبر أحدًا خوفًا من عيون الوالي؛ لأن الحكومة تسجن كل من يفكر في الهروب من البلاد. وضعت نقودي في الهيمان تحت أثوابي. يممت شطر الحدود وفي مدينة شناص التقيت بصديق يركب حمارًا. قال إنه يمكن الحصول على جواز سفر من عجمان أو الفجيرة، قضينا الليلة على مشارف الفجيرة وعند الصباح دخلناها بعد أداء الصلاة. التجأنا إلى أحد المساجد وبعد ثلاثة أيام بعنا حمارينا واشترينا جوازين بمائتي روبية. الجواز مجرد ورقة تحمل شعار إمارة الفجيرة. اشترينا تذكرتي سفر في باخرة قادمة من الهند ومتجهة إلى الكويت ثم البصرة. وصلنا الكويت بعد أسبوع حيث شاهدنا لأول مرة مدينة تعج بالناس والبنايات وسيارات تقطع الشوارع بسرعة جنونية ويتكلم أهلها لهجة مختلفة لم نفهم منها شيئًا. في الأحمدي سألنا عن مساكن العمانيين واستضافنا واحد منهم.

رفع كأسه وابتسم ثم قال: لا زلت أذكر طعم عصير البرتقال الذي قدمه لنا وشربته لأول مرة في حياتي، قدم لنا اللحم أيضًا وهو ما لم نكن نذوقه في القرية إلا في عيد الأضحى. قال لنا إن هناك ستين ألف عماني يقومون بالأعمال الحقيرة مثل حفر القبور وكنس الشوارع، والمحظوظون يلتحقون عمالًا في شركة النفط، نادرًا ما تجد حضرميًّا أو مهريًّا أو فلسطينيًّا أو مصريًّا يقوم بهذه الأعمال. هؤلاء متعلمون منهم المهندس والطبيب، ويشتغلون في مكاتب الحكومة والشركات ويسكنون في منازل محترمة وعندهم سيارات.

لحظت أن الفتاتين — خولة، شقيقة المضيفة، وسعاد — تنصتان في وجوم، فاستنتجت أنهما تحفظان قصة المسيرة عن ظهر قلب، وسرعان ما كانتا مشتبكتين في حديث نسوي مع شفيقة. وخرجت خديجة عن النص إذ تابعت حديث زوجها في اهتمام رغم ثقتي في أنها سبق أن سمعته أكثر من مرة.

وجد الشاب عملًا في شركة النفط، وانضم إلى مدرسة محو الأمية المسائية في فصل من أربعين شابًّا عمانيًّا، يعلمهم مدرس مصري صبور يعتقد أنه يؤدي واجبًا قوميًّا. بعد سبع سنوات حصل على الثانوية، تعود خلال ذلك على لبس النعال. لكنه لم يتقبل المعاملة السيئة والمهينة الممثلة في عبارة ملعونة هي: تكرم عُماني. اتصل بالسفارة العراقية عن طريق معارفه من البعثيين، وتمكن من السفر إلى بغداد لدراسة العلوم الاقتصادية بجامعتها. وعاد إلى الكويت بعد تخرجه، فالتحق بشركة النفط، ثم قام قابوس بالتغيير وطلب من العمانيين في الخارج العودة للمساهمة في بناء البلاد فاستجاب.

كان يتحدث ببساطة دون شعور بالحرج مستمتعًا بعملية الجرد، ولم يكَدْ ينتهي حتى جاء دور زوجته فأدركت السر في طول صبرها.

– كنت أول طالبة تلتحق بكلية التربية في جامعة السلطان قابوس، ومن صغري أحب عالم البيزنيس. أبي يملك شركة استيراد فطلبت منه أن أكون معه في الشركة بعد الظهر، وافق على أنها نزوة ستنتهي لكن بعد التخرج وضعت قدمي في الشركة. عملت تحت رئاسة مدير إنجليزي ثم حللت مكانه، كنت فتاة هادئة جدًّا لكن نقطة التحول في حياتي كانت بعد عامين من دخولي مجال العمل حيث بدأت أكتشف في نفسي قدرات لم أعهدها من قبل، نجحت في إدارة مول يقوم على الطريقة الأمريكية، وهو استثمار كويتي بخمسة ملايين ريال، وأنوي إقامة فندق إلى جواره ومستشفى لعلاج الأطفال من مرض السرطان.

أبديت إعجابي بمسيرتها فقالت في اعتزاز: المرأة العمانية لها تاريخ حافل في العمل العام. هل تعرف أن امرأة تدعى عالية بنت ناصر حكمت عمان في القرن الخامس عشر الميلادي؟ ليس هذا فقط بل كانت تقود الجيوش وانتصرت في عدة حروب.

وأضاف زوجها: وضع المرأة يتحسن الآن بسرعة. أول أمس أعلن بنك عمان التجاري أنه سيقدم خدمات خاصة للسيدات.

ولا بد أن وجهي ظهر عليه تعبير ما لأنه سارع يقول: هذه مجرد بداية فنحن نواجه معارضة قوية من الشيوخ والمجتمع القديم.

قطعت علينا الحديث طفلة سمراء جميلة في حوالي السادسة من عمرها اقتحمت الغرفة وارتمت في حضن خديجة وشدت ساعدها في إلحاح. سألتها عما تريد فغمغمت ببضع كلمات في دلالٍ.

قالت لها: ضعي في الفيديو كارتون توم وجيري.

هتفت الطفلة في سخط: ماما. مللته.

– أوكي. ضعي البينك بانثر.

– لا يعجبني.

– عندك سلاحف النينجا.

– لا أحبه.

– إذن العبي بالقطار.

لم تعترض الطفلة على الاقتراح الأخير، فنادت أمها على ميليسيا. وحضرت على الفور فتاة فليبينية مليحة الوجه في حوالي العشرين ترتدي بلوزة وبنطلونًا من الجينز وحذاء ريبوك. طلبت منها الأم في رقة بالإنجليزية إحضار القطار.

التفتت إلينا وقالت: ميليسيا خادمتي الخاصة، عندنا منذ شهر وبنت ممتازة.

سألت الفندي عن الخادم الفليبيني ذي القرط.

قال وهو يتابع ميليسيا بنظراته: طردناه.

شرحت خديجة السبب: في يوم إجازته عاد بالليل متأخرًا ساعة ومخمورًا. وضعناه في الصباح على الطائرة إلى بلاده.

ظهر في مدخل الغرفة طفل وسيم في حوالي السنتين من عمره يضع إصبعه في فمه. تهللت أسارير الفندي وهتف به: بوش. تعالَ.

استدار الطفل في حياء واستقر في أحضان خادمة هندية أو سيريلانكية انحنت لالتقاطه.

قال لي الفندي: جاءنا في أعقاب تحرير الكويت، فأسميناه على اسم الرئيس الأمريكي.

وضعت ميليسيا قطارًا كهربائيًّا على الأرض قرب الباب وركعت على ركبتيها لتقوم بتشغيله، كان ظهرها لنا وحانت مني نظرة إلى الفندي فوجدت عينيه مثبتتين على مؤخرتها. نقلت النظر إلى زوجته فوجدت عينيها على نفس المكان.

انتهت الفتاة من تشغيل القطار وبدأ يجري على القضبان وأسفل الجسور وأمام المحطات. استلقت على الأرض إلى جوار الطفلة تشاركها اللعب وفجأة اختلست النظر إلى سيديها واعتدلت جالسة. وهمت بالنهوض، لكن سيدتها أشارت إليها فاقتربت من مقعدها وركعت إلى جواره فوق ركبتيها بحيث صار رأسها في مستوى مسنده.

وضعت خديجة يدها فوق رأس ميليسيا وأخذت تتحسس شعرها وهي تحكي لشفيقة عن زياراتها المتعددة للعاصمة الإنجليزية، ورأيت الأخيرة تحدق فيها بانبهار. لم تكن فكرة التردد على لندن هي التي أثارت انبهار شفيقة، وإنما قول خديجة إنها لا تجد في ذلك أي متعة: في الصباح الإفطار ثم طبيب الأسنان من الواحدة حتى السابعة مساءً، وبعد ذلك أبحث عن مطعم لا أتعرض فيه المعاكسات أو رذالات، فأستقل تاكسي وأمر على كل المطاعم حتى أستقر على واحد يفتح لي أبوابه خصوصيًّا. وبعد ذلك إلى الشقة وحيدة مع التليفزيون.

أدرك الفندي السؤال الذي تكوَّن على لسان شفيقة فقال: أنا أفضل سنغافورة فهي أقرب من لندن بساعتين.

أعلنت المعلمة الفليبينية أن الطعام جاهز فنهضنا. وصدرت عن سعاد آهة وهي تضع يدها على صدرها الذي أوشك أن يقفز من الثوب المنفلت، أسرعت خولة تبحث لها عن دبابيس تثبت بها صدر الثوب وانتقلنا إلى قاعة مجاورة احتلتها مائدة مستديرة تغطَّى سطحها بصنوف الطعام من لحوم وأسماك وطيور ومشويات ومحشيات، ملأنا صحوننا وعدنا إلى أماكننا وجلسنا نأكل في صمت ونحن نستمع إلى موسيقى غربية خفيفة.

عندما انتهينا كانت الساعة قد أشرفت على منتصف الليل، تبادلنا التهاني والأمنيات بينما يد سعاد لا تفارق صدرها. واقترح الفندي أن نشرب الشاي في قاعة أخرى.

تبعناه إلى قاعة واسعة تناثرت في جنباتها الوسائد العريضة الموشاة بالقصب وامتلأت جدرانها بلوحات المستشرقين. واكتملت الصورة بمصطبة في أقصاها أحاطت بها الستائر الشفافية فبدت أشبه بكهف أو كوشة عُرس. أزاح الفندي الستائر وجلس معتمدًا بمرفقه على الوسائد ثانيًا ساقه اليسرى إلى أعلى. دعاني لأن أجلس إلى جواره، فاضطجعت معتمدًا على مرفقيَّ الاثنين مادًّا ساقيَّ أمامي.

جلست شفيقة في حذر وهي تثني ساقيها بصعوبة. وجاورتها سعاد وهي تجلب خولة في حجرها. ومالت خولة على شفيقة قائلة: لو لمست رداءها في أي مكان ستنكشف حلمة صدرها.

جاءنا الشاي في صوانٍ من الفضة. وأدارت خديجة شريطًا لبشناق ثم استبدلته بآخر لوردة الجزائرية يضم أغنية «أتونس بيك».

قالت: ياللا يا سعاد.

شرعت تصفق وقلدناها في حماس. وتدللت سعاد قليلًا ثم تحججت بثوبها الذي سيكشف صدرها فعرضت عليها خديجة، أن تبدله بآخر ثم أحضرت لها مشبكًا معدنيًّا ولفاعة حريرية لفتها حول وسطها.

استسلمت سعاد أخيرًا ونهضت ثم خطت وسط القاعة وما زالت يدها على صدرها وبدأت تهتز مع أغنية وردة وهي تنظر إلى الأرض في خجل، ولم تلبث أن اندمجت في الرقص وأخذت تهز وسطها ببراعة تامة ونسيت أمر صدرها فأبعدت يدها عنه ولم تكترث عندما سقط أحد الدبابيس وانحسر الثوب عن أعلى نهديها.

قال لي الفندي وهو ينهض واقفًا: تعالَ معي، أريد أن أريك شيئًا.

غادرنا القاعة وصعدنا الدرج إلى الطابق الثالث. ولجنا غرفة مكتب أنيقة ازدانت جدرانها بمجلدات الكتب داخل خزائن مغلقة، وتصدرها جهاز تليفزيون ضخم يحمل جهازًا للفيديو.

أشار إليَّ أن أجلس فوق أريكة مقابلة وفتح إحدى الخزائن وتناول منها شريطًا وضعه في الجهاز ثم جلس بالقرب مني وضغط زر لريموت.

لم تكن هناك أية مقدمات أو عناوين. احتلت الشاشة لقطة مهزوزة قليلًا لطاولة مستطيلة يجلس ثلاثة أشخاص بالقرب من أحد طرفيها، كان أحدهم قصير القامة، ممتلئ الجسم، أصلع الرأس، عصبي القسمات. وتحولت الكاميرا إلى باب دلف منه رجال آخرون يحملون حقائب يد جلدية توزعوا حول الطاولة. كانت ملامحهم عربية أو شرق أوسطية. وبدا أن شيئًا من الألفة يجمع بينهم رغم التوتر الظاهر على وجوههم، ثم دخل القاعة حارس مسلح بمدفع رشاش يحمل حقيبة واتجه إلى رأس الطاولة. وتبعه آخر يحمل ترموس شاي. وضع الأول الحقيبة على الأرض قرب المقعد الفارغ الذي يتصدر الطاولة، بينما وضع الثاني ترموس الشاي أمامه، وخطا الأول نحو الباب ثم استدار فجأة رافعًا رشاشه إلى أعلى وصوبه إلى ظهر الرجل الأصلع وأطلق عليه النار من أعلى إلى أسفل، وكان الحارس الثاني قد بدأ يطلق النار من رشاشه بينما انتقلت الكاميرا إلى الجالسين الذين هبطوا أسفل الطاولة وهم يسحبون مسدساتهم ويطلقون النار على الحارسين.

انتهى الفيلم فجأة كما بدأ دون أن تتجاوز مدة العرض دقائق معدودة. بقيت أتطلع إلى الشاشة الفارغة في بلاهة. لقطة من فيلم عن المافيا؟ تدريب على عملية إرهابية؟ استعدت مشهد المذبحة وقدرت أنه أقرب إلى التمثيل منه إلى تسجيل واقعة حقيقية.

سألني: لم تعرف بعد؟

هززت رأسي نفيًا.

قال: ألم تسمع عن مذبحة المكتب السياسي؟

نبشت في ذاكرتي عبثًا فأضاف: عدن ٨٦.

تحركت بعض الذكريات التي قُبرت في عنف.

استطرد: نسيت أو تتناسى؟ واحد مثقف مثلك يجب ألا تغيب عنه هذه الصفحة الدموية.

– لكن من الذي قام بالتصوير؟ كاميرا خفية؟

ضحك ولم يجب. أغلق الجهاز بالريموت وهب واقفًا، استخرج الشريط وأعاده إلى مكانه في الخزانة وأغلقها بالمفتاح. وجذب مصراعي الخزانة المجاورة وانتقى ثلاث مجلدات قدمها إليَّ قائلًا: اقرأها لتنعش ذاكرتك.

أضاف عندما تناولتها: هل عثرت على صديقيك؟

أليس في هذا البلد أسرار؟

أجبت بالنفي.

قال وهو يتقدمني إلى الباب: يمكنني أن أساعدك. سأعرض عليك صفقة. ما رأيك؟

التفت إلى وضع يده على ذراعي، فتطلعت إليه في حيرة.

قلت: ليست لديَّ خبرة بالأعمال التجارية.

ضحك: المسألة لا تحتاج إلى خبرة. هناك قاعدة واحدة: خذ وهات.

العقل والقلب أم اليوميات التي لم تعد معي؟

استدار ناحية الدرج وبدأ يهبط وأنا في أعقابه، وجدت شفيقة وفتحي يهمان بالوقوف معربين عن رغبتهما في الانصراف.

رافقنا صاحبا البيت حتى الباب الخارجي. وقادت شفيقة السيارة في براعة عبر الطرقات المهجورة وهي تعلق على السهرة: بنات مساكين، تعرف ماذا قالت لي أخت خديجة؟ سألتني إذا كنت أخلع النظارة عندما ... عندما ...

عابثتها قائلًا: تقصدين عند ممارسة الجنس؟

– حاذر في الكلام ... يبدو أنك شربت كثيرًا ...

صمتت غاضبة وضاعفت السرعة ثم اضطرت إلى الإبطاء عندما أشرفنا على ميدان انتشرت فيه حلقات صغيرة من الهنود.

كنا في الثانية صباحًا. سألت: أيه الحكاية؟ مظاهرة؟

– أبدًا. إنهم يقضون السهرة وقوفًا ليقتصدوا الريال الذي سيتكلفه كوب شاي في أي مقهى. الواحد منهم يتقاضى خمسين ريالًا ويحاول الحياة بالحد الأدنى ليتمكن من إرسال نقود إلى أهله.

أضاف بعد لحظة: مساكين. يعيشون أربعين في غرفة، ولا يتمتعون بأي حقوق ولو أقاموا هنا خمسين سنة. وفي أي لحظة يمكن أن يجدوا أنفسهم على طائرة.

خرجت شفيقة عن صمتها وقالت: هل سمعت التصريح الذي أدلى به السفير الهندي في الإمارات عندما سئل عن مشكلة التفاهم بين العرب والهنود قال إنه لا توجد أي مشكلة لأن أكثرية الشارع — ٦٠ بالمائة — تتكلم الأوردية.

عادت شفيقة بعد قليل إلى سهرة الليلة: ميليسيا مستغربة وقلقة. حاولت طمأنتها فقلت لها إن المدام تحبها. تعرف ماذا قالت؟

كان فتحي مدربًا على أسلوب الحوار مع زوجته فجاراها قائلًا: لا. ماذا قالت؟

– سألتني: ولماذا تحبني المدام؟ المسكينة تحب ولدًا من بلدها وهو هنا في مسقط، لكن المدام منعتها من رؤيته. قالت لي إنها تحلم باليوم الذي تعود فيه إلى بلدها، وهي مذهولة من مظاهر الثراء هنا. ذهبت مرة مع أسرة الفندي إلى عرس في أحد الفنادق تكلف ١٦٠ ألف ريال، والمغني وحده أخذ ٣٠ ألف ريال، ثم سألتني: لو معك فلوس تنفقينها هكذا؟

جاء دوري فسألتها: صحيح ... لو معك فلوس كيف تنفقينها؟

قالت بلهجة حالمة: أذهب إلى لندن ببطاقة وان واي.

٤

استيقظت فجأة مبللًا بالعرق. أضأت مصباح الغرفة من زر قريب وتناولت كوب ماء من فوق منضدة صغيرة بجواري، ثم نهضت ومضيت إلى النافذة وأخذت أتأمل الجبال الموحشة الحالمة خلفها. استعدت المشهد الدموي الذي لم يدُمْ على الشاشة أكثر من دقائق معدودة لكنه نكأ جراحًا نزفت عدة سنوات.

عدت إلى الأريكة فجلست وتناولت أحد المجلدات التي أعطانيها الفندي وعكفت على قراءتها ليلة الأيام الأربعة الماضية. كانت تعكس وجهات نظر متباينة وتستند إلى شهادات متناقضة. ومع ذلك كان من شأنها تحريك الذكريات الراكدة وإعادة تكوين الخطوط العامة للمشهد المأساوي.

فمنذ البداية عانت عدن من صعوبات اقتصادية جمة لكن قادتها كانوا ما زالوا يؤمنون بقدرة نهجهم الثوري على إحداث تغيير جذري في منطقة الخليج والجزيرة؛ ولهذا ساندوا الجبهات المتعددة وعلى رأسها جبهة ظفار. ولا بد أنهم تلقوا ضربة قاصمة عندما أعلن السلطان قابوس دحر الثوار في ١١ ديسمبر ٧٥ أمام خمسين ألف مواطن، وتلا ذلك إعلان العفو العام، فاستسلم حوالي ألفين من الثوار وانتفع الأهالي بـ «مكرمات السلطان» من التليفزيون الملون في الأماكن العامة إلى البومبون الذي ألقته عليهم طائرات سلاح الجو السلطاني. ولم تمضِ ثلاثة شهور حتى حدثت المعجزة ووقع السلطان اتفاقية هدنة مع اليمن الجنوبي. وتردد في هذا الصدد أن السعودية قدمت مساهمة مالية كبرى لعدن ووعدت بتمويل إنشاء مصفاة للنفط بها.

والواقع أن عدن كانت في أمس الحاجة للمساعدة، وهو الأمر الذي عزز داخلها التناقض المألوف بين الدولة والثورة. وخطا النظام مسافة بعيدة عن الأيام الحافلة قبل ثلاث سنوات عندما اجتاحتها حمى التأميمات لحوانيت الفواكه والخضار والأسماك واللحوم، وسارت الجماهير تهتف: «يا سالمين لا تنسى، باقي الدكاكين والتاكسي»، لكن شعبية الرئيس سالمين لم تتأثر بالصعوبات وهي التي استندت إلى بساطته وحرصه على التواجد مع الناس وحل مشاكلها وخبرته الطويلة في التحكيم بين القبائل وضيقه بالبيروقراطية وغرامه بالالتفاف حولها بقرارات مباشرة. ومن ناحية أخرى أدى ذلك إلى تعزيز سلطاته وإثارة حفيظة القادة الآخرين وتوجساتهم، فتكتلوا في سبتمبر ٧٦ ونجحوا في إقناع أغلبية اللجنة المركزية باتخاذ قرارات تحد من سلطاته، لكنها لم تكن كافية لانتزاع فتيل الصراع.

ففي الصيف التالي عاد علي عنتر من موسكو بعد أن اجتاز دورة عسكرية أكاديمية (وكان قد تعلم مبادئ القراءة والكتابة حديثًا) ليجد الخلافات على أشدها بين سالمين وغالبية أعضاء المكتب السياسي بما فيهم علي ناصر ومجموعته برئاسة عبد الفتاح إسماعيل. وبادر هؤلاء بترشيح علي عنتر لمنصب وزير الدفاع فاعترض سالمين بشدة خوفًا من أن يصبح الجيش في يد خصومه. وكان علي عنتر معروفًا بالسذاجة والعُصابية، وتردد أن سالمين قال في حضوره: علي عنتر مجنون ومثل تشومبي وسيعمل بلبلة. وتردد أيضًا أن علي عنتر — الذي كان يحب سالمين ومسحورًا بشخصه — رد عليه قائلًا: «أنا أو أنت في البلد».

واستمر الصراع بين الجانبين وفسره كثير من المراقبين بأنه صراع فكري تارة بين القوى الموالية للسوفييت بزعامة عبد الفتاح إسماعيل (الذي كان يعتبر نفسه منظرًا ويحيط نفسه بهالة لينينية) وبين القوى الموالية للصين بزعامة سالمين (الذي لم يكن يخفي إعجابه بالنموذج الصيني) وتارة أخرى بين الثوريين وبين الذين يسعون للارتماء في أحضان الرجعية العربية. لكن الأحداث أثبتت خطأ كل هذه التفسيرات. فالسياسة الخارجية لم تكن أبدًا محل خلاف حقيقي.

وبالمثل كان الموقف من قضية الوحدة اليمنية التي كانت مطلب كل اليمنيين في الشمال والجنوب. فقد رأت قيادة عدن التريث في أمرها كي لا تتم لصالح القوى الرجعية في الشمال. لكن الانقلاب الذي قام به المقدم الحمدي في يونيو ٧٤ أفرز معطيات جديدة، إذ كان الحمدي متنورًا معاديًا للإقطاع والقبلية.

كما كانت تربطه بسالمين علاقة قديمة منذ الخلايا الأولى لتنظيمات القوميين العرب. ووجد الاثنان في الوحدة بين الشطرين حلًّا لمشاكلهما: فمن شأنها أن تعزز موقف الأول ضد غلاة الرجعيين والقبائل المدعومة من السعودية وتدعم موقف الثاني في مواجهة خصومه.

تعددت تصريحات الرئيسين بشأن الوحدة وبدا تحقيقها أمرًا قريب المنال مما أثار قلق عواصم كثيرة في الجزيرة وخارجها، وخاصة بعد تصريح للحمدي عن ضرورة تأمين البحر الأحمر وإبعاده عن سيطرة القوى الاستعمارية والرجعية. وبلغ القلق أوجه عندما قرر زيارة عدن في ١١ أكتوبر ٧٧ ليعلن عن خطوات جديدة في طريق الوحدة، وهي زيارة لم يقدر لها أن تتم.

ففي العاشر من أكتوبر ٧٧ دعاه نائبه العقيد الغشمي إلى منزله. وعندما وصل الحمدي في سيارته الخاصة الفولكس فاجن التي قادها بنفسه فوجئ بأخيه مقتولًا، ولم يلبث أن لحق به، وقيل فيما بعد إن الزيارة كانت ترويحية اشتملت على لقاء بفتاتين فرنسيتين عُثر على جثتيهما. وتردد أيضًا أن اغتيال الحمدي تم في حضور الملحق العسكري لأحد البلدان العربية المجاورة، فضلًا عن قائد أحد الألوية اليمنية الذي صار شخصية مرموقة فيما بعد. وقع ذلك قبل شهر من الزيارة المشئومة التي قام بها أنور السادات إلى القدس وقلبت كثيرًا من الموازين وغطت أنباؤها على كل حدث آخر. هكذا انزوى الحادث الدموي وتولى العقيد الغشمي رئاسة اليمن الشمالي في هدوء. ولم تمضِ شهور قليلة حتى كان وزير الدفاع الأمريكي يتفق في السعودية على تزويد اليمن الشمالي بدبابات أمريكية ونفاثات ف-٥ مع خبراء أمريكيين بمبلغ ٣٠٠ مليون دولار تدفعها المملكة.

وفي ٢١ يونيو ٧٨ اتصل سالمين بالغشمي وقال له إنه سيعيد إليه بعد ثلاثة أيام عددًا من شيوخ القبائل المختطفين على متن طائرة خاصة يرافقهم مندوب سيعرض عليه وثائق هامة.

وفي يوم ٢٤ يونيو وصلت الطائرة التي تقل شيوخ القبائل ومندوب الرئيس اليمني الجنوبي الذي حمل حقيبة خاصة أصر على أن يسلمها بيده للرئيس الغشمي. اقتيد المندوب إلى مقر الرئيس حيث سلمه الحقيبة. وعندما هم الأخير بفتحها انفجرت فيه وأودت بحياة الاثنين.

اتهمت صنعاء على الفور سالمين بأنه وراء الاغتيال بدافع الانتقام لمقتل صديقه. وردت حكومية عدن على لسان رئيسها علي ناصر محمد بشجب الاغتيال.

وفي اليوم التالي ذهب فضل الله محسن عضو المكتب السياسي وشقيق زوجة عبد الفتاح إسماعيل، مع اثنين من رفاقه إلى صالح مصلح وزير الداخلية لإقناعه بتحديد موقف ضد سالمين، جرى اللقاء في جو شديد التوتر وكل طرف يرقب حركة يد الآخر حتى لا تصل إلى المسدس قبله. وقال له فضل الله: لن أخرج من هنا أنت أو نحن أحياء قبل الاتفاق على موقف. وحاول صالح أن يفدي سالمين بحياته، فقال إنه هو الذي قتل الغشمي من أجل تحقيق الوحدة اليمنية. وإنه انتقى واحدًا من قدامى الفدائيين (مهدي الذي عرف باسم الحاج تفاريش أي رفيق بالروسية بسبب الدورة الدراسية التي قام بها في الاتحاد السوفييتي) وعهد إليه بالحقيبة الملغومة بعد أن أقنعه بالاستشهاد من أجل الهدف النبيل. وأقيم للفدائي حفل خاص تم تصويره بالفيديو تقديرًا لصلابته وتفانيه.

توجه فضل الله محسن على الفور إلى قصر الرئاسة بصحبة علي عنتر ومطيع وعرضوا على سالمين الاستقالة حقنًا للدماء. ونجحوا في إقناعه بعد أن تعهدوا له بأن يتم خروجه من السلطة والبلاد بشكل مشرف، واجتمعت اللجنة المركزية لتعيد تشكيل مجلس الرئاسة ليضم علي ناصر محمد رئيسًا مع عبد الفتاح إسماعيل ومحمد صالح مطيع وعلي عنتر وعلي باذيب (ممثل الشيوعيين). وأصدرت اللجنة قرارًا بتجريد الرئيس سالمين من كافة مناصبه الحزبية والرسمية وتكليف علي عنتر وصالح مصلح وصالح مطيع بوداعه في المطار.

وفيما بعد قيل إن علي صالح عباد (مقبل)، الذي دبر مع سالمين انتفاضة ٦٨ ضد قحطان الشعبي، غادر الاجتماع واتصل بسالمين وأبلغه أن الفرصة مواتية لضرب اللجنة المركزية والتخلص من كافة خصومه دفعة واحدة. كما قيل من ناحية أخرى إن ضابطًا في الحرس الرئاسي يُدعى أم زربة غضب لقرار تجريد سالمين فأشعل الصدام الدموي بمبادرة فردية منه.

ففي أعقاب انتهاء اجتماع اللجنة المركزية انصرف الجميع إلى بيوتهم وتوجه عبد الفتاح إسماعيل وعلي ناصر وصالح مصلح وعلي عنتر ومحمد صالح مطيع وفضل الله محسن إلى منزل علي ناصر للاحتفال بالانتصار على سالمين، فلم تكن تنحيته بالأمر السهل كما أنها قدمت حلًّا للمشكلة مع الشمال التي فجرها اغتيال الغشمي.

وبينما هم يتبادلون الأنخاب أُطلقت النيران والمدافع في الساعة الثانية من فجر ٢٦ فأصدروا أوامرهم للطيران والبحرية بضرب قصر الرئاسة، واستمر القصف حتى السادسة مساء عندما أخمدت كل مقاومة وحوصر القصر، وجرى توجيه نداء إلى الرئيس

بالميكرفون بالاستسلام فخرج ومعه عضو في المكتب السياسي وآخر من اللجنة المركزية، ونقل الثلاثة إلى مقر المكتب السياسي حيث حوكموا بسرعة وأعدموا معًا. وأعلنت اللجنة المركزية في بيان للشعب نبأ إحباط محاولة انقلابية قام بها سالمين. واختتمت البيان بالشعار التقليدي: «عاشت القيادة الجماعية ولتسقط وإلى الأبد النزعة الفردية»، أما صالح مصلح فلم يحاكم أو يتعرض للمساءلة، ووضع بقية أنصار سالم ربيع في السجن وعلى رأسهم علي صالح عماد (مقبل) الذي بقي خمس سنوات وراء القضبان.

تلا ذلك انعقاد المؤتمر التأسيسي الأول للحزب الاشتراكي اليمني الذي قرر باقتراح من علي ناصر محمد أن يتولى أمينه العام عبد الفتاح إسماعيل رئاسة الدولة، من أجل تعزيز سلطة الحزب، على الطريقة السوفييتية. وتشكل مكتب سياسي من عبد الفتاح إسماعيل، علي ناصر محمد، محمد صالح مطيع، صالح مصلح، علي سالم البيض، محسن، وأخرين، أما رئاسة الوزارة فقد عُهد بها إلى علي ناصر. ودحضًا لما تردد عن الخلافات الأيديولوجية بشأن السياسة الخارجية أقر المؤتمر التعايش السلمي مع الدول الخليجية. وخرج علي ناصر محمد في وضع الرجل الثاني في الدولة.

لكن الصراع لم ينتهِ فقد شهدت الشهور التالية استعدادات مجموعة من كافة الأطراف، المحلية والخارجية، لجولة جديدة، استخدمت فيها كافة الوسائل من الذهب إلى العصبية القبلية والمناطقية. ودارت المواجهة الأولى حول جهاز المخابرات العسكرية: هل يتبع وزارة الدفاع (علي عنتر)، أم أمن الدولة (محسن)؟ ويبدو أن علي ناصر أفهم علي عنتر أن محسن يعمل من أجل السيطرة على الجيش بإيعاز من عبد الفتاح إسماعيل، وأبلغه أنه يقف إلى جانبه، كما أبلغ محسن بأنه يؤيده ويقف إلى جانبه، وحلت الأزمة بتشكيل لجنة لأمن الدولة تتبع رئيس الوزراء علي ناصر الذي أصبح له نتيجة ذلك وجود مباشر داخل الجيش.

ترددت من جديد الشائعات حول الصراع الدائر واضطر عبد الفتاح إسماعيل لأن يعلن في مارس ١٩٨٠: «إن قراراتنا تتخذ دائمًا بشكل جماعي ... والذين ينتظرون جولة صراع قادمة على السلطة في عدن سيطول انتظارهم».

لكن الانتظار لم يطل، وكان عبد الفتاح إسماعيل نفسه هو ضحية الجولة الجديدة.

فقد نجح علي ناصر في إقناعه بأن عددًا من قادة الحزب لم يعودوا مؤهلين لتحمل أعباء مهام المرحلة القادمة مثل علي عنتر وصالح مصلح، اللذين وصفهما بأنهما قتلة متوحشين، وفي نفس الوقت كان يردد أمامهما أن عبد الفتاح رجل مثقف ومنظر وشاعر

وأديب يعيش في برج عاجي ولا يصلح كرجل دولة أو زعيم حزب، وأنه محاط بالمثقفين والأدباء، وينظر إلى قادة الحزب القدامى على أنهم متوحشون.

وفي مطلع شهر أبريل أبلغ علي ناصر عبد الفتاح إسماعيل بأن هناك تكتلًا في المكتب السياسي يهدف إلى إبعاده — أي إسماعيل — وإحلاله هو مكانه لكنه، أي علي ناصر، لا يشرفه أن يتحمل المسئولية من بعده ولهذا قرر أن يستقيل، وتبين عبد الفتاح من ذلك أن أحدًا لم يعد يقف إلى صفه في المكتب السياسي فقرر الاستقالة وطلب من علي ناصر أن يحل محله.

وفي ٢٠ أبريل ١٩٨٠ عقدت اللجنة المركزية اجتماعًا مُنع عبد الفتاح إسماعيل قسرًا من حضوره. وفي جو من الإرهاب والتلويح باستخدام العنف قاده علي عنتر تقرر قبول استقالة عبد الفتاح إسماعيل لأسباب صحية من منصبي الأمين العام للحزب ورئيس الدولة، وعُهد بالمنصبين إلى علي ناصر محمد إلى جانب رئاسة الوزراء. واستُحدث منصب جديد لعبد الفتاح على الطريقة العراقية، هو رئيس الحزب، وفي احتفال خاص قلده علي ناصر وسام ثورة ١٤ أكتوبر، وعلى الطريقة العراقية أيضًا شُيع في إجلال إلى المطار ومنه إلى المنفى في موسكو. وأصبح الرجل الثاني في الحزب هو محمد صالح مطيع وزير الخارجية المثقف الدبلوماسي، وأحد أبرز الفدائيين في حرب التحرير، الذي تحمس لتنحية سالمين ثم عبد الفتاح.

حصل علي ناصر محمد أخيرًا على السلطة الكاملة، لكنه لم يشعر بالاطمئنان لوجود محمد صالح مطيع إلى جواره فأبلغ المكتب السياسي بعد أربعة شهور بوجود مؤامرة بينه ودولة أجنبية لإحداث انقلاب، فتم اعتقاله بالرغم من دفاع علي عنتر عنه.

لكن قدامى القادة من أعضاء المكتب السياسي ظلوا شوكة في الحلق. وسعى علي ناصر إلى التخلص منهم، فدعا إلى مؤتمر استثنائي للحزب بعد شهرين، وعمل بدهاء على أن تأتي انتخابات المندوبين للمؤتمر من أنصاره. وعندما انعقد المؤتمر قال لأعضاء المكتب السياسي إن نتائج انتخابات المندوبين عبرت عن رأي القاعدة وكشفت عن تراجع الثقة فيهم، وأن الجماهير لم تعد تطمئن لهم. وطلب الكلمة عبد العزيز عبد الولي الذي عرف بمثاليته وطيبته وسذاجته فقال: «سيادة الأمين العام أنا شخصيًّا أتخلى عن عضوية المكتب السياسي، وأقترح أن نعطي نحن القدامى الفرصة لوجوه جديدة». أقر الآخرون الاقتراح وتشكل مكتب جديد ليس به من القدامى سوى علي ناصر وعلي عنتر.

لم تشفع مبادرة عبد العزيز عبد الولي له. فلدى تفتيش مسافر إلى دمشق عثر على رسالة منه إلى صديقه السفير العدني في سوريا، قال فيها إن بين أعضاء المكتب السياسي

الجديد من تعتير البصقة في وجوههم خسارة. وقرر المكتب السياسي على الفور عزله من منصبه الوزاري وإبعاده إلى برلين الشرقية ليتابع دراساته الأكاديمية العليا، حيث مات مسممًا في ١٩٨٣.

ولم تمضِ سبعة شهور حتى حل دور على سالم البيض، فقد وجهت إليه تهمة انتهاك قانون الأسرة الذي يجرم تعدد الزوجات. وأُبعد عن اللجنة المركزية والحكومة التي كان يشغل فيها منصب نائب لرئيس الوزراء.

وفي الشهر التالي، انتهازًا لفرصة وجود علي عنتر في الهند، أُعدم محمد صالح مطيع دون محاكمة. وثار علي عنتر عند عودته وبدأ يهاجم محاولة انفراد علي ناصر السلطة، وتحدث أمام عدد من الضباط عن الحاجة إلى إجراء حركة تصحيحية تعيد إلى القيادة الجماعية معناها.

بلغت الأنباء علي ناصر فعمل على إبعاد علي عنتر عن الجيش، فتم تعيينه (على طريقة الرفس إلى أعلى) نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرًا لشئون الحكم المحلي. وأسند الدفاع لصالح مصلح قاسم الذي عرف عنبه الانضباط الشديد ورفض حل الخلافات خارج الأطر الشرعية والحرص على القيام بدور حمامة سلام بين التيارات والأطراف المتنازعة.

ثم وقع ما دفع بالأمور إلى المواجهة؛ إذ قبض على حسين قماطة القائد العام السابق لقوات الميليشيا وعضو اللجنة المركزية للحزب، ووجهت إليه عدة تهم لم تنشر، وقبل أن يحاكم قُتل داخل سجنه. وشعر خصوم علي ناصر بالخطر فبدءوا يتجمعون ويتصلون بعبد الفتاح إسماعيل في موسكو. وردَّ علي ناصر بمحاولة استمالة علي عنتر، فعمل على تعيينه نائبًا لرئيس الدولة، كما عين علي سالم البيض وزيرًا للإدارة المحلية دون اعتبار لقانون الأسرة.

وتكوَّنت تحالفات وتوازنات جديدة استخدمت فيها الانتماءات القبلية والمناطقية، بل والأغطية الأيديولوجية؛ إذ وجهت إلى علي ناصر نفس الاتهامات التي سبق توجيهها لسالمين بشأن سياسة المهادنة للأنظمة الخليجية. وكانت هناك مؤشرات تشجع هذه الاتهامات، إذ ظهرت في الأسواق سلع بتمويل سعودي على رأسها التفاح الأمريكي وسفن أب (تمامًا كما حدث في مصر في بداية الانفتاح) وأصدر علي ناصر أمرًا بمنع تفتيش الحقائب القادمة من الشمال، فانهمرت الأجهزة الكهربائية والتليفزيونات بل وحقائب النقود. وفي خريف ١٩٨٣ هرع علي عنتر إلى موسكو لينتقد نفسه أمام عبد الفتاح إسماعيل وتبعه صالح مصلح في العام التالي. وأراد علي ناصر أن يقطع عليهما الطريق

فطار هو أيضًا إلى موسكو وعرض على عبد الفتاح إسماعيل العودة، في محاولة لإقامة تحالف معه.

أسفرت هذه الاتصالات عن قرار للمكتب السياسي في فبراير ١٩٨٥ بعودة عبد الفتاح إسماعيل إلى منصب متواضع في سكرتارية اللجنة المركزية وبضم أعضاء جدد للمكتب السياسي يجعل لخصوم الرئيس علي ناصر أغلبية. وانتخب حيدر أبو بكر العطاس (من أنصار عبد الفتاح) لرئاسة الوزارة بدلًا من علي ناصر الذي شغلها لمدة ١٤ سنة متواصلة وأعلنت استقالته كي يتفرغ لقيادة الحزب والدولة.

لم تنجح هذه الترتيبات في إزالة التوتر السائد بين الغرماء. وعقدت جلسات حوار مطولة، شارك في بعضها جورج حبش ونايف حواتمة، استعدادًا لانتخابات المؤتمر العام للحزب، أقرت اقتراحًا من علي ناصر بمركزة عملية الانتخابات ووضع ضوابط لها على الطريقة السوفييتية بالاتفاق المسبق على الأسماء وعدم السماح بسقوط أي منها حتى ولو اعترضت الغالبية.

جرت انتخابات مندوبي المؤتمر كما هو مقرر بطريقة توفيقية وصورية سمحت لطرفي الصراع بترتيب النتائج كل لصالحه. وكانت النتيجة النهائية هي تعميق الصراع بدلًا من حله أو تخفيفه. ولاح شبح المواجهة الحاسمة في الأفق، وتوافدت وقود الأحزاب الشيوعية واليسارية العربية للتوسط. وشاركت في هذه المحاولات السفارة السوفييتية التي لزمت الحياد التام بين الجانبين.

وفي ٩ يناير ١٩٨٦ اجتمع المكتب السياسي ليناقش اقتراحًا من أنصار عبد الفتاح بإسناد الدائرة التنظيمية له بحيث يصبح الشخص الثاني في الحزب ولم يتم التوصل إلى اتفاق فأرجئ الاجتماع إلى الساعة العاشرة من صباح الاثنين ١٣ يناير.

توافد أعضاء المكتب السياسي على مقر اللجنة المركزية في الموعد المحدد. وعندما وصل علي سالم البيض وجد في القاعة عبد الفتاح إسماعيل وعلي عنتر وصالح مصلح وسالم صالح وعلي شايع هادي، أي جميع الأعضاء المناوئين للرئيس علي ناصر (عدا حيدر العطاس الذي كان في الهند)، دون أحد من أنصاره، ولم ينتبه الحضور إلى مغزى الأمر لأنهم شاهدوا لدى وصولهم إلى ساحة المبنى سيارة علي ناصر وأفراد حراسته، كما أن سكرتيرته أبلغتهم بوجوده وأنه سينضم إليهم بعد الانتهاء من اجتماع هام.

وبعد قليل دخل القاعة حسان، أحد حراس علي ناصر وهو يحمل حقيبة الأمين العام حيث وضعها على الأرض قرب المقعد المخصص له، ثم استدار ووجه مدفعه الرشاش إلى ظهر علي عنتر وأطلق عليه النار من أعلى إلى أسفل، هبط أعضاء المكتب السياسي الآخرون

على الفور تحت الطاولة بعد أن سحب كل واحد منهم مسدسه وأخذوا يطلقون النار على حسان وعلى حارس آخر كان قد دخل القاعة ليضع ترموس شاي أمام مقعد علي ناصر، وشارك في إطلاق النار على الحاضرين.

التجأ الأعضاء الأحياء وهم عبد الفتاح إسماعيل وعلي سالم البيض وسالم صالح إلى غرفة خلفية ومزقوا ستائر نافذتها ثم عقدوها على صورة حبل ودلوها إلى أحد حراس عبد الفتاح وحصلوا منه على رشاشين.

خلال ذلك تمت تصفية الجزء الأغلب من أفراد حراسات أعضاء المكتب السياسي في ساحة المبنى بشكل جماعي. وفي نفس الوقت كانت تجري مذبحة جماعية أخرى بنفس الطريقة في اجتماعات عقدت على كافة المستويات الحزبية والعسكرية وخاصة في وزارات الدفاع والداخلية وأمن الدولة بزعم بحث احتمال وقوع عدوان إسرائيلي على عدن، وتمركزت القوات الموالية لعلي ناصر في مفارق الطرق وسيطرت على العاصمة وأخذت تعتقل وتقتل غير الموالين، وقامت قطع البحرية والمدفعية بقصف منازل البارزين منهم ودكت بيت عبد الفتاح إسماعيل.

انعقدت السيطرة على عدن للقوات الموالية للرئيس علي ناصر، فشرع في المرحلة الثانية من خطته. لف أحد ذراعيه بضماد طبي ليبدو كأنه أصيب في تبادل لإطلاق النار، واستقل سيارته إلى محافظته أبين بينما أذيع في الثالثة بعد الظهر بيان باسم المكتب السياسي أعلن إحباط محاولة انقلابية استهدفت اغتيال الرئيس والانقلاب ضد الشرعية الحزبية والدستورية التي يمثلها، كما أعلن أنه قد تم تنفيذ حكم الإعدام في كل من عبد الفتاح إسماعيل، علي عنتر، علي سالم البيض، علي شايع هادي.

وفيما بعد ذكر علي سالم البيض أن عبد الفتاح إسماعيل هرب في مدرعة من مقر اللجنة المركزية واحترق داخلها عندما تعرضت للقصف. أما هو فقد استقل مدرعة أخرى وتركها بعد أن سارت به ثلاثين مترًا وظل متخفيًا في نفس المنطقة مساء الاثنين ويوم الثلاثاء حتى فجر الأربعاء يجرى الاتصالات الهاتفية برفاقه ويوجه عمليات المقاومة! فبينما انحازت أغلب القطع البحرية إلى جانب علي ناصر، انضمت المدرعات إلى خصومه، وفي مرحلة من المراحل أصبح القتال يدور بشكل رئيسي بين الدبابات التي نجحت في دخول عدن وبين القطع البحرية المرابطة في عرض البحر.

استمر القتال تسعة أيام سقط خلالها وفقًا للإحصاءات الرسمية ٤٣٣٠ قتيلًا وقدرت الخسائر المادية بـ ٣٩,٦ مليون دينار، وأسفر عن فقدان علي ناصر للسيطرة على

العاصمة. وعندما أيقن بالهزيمة فرَّ إلى صنعاء بصحبة علي صالح عباد (مقبل)، ومنها إلى إثيوبيا.

وما إن استتب الأمر لمن بقي على قيد الحياة من خصومه الأيديولوجيين بزعامة علي سالم البيض حتى أعلنوا التزامهم بنفس السياسة الخارجية التي سار عليها كل من علي ناصر وسالم ربيع من قبل. فأكد البلاغ الصحفي الصادر عن رئاسة الدولة «... حرص بلادنا على مواصلة جهودها لتعزيز علاقاتها مع جارتها السعودية على أساس مبادئ الأخوة وحسن الجوار والاحترام المتبادل وعدم التدخل ... وكذلك تعزيز علاقاتها الأخوية مع سلطنة عمان على أساس اتفاق المبادئ الموقع عليه من قبل الحكومتين ...»

٥

عاد فتحي من المركز قبل الظهر ليصحبني إلى المستشفى السلطاني بعد أن اشتدت آلام ظهري وحالت بيني وبين النوم طول الليل. تعاون، هو وجوهر على مساعدتي في الانتقال من المصعد إلى السيارة وربط حزام الأمان.

قال ونحن نخرج إلى شارع قابوس: قابلت الفندي في الصباح وكلمته في موضوع شفيقة، قال لي إن الأمر خرج من يده، عبارة غريبة. أليس كذلك؟

تجاهلت ملاحظته وقلت: وماذا ستفعل الآن؟

قال في وجوم: سألجأ إلى السلطان.

كان المستشفى في مبنى حديث رحب مكتظ بالمرضى الذين يبدو عليهم العناء وتوحي ملابسهم وقسماتهم ونظراتهم المتوجسة بأنهم قدموا من أماكن نائية. مشيت بحرص عبر قاعات تكدست بها أحدث الأجهزة وأقلنا المصعد إلى الطابق الثالث. استقبلني طبيب مالاييزي بدا ضيقًا بي ولم تتمكن من التفاهم بالإنجليزية التي يتكلمها كل منا بلهجة مختلفة، طلب مني أن أتعرى ثم فحصني في عجلة وأحالني لعمل أشعة، وعدت بها إليه فألقى عليها نظرة سريعة وكتب لي أقراص فولتارين وعدة جلسات من العلاج الطبيعي. طلبت منه أن يشرح لي حالتي فتمتم ببضع كلمات لم أفهم منها شيئًا واحتد عليَّ عندما نبهته إلى أنه أخطأ في كتابة اسمي.

صحبني فتحي إلى جناح العلاج الطبيعي وتركني ليرى أحد معارفه. جلست في ممر قصير أنتظر دوري وتسليت بقراءة صحيفة اليوم. لم يكن بها جديد: مذابح عرقية بين الهندوس والمسلمين في الهند، وبين الصرب والبوسنيين في يوغوسلافيا، وما زال

الفلسطينيون المبعدون في موقعهم على الحدود اللبنانية. وكانت هناك إشارة إلى تقرير أمام الجامعة العربية بشأن ١٢ ألف طفل فلسطيني أصيبوا بالإعاقة على يد القوات الإسرائيلية، بينهم ٦٠٠٠ طفل تقل أعمارهم عن ١٦ سنة فقدوا أطرافهم وحواسهم من جراء الرصاص المطاطي وقنابل الغاز وبعضهم أصيبوا داخل أرحام أمهاتهم.

قلبت الصفحات فاستوقفني إعلان احتل مساحة بارزة:

«دانهيل تقدم يونايتد بيت، حفلة عارمة من الرقص والموسيقى، بيبسي بالتعاون مع فندق الفلج، الساعة الثامنة والنصف مساءً ببركة السباحة، المطرب والراقص العالمي الشهير شيامك دافار، التذاكر في بيتزا هت ومركز التزلج على الجليد وأماكن أخرى».

سمعت نداءً على اسمي بلهجة أجنبية وظهرت في مدخل إحدى الغرف طبيبة هندية. كانت سمراء متوسطة القامة والعمر والجمال، ذات وجه مستدير تزينه النقطة الحمراء التقليدية في منتصف الجبهة. لكن قسماته خلت من الحيوية وأنبأتني بأن صاحبته في المكان الذي أعرفه جيدًا. وعندما تبينت جنسيتي تجلت في عينيها ومضة اهتمام سرعان ما خبت.

قادتني إلى قمرة صغيرة محاطة بالستائر ومددتني فوق وسادة من الجلد أوصلتها بأحد الأجهزة وتركتني. وسرعان ما بدأت أستمتع بانتشار الحرارة في أنحاء ظهري.

لمحت من فرجة في الستائر الحائط الملاصق لمكتبها، كانت تتوسطه صورة حديثة للسلطان ثبتت تحتها بالدبابيس عدة رسومات طفولية لأشجار وبيوت وسيارات. اقتربت مني بعد دقائق وعدلت في صمامات الجهاز، سألتها عن الرسومات المعلقة، فأشرق وجهها وقالت إنها لطفلتها، وعلمت أن الطفلة في عامها الثاني بالمدرسة الابتدائية في بومباي. تجنبت المزيد من الأسئلة كي لا أنكأ جراحًا نطقت بها عيناها.

أرادت أن تعطيني موعدا لجلسة ثانية في بداية الأسبوع القادم، فقلت لها إني سأسافر خلال أيام. نصحتني بأن أقضي الوقت من الآن وحتى سفري راقدًا فوق سطح صلب، وأن أواصل العلاج الطبيعي في أقرب وقت.

أهديتها قلمًا للحبر الجاف نقشت عليه رموز فرعونية، فأخذته في فرح الأطفال. طلبت مني أن أكتب لها عنواني في مصر. وكتبت لي عنوانها في كل من مسقط وبومباي.

صرفنا الدواء مجانًا وعدنا إلى المنزل، فبسط لي فتحي بطانية مطوية فوق السجادة وتمددت على ظهري. وضع إلى جواري عدة كتب وصحيفة اليوم، وأراد أن يعد لي غذاءً فرفضت قائلًا إني سأنتظر عودة شفيقة، أحضر لي جهاز راديو وعاد إلى عمله.

كانت الفكرة أن يبقى رأسي على نفس المستوى مع بقية ظهري، وبالتالي لم أستخدم وسادة. وبدت القراءة صعبة في هذا الوضع فأدرت الراديو. تنقلت بين المحطات إلى أن عثرت على برنامج من أغاني عبد الوهاب القديمة.

إذا كانت البيرة ومضاعفاتها من محظورات شفيقة فإن موسيقى وأغاني عبد الوهاب هي محظورات زوجها الوحيدة. فعبد الوهاب — في رأي فتحي — هو الذي خرب الموسيقى العربية وحولها إلى مسخ مقطوع النسب مستعينًا بأفضل أنغام الموسيقى الغربية، الكلاسيكية والخفيفة. أما أنا فكنت في مراهقتي قد توحدت مع بكائياته التي اشتهر بها في الأربعينيات والخمسينيات وتغنت بالشكوى من النسيان والهجران حينًا واستعذابهما حينًا آخر. وعندما تقدم بي العمر والنضج هجرتها إلى أغانيه الأولى التي تتميز بعذوبة الكلمات والألحان وبساطتهما فضلًا عن عنفوان الصوت ونقاوته. وأعطاني غياب فتحي فرصة الاستمتاع بساعة منها بدأت بأحبها إلى قلبي وهي أغاني فيلم «الوردة البيضاء».

عادت شفيقة من الإذاعة عند العصر، ناديت عليها فأطلت عليَّ برأسها المحجب. وعندما رأتني مستلقيًا على الأرض سألتني عما فعلت في المستشفى.

قلت: طلبوا مني الرقاد هكذا لمدة شهر.

بدت عليها البغتة فضحكتُ. قلت: اطمئني، سأسافر في موعدي.

٦

أعددت خمسة ريالات عمانية ضريبة المغادرة وودعت فتحي. وضعت حقيبتي في جهاز الكشف الأمني وعبرت البوابة الإلكترونية ثم استعدت حقيبة اليد وتلفت حولي بحثًا عن طريقة لنقل الحقيبة الأخرى. أغناني ضابط الجمرك عن الجهد إذ دفعها جانبًا ورفعها إلى منضدة مستطيلة ثم عكف على تفتيش محتوياتها بدقة متناهية. أبدى نفس العناية بحقيبة يدي. وأولى اهتمامًا خاصًّا لما بها من أوراق، ثم قادني إلى قمرة خشبية فأجرى يديه فوق صدري وظهري وبين فخذي.

أُفرج عني أخيرًا فسرت خلف عامل آسيوي حمل حقيبتي ووضعها فوق الميزان. قدمت بطاقتي ثم اتجهت إلى مكتب الجوازات واتخذت مكاني في طابور متعدد الجنسيات. جاء دوري سريعًا فأعطيت جوازي لضابط تصفحه في دقة ثم غادر مقعده دون أن يخاطبني واختفى.

شعرت بالأنظار تتجه ناحيتي فتشاغلت بتقليب صحيفة هندية تركها أحد المسافرين فوق مقعد. كان هناك مربع خاص بأنباء عمان تضمن تصريحًا لوزير الخارجية بأنه على استعداد لدعم أي عمل يهدف إلى إنهاء المقاطعة الاقتصادية العربية لإسرائيل. وكان هناك نبأ عن مداولات بين عمان وبريطانيا بشأن صفقة أسلحة قيمتها ٢٢٧ مليون دولار وصفتها الصحيفة بأنها دفعة هامة للصناعات العسكرية البريطانية وتنقذ وظائف ١٨٠٠ بريطاني.

وعلى صفحة كاملة نشرت الصحيفة حلقة من مذكرات الجنرال بيتر بيليبر الذي قاد القوات البريطانية خلال حرب الخليج، صدرتها بموجز للمراحل الهامة في حياته.

كان تاريخه حافلًا بحق، فقد كان دائمًا في المكان المناسب في الوقت المناسب: قناة السويس والأردن في ٥٦، جبل عمان الأخضر في ٥٩، عدن في ٦٤، ظفار من ٦٩ حتى ٧٤، السودان في ٧٧ وعندما تقاعد بعد حرب الخليج تفرغ لإدارة شركة لتوظيف الأموال. لا للآثار!

عاد ضابط الجوازات وخاطبني في تحفظ طالبًا مني أن أتبعه، علقت حقيبة يدي في كتفي وسرت خلفه في ممر هادئ مضاء بمصابيح الفلورسنت الطويلة على الجانبين. توقف أمام باب لا يحمل أية لافتة وطرقه في رفق، ثم أدار مقبضه ودفعه إلى الداخل وتنحى لي جانبًا.

كانت الغرفة صغيرة يتصدرها مكتب معدني أمامه مقعدان متقابلان وتضيئها أنوار قوية من مربع زجاجي في منتصف السقف، وكانت الجدران عارية إلا من واجهة جهاز تكييف وصورتين لسلطان البلاد، واحدة في إطار مستقل وأخرى في نتيجة حائط فاخرة، لم تكن بها خزانة الملفات أو دلالة ما على هوية شاغلها ووظيفته. كانت غرفة بلا هوية مثل غرف التحقيق أو تلك المخصصة لزيارة السجناء.

أغلق الضابط الباب خلفي وانصرف ووقفت أتطلع إلى الرجل الجالس خلف المكتب منهمكًا في تصفح جوازي. كان يرتدي دشداشة بيضاء ويغطي رأسه بمصرة من نفس اللون وعينيه بنظارة داكنة تكاد تكون سوداء. لكني عرفته من حاجبيه وشاربه الناصعي البياض.

وأشار لي بالجلوس دون أن يرفع رأسه عن الجواز، وضعت حقيبة يدي على الأرض وجلست في حرص خوفًا من آلام الظهر، لمحت مقبض خنجر بارزًا من نطاق موشى بالقصب حول خصره. وشعرت أن عينيه مسلطتان على وجهي رغم تظاهره بفحص الجواز.

ألقى بالجواز فوق سطح المكتب إلى جوار جهاز أسود صغير للاستدعاء. ورفع يده إلى نظارته فخلعها ووضعها إلى جوار الجهاز.

كانت دقات قلبي قد بدأت تتسارع منذ اللحظة التي دخلت فيها؛ إذ اجتاحتني الهواجس والتوقعات. لكنها كادت تتوقف تمامًا الآن. ودوى طنين جهاز التكييف عاليًا في أذني.

تصوروا !

اختفت الحركات الهوجاء والمارلبورو والكتب وحل محلها الخنجر والمصرة وحجر أحمر اللون في خاتم ثقيل من الذهب.

كنت عاجزًا عن الكلام وصبر عليَّ هو لحظة ثم ابتسم ابتسامة خفيفة: لم تتوقعني؟

لم أحر جوابًا فاستطرد: سمعت أنك تبحث عني.

كانت هناك غضون كثيرة حول عينيه ونظرة باردة حاسبة فيهما. استطرد عندما لزمت الصمت: أربعة وثلاثون عامًا منذ آخر لقاء بيننا؟ عمر، أليس كذلك؟ لم تتغير كثيرًا.

وجدت لساني أخيرًا: وأنت صرت الحارث بن عيشة. تراجع إلى الوراء وبسط راحتيه فوق سطح المكتب.

– الحارث أحد أجدادي. كان شيخ قبيلة. وعيشة هو اسم والدتي. لعلك لا تعرف أن البدو ...

قاطعته: أعرف. قرأت موسوعة السلطان.

انفجر في الضحك وشعرت أنه متوتر مثلي.

قلت: لكن لماذا؟

قال بنبرة تهكم خفيفة: عملية تصحيح! متطلبات مرحلة جديدة.

كان يبدو واثقًا من نفسه.

استطرد: قل لي، لماذا كنت تبحث عني؟

قلت: كنت أريد أن أعرف ما حدث لك ولـ ... وردة.

– وعرفت الآن؟ أنت قرأت يومياتها.

استجمعت نفسي وقلت: ما زالت هناك بضعة أمور غامضة.

تراجع بجسده كله إلى الوراء: آه ... مثل؟

اجتاحتني موجة غضب مفاجئة: مثل ماذا حدث لها بالضبط ولماذا تخليت عنها في الصحراء.

تأملني في إمعان ثم قال في بطء: ماذا تعتقد أنت؟

– إما أنك خفت على نفسك أو أنك ذهبت تستكشف الطريق فتهت. أنا أستبعد ذلك إذ كان من الممكن أن تخطرهما بنيتك، الاحتمال الأغلب أن الأمر كله كان مدبرًا منذ البداية.

ضاقت عيناه لكنه لم يعلق.

استطردت: متي بدأت علاقتك بالسلطة؟ عندما قبض عليك أول مرة في مطرح.

لم يجب.

واصلت دون أن أعبأ: كنت عازمًا على التخلص منها. وفي اللحظة الأخيرة ترددت. ربما أشفقت عليها أو اكتشفت أنها حامل أو كنت أكثر دهاءً، قررت أن تتركها في الصحراء للذئاب والقبائل.

قال بهدوء قاتل: أنت تتحدث عن أختي.

– أعرف أنك كنت تحبها. ربما أكثر مما يجب. ومع ذلك أو بسبب ذلك تركتها، ولا بد أن إحدى القبائل آوتها هي ودهميش إلى أن وضعت ابنتها. أسمتها وعد بدلًا من ثائرة كما كانت تنوي. لتحميها أو لتذكر القبيلة بتعهد انتزعته منهم بأن يسلموا الطفلة إلى أهل أبيها. لا أعرف طبعًا ما حدث بعد ذلك، ربما وقع لهما حادث في الصحراء أو توصلت إليهما السلطة، الأغلب أن القبيلة نفسها تخلت عنهما واحتفظت بالطفلة، ثم وفوا بوعدهم بعد قليل وسلموها لعمها الذي تكتم على الأمر كله. ما رأيك؟

– لا بأس. أكمل.

– المهم أنك قمت بدورك. وكان يمكن أن يمضي كل شيء على ما يرام لولا أن ظهرت اليوميات. عثر عليها أحد أو أراد أبناء القبيلة استغلالها لمكسب ما. كان لا بد أن تعرف ما جاء بها بشأنك.

جذب درج المكتب واستخرج الكراسة الأخيرة ذات الغلاف الأسود، رفعها في الهواء ولوح بها في وجهي: الجميع كانوا يسعون خلفها. أصحابك مثلًا وهم منقسمون كالعادة ويتسابق كل قسم لاستغلالها ضد الآخر. أصحابي أيضًا … أنت قابلت الفندي، ثم هناك الشيوخ والمطوعون. هناك أيضًا جيراننا وجيران جيراننا، تعرف لماذا؟ هل صدقت أن الرغبة في معرفة مصير وردة هي السبب؟

انحنى نحوي: أنا هو السبب.

قلت: لماذا الآن؟

سيطر على أعصابه واستعاد هدوءه.

استطردت: ألأن صديقك ابن عم السلطان سيصبح رئيسًا للوزارة؟ لا أعتقد.

كانت النظرة التي تجلت في عينيه هي التي أعانتني على الفهم.

قلت في بطء: أنت تعد لشيء أكبر من هذا.

حانت منه نظرة خاطفة إلى جهاز الاستدعاء، وتأكد لي أن للجهاز وظيفة أخرى. كما تأكدت أن السهم ملك قصده.

وفجأة أمسك بالكراسة بيديه الاثنتين وأخذ يمزقها إلى قطع صغيرة واستقرت عيوننا على القصاصات وهي تتكوم فوق سطح المكتب في خليط من اللونين الأبيض والأسود.

قال: لم يعد بوسع أحد استغلالها.

قلت: إلا إذا كانت هناك صورة منها.

تجمدت يداه فوق قطع الورق ودقق النظر إلى عيني: لا توجد معك ورقة واحدة منها. التفتيش كان كاملًا. كما أنك لم تقترب من أي جهاز للتصوير من لحظة وصولك إلى السلطنة.

مال على المكتب وهو يتأملني متفحصًا: أين؟

– مع وعد.

ثار فجأة: القحبة.

قلت: هي لا تريد غير شيء واحد.

– ما هو؟

– أن تدخل الجامعة. هنا أو في الخارج.

– وأنت؟

– زوجة ابن عمي.

– ما لها؟

– يريدون إنهاء عقدها، لا بد أنك تعرف. لا تريد أكثر من سنتين أخريين حتى ينتهي زوجها من عمله.

أخذ يدق بإصبعه على سطح المكتب دون أن يرفع عينيه عن وجهي: سنتان إذن. ولا كلمة منك.

أطرقت برأسي.

سنتان وحسب، ثم نرى.

تطلعت إلى جواز سفري فاتجه إليه ببصره وتأمله برهة ثم مدَّ يده فالتقطه وقدمه إليَّ. تناولت الجواز وجذبت حقيبتي ونهضت واقفًا.

ثم استدرت وغادرت الغرفة.

تذييل

في مطلع عام ١٩٩٠ أعلن علي سالم البيض باسم قيادة جمهورية اليمن الجنوبي رد الاعتبار لسالم ربيع (سالمين). وفي ٢٢ مايو ١٩٩٠ توحد اليمنان وصار علي سالم البيض نائبًا للرئيس إلى جوار رئاسته للحزب الاشتراكي اليمني. وبعد سلسلة من الاغتيالات لقادة الحزب اتهم فيها عناصر من الشمال، اعتصم علي سالم البيض بمقره في عدن ورفض الذهاب إلى صنعاء. وتطورت الأمور إلى اشتباكات مسلحة بين الجانبين في ٢٧ أبريل ١٩٩٤ تحولت إلى حرب حقيقية. وأعلنت عدن في ٢١ مايو ٩٤ إعادة تشكيل جمهورية اليمن الديموقراطي. استمرت الحرب شهرين وانتهت بانتصار الشمال، وقُدر عدد الضحايا بعشرة آلاف قتيل، كما قُدرت الخسائر بـ ١١ مليار دولار. والتجأ البيض إلى سلطنة عمان وما زال بها حتى الآن. أما علي ناصر محمد فيقيم في دمشق، وتولى علي صالح عباد (مقبل) رئاسة الحزب الاشتراكي اليمني. وفي عام ١٩٩٩ نسبت الكاتبة الفرنسية m. tabachnik في كتابها Les Circles de L’enfer Flammarion إلى أسامة بن لادن السعودي من أصل يمني، أنه اعترف بمسئوليته عن اغتيال ١٥٨ من كوادر الحزب الاشتراكي اليمني في عدن بين عامي ٩٠ و٩٤.

مايو ٢٠٠٠

شكر واجب

للأصدقاء العُمانيين الذين فتحوا لي قلوبهم قبل بيوتهم وأتاحوا لي قبسًا من حضارتهم العريقة.

ولمن لم يبخلوا بمعلوماتهم:

مارك بلاس mark pellas ورفاقه الفرنسيين الذين ناصروا قضايا الشعوب العربية وحافظوا على تراث نضالها.

جار الله عمر، عضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني.

حيدر إبراهيم، مدير مركز الدراسات السودانية بالقاهرة.

هانيا سرور، التي أتاحت لي فرصة مشاهدة فيلمها «دقت ساعة التحرير».

فواز طرابلسي، الذي وضع مقالاته ومسودات كتبه رهن تصرفي.

أمين رضوان، علي محسن، حسين موسى، صلاح زكي مراد، حسناء مكداشي، إبراهيم فرغلي، فريال غزول، وليد قزحية، نبيل درويش.

ولمن لم يبخلوا بالعون:

محيي الدين اللباد، صلاح حزين، أحمد القصير، Ann Harlow، وائل عبد الفتاح.

وكالعادة كان لملاحظات ليلى عويس ونادية محمد الجندي على المخطوطة الفضل في اكتشاف التناقضات وإجراء الصقل الضروري.

الشكر أيضًا لأسرة دار المستقبل العربي بالقاهرة، ولعبد المنعم سعودي الذي راجع الأخطاء اللغوية وبوأ الهمزة عرشها الصحيح!

أهم المصادر

- حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد السابع، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٠.
- وثائق الجبهة الشعبية الديموقراطية العمانية.
- من فنون عمان التقليدية، وزارة الإعلام، سلطنة عمان، ١٩٩٠.
- مجلة نوفيل أوبزرفاتور ١٩٧٥، ١٩٩٥.
- الرمال العربية، ويلفرد تيسجر، ترجمة إبراهيم مرعي، موتيف إيت، أبوظبي، ١٩٩٢.
- الأعمال الكاملة، أرنسنو جيفارا، دار الفارابي، ودار دمشق، ١٩٨٢.
- كنت طبيبة في اليمن، كلود دي فايان، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٥.
- مناضل من عمان، حسين درويش، ١٩٩٠.
- البلاد السعيدة، برترام توماس، عمان، ١٩٨٤.
- صورة الفتى بالأحمر، فواز طرابلسي، رياض الريس، ١٩٩٧.
- وعود عدن، فواز طرابلسي، رياض الريس، يناير ٢٠٠٠.
- الصراع على الخليج العربي، عبد الرحمن النعيمي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٤.
- حرب الشعب في عمان، علي فياض، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٥.
- الحزب الشيوعي السوداني وانقلاب ٥ مايو، محمد سعيد القدال، الخرطوم، ١٩٨٦.

- الصراع في عدن، شاكر الجوهري، مكتبة مدبولي، ١٩٩٢.
- الصبح الدامي في عدن، حميدة نعنع، دار المستقبل العربي بالقاهرة، ١٩٩٨.
- الواقع التاريخي والحضاري لسلطنة عمان، خالد يحيى العربي، ١٩٨٥.
- دولارات الإرهاب، سعيد اللاوندي، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٠.

- The Secret War. D. Arkless. 1988.
- Nomadas in the Sultanate of Oman. Jorg Janzen. Westview Press. 1986.
- Ernesto che Guevara, I. Lavretsky. progress. Moscow. 1985.
- Looking For trouble. General Peter de la Billiere, Harper Collins, 94.
- Water and Power. Miriam R. Lowi. Cambridge university 1995.
- Oman & its Renaissance. Donald Hawley. Stacey International. London 1984.
- The Journal of Oman Studies. V.6. part 2, Ministry of National Heritage 1983.

هنـــداوي